القبسات السنية
من
شرح العقيدة الطحاوية

اقتبسها وصاغها
الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

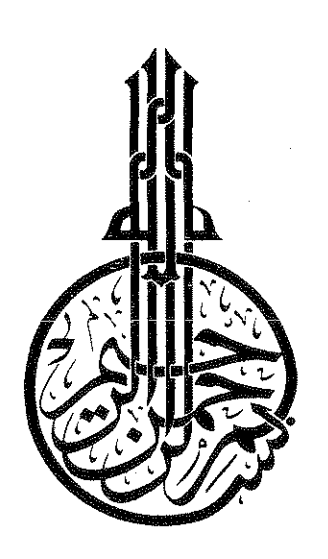
دار القلم
دمشق

القبسات السنية
من
شرح العقيدة الطحاوية

الطّبعَة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تُطلب جميع كتبنا من :
دَار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق
دَار البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١


بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونتوبُ إليه ونستغفرُه، ونعوذُ باللّهِ من شرورِ أنفسنا، وسيئات أعمالنا. منْ يهدِ اللّهُ فلا مضلَّ له، ومنْ يضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ العقيدةَ هي الأساسُ في هذا الدين، وهي نقطةُ البدءِ التي لا بدَّ أنْ يبدأَ بها المسلم، وعليها تُبنى جميعُ علوم الإسلام، فمن صحَّتْ عقيدتُه صحَّ عملُه، وكان مقبولاً عند الله، ومن فسدتْ عقيدتُه فسدَ عملُه، وكان هالكاً خاسراً عند الله...

وقد اهتمَّ علماءُ المسلمين بهذا الأساسِ الإيماني اهتماماً كبيراً، وكتبوا الرسائلَ النافعةَ في العقيدةِ والإيمان.

مِن أسبقِها: رسالةُ «الفقه الأكبر» المنسوبةُ للإمامِ أَبي حنيفة النعمان رضي الله عنه (١٥٠هـ) وكتاب «الإيمان» لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ). ورسالةُ «اعتقاد أهل السنة والجماعة» للإمام أبي جعفر الطحاوي (٣٢١هـ).

وكتبَ اللّهُ لرسالةِ الطحاويِّ القبولَ والرواجَ والانتشار، وهي معروفةٌ باسم «العقيدة الطحاوية».

وقالَ الطحاويُّ في مقدمة رسالته: «هذا ذكرُ بيانِ عقيدةِ أهل السنةِ والجماعة، على مذهبِ فقهاءِ الملة أَبي حنيفة النعمانِ بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، رضوانُ اللّهِ عليهم أَجمعين، وما يعتقدون من أُصولِ الدين، ويَدينون به ربَّ العالمين».

وهي رسالةٌ صغيرةٌ لطيفة، كتبَها على مذهبِ السلفِ الصالح في العقيدة، وصاغَها بأسلوبٍ سهلٍ ميسَّرٍ مشرق.

وأقبلَ عليها العلماءُ يشرحونَها، ويفصِّلون القولَ في موضوعاتِها ومسائلها. وكُتبتْ عليها مجموعةٌ من الشروح.

ومن أشهرِ وأجودِ شروحِها شرحُ الإمام صدرِ الدين أبي الحسن علي بن علي بن محمد، المعروفِ بابن أبي العزّ الحنفي. المتوفى عام (٧٩٢هـ).

وكانَ الإمامُ ابنُ أبي العزِّ الحنفي على منهجِ السلفِ الصالح في العقيدة، متابعاً للإمامِ ابنِ تيمية، وتلميذاً لأشهرِ تلاميذِ ابن تيمية: الإمامِ ابن القيم، والإمامِ ابن كثير.

وقدَّمَ الإمامُ الحنفيُّ في شرحه مذهبَ السلفِ الصالح في العقيدة، واستدلَّ له بالآياتِ القرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ الصحيحة.

وكَتَبَ اللّهُ لشرحِه الرواجَ والذيوعَ والانتشارَ بين أهلِ العلم، كما كَتَبَ ذلك لأصْلِه من قبل، وهو رسالةُ الإمامِ الطحاوي. فأقبلوا على ذلك الشرحِ القيمِ المفيد، دارسين ومحللين.

وطُبع «شرحُ العقيدة الطحاوية» عدةَ طبعات:

١ ـ الطبعةُ الأولى: في المطبعةِ السلفية بمكة المكرمة، سنة ١٣٤٩هـ، بعنايةِ الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ، رحمه الله.

٢ ـ الطبعة الثانية: طُبعتْ في دارِ المعارف بمصر، سنة ١٣٧٣هـ، بتحقيقِ كبيرِ المحققين الشيخِ أحمد محمد شاكر، رحمه الله.

٣ ـ الطبعة الثالثة: طُبعَتْ في المكتبِ الإسلامي بدمشق، سنة ١٣٨١هـ، حققَها جماعةٌ من العلماء، وخرجَ أَحاديثَها الشيخُ محمد ناصر الدين الألباني.

٤ ـ الطبعة الرابعة: طُبعتْ بالشام سنة ١٤٠١هـ، بتحقيقِ وتخريجِ الشيخ شعيب الأرناؤوط.

٥ ـ الطبعة الخامسة: طُبعتْ في مصر سنة ١٤٠٢هـ، ونشرتْها مكتبةُ المعارف بالرياض، وحققَها الدكتورُ عبد الرحمن عميرة.

٦ ـ الطبعة السادسة: طُبعت في بيروت سنة ١٤٠٥هـ، ونشرتُها دارُ البيان، وحققَها الشيخُ بشير محمد عيون.

٧ ـ الطبعة السابعة: طُبعتْ في مؤسسةِ الرسالة ببيروت، سنة ١٤٠٨هـ وفق ١٩٨٨م. وحققَها وعلقَ عليها وخرجَ أَحاديثَها وقدمَ لها الشيخُ شعيب الأرناؤوط، والدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.

والطبعةُ السابعةُ هي أَجودُ طبعاتِ هذا الشرح القيم، لأنَّ الشيخَ شعيب الأرناؤوط رجعَ إِلى أَربعِ نسخ خطية، وضبطَ النصَّ منها تماماً. وخرجَ الأحاديثَ كلَّها تخريجاً دقيقاً مستوفى، وأحالَ على مواطنِ كلِّ حديثٍ من كتبِ الحديثِ والسنن والآثار، وحكمَ على كلِّ حديثٍ صحةً أَو حسناً أَو ضعفاً، كما أَحال على المصادرِ التي أخذَ منها الشيخُ الحنفي، أو المراجعِ التي فيها تفصيلٌ للمسألة التي يتكلم عنها.

واستدركَ على الشيخ الشارح أحياناً، وعلَّقَ على كلامه، وبيَّن الصوابَ في المسألة، وعلَّقَ أحياناً على بعضِ المسائل تعليقاً موجزاً يوضحُ المعنى، وترجمَ للأعلام المذكورين في الشرح، ووضَعَ عناوينَ جانبية على هوامشِ الصفحات، تُسهلُ التعاملَ مع الشرح، وصَنعَ فهارسَ للآياتِ والأحاديث والأشعارِ والفرقِ والأعلامِ والكتب والبلدان.

وقدَّمَ للشرح بمقدمةٍ في مائةٍ وعشرين صفحة، تحدثَ فيها عن مزايا شرحِ العقيدة الطحاوية، وترجمَ للإمامِ الطحاوي، وللإمام علي ابن أبي العز الحنفي، ثم عَرَّفَ بشروحِ العقيدة الطحاوية السابقة، وبالطبعاتِ السابقة لشرح ابن أبي العز الحنفي، ووَصَفَ النسخَ الخطيةَ الأربعة التي اعتمدَ عليها في التحقيق، وذكَرَ مزايا هذه الطبعة. وأخرجَ الشرحَ مضبوطاً متْقَناً في أكثرَ من ثمانمائة صفحة!

ولهذا كانتْ هذه الطبعةُ هي أفضلَ وأجودَ طبعات شرحِ العقيدةِ الطحاوية، لما تميزتْ به من هذه المزايا.

وقد اختصرَ بعضُ أهلِ العلم في هذا العصر شرحَ العقيدةِ الطحاوية، ومن أشهرِ المختصرات:

١ ـ تهذيبُ شرح العقيدة الطحاوية لعبدِ المنعم صالح العلي، الشهير بمحمد أحمد الراشد، صاحبِ المنطلق والعوائق، وتهذيبِ مدارج السالكين.

٢ ـ تهذيبُ شرح العقيدة الطحاوية لعبد المنعم مصطفى أبو حليمة.

٣ ـ المنحةُ الإلهية في تهذيب شرحِ العقيدة الطحاوية لعبد الآخر حماد الغنيمي، تقديم الشيخ عبد الله الجبرين.

ورغمَ هذه المختصراتِ الثلاثةِ فإنني رأيتُ الحاجةَ ما زالتْ قائمةً لتقديم ما في ذلك الشرحِ القيم من خلاصةٍ نافعة، للقراء الكرام، فالعلماءُ الثلاثةُ الذين قاموا بالمختصراتِ الثلاثة، شابَ اختصاراتِهم بعضُ المآخذ، ولم يستفيدوا من الضبطِ الجيدِ، والتخريجِ الدقيق، والتعليق المفيد الذي قامَ به الشيخُ المحققُ شعيب الأرناؤوط، في طبعتِه لشرحِ العقيدة الطحاوية، وهي الطبعةُ السابعةُ التي أشرنا إليها.

لذلك قمتُ بهذه «القبساتِ السنية من شرح العقيدة الطحاوية» اقتبستُ فيها ما رأيتُه نافعاً ضرورياً من شرحِ الإمامِ الحنفي، وهو كثير، ونحيتُ جانباً ما رأيتُه غيرَ ضروريٍّ لنا من نقاشاتِ الإمامِ الحنفي لأصحابِ الفرق

المختلفة، كالمعتزلةِ والجبرية والجهمية، والمعطِّلةِ والمشبهة والقدرية، والشيعة والخوارج.

لقد كانَ الإمامُ الحنفيُّ يُطيلُ النفَسَ أَحياناً في نقاشِ هؤلاء، ويقدمُ كلاماً فلسفياً، ومباحثَ كلاميةً نظرية معقَّدة، لا داعي لها، ولا يحتاجُها المسلمُ المعاصر.

كما أنَّ الإمامَ الحنفيَّ كان يقعُ أحياناً في أوهام وأخطاء، وهي قليلة، لكنها موجودة، فلم أُتابعه فيها، ولم أَنقلْ كلامَه حولَها، كالقولِ بفناء النار، والقولِ بالقِدَمِ «النوعيّ الخَلْقِيّ» للعالَم، ولا يُضيره وقوعُه في هذه الأخطاء القليلة، فهو غيرُ معصوم، وكفى المرءَ نُبلاً أنْ تُعَدَّ معايبه، ويجبُ أنْ نردَّ خطأَه القليل مع الأدبِ معه، وعدمِ اتهامه في علمِه ودينِه وعقيدتِه.

وكنتُ أعتمدُ الأحاديثَ الصحيحةَ التي وردت في الشرح، والتي حققها الشيخُ شعيبُ الأرناؤوط بدقة، وأحالَ على كلِّ مواضعها، لكنني لم أنقلْ تلكَ الإحالاتِ كلَّها، فما كانَ منها في البخاري ومسلم وغيرهما، كنت أَكتفي بنقْلِ الإحالةِ على البخاري ومسلم، وما كانَ في غيرهما، كنتُ أنقلُ الإحالةَ على اثنين أو ثلاثةٍ من كتب السنن كأبي داود والترمذيِّ والنسائيِّ وابن ماجة وأحمد، وما حَكَمَ عليه الشيخُ الأرناؤوط بالضعفِ كنتُ أُنَحّيه جانباً، ولا أُوردُه في هذه القبسات.

وأنا في تخريجِ الأحاديثِ الواردةِ في هذه «القبسات» وترقيمها، وذكْرِ مصادرها والإحالةِ عليها ناقلٌ فقط، نقلتُ تخريجَ وإحالاتِ الشيخ شعيب الأرناؤوط، ولم أُضِفْ عليها شيئاً من عندي، وأَنا مَدينٌ له في ذلك، جزاهُ اللّهُ عن العلم وأهلِه خيرَ الجزاء.

وكنتُ أَحياناً أقدمُ بعضَ الأفكارِ الواردةِ في شرح الإمامِ الحنفي على بعض، وأُقدمُ بعضَ الآياتِ أَو الأحاديث الصحيحة على بعض، وفقَ ما أَراه هو الأنسبَ في الترتيب.

وبما أَنني كنتُ أُنَحّي جانباً بعضَ مباحث ونقاشات الإمام الحنفي، وأُلغي بعضَ الفقراتِ والجمل التي أَوردها، وأُقدمُ بعضَ أفكاره؛ فقد دعت الحاجةُ إلى أَنْ أُعيدَ صياغةَ الكلامِ من جديد، بأسلوبي وعباراتي، وأُضَمِّنُ هذه الصياغةَ أفكارَ وآراءَ الإمامِ الحنفي.

وإنني أعترفُ أنَّ الأفكارَ الموجودةَ في هذه «القبسات» كلَّها من التي أَوردها الإمامُ الحنفيُّ في الشرح، لم أُضِفْ عليها شيئاً مما عندي من أَفكارِ حول المسائلِ المطروحة، وأَعترفُ أَنَّ الصياغةَ في غالبها منّي، فالأسلوبُ والعباراتُ مني، حيث عبرتُ عن تلك الأفكارِ والمسائلِ بأسلوبي وكلامي!

وقد تابعْتُ الإمامَ الحنفيَّ في إيرادِ فقراتِ رسالةِ الإمام الطحاوي، ثم إيرادِ شرحها بعد ذلك، ورقمتُ عباراتِ وفقراتِ كلامِ الإمام الطحاوي بأرقام متسلسلة، وصلَتْ إلى ثلاثٍ وثمانين عبارة أو فقرة، ووضعْتُ عنواناً لكلِّ فقرة أو عبارة، وكنتُ أَضعُ أحياناً عناوينَ أُخرى، عندما يَطولُ الشرح والكلام، من بابِ التسهيل على القارئ.

وإنني مَدينٌ للشيخِ شعيب الأرناؤوط والدكتور عبد الله التركي في ما خَدَما به شرحَ الإمامِ الحنفيِّ لرسالةِ الطحاوي، حيث كان اعتمادي كاملاً على الطبعة السابعة التي أَخرجاها. اعتمدتُ على النصِّ الذي ضبطاه من النُسَخِ الخَطِّيَّةِ والمطبوعة، واعتمدتُ على الإحالاتِ التي وَضَعاها في الهوامش، والاستدراكاتِ على كلام الحنفي، واعتمدتُ على جهدهما في تخريجِ الأَحاديث والحكم عليها وترقيمها، وذكْرِ الكتبِ التي أَخرجَتْها.

وأَعترفُ أَنني في هذا العمل ما أَنا إلاّ «مقتبس» لما رأيتُه مناسباً من كلامِ الإمام الطحاوي، ومقتبسٌ لما رأيتُه ضرورياً من تحقيقاتِ وتعليقاتِ وتخريجاتِ وإحالاتِ الشيخ شعيب الأرناؤوط والدكتور عبد الله التركي.

وجُهدي هو في دقةِ القراءةِ للنص، وحسْنِ الاستيعابِ له، ودقةِ الاقتباس والانتقاءِ منه، وحسنِ اختيارِ لما أَراه مناسباً، وإعادةِ صياغةٍ لما اخترتُه، وحسْنِ عرضٍ لما ذكرتُه، واختيارِ عناوينَ لما أوردْتُه.

وما أَنا إلاّ مجتهدٌ في ما اقتبستُ واخترت، وصغْتُ وأوردت، ومجتهدٌ فيما عدلْتُ عنه وتجاوزْتُه ونحيَّتُه.

وهدفي من هذا الاقتباس والصياغة خدمةُ المسلم المعاصر، وتقديمُ خلاصةٍ قيّمةٍ نافعة في الإيمانِ والعقيدة، ووضْعُ الزبدةِ المفيدةِ لكلام الإمامِ الحنفي في شرحِه اللطيفِ القيم.

فإنْ أحسنتُ فيما اقتبستُ وسجلتُ فهذا من الله، فله الحمدُ والشكر، وإنْ أخطأتُ في ذلك فهذا من نفسي المخطئة، وأستغفرُ الله، والأصلُ موجودٌ بين أيدي القراء.

وإلى الله وحده أَتوجَّهُ بهذا العمل، طالباً منه حسنَ القبول، وحسنَ الأجر والثواب، سائلاً أنْ ينفعَ به، إنه خيرُ مسؤول.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخميس ٢٩/٦/١٤١٨هـ
٣٠/١٠/١٩٩٧م

صلاح عبد الفتاح الخالدي

ترجمة الإمام الطحاوي

هو الإمامُ: أَبو جعفر: أحمدُ بنُ محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأَزْديُّ الحَجْريُّ المصريّ الطَّحَاوي.

و«الطَّحاوي» منسوبٌ إلى قرية «طَحَا» الواقعةِ في الصعيد في جنوبِ مصر.

وُلدَ الإمامُ الطحاويُّ سنة (٢٣٩هـ)، وتوفي سنة (٣٢١هـ)، وعاش (٦٣) سنة.

نشأَ الطحاويُّ في بيتِ علم وفضل، فأَبوه كان من أهلِ العلم، وأُمه معدودةٌ في أصحابِ الشافعي، وخالُه هو الإمامُ المُزَنِيُّ أَفقهُ أصحابِ الشافعي.

اتَّبعَ المذهبَ الشافعيَّ في الفقه حتى العشرين من عمره، ثم تحوَّلَ بعد ذلك إلى المذهبِ الحنفي، وصارَ إماماً فيه.

وكان الإمامُ الطحاويُّ من أَصحابِ الاجتهادِ في الفقه الحنفي، ولم يكن مجردَ مقلِّدٍ للإمامِ أَبي حنيفة.

قال ابنُه عليّ: سمعتُ أَبي يقول ذاكراً فضْلَ أَبي عبيد بن حَرْبَوَيْهِ وفقْهَه. فقال عنه: كان أَبو عبيد يذاكرني بالمسائل. فأجبتُهُ يوماً في مسألة.

فقالَ لي: ما هذا قولُ أَبي حنيفة!

فقلتُ له: أَيها القاضي: أَوَ كُلُّ ما قالَه أَبو حنيفة أَقولُ به؟

فقال: ما ظننتُكَ إلاّ مقلِّداً!

فقلتُ له: وهل يقلِّدُ إلاّ عصبي؟

فقال لي: عصبيّ أو غبيّ!!

وكتبَ الإمامُ الطحاوي مصنفاتٍ قيمةً نافعة، في العقيدةِ والتفسير والحديث والفقه، وكتبَ اللّهُ لها الرواجَ والانتشار.

من أهمها: شرحُ معاني الآثار، وشرحُ مشكل الآثار، ومختصرُ الطحاوي في الفقهِ الحنفي، وسننُ الشافعي، والشروطُ الصغير، والعقيدةُ الطَّحاوية. وكلُّ هذه المصنفاتِ مطبوعةٌ متداوَلَة.

وقد اشتهرَ الإمامُ الطحاويُّ بالنبوغِ والفطنة، والذكاءِ والبراعة، والتبحرِ في مسائلِ الفقهِ والقضاء والشهادة.

واختارَه قاضي مصر «محمدُ بن عَبْدَةَ بنِ حَرْبِ البصريُّ» ليكون كاتبَه في القضاء، وبلغَتْ ثقتُه به أن استخلفه، وجعَلَه نائباً له في قضاءِ مصر.

وكان من نظامِ القضاءِ في ذلك العهد منصبُ «الشهادةِ أَمامَ القاضي»، وذلك باختيارِ شهودٍ دائمين أَمامَ القاضي، ولا يكون في هذا المنصبِ إلاّ الذين اشتهروا بالعدالةِ والنزاهة، والعلمِ والفضل، والصلاح والتقوى.

ويكونُ اختيارُ أَحدِهم لهذا المنصب شهادةَ تزكيةٍ له، وكانَ الصالحون يتطلَّعون لهذا المنصب، ليحصلوا على هذه الشهادة، وهو منصبٌ تشريفيٌّ لا ينالُه إلاّ القليل من العلماءِ الفضلاء.

وتولّى الإمامُ الطحاويُّ هذا المنصبَ مدةً طويلة، لما عرفَه له العلماءُ والقضاةُ من العلم والفضل والصلاح والتقوى.

وكان الإمامُ الطحاويُّ عابداً زاهداً، متقلِّلاً من الدنيا، وثيقَ الصلةِ بالله، مقبلاً على العلمِ والتعليم، والعبادةِ والنوافل، كما كانَ حَسَنَ الأخلاق، نقيَّ السريرة، واسعَ الصدر، حليماً عفوّاً، متسامحاً رضياً.

كذلك كان عزيزاً كريماً، جريئاً في الحق، يأمُرُ بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويجهرُ بالحق، ويقفُ المواقفَ العظيمة.

وتوفيَ الإمامُ الطحاويُّ ليلةَ الخميس، الأولِ من ذي القعدة، سنةَ ثلاثمائة وإحدى وعشرين، رحمه الله رحمة واسعة.

وأَصدرَ الدكتورُ عبد الله نذير أحمد ترجمةً حافلةً لحياةِ الإمام الطحاوي: «الإمام أبو جعفر الطحاوي: الإمام المحدث الفقيه» ونشرتها دارُ القلم بدمشق، في الحلقة (٣٦) من سلسلة «أعلام المسلمين» النافعة القيمة، وصدرت عام ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

ترجمة الإمام ابن أبي العز الحنفي

شارحُ العقيدةِ الطحاوية هو الإمامُ ابنُ أَبي العز الحنفي.

وهو الإمامُ العلامة، صدرُ الدين، أبو الحسن، عليُّ بنُ عليٍّ بنِ محمد بن محمد بن أبي العز صالح، الحنفي الدمشقي الصالحي المعروفُ بابنِ أبي العزِّ الحنفي.

وُلدَ هذا الإمام في دمشق، في الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة، سنة سبعمائة وإحدى وثلاثين للهجرة.

ونشأَ في أسرةٍ لها نباهةٌ وذكر في العلم والفضل، وكانَ رجالُها العلماءُ يتزعَّمون المذهبَ الحنفيَّ في دمشق. فأَبوه القاضي علاءُ الدين عليّ عالم. وجدُّه شمسُ الدين محمد قاضي القضاة. وأَبو جده شرفُ الدين محمد بن أبي العز معروفٌ بالعلم والفضل.

وكانتْ أفكارُ الإمامِ ابن تيمية منتشرةً في الشام في هذه الفترة التي عاشَ فيها ابنُ أبي العز شارحُ الطحاوية، وتلقَّفَها من تلاميذِ ابن تيمية نفسه، مثلُ الإمامِ ابن القيم والإمامِ ابن كثير اللَّذَيْن تتلمذَ عليهما الشارح.

وكان ابنُ أَبي العز حنفيَّ المذهب في الفقه، وهو على منهجِ ابنِ تيمية وابن القيم في العقيدة.

ومن المناصبِ العلمية التي شغلَها ابنُ أبي العز: التدريسُ بالمدرسة القيمازِيَّة الحنفية، وعمْرُه سبعةَ عشر عاماً. ثم التدريسُ بالمدرسةِ الرُكْنية الحنفية. ثم التدريسُ بالمدرسة العِزِّيَّة البَرّانية. ثم التدريسُ بالمدرسةِ الجوهرية الحنفية.

وتولّى الخطابةَ في مسجد الأَفْرم بدمشق. وعملَ فترةً في مدينة «حسبان» قاعدةِ منطقة البلقاء زمنَ المماليك، حيث كان خطيباً في مساجدها، وهي في محافظةِ مادبا في الأردن حالياً.

ووليَ قضاءَ الحنفيةِ في دمشق فترة.

ومن مصنفاته المطبوعة: شرحُ العقيدة الطحاوية والاتّباع.

وامتُحنَ الإمامُ ابنُ أبي العز بسببِ اتِّباعه ومتابعتِه لابنِ تيمية وابن القيم، فأَهاجَ المتعصبونَ السلطانَ عليه، وجرَّدَه سلطانُ دمشق من جميع وظائفه في التدريس والخطابة والقضاء، وحُبسَ مدةَ أربعةِ أشهر، في القلعة بدمشق، وهي التي حُبسَ فيها ابنُ القيم وشيخُه ابنُ تيمية من قبل.

وبعدما أُخرجَ ابنُ أَبي العز من السجن بقيَ ملازماً بيته.

وفي السنةِ الأخيرةِ من حياته زالت المحنةُ عنه، وردَّ أميرُ دمشق إليه وظائفَه السابقة، من التدريس والخطابة والقضاء.

وتُوفيَ الإمامُ ابنُ أبي العز الحنفي في ذي القعدة سنةَ سبعمائة واثنتين وتسعين ودُفنَ بسفحِ جبل قاسيون بدمشق عن إِحدى وستين سنة.

رحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، مَنْ يَهدِهِ الله، فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلِل، فلا هاديَ له. وأشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله، وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

أهمية العلم بأصول الدين

أما بعد:

فإنَّ علمَ أُصولِ الدين هو أَشرفُ العلوم، لأنَّ شرفَ العلم يكون من شرفِ موضوعه، وعلْمُ أُصول الدين هو «الفقهُ الأكبر»، بالنسبةِ إلى فقْهِ الفروع والأَحكام.

ولهذا كتبَ الإمامُ أَبو حنيفة رحمهُ الله رسالةً صغيرة في أُصول الدين سمّاها «الفقهَ الأكبر».

والمسلمونَ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى هذا العلم، لأنه يبحثُ في مسائلِ وأركانِ الإيمان، ولا حياةَ ولا سعادةَ ولا طمأنينةَ للقلوب إلاّ بأنْ تعرفَ اللّهَ ربَّها، بأَسمائِه وصفاتِه وأفعاله.

العقلُ البشريُّ لا يستقلُّ بمعرفةِ الله وصفاتِه وأَفعاله، ولقد أَسعفهُ اللّهُ ورَحمه، فبعثَ له الرسل، وأَنزلَ عليهم الكتب، لتحقيقِ ذلك.

وإنَّ خلاصةَ دعوةِ الرسل هي:

- تعريفُ المؤمنين على أَسماءِ الله وصفاتِه وأَفعاله.
- وتعريفُ المؤمنين على ما يريدُه اللّهُ منهم، وما يحرمُه عليهم.
- وتعريفُ المؤمنين على جزائِهم ومصيرهم، عندما يتنعَّمون في الجنة.

ومعرفةُ اللّه لا بدَّ أنْ تُنتجَ الالتزامَ الصادقَ بشرعه، وأَعرفُ الناسِ بالله أَكثرُهم ذكراً ومحبةً له، والتزاماً بشرعه، ولهذا كان الرسلُ أعرفَ الناسِ بالله، وأَتقاهم له.

ولا روحَ ولا حياةَ للقلوب إلاّ بالحياة مع القرآن، الذي جعلَه اللّهُ روحاً ونوراً وشفاءً. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فصلت: ٤٤].

ويَجبُ على كلِّ مسلم أنْ يؤمن بكلِّ ما جاء به الرسولُ ﷺ، إيماناً عامّاً مُجملاً، أمّا الإيمانُ المفصَّلُ بكل الجزئياتِ والتفاصيلِ فهذا فرضُ كفايةٍ على أَصحابِ العلم القادرين على التفصيل، ومعلومٌ أنَّ الإيمانَ التفصيليَّ يتفاوتُ عند المؤمنين، حسبَ ما عندهم من استعدادٍ وعلمٍ وفهم.

النجاة في اتباع القرآن

وما ضلَّ مَن ضلَّ من أَصحاب الفرقِ إلاّ لتفريطهم في اتِّباع الحقِّ الذي جاءَ به الرسولُ ﷺ، وهو كتابُ الله الكريم. وكلُّ مَنْ أعرضَ عن كتاب الله فهو ضالّ. قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وقد أَخرجَ الحاكمُ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: أَجارَ اللّهُ تابعَ القرآنِ من أنْ يَضِلَّ في الدنيا، أو يَشقى في الآخرة، ثم قرأَ الآية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾(١).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢: ٣٨١.

وأَخرجَ عبدُ الرزاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مَنْ قرأَ القرآن، فاتّبعَ ما فيه، هداهُ اللّهُ من الضلالة في الدنيا، ووقاهُ يومَ القيامة الحساب، لأنَّ اللّهَ يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

وأَخرجَ الترمذيُّ والبغويُّ والدارميُّ عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ستكونُ فِتَن، والمخرجُ منها كتابُ الله، فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحكمُ ما بينكم، هو الفصْلُ ليس بالهزل، مَنْ تركه مِنْ جبّارٍ قصمهُ الله، ومَن ابتغى الهُدى في غيره أَضلَّه الله، وهو حبلُ اللّهِ المتين، وهو الذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لا تَزيغُ به الأَهواء، ولا تلتبسُ به الأَلسن، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يشبعُ منه العلماء، مَنْ قالَ به صدق، ومَن عَمل به أُجِر، ومَن حَكَم به عَدَل، ومَن دَعا إِليه هُديَ إِلى صراطٍ مستقيم..»[1].

ومعلومٌ أنَّ الإسلامَ هو الدينُ الوحيدُ المقبولُ عند الله، الذي نسخَ اللّهُ به الأَديانَ السابقةَ كلَّها.

الالتزام بفهم الصحابة والتابعين

وخَيْرُ مَنْ فَهِمَ الإسلامَ حقَّ الفهم الصحابةُ الكرام رضوانُ الله عليهم، ثم التابعون لهم بإحسان، ثم الذينَ جاءوا مِن بَعدهم، ممن التزموا منهاجَهم، واعتمدوا أُصولَهم، وساروا على طريقهم.

وهم في هذا مُقْتدون بالنبيِّ ﷺ، ومُنفِّذون لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وحصلَ بعدَ ذلك افتراقٌ عند بعضِ الفرقِ عن هذا المنهجِ الصحيح، وظهرتْ فرقٌ مختلفة، اتَّبعَ أَصحابُها أهواءَهم، وافترقوا وانحرفوا.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق: ٦٠٣٣.

وكان اللّهُ يبعثُ لهذه الأمة بين الحينِ والآخرِ، مَنْ يحفظُ لها أُصولَ دينها، ويُعيدُها إلى فَهْم سَلَفِها، وهذا تصديقٌ لما أَخرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن ثوبان رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتي، ظاهِرين على الحق، لا يضرُّهم مَنْ خَذَلَهم..»[١].

وممن قامَ بهذا الحقِّ الإمامُ أَبو جعفر: أَحمدُ بنُ محمدِ بنِ سلامةَ الأَزْدِيُّ الطّحَاويُّ، رحمه الله، حيث كتبَ رسالةً في أُصولِ الدين ومسائلِ الإيمان.

وكلّما بَعُدَ العهدُ عن الصحابة والتابعين، ظَهرت البدع، وكَثُرَ التحريف، فصارَ المؤمنون بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى مَنْ يوضِّحُ الأَدلة على مسائل الإيمان، ويَدفعُ الشُّبَهَ التي يُوردها أَصحابُ الأهواء والفرق.

ويَجبُ على كلِّ مؤمن أنْ يَتَّبعَ كلَّ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ، وأنْ يرضى بحكمِ الله ورسوله، وأنْ لا يحتكمَ إلى غيره.

أَمّا المنافقون فإنهم لا يَخضعون لحكمِ اللّهِ ورسوله، ويُريدونَ التحاكمَ إلى غيره، وإذا دُعوا إلى الله ورسوله فإنهم يَصُدّون عنه صُدوداً.

ومِن الذين يُعرضون عن ما جاءَ به الرسولُ ﷺ: المتكلمون الفلاسفة، والمتصوفون المبتدعون، والأُمراءُ السياسيون.

وكلُّ مَن احتكمَ راضياً مُختاراً إلى غيرِ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ، فهذا منافقٌ ضالّ، لأَنه يَرفضُ الحقَّ الذي جاءَ به الرسولُ ﷺ، وكلُّ ما جاءَ به عليه الصلاةُ والسلام فهو كافٍ شافٍ.

إنَّ العلمَ الصحيحَ النافعَ هو في تعلُّمِ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ، والالتزامُ به، وعدمُ مخالفته.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٤٠. ومسلم برقم: ١٩٢٠.

أقوال في ذم علم الكلام

إنّ الالتزامَ بالكتابِ والسنة في تعلُّم أُصول الدين، وعدمِ الخروجِ عنهما إلى طرقِ علْمِ الكلام، هو منهجُ السابقين الأوَّلين، وطريقةُ التابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. وفي مقدمةِ هؤلاء الأئمةُ الأعلامُ في الفقهِ والأحكام.

قالَ الإمامُ أَبو يوسف لِبِشْرِ المَريسيِّ المتكلِّم: العلمُ بالكلامِ هو الجهل، والجهلُ بالكلام هو العلم، وإذا صارَ الرجلُ رأساً في الكلام صار زنديقاً.

وقالَ أَبو يوسف أيضاً: مَنْ طلبَ العلم بالكلامِ تزندق، ومَنْ طلبَ المالَ بالكيمياءِ أَفلس، ومَنْ طلبَ غريبَ الحديث كَذَب.

وقالَ الإمامُ الشافعي: حُكْمي في أَهل الكلام أَنْ يُضربوا بالجَريدِ والنِّعال، ويُطافَ بهم في العشائرِ والقبائل، ويُقال: هذا جزاءُ مَنْ تركَ الكتابَ والسنة، وأَقبلَ على الكلام.

وقالَ الشافعيُ أَيضاً:

كُلُّ العُلومِ سوى القُرآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلاّ الحَديثُ وَإلاّ الفِقْهُ في الدينِ

العِلْمُ ما قالَ فيهِ قالَ حَدَّثَنا ... وما سِوى ذاكَ وَسْواسُ الشَّياطينِ

ومِن فتاوى الإمام الشافعي: أَنّه لو أَوْصى أَحدُ المسلمين وصيةً لعلماءِ بلده، لا يأخذُ المتكلمون شيئاً من هذه الوصية، لأَنَّهم لا يُعَدّون من العلماء.

ولو أَوصى إنسانٌ أَن يوقِفَ مِن كُتُبه ما هو من كتبِ العلم، فقد أَفْتى السلفُ أنْ لا تشملَ كتبَ الكلام، لأَنها ليستْ من كُتُب العلم.

ولقد أَحسنَ مَنْ قال:

أَيُّها المُغْتَدِي لِتَطْلُبَ عِلْماً ... كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الأُصولِ

تَطْلُبُ الفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلاً كَيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أَصْلِ الأُصولِ

وقدْ آتى اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ فواتحَ الكَلِم وخواتِمَهُ وجوامِعَه، وجاءَ كلامُه عليه الصلاة والسلام فَصيحاً بليغاً، ومُختصراً مفيداً، حاوياً العلومَ الكثيرةَ والمعاني الرائعة.

وكانَ كلامُ مَنْ بَعدَه من الصحابةِ والتابعين ومَنْ تبعهم بإحسان، قليلَ العبارة، كثيرَ البركة. أمّا كلامُ مَنْ جاءَ بعدَهم فهو في معظمِه كثيرُ العبارة، قليلُ البركة.

وطريقةُ أُولئك السلفِ الصالحين في العلم هي الأَسلمُ والأَعلمُ والأَحكم. فقد امْتازوا بعمقِ علومِهم، وقلةِ تكلُّفِهم، وكمالِ بصائرِهم. أمّا المتأخرونَ فقد اتصفوا بالتَكَلُّف، والاشتغالِ بالأَطرافِ والفرعياتِ التي لا داعيَ لها.

الله واحد لا شريك له

١ : قالَ أَبو جعفر الطحاوي: «نَقولُ في تَوحيدِ اللّه ـ مُعْتَقِدينَ بِتَوْفيقِ اللّه ـ: إنَّ اللّهَ وَاحِدٌ لا شَريكَ لَه».

توحيدُ اللّهِ هو أولُ ما دعا إِليه الرسل، حيث كان كلُّ نبيٍّ يَطلبُ من قومِه عبادةَ الله وحدَه، وأَخبرتْ عن ذلِك آياتُ القرآن.

قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقالَ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ..﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقالَ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ..﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقالَ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ..﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقالَ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ..﴾ [الأعراف: ٨٥].

وكانتْ دعوةُ محمَّدٍ ﷺ أَنْ يؤمنَ الناس، ويَدخلوا في الإسلامِ.

وقد رَوى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَن أُقاتلَ الناس، حتى يَشهدوا أنْ لا إلهَ إلاّ الله، وأَنّ محمداً رسولُ الله»[1].

وأَولُ واجبٍ على المكلفِ في الإسلام هو أَنْ يشهدَ أن لا إلهَ إلا الله، وأنْ يعرفَ معناها ومضامينَها، ثم يتعرفَ بعد ذلك على أركانِ الإيمان وحقائقِ الإسلام.

إنَّ التوحيدَ هو أولُ ما يَدخلُ به المسلمُ في الإسلام، وهو آخرُ ما يَخرجُ به من الدنيا. فمن ماتَ على التوحيد دخلَ الجنة، بدليلِ ما رواهُ ابنُ حبّان عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَن كانَ آخرَ كلامِه لا إله إلا الله، عند الموت، دخلَ الجنةَ يوماً من الدهر، وإنْ أَصابَهُ ما أَصابه»[2].

أنواع التوحيد الثلاثة

والتوحيدُ يتضمنُ ثلاثةَ أَنواع:

الأول: توحيدُ الألوهية: ومعناه أَنْ يُفردَ المؤمنُ اللّهَ وحدَه بالعبادة.

الثاني: توحيدُ الربوبية: ومعناه أَنْ يُقِرَّ بأَنَّ اللّهَ وحده خالقُ كلِّ شيء.

الثالث: توحيدُ الأَسماء والصفات: ومعناه أَنْ يُثبتَ للّه الصفاتِ التي وصفَ بها نفسَه، وأنْ يُناديه بالأَسماءِ التي سمّى بها نفسَه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٥. ومسلم برقم: ٢٢.

(٢) أخرجه ابن حبان: ٧١٩.

ويَجبُ وصْفِ اللّهِ بما وَصفَ به نفْسَه، ولا يَجوزُ نفيُ صفةٍ عنه وصفَ بها نفسَه، والذين نَفوا بعضَ صفاتِ الله من أَهلِ الفرق خالَفوا المنهجَ الصحيح.

ويَستلزمُ هذا التوحيدُ بأنواعِه الثلاثةِ إنكارَ كلِّ ما يتعارضُ معه، ورفْضَ ما فيه تشبيهُ اللّهِ بخلْقِه، أو جَعْلُه قد حلَّ في خَلْقِه، كما يقولُ الكفارُ الذين نادوا بالحلولِ والاتِّحاد، وقالوا بأنَّ اللّهَ قد حَلَّ في مخلوقاتِه، وأنه قد اتَّحد بها، فصارتْ صورةً عن الله، فالبقرةُ صورةٌ عن الله، والماءُ صورةٌ عن الله، والجبلُ صورةٌ عن الله. . . وهذا كفرٌ يناقضُ التوحيد.

توحيدُ الربوبية هو الإقرارُ بأنَّ اللّهَ وحدَه هو الخالقُ لكلِّ شيء في هذا الوجود، وأنه لا يشاركهُ أَحَدٌ في خلْقِ أيِّ شيء، لأنَّ اللّهَ هو الخالق، وكلُّ ما سواه فهو مخلوق.

توحيد الربوبية والفطرة

والقلوبُ مفطورةٌ على الإقرارِ بتوحيدِ الربوبية، والاعترافِ بأنَّ اللّهَ هو الخالق، قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . .﴾ [إبراهيم: ١٠].

حتى فرعون الذي ادَّعى الربوبية، وقالَ لقومِه: أَنا ربكمُ الأَعلى، فعلَ ذلكَ من بابِ العنادِ والاستكبار، مع أَنهُ في الباطن كان يوقِنُ أنَّ اللّهَ هو الخالق، ولهذا صارَحه موسى عليه السلام بهذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ . .﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ولما سألَ فرعونُ موسى عليه السلام: وما ربُّ العالمين؟ كان سؤالُه عناداً واستكباراً، فأَجابَه موسى عليه السلام بالإشارةِ إلى ربوبيةِ الله لكلِّ شيء. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨].

وبيَّنَ موسى عليه السلام لفرعونَ وقومِه بهذه الإجابات أنَّ اللّهَ ربُّ العالمين معروف، وأنَّ آياتِه في الكون، ودلائلَ ربوبيتِه في الوجود واضحةٌ مشهورة، ومعرفةُ اللّهِ مستقرةٌ في الفطرةِ الإنسانية التي فطرَ اللّهُ الناسَ عليها، فكيفَ يَسألُ عنه فرعونُ قائلاً: وما ربُّ العالمين؟

إنَّ الإِقرارَ بتوحيدِ الربوبيةِ أَمْرٌ فِطْري، حتى الكفارُ الذينَ كانوا يُشركونَ بالله الأَصنامَ والأوثان، ويَتَّخذونها آلهة، كانوا يَعترفونَ بأنَّ اللّهَ هو الخالق، وما كانَ أحدٌ منهم يُثبتُ للعالَم خالِقَيْن متماثلَيْن، وما ادّعىٰ أنَّ ما يعبدُه من دون الله خالقٌ شريكٌ لله في خَلقِ العالم.

دليل التمانع على توحيد الربوبية

ومِن أَوضحِ الأَدلةِ على توحيدِ الخالق، وعدمِ وجودِ شركاءَ له في الخلقِ والإيجاد، دليلُ «التَّمانُع» العقلي، وهو بمعنى تَضارب الإِرادتَيْن!

وخُلاصةُ دليلِ «التمانع»: أَنه لو كانَ للعالم خالقَيْن اثنيْن، فسوفَ تتمانَعُ وتَتَضاربُ إِرادَتاهما، وسوفَ يختلفانِ على فعْلِ أيِّ شيء: فقد يُريدُ أَحدُهما تحريكَ شيء، ويُريدُ الآخَرُ تسكينَ هذا الشيء، في نفسِ الوقت!

ما هي الاحتمالاتُ الواردةُ في هذه الحالة؟ إِنها احتمالاتٌ ثلاثة: فإمّا أَنْ يحصلَ مُرادُهما معاً، وإِمّا أَن لا يَحصلَ مُرادُ أَحَدٍ منهما، وإِمّا أَنْ يَحصلَ مُرادُ أَحدهما دونَ الآخر.

الاحتمالُ الأول: وهو أَنْ يَحصلَ مرادُ الاثنين معاً، ممتنعٌ عقلاً، لأَنّه جمْعٌ بين النقيضيْن، فكيفَ يتحركُ الشيءُ ويسكنُ في نفسِ الوقت؟

والاحتمالُ الثاني: وهو أَنْ لا يحصُلَ مرادُ أحدٍ منهما، ممتنعٌ عقلاً، لأَنّه لا يُتصوَّرُ خلُوُّ الشيءِ عن الحركةِ والسكون في نفسِ الوقت، لأنَّ الشيءَ إِمّا ساكنٌ وإِمّا متحرك.

وإِذا حصلَ مرادُ أَحدهما دونَ الآخر ـ كما في الاحتمالِ الثالث ـ كان

الذي حصلَ مرادُه هو الربُّ الإلهَ القادر، ، لأنه حقَّقَ ما يُريد، أمّا الذي عجزَ عن تحقيقِ مُرادِه فليس إلهاً، لأنَّ العاجزَ لا يكونُ إلهاً.

هذه خلاصةُ دليلِ التمانُع ـ أي امتناعُ تعدُّد الآلهة ـ وهو دليلٌ عقلي.

وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى إثباتِ دليلِ التمانُعِ بالقرآن، حيث استدلُّوا عليه بقولِه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وكلامُهم غيرُ دقيق، فالآيةُ تتكلمُ عن بُطلان تعدُّدِ الآلهة، وليس بُطلانِ تعدُّدِ الأرباب، فهي دليلٌ لتوحيدِ الأُلوهية، وليس توحيدِ الربوبية.

الكفار يرفضون توحيد الألوهية

إنَّ التوحيدَ الذي دعَتْ إليه الرسل، والذي بَيَّنَه القرآنُ هو توحيدُ الأُلوهية، ويقومُ توحيدُ الألوهيةِ على عبادةِ الله وحده لا شريكَ له، ويتضمنُ توحيدُ الألوهية توحيدَ الربوبية.

وقد كانَ المشركون يُناقشون ويُجادلون في توحيدِ الأُلوهية، بينما كانوا يُقِرون بتوحيدِ الربوبية، ويَعترفون بأنَّ اللّهَ هو الخالقُ المدبِّر.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ..﴾ [لقمان: ٢٥] تخبرُ الآيةُ أنَّ الكفارَ يَعترفونَ بأنَّ اللّهَ هو خالقُ السموات والأرض.

ولما عبدَ المشركون الأَصنام، ما كانوا يعتقدونَ أَنها شركاءُ للّه في خلْقِ العالم، فقد كانوا يَقولون بأنَّ اللّهَ وحده هو الخالق. أمّا الأصنامُ فقد كانتْ عندَ بعضِهم رموزاً لأُناسٍ صالحين، جَعلوها رُموزاً لهم ليتذكَّروهم وليجعلوهم شفعاءَ لهم عندَ الله.

وقد أَخرجَ البخاريُّ في تعاليقِه موقوفاً على ابنِ عباس رضي الله عنهما، أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]: هذه أَسماءُ صالحينَ من قومِ

نوحٍ، فلما ماتوا، عَكَفوا على قُبورهم، ثم صَوَّروا تماثيلَهم، ثم طالَ عليهم الأَمَدُ فعبدوهم(١).

ولذلكَ حَرَّمَ الإسلامُ رفعَ القبور وبناءَ المساجدِ عليها، من بابِ سَدِّ الذرائع، حتى لا يتدسَّسَ الشركُ إلى بعضِ الناس، فيعبدوا تلكَ القبور.

ومن الأدلةِ على تحريم رفعِ القُبور ما أخرجهُ مسلمٌ وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وأحمد عن أبي الهَيّاج الأَسَدي قال: قالَ لي عليُّ ابنُ أبي طالب رضي الله عنه: أَلا أَبعثُك على ما بعثَني رسولُ الله ﷺ؟ أمرني أنْ لا أَدَعَ قبراً مُشْرِفاً إلاّ سَوَّيْتُه، ولا تمثالاً إلاّ طمسْتُه(٢).

ومِن الأَدلةِ على تحريم بناءِ المساجد على القبور، ما أَخرجه البخاريُّ ومسلمٌ والنسائي وأحمد عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ذُكِرَ للنبيِّ ﷺ في مرضِ موته كنيسةٌ بأَرضِ الحبشة، وذُكِرَ من حُسْنِها وتصاويرَ فيها، فقال: «إنّ أُولئك إذا ماتَ فيهم الرجلُ الصالح بنوا على قَبره مسجداً، وصَوَّروا فيه تلكَ التصاوير، أُولئك شرارُ الخلق عندَ الله يوم القيامة»(٣).

ومنها أَيضاً، ما رواه مسلمٌ عن جُنْدُبِ بنِ عبد الله البجلي رضيَ اللّهُ عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ قبلَ أنْ يَموتَ بخمسٍ: «إنَّ مَن كانَ قبلكم، كانوا يَتخذونَ قُبورَ أنبيائهم وصالحيهم مساجِد، أَلا فلا تَتخِذوا القبورَ مساجد، فإني أَنهاكُم عن ذلك»(٤).

ومنها ما أَخرجَهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ وابنِ عباس رضي الله عنهم: قالا: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لعنةُ اللّهِ على اليهود والنصارى، اتَّخذوا قُبورَ أَنبيائهم مساجد»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٢.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٩٦٩. وأبو داود: ٣٢١٨. والترمذي: ١٠٤٩. والنسائي ٤:٨٨ ـ ٨٩. وأحمد: ١:٩٦.
(٣) أخرجه البخاري: ٤٢٧. ومسلم: ٥٢٨. والنسائي: ٢:٤١ ـ ٤٢. وأحمد: ١:٥١.
(٤) أخرجه مسلم: ٥٣٢.
(٥) أخرجه البخاري: ١٣٣٠. ومسلم: ٥٢٩.

إنَّ الذين عَبدوا الأَصنام، وجعلوها رُموزاً لأُناسٍ صالحين، أو رُموزاً للكواكبِ أَو الملائكة أو الجن، لم يَجعلوها أَرباباً تَخْلُقُ أَو ترزق، وإنما جعلوها وُسطاءَ وشُفعاءَ لهم عندَ الله، وقد صَرَّحوا بأنهم يعبدونَ الأَصنامَ لتقريبَهم إلى الله زلفى. كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وكما قالَ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

إنَّ التوحيدَ المطلوب هو توحيدُ الأُلوهية، وهو أَساسُ التوحيدِ والإيمان، وهو الذي دَعَتْ إليه الرسل، وهو يتضمنُ توحيدَ الربوبية.

فطر الله الناس على توحيده

وقد فطرَ اللّهُ قُلوبَ الناس ـ حتى الكفار ـ على الإقرارِ باللّهِ وتوحيده، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وبما أنَّ فطرةَ الناس مفطورةٌ على هذا التوحيد، فلا شَكَّ فيه، كما قالَ تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ..﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقد وضَّحَ رسولُ الله ﷺ أَنَّ كلَّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة، مهما كان دينُ أَبويه، وأنَّ هذه الفطرةَ هي الإسلام، وأنَّ أَبَوَيْه يَحرفانِه ويَصرفانِه بعد ذلك عن الإسلام إلى غيره.

أَخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ وأَبو داود والترمذي وأحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «كُلُّ مولودٍ يولَدُ عَلى الفطرة، فأَبَواه يُهَوِّدانِه أَو يُنَصِّرانِه أَو يُمَجِّسانِه»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: ١٣٥٨. ومسلم: ٢٦٥٨. وأبو داود: ٤٧١٤. والترمذي: ٢١٣٨. وأحمد: ٢: ٢٧٥.

ودلالةُ الحديثِ على أنَّ الفطرةَ هي الإسلام، لأَنَّ أَبوي المولودِ قَد يَصرفانِه عن الفطرةِ إلى اليهوديةِ أو النصرانية أو المجوسية، وهي الأَديانُ المخالفةُ للإسلامِ دينِ الفطرة.

وروى مسلمٌ وأحمدُ عن عياضِ بن حمارِ المجاشعيِّ عن رسولِ الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه في الحديثِ القدسي: «إني خلَقْتُ عبادي حُنَفاء، فاجْتالَتْهم الشياطينُ إلى الشرك..»[1].

ومعنى «اجتالَتْهم» أَخذَتْهم وصرفَتْهم. فاللّهُ خلقَ الناسَ حنفاء، وفَطرهم على التوحيد، ولكنَّ الشياطينَ تَصرفُهم عن الفطرةِ والتوحيد، وتأخذهم إلى الشرك.

إنَّ توجُّهَ فطرةِ الناس إلى توحيدِ الله، أَمْرٌ بدهي، على شرطِ أنْ لا يوجَدَ ما يفسدُ هذه الفطرة، من مؤثّراتٍ خارجية، تتمثلُ في إيحاءاتِ المنحرفين عن الفطرة الموحِّدة، كاليهودِ أو النصارى أو المجوس، أو غيرِهم من الشياطين.

توحيد الألوهية هو الأساس

ونخلص من هذا إلى التأكيدِ على حقيقةٍ قاطعة، وهي أنَّ توحيدَ الأُلوهيةِ هو الأَساس، وتوحيدَ الربوبيةِ فرعٌ عنه ومبنيٌّ عليه.

فلو أقرَّ إنسانٌ بتوحيدِ الربوبية، لكنه لم يُقرَّ بتوحيدِ الأُلوهية، فلم يعبد اللّهَ وحدَه، وإنما عبدَ معه غيره، كان هذا الإنسانُ كافراً مشركاً.

وبما أنَّ توحيد الأُلوهية هو الأَساس، فقد اهتمَّ القرآنُ كثيراً بتقريرِه، وعرضِ الأَدلةِ القويةِ عليه.

إنَّ القرآنَ يجعلُ توحيدَ الربوبية ـ الذي هو مُجْمَعٌ عليه حتى عندَ الكفار ـ دليلاً على توحيدِ الأُلوهية.

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٨٦٥. وأحمد: ٤: ١٦٢.

فإذا كان الكفارُ يعترفون بأنَّ اللّهَ هو الخالقُ الرازقُ المالكُ المنعمُ الضارُّ النافع - وهي لوازمُ توحيدِ الربوبية - فلماذا لا يُفْرِدونه بالعبادةِ والاستعانةِ والرجاء؟ - وهي لوازمُ توحيدِ الألوهية - ولماذا يَعبدونَ معه آلهةً أُخرى؟ هم يعترفونَ بأنَّها لا تخلقُ ولا ترزقُ ولا تُعطي ولا تمنع؟.

هذا الدليلُ البرهانيُّ على توحيدِ الأُلوهية من خلالِ توحيدِ الربوبية، قَرَّرَتْهُ آياتٌ كثيرةٌ من القرآن.

منها قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٠].

لقدْ ذكرتِ الآيتان أُموراً من توحيدِ الربوبية، سلَّمَ بها الكفار، وهي: خلقُ السموات والأرض، وإنزالُ الماءِ من السماء، وإنباتُ الحدائقِ ذاتِ البهجة بذلك الماء، وهذه الأُمورُ من فعلِ الله وحده، وغيرُه عاجزون عن فعلِها. ثم جَعلت الإِقرارَ بهذه الأمورَ دليلاً على توحيدِ الأُلوهية. فإذا كان الكفارُ يُسَلِّمون بأنَّ هذه الأُمورَ بيدِ الله وحده، فلماذا يجعلون معه آلهةً أخرى؟.

معنى قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟

والاستفهامُ في قولِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ استفهامٌ إنكاري، يتضمنُ نفيَ وجودِ إِلهٍ مع الله، يفعلُ هذه الأُمورَ المذكورةَ مع الله. والمعنى: أإلهٌ مع الله خلقَ السموات والأرض، وأَنزلَ الماءَ من السماء، وأَنبتَ به الحدائق؟.

إنكم أَيها الكفارُ تعترفون بأنه لا يوجَدُ إلهٌ مع الله يفعلُ هذه الأمور، فلماذا تَعبدون معه آلهةً عاجزةً عن هذه الأمور؟.

وليس معنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ هل تَعبدون أيها الكفارُ آلهةً مع الله؟ كما فَهم بعضُهم خطأً، لأنهم كانوا يَعبدون معه آلهة، وهذا لا يحتاجُ إلى السؤال عنه!

لقد كان الكفارُ يقولون: إنَّ مع الله إلهاً معبوداً، لكنهم ما كانوا يقولون: إنَّ معه إلهاً ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾ [النمل: ٦١].

ومنها أيضاً قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

وهذه الآيةُ تَستدلُّ بتوحيدِ الربوبية على توحيدِ الأُلوهية، توحيدُ الربوبية في الآية في قولِه: ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فالربُّ هو الخالق، وكونُه هو الخالقَ وحدَه يلزمُ منه أن يكونَ هو المعبودَ وحدَه، وهذا توحيدُ الألوهية.

وبما أنَّ توحيدَ الألوهية هو الأساس، وهو الذي جاءَ به الرسل، وأَنزلَ اللّهُ به الكتب، فإنَّ الأدلةَ عليه عديدةٌ متنوعة كثيرة.

والأَدلةُ على توحيدِ الألوهية في القرآن بصورةٍ خاصة كثيرة أيضاً، حيثُ ضربَ عليه القرآنُ الأمثلةَ الكثيرة.

تقرير القرآن لتوحيد الألوهية

ومعلومٌ أنَّ اللّهَ قد ضربَ للناس في القرآن من كلِّ مَثَل، لعلَّهم يتذكرون، ومعلومٌ أنَّ أمثالَ القرآن واضحةٌ مقنعة، تقررُ ما سيقتْ له بصورةٍ برهانية، ويَظهرُ بها الحقُّ واضحاً قويَّ الحجة والدليل.

إنَّ الناسَ كلَّهم متفقون على أنَّ اللّهَ هو الربُّ الخالق، حتى الكفار يُسَلِّمون بذلك، ولا يوجَدُ أناسٌ من الكفار يؤمنون بإلهيْن خالقيْن متماثليْن متساوييْن في الصفاتِ والأَفعال، وعلى درجةٍ واحدة من القوة.

فالمشركونَ يَعترفون بأنَّ اللّهَ هو الخالق، وشركُهم في الربوبيةِ إنما هو في إِثباتِ بعضِ الأُمورِ الجزئية لآلهتِهم ومعبوداتِهم من دون الله، كأن ينسبوا بها إِيجادَ بعضِ الأَشياء أو الأَفعال، أو يجعلوا لها بعضَ القدرةِ على النفع أو الضر.

فهذا الشركُ عندَهم ليس شركاً في كلِّ معاني الربوبية، وإنما هو شركٌ في بعضِ معانيها.

ومع ذلك تولّى القرآنُ إبطالَ شركِ هؤلاء في بعضِ معاني الربوبية، وبيَّنَ أنه يستحيلُ وجودُ شريكٍ لله الرب الخالق، ولو في بعض جزئياتِ الخلقِ والإرادةِ والإيجادِ والنفع والضر.

وبيانُ بطلانِ ذلك الشركِ الجزئي في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ ..﴾ [المؤمنون: ٩١].

هدفُ الآيةِ بيانُ أنه لا بدَّ من إلهٍ واحد، هذا الإلهُ الواحدُ هو وحده الخالقُ الفاعلُ المتصرفُ الضارُّ النافع. ويستحيلُ أنْ يكونَ معه شريكٌ آخر، فلو كان معه شريكٌ لَقَهَرَهُ وغلَبَه إن استطاع، وإنْ لم يستطعْ قَهْرَه فسوفَ ينفردُ بما خلق، ويأخذُه ويستقلُّ به ويذهبُ به بعيداً.

فساد الكون بوجود إلهين

لو افْتُرِضَ وجودُ إلهيْن اثنيْن شريكيْن، فلا بدَّ من أَحدِ احتمالاتٍ ثلاثة:

١ ـ إمّا أنْ يذهبَ كلُّ إلهٍ بما خلق: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ ..﴾.

٢ ـ وإمّا أن يقهرَ أحدُهم الآخر، ويَعلو عليه ويَغلبُه: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ ..﴾.

٣ ـ وإمّا أنْ يكونَ أَحدُهما إلهاً، وهو الخالقُ القوي، وأنْ يكونَ الآخرُ الضعيفُ عبداً له، خاضِعاً لأمره، لأَنه مخلوق، فهو ليسَ إلهاً.

والاحتمالُ الأولُ مستحيلٌ عقلاً، لأنَّ وجودَ العالم وصلاحَه يدلُّ على خضوعِه لإلهٍ واحد، والاحتمالُ الثاني مردودٌ أَيضاً، لعدم وجودِ صراعٍ أو صدام بين إلهيْن، لأنَّ العالمَ يفسد أيضاً. ولا يَبقى إلاّ الاحتمالُ الثالث، وهو الذي تقررُه الآية: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ ..﴾.

إنَّ صلاحَ العالم، وانتظامَ أمره، أوضحُ دليلٍ على خضوعِه لإلهٍ واحد، هو الربُّ الخالقُ الملكُ المدبرُ المتصرف، الذي ليسَ له في ذلك نِدٌّ ولا مَثيلٌ ولا شريك...

وكما أنه يستحيلُ أنْ يكونَ لهذا العالم خالِقان متكافئان، كذلك يستحيلُ أنْ يكون له إلهان معبودان.

إنَّ قولَه تعالى ـ الذي سبقَ ذكْرُه ـ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ..﴾ دليلٌ قرآنيٌّ على نفيِ الشركِ في توحيدِ الربوبية، لأنه يقررُ استحالةَ وجودِ شريكٍ للربِّ سبحانه في الخلقِ والملكِ والتصرف.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ..﴾ [الأنبياء: ٢٢] دليلٌ قرآني على نفيِ الشركِ في توحيدِ الأُلوهية، وليس نفيَ الشرك في توحيدِ الربوبيةِ كما قالَ بعضُهم.

إنَّه قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولم يَقل: لو كان فيهما أَرباب. فكلامُه عن إِبطالِ الشركِ في العبادة.

ثم قولُ اللّهِ هذا عن السمواتِ والأرض بعد خلْقِهما ووجودِهما، وعن فسادِهما بعد وجودِهما، إذا كان فيهما آلهةٌ معبودةٌ غيرَ الله، فالموضوعُ في إبطالِ الشركِ في توحيدِ الأُلوهية، وليسَ في توحيدِ الربوبية.

لقد دلَّت الآيةُ المذكورةُ على استحالةِ أنْ يكونَ في السموات والأرض آلهةٌ متعددةٌ معبودة، لأنه لو كانَ الأمر كذلك لفسدَتا، واختلَّ نظامُهما. وبما أَنهما غيرُ فاسدتيْن، فالإلهُ المعبودُ فيهما واحد، وهو اللّهُ سبحانه وتعالى الذي يدبِّرُهما بحكمتِه وعدلِه ومشيئتِه عز وجل.

المخلوق ليس إلهاً ولا رباً

إنَّ توحيدَ الألوهية يستلزمُ توحيدَ الربوبية، لأنَّ الذي لا يَقدرُ على الخلقِ يكون عاجزاً، والعاجزُ لا يصلحُ أنْ يكونَ إلهاً.

وقد أبطلَ القرآنُ ألوهيةَ غيرِ الله، لكونِهم مخلوقين عاجزين عن الخلق، وأثبتَ ألوهيةَ الله لأنه خالق.

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١] فالمعبودون من دونِ الله مخلوقون، خلَقَهم الله، وهم لا يَخلقون أيَّ شيء، فكيفَ عَبدوهم وجَعلوهم شركاءَ لله؟

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

إنَّ اللّهَ وحده هو الذي يخلق، فهو الإلهُ المعبودُ وحده، وغيرُه لا يَخلقون شيئاً، فكيف صاروا آلهة معبودين شركاءَ للخالق؟ أفلا تذكرون؟

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢].

فلو كان هناكَ آلهةٌ مع الله، كما يقول المشركون، لكانت هذه الآلهةُ حريصةً على التقربِ إلى الله ذي العرش، وعلى أنْ تسلكَ سبيلاً وطريقاً يوصلُها إلى الله، لأنهم مخلوقون ضعفاء، محتاجون إلى اللّهِ الخالقِ القويِّ سبحانه.

نوعان آخران للتوحيد

وبعدما عَرَفْنا توحيدَ الألوهية وتوحيد الربوبية، ننتقلُ إلى بيانِ نوعين آخرين للتوحيد.

التوحيدُ نوعان:

توحيدٌ في الإثباتِ والمعرفة.

وتوحيدٌ في الطلبِ والقصد.

توحيدُ الإثبات والمعرفة هو: إثباتُ الأسماءِ والصفاتِ والأفعال لله سبحانه وتعالى، والعلمُ بأنَّه ليس كمثله كشيء، في ذاتِه وأسمائِه وصفاته وأفعاله.

وقد تحدَّثَ القرآنُ كثيراً عن توحيدِ الإثبات والمعرفة، كما في أوَّلِ سورِ آل عمران وطه والسجدة والحديد، وآخرِ سورة الحشر، وسورة الإخلاص.

وتوحيدُ الطلبِ والقصد هو: هو توجُّهُ العبادِ بالعبادةِ إلى الله، وتقديمُ حاجاتهم كلِّها إليه، وطلبُهم كلَّ ما يريدونَ منه وحدَه.

وقد تحدثَ القرآنُ كثيراً عن هذا النوع من التوحيدِ أيضاً، كما وردَ في آياتٍ من سورة آل عمران، وآياتٍ كثيرة من سورة الأنعام، وأولِ سورة الأعراف وآخرها، وأولِ سورة يونس وأوسطِها وآخرِها، وأولِ سورة الزمر، وسورة الكافرون.

ولا تخلو سورةٌ من سورِ القرآن من الكلام على هذيْن النوعيْن من أنواعِ التوحيد، لأنَّ مَنْ عرفَ اللّهَ بأسمائِه وصفاتِه وأفعاله، قصدَه ورجاهُ وحدَه، وعبدَه وأطاعَه وحدَه.

إنَّ القرآنَ يخبرُ عن اللّهِ وأسمائِه وصفاته وأفعاله، وهذا هو التوحيدُ العلميُّ الخبري.

والقرآنُ يَدعو إلى عبادةِ الله وحده، وعدمِ عبادةِ غيره، وهذا هو التوحيدُ الإِراديُّ الطلبي.

والقرآنُ يخبرُ عن إكرامِ الله للمؤمنين، وإدخالهم الجنةَ في الآخرة، وهذا جزاءُ توحيدِهم له.

والقرآنُ يخبرُ عن إذلالِ الله للكافرين، ومعاقبتِهم وتعذيبهم في النار، وهذا جزاءُ مَنْ أعرضَ عن توحيدِ الله.

فالقرآنُ يتحدثُ كثيراً عن توحيدِ الله، وثوابِ الموحدين وعذاب المشركين.

وأبرزُ ما يكونُ هذا وضوحاً في الفاتحة، فهي أُمُّ القرآن وأَساسُ

الكتاب والسبعُ المثاني، وآياتُها السبعةُ كلُّها في توحيدِ الله، بالمعرفة والإثبات، ثم بالطلب والقصد.

الشهادة لله بالوحدانية

وقد سجَّلَ القرآنُ شهادةَ اللّهِ وملائكتِه وأولي العلم على هذيْن النوعيْن من التوحيد: توحيدِ الإثبات وتوحيدِ الطلب.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ ..﴾ [آل عمران: ١٨ ـ ١٩].

تضمنتْ هذه الآيةُ الكريمةُ إثباتَ حقيقة التوحيد، والردَّ على الفرقِ الضالة، وسجلتْ أَجَلَّ شهادةٍ وأصدقَها، مِن أَجَلِّ شاهد، لأَجَلِّ مشهودٍ به.

وشهادةُ اللّهِ لنفسه بالوحدانية كما أَخبرتْ هذه الآيةُ أَربعُ مراتب:

الأُولى: علمُه سبحانه بأنه لا إله إلا هو.

الثانية: كلامُه بأنه لا إله إلا هو.

الثالثة: إعلامُه وإخبارُه لغيرِه بأنه لا إله إلا هو.

الرابعة: أَمْرُهُ لعبادِه بأنْ يؤمنوا بأنه لا إله إلا هو.

لقد شهدَ اللّهُ سبحانه أنه لا إله إلا هو، وأَقامَ الأدلةَ العديدةَ على وحدانيته، وأَعلمَ الناس بذلك، وبيَّنَهُ لهم أَتَمَّ بيان.

وبيانُه الواضحُ على وحدانيته له جانبان:

الأَوّل: البيانُ النظري: وهو الأدلةُ على وحدانيتِه التي أَوردَها سبحانه في كتبه، التي أَنزلَها على رسله.

الثاني: البيانُ العملي: وهو هذا الكونُ الذي خلقه الله، وأَحسنَ تدبيرَه وأحكمَ ترتيبَه، فلا فسادَ فيه، ولا خللَ ولا اضطراب، ولا تناقُضَ ولا تفاوُت. إنَّ هذا الوجودَ المحكمَ دليلٌ على أَنه لا إله إلا الله.

وقد صدقَ الشاعرُ أَبو العتاهية عندما قال:

أَلا إِنَّنا كُلّنا بائِدُ ... وَأَيُّ بَني آدَمَ خالِدُ
وَبَدْؤُهُمُ كانَ مِنْ رَبِّهِمْ ... وَكُلٌّ إِلى رَبِّهِ عائِدُ
فَيا عَجَباً كَيْفَ يُعْصىٰ الإِلٰـ ... ـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجاحِدُ
وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

ثلاث طرق للاستدلال على الوحدانية

بيَّنَ اللّهُ الأدلة على وحدانيته بطرقٍ ثلاثة:

الأُولى: السمع: وهي الأَدلةُ التي تضمنَتْها آياتُ القرآن، الدالةُ على أَنه سبحانه واحدٌ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعاله، والبيانُ في الآيات القرآنية واضحٌ مفهومٌ مقنع.

وقد وصفَ اللّهُ القرآنَ بأنه كتابٌ مبين، وأَنه بيانٌ للناس، وأنَّ مهمةَ النبيِّ ﷺ هي البيانُ للناس:

قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر: ١].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وتأتي السُّنَّةُ مبينةً ومقررةً لما دلَّ عليه القرآن، وتكونُ الحجةُ واضحةً والأَدلةُ بَيِّنةً من الكتابِ والسنة، ولا نَحتاجُ بعدَ أدلةِ الكتاب والسنة إِلى رأي فلان، أو قولِ فلان، أو ذوقِ وَوَجْدِ فلان!.

والذين تركوا أَدلةَ الكتاب والسنة، وذَهبوا إِلى أدلةِ الفلاسفة والمتكلمين، دَفعوا الثمن غالياً، حيثُ وقعوا في الاضطرابِ والاختلاف والشك. وهذه ضريبةٌ يدفعُها كلُّ مَنْ خالفَ الكتابَ والسنة.

الثانية: النظرُ في آياتِ الله المشاهَدَة، في السموات والأرض، في الأنفسِ والآفاق، فإنها تدلُّ على وحدانيته سبحانه.

الثالثة: العقلُ الذي يفكرُ في الأدلةِ الواردة عن الطريقيْن السابقيْن، طريقِ النصوصِ في الكتاب المسطور، وطريق الوجود في الكتاب المنظور، حيث يَجمعُ العقلُ هذه الأدلةَ مع تلك، ويستدلُّ بها على توحيدِ الله.

أيد الله رسله بالمعجزات

إنَّ اللّهَ قد بعثَ رسلَه بالحق، وأمرهم أن يدعوا الناسَ إلى توحيدِه وعبادته وحدَه، وجعلَ معهم الأدلةَ على وحدانيته.

وجعلَ اللّهُ مع رسله الآياتِ والمعجزاتِ الدالةَ على صدْقِهم، حتى يكونَ الناسُ على بينةٍ من ذلك، وحتى تقومَ عليهم الحجة، ولا يبقى لهم عذر.

كلُّ الأنبياءِ أيدهم اللّهُ بالبيناتِ والآيات، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ..﴾ [الحديد: ٢٥].

وعليه أيضاً قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ..﴾ [النحل: ٤٣ ـ ٤٤].

وقد تكونُ الآيةُ التي مع النبيِّ خفيةً تحتاجُ إلى تدبرٍ ونظر، فمَنْ تدبَّرَها رآها آيةً بينةً مبصرة، وعلى هذا الآيةُ التي أيَّدَ اللّهُ بها هوداً عليه السلام.

فلم تكنْ مع هودٍ عليه السلام آيةٌ ماديةٌ محسوسة، ولهذا قال لَه قومُه: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ..﴾ [هود: ٥٣].

علماً أنَه كان معه آيةٌ من الله، لكنها تحتاجُ إلى تدبر. هذه الآيةُ في قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟

أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

إنَّ الموقف الذي وقفه هودٌ عليه السلام من قومه هو آيةٌ من أعظم الآيات: فقومُه كانوا أمةً عظيمة كثيرة، وأَخبرَ اللّهُ أنه لم تكن أمةٌ في ذلك الوقتِ بمثلِ قوةِ عاد. ومع ذلك يأتي هودٌ عليه السلام فيتحدّى هذه الأمةَ القويةَ الظالمة، وهو رجلٌ واحد، ويخاطبُها بهذا الخطاب، بدون خوفٍ ولا فزعٍ ولا جُبنٍ ولا ضعف.

أَشهدَ اللّهَ على براءته منهم ومن دينهم ومن معبوداتهم الباطلة، ثم أَشهدَهم هم على براءتِه منهم، وصرَّحَ لهم بمخالفته لهم، واستهانَ بهم وبقوتهم، واستخفَّ بما عندهم وازدراهم، ولذلك دَعاهم إلى أَن يكيدوه ويهجموا عليه، ويَصبّوا كلَّ حقدِهم وقوتِهم عليه، بدون أَنْ يُنْظِروه أو يُمْهِلوه أَو يُخْبروه، إنهم إنْ فعلوا ذلك فلن يضرّوه!!.

ما سِرُّ هذا التحدي الجريءِ منه لهم؟ قدَّمَ لهم الجوابَ بأَنه رسولُ الله، وأنَّ اللّهَ معه، وأنَّ الله هو القويُّ العزيز، وأنَّ اللّهَ سيحميه منهم، وينصره عليهم، ولو كان وحيداً، وما هم إلاّ دوابٌّ نواصيهم بيدِ الله، يعطلُ اللّهُ قوتَهم، لينصرَ نبيَّه عليهم.

وهو قد توكَّلَ على اللّهِ ربِّه القوي، وإنَّ اللّهَ مع مَنْ توكَّلَ عليه، وفوَّضَ أَمره إليه، فلا يخذُلُه ولا يتخلّى عنه.

هذه هي الآيةُ البينةُ التي أَيّدَ اللّهُ بها هوداً عليه السلام، وأَوحى له أَنْ يتحدّى قومَه الأَقوياء، وفعلاً نصرَ اللّهُ نبيَّه، وأَهلك أَعداءَه.

الآياتُ التي أَيّدَ اللّهُ بها الأنبياءَ هي أحسنُ الآيات، وبراهينُهم هي أَوضحُ البراهين، وهذه الآياتُ والبراهينُ شهادةٌ من الله لرسله، بأنهم صادقون في دعوى النبوة.

اللّه المؤمن المصدق لرسله وأوليائه

ومن أسماءِ الله «المؤمن». والمؤمِنُ له معنيان:

الأول: الذي أَمَّنَ عبادَه المؤمنين من العذاب، لأنه يُدخلهم الجنةَ، ويُنجيهم من النار، وبذلك يكون سبحانه «مُؤمِناً» لهم لأنَّه أَمَّنهم من العذاب.

الثاني: المؤمن: المصدِّق. أي: اللّهُ هو الذي يُصدِّقُ الصادقين، وهم الأنبياء والمرسلون، يُصدِّقُهم بما يؤيدهم به من الآيات والمعجزات، تصديقاً لهم في دعوى النبوة.

ثم إنَّ اللّهَ قد أَقامَ لعباده الأَدلةَ على وحدانيتِه سبحانه، وهذه الأدلةُ قد تكونُ في أنفسهم، وقد تكونُ في الآفاق من حولهم. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٢ ـ ٥٣].

الكلامُ في الآيتين عن القرآن، والسؤالُ للكفار: أرأيتم إنْ كانَ القرآنُ من عندِ الله ثم كفرتُم أنتم به، فما موقفكم بعد ذلك؟ ثم يَعِدُ اللّهُ سبحانه أنْ يقدمَ الآياتِ والبراهين من الآفاقِ ومن الأنفس على وحدانيته، ليتبينَ للناس أنَّ القرآنَ هو الحق، وأنه كلامُ الله.

ثم ختمَ الآيةَ الثانية بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

و﴿شَهِيدٍ﴾ من أَسماءِ الله. ومعناه: اللّهُ الذي لا يغيبُ عنه شيء، لأنّه مطَّلعٌ على كل شيء، مشاهِدٌ له، عليمٌ بتفاصيله.

الاستدلال بأسماء اللّه على وحدانيته

لقد أَقامَ اللّهُ الأدلةَ على وحدانيته، وهذه الأدلةُ ثلاثةُ أَنواع:

الأول: الاستدلالُ بكلامِه سبحانه: ففي آياتِ القرآنِ أدلةٌ كثيرةٌ على وحدانية الله.

الثاني: الاستدلالُ بأفعاله سبحانه: ففي الآياتِ الكونية في الأنفسِ والآفاقِ أدلةٌ على وحدانيته.

الثالث: الاستدلالُ بأسمائِه وصفاتِه سبحانه: فمن تفكَّرَ في معاني الأَسماءِ والصفات فسيوقِنُ أنها دالةٌ على وحدانيةِ الله، وأنه لا يشاركُ اللّهَ أَحَدٌ في هذه الأَسماءِ والصفات، لأنَّ الله متفردٌ بها سبحانه. فأسماؤه وصفاتُه دالةٌ على تفرُّدِه وكمالِه وجلاله.

ومن استدلالِ القرآنِ بأسماءِ الله على وحدانيتِه قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣].

توردُ هذه الآيةُ مجموعةً من أَسماءِ الله: الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر. وتبينُ الآيةُ أَنَّ هذه الأسماءَ خاصةٌ بالله، الذي لا إله إلا هو، وأنَّ ما يشركهُ به المشركون لا يتصفُ بهذه الصفات، ولا يتسمّى بهذه الأسماء، سبحانَ اللّهِ وتعالى عما يشركون!!

ومعَ أنَّ القرآنَ استدلَّ كثيراً بأسماءِ اللّهِ وصفاتِه على وحدانيته، إلاّ أنَّ قليلاً من العلماء سلكَ هذه الطريق، واستدلَّ بأسماءِ اللّه على وحدانيته، لأنَّ معظمَ العلماءِ استدلَّ بأفعالِ الله في الكون والوجودِ والخلق والأنفسِ والآفاق على وحدانيته، ومعَ أنَّ هذه حقٌّ وصواب، لكنها أَسهلُ من الطريقِ الأُولى، والأَوْلى تعمُّقُ الطريقِ الأُولى، والاستدلالُ بمعاني أَسماءِ الله وصفاته على وحدانيته، بالإِضافةِ إِلى الطريق الثانية.

لقد اجتمعَ في القرآن من الأدلةِ والآيات ما لم يجتمعْ في غيره، فهو الدليلُ على وحدانيةِ الله، كما أَنَّ معجزاتِ النبي ﷺ دليلٌ على القرآن، والأدلةُ في الكونِ والأنفسِ والآفاق التي وردتْ في آياته أدلةٌ على أن هذا القرآن كلامُ الله، فهو الدليلُ والمدلولُ عليه، وهو الشاهدُ والمشهودُ له.

ولذلك لما طلبَ المشركون معجزاتٍ ماديةً وآياتٍ محسوسةً من رسول الله ﷺ، أُرْشِدوا إلى القرآنِ باعتباره أعظمَ آيةٍ، وأوضحَ معجزةٍ له عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

الخلاصة في توحيد الألوهية

والخلاصة: توحيدُ الألوهية هو التوحيدُ الذي أَرسلَ اللّهُ به الرسل، وأَنزلَ به الكتب، وأَقامَ عليه الأدلةَ والآياتِ والبراهين، وهو يتضمنُ توحيدَ الربوبية.

وهذا التوحيدُ دعا إليه الأنبياءُ والمرسلون، وهؤلاء المرسلون هم أَعرفُ الناسِ بالله، وأكثرهم خشيةً وتقوى له، وهم أكملُ الناس في توحيدِ الله، لأنهم صفوةُ اللّهِ من خلقه.

إنَّ أكملَ الناسِ توحيداً هو محمدٌ ﷺ، ثم إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاة والسلام، ثم باقي أُولي العزمِ من الرسل، وهم نوحٌ وموسى وعيسى عليهم السلام، ثم باقي المرسلين، ثم باقي الأنبياء.

وبعدَ الأَنبياءِ والمرسلين يأتي العلماءُ والعارفون، فهم أَفضلُ من عامةِ الناس في توحيدِ الله، لكنهم يأتون بعدَ الأنبياء، ولا يتقدَّمون عليهم!!

وبما أن الرسلَ والأنبياءَ هم أكملُ الناس معرفةً بالله وتوحيداً له، فإنَّ مَنْ تخلّى عن ملَّتِهم فهو سفيه، بنصِّ آياتِ القرآن. قال تعالى عن ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ عليه السلام، وعنْ سَفَهِ مَنْ يرغبُ عنها: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١].

وقد علَّمَ رسولُ الله ﷺ المسلمين أنْ يُعلِنوا صباحاً ومساءً أنهم مقتدون بالأَنبياء والمرسلين في توحيدِ الله.

روى النَّسائي والدارمي وأحمد عن عبدِ الرحمن بن أَبْزىٰ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ عندما يُصبح: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»[1].

وفطرةُ الإسلام المذكورةُ هنا هي: ما فطرَ اللّهُ عليه عبادَه من توحيدِه ومحبته وعبادته وحده.

وكلمةُ الإخلاص هي: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

ودينُ محمدٍ ﷺ هو: ما جاء به من عند الله، عقيدةً وقولاً وعملاً، وهو الإسلام بعمومه وشموله.

وملةُ إبراهيم عليه السلام هي: توحيدُ الله.

الله لا شيء مثله

[٢]: «وَلا شَيْءَ مِثْلُهُ..»:

اتفقَ أهلُ السنة على أنَّ اللّهَ سبحانه ليس كمثلِه شيء، لا في ذاتِه، ولا في صفاتِه، ولا في أَفعالِه.

فاللّهُ متفرِّدٌ في ذاتِه وصفاتِه وأَفعاله، لا يُشبهُهُ شيءٌ من المخلوقات، ولا يُساويه ولا يماثِلُه، فالرَّبُّ ربٌّ متفرِّد، والعبدُ عبدٌ مخلوق. ويجبُ التمييزُ بين مقامَيْن:

مقامِ الألوهيةِ العظيم، لأنَّ اللّهَ أَحَدٌ فردٌ صَمَد.

ومقامِ العبوديةِ الضعيف، لأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ عاجزٌ فقير.

وقد انحرفتْ بعضُ الفرقِ في هذا الأمر.

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة. والدارمي ٢:٢٩٢. وأحمد: ٣:٤٠٦.

انحراف أهل التجسيم وأهل التعطيل

فمن الفِرَقِ مَنْ شابَهوا اللّهَ بخلْقِه، وجعلوا صفاتِه كصفاتِ خلقه، وهم أهلُ التشبيهِ والتمثيل والتجسيم، وقالوا: اللّهُ له يدٌ وعينٌ ووجْه، مثلُ الإنسانِ الذي له يدٌ وعينٌ ووجه، واللّهُ حيٌّ مثلُ الإنسان الحي، واللّهُ عليمٌ مثلُ الإنسانِ العليم!!

وهؤلاء لم يُفَرِّقوا بين الخالقِ والمخلوق، حيث جَعلوا المخلوقَ كالخالق، أو جعلوا الخالِقَ كالمخلوق.

وقد ردَّتْ فرقٌ أُخرى على أهل التجسيم والتمثيل، فذهبوا إلى الجانبِ الآخر، وهو النفيُ والإلغاء، فنفوا صفاتِ الله، وجعلوه إلهاً بدونِ صفات، فقالوا: اللّهُ ليسَ حيّاً ولا سميعاً ولا بصيراً، وليس له وجْهٌ ولا عين!

وفعلوا ذلك هروباً من التجسيمِ والتشبيه، فكان نفيُهم لصفاتِ الله وأسمائه بهدفِ تنزيهِ الله.

والصوابُ هو أنْ لا ننفيَ صفاتِ الله وأسمائِه، ولا نعطِّلَها، إنما نثبتُها ونؤمنُ بها، كما وردتْ في نصوصِ الكتاب والسنة، مع التفريقِ بين إطلاقِها على الله، وإطلاقِها على المخلوق، فلا نقولُ بالتجسيم أو التشبيه.

وقد دلَّ القرآنُ على وجوبِ وصْفِ اللّهِ بصفاتِ الكمال والجلال، بشرطِ عدمِ التجسيمِ والتشبيه والتمثيل.

الآية الأصل في صفات الله

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

إنَّ هذه الآيةَ هي الأصلُ في فهمِ أَسماءِ الله وصفاته، وهي أَساسُ الرَّدِّ على الفرقِ المنحرفة في فهم الأسماء والصفات!

هذه الآيةُ مكوَّنَةٌ من قسميْن:

القسمُ الأول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. وهو نصٌّ على عدمِ مماثلةِ المخلوق للخالق، فاللّهُ لا شيءَ مثله ـ كما قال المصنف الطحاوي رحمه الله ـ.

وهذا رَدٌّ على أهلِ التجسيمِ والتشبيه، الذين شَبَّهوا اللّهَ بخلقه.

القسم الثاني: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وهو نصٌّ على وجوبِ تسميةِ الله بأسمائهِ الحسنى، ووصْفِه بصفاتِه العليا، فاللّهُ سميع بصير، عليم حكيم، حَيٌّ باقٍ، سبحانه.

وهذا ردٌّ على أهلِ النفي والتعطيل، الذين نفوا صفاتِ الله هَرَباً من التجسيم.

وعندما ننطلقُ من هذه الآيةِ الأصلِ في فهمِ صفاتِ الله وأسمائِه نقول: نُثبتُ ما أَثبتَه اللّهُ لنفسه في الكتابِ والسنة من الأَسماء والصفات، وذلك بدونِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ولا تجسيم، فهو سبحانه سميعٌ بصير، وسمعُه وبصرُه ليس كسمعِنا وبصرنا!!.

إنَّ أهلَ النفيِ والتعطيل نفوا بعضَ الصفاتِ عن الله، لأَنها تُطلقُ على المخلوق، فقالوا: لا نقول: إنَّ الله له قدرةٌ وعلمٌ وحياة، لأَنَّنا نقول: العبدُ المخلوقُ له قدرةٌ وعلم وحياة.

الفرق بين وصف اللّه ووصف الإنسان

وهذا اللبسُ عندهم سببُه عدمُ التفريقِ بين وصْفِ اللّهِ بهذه الصفات، وبين وصْفِ العبد بها، فيجبُ الإيمانُ بأنَّ قدرةَ وعلمَ وحياةَ العبدِ ليستْ كقدرةِ وعلمِ وحياةِ الله سبحانه، وبهذا يزولُ الإشكال!!

وقد سمّى اللّهُ نفسَه بأسماءَ في القرآن، وسمّى عبادَه بهذه الأسماءِ نفسِها في القرآن، وليستْ تسميةُ العباد بها، كتسميةِ اللّهِ بها سبحانه.

قالَ اللّهُ عن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقالَ اللّهُ عن الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢].

وفرْقٌ بعيدٌ بين قولنا: اللّهُ سميعٌ بصير، وقولنا: الإنسانُ سميعٌ بصير.

وقالَ اللّهُ عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقالَ عن رسولِه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفرْقٌ بعيدٌ بين قولِنا: اللّهُ رؤوفٌ رحيم، وقولنا: الإنسانُ رؤوفٌ رحيم.

وقالَ اللّهُ عن نفسه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقالَ عن نبيه إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: ٧٥].

وفرْقٌ بعيدٌ بين قولِنا: اللّهُ حليم. وبين قولنا: إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام حليم.

وهكذا نفعلُ مع باقي الآيات التي سَمَّت اللّهَ بأسماء، وسَمَّتْ عبادَه بهذه الأسماء، حيثُ نفهمُها على أساسِ الآية الأصل في الأسماء والصفات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

الفرق بين علم الله وعلم الإنسان

ففي موضوعِ العلم مَثَلًا، نجد آياتٍ كثيرة في القرآن أَخبرتْ أنَّ اللّهَ عليم. كما في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وهناكَ آياتٌ أطلقت ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ على الناس، فلمّا بشرت الملائكةُ إبراهيمَ عليه السلام بإسحاق، وَصَفوه بالعلم، فقالوا لإبراهيم: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

فاللّهُ عليم، والنبيُّ إسحاق عليه السلام عليم، وشتانَ بين علمِ إسحاق، وعلمِ الله سبحانه وتعالى.

ولهذا صرَّحَ القرآنُ بأنَّ الناسَ لا يعلمون إلاّ ما أرادَ اللّهُ أنْ يُعَلِّمهم إياه. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ..﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فمهما بلغَ المخلوقُ من العلم، فإنَّ علْمَه قاصرٌ قليل، وما جهلَهُ أَضعافُ أَضعافُ ما عَلمه، ولذلك يلجأُ المؤمنُ إلى اللّهِ يطلبُ منه أنْ يَختارَ له ما هو الأنفعُ له، لأنَّ اللّهَ عليم، أمّا المؤمنُ فإنه لا يعلمُ أين مصلحتُه.

وقد وردَ هذا المعنى صريحاً في دعاءِ الاستخارة الذي علَّمَنا إيّاه رسولُ الله ﷺ.

روى البخاريُّ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسولُ الله ﷺ يعلِّمُنا الاستخارةَ في الأمورِ كلِّها، كما يعلِّمُنا السورةَ من القرآن. يقول: «إذا هَمَّ أَحَدُكم بالأمر، فليركَعْ ركعتيْن من غيرِ الفريضة، ثم لِيقل: اللهمَّ إني أَستخيرُك بعلمك، وأَستقدرُك بقدرتك، وأسأَلك من فضلِك العظيم، فإنَّك تَقدرُ ولا أقدر، وتَعلمُ ولا أَعلم، وأَنت علاّمُ الغيوب... اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمْرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري، وعاجلِ أمري وآجلِه، فاقْدُرْهُ لي، ويَسِّرْه لي، ثم بارِكْ لي فيه.. وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمْرَ شَرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أَمري وعاجلِ أَمري وآجله، فاصْرِفْه عنّي، واصرِفْني عنه، واقْدُرْ لي الخيرَ حيث كان.. ثم رضِّني به..»[1].

والشاهدُ في الحديث قولُ المؤمن وهو يدعو: أَستخيرُك بعلْمِك، وأَسْتَقْدِرُك بقدرتك، وأسألكَ من فضلك العظيم، فإنك تَقْدِر ولا أَقْدر، وتَعلم ولا أعلم، إنك أَنتَ علام الغيوب..

(١) أخرجه البخاري برقم: ١١٦٢.

وهذا اعترافٌ من المؤمن بأنَّ عِلْمَه ضعيفٌ قاصر، وأَنَّ علمَ الله شاملٌ محيطٌ بكل شيء، ولهذا يَكِلُ الأَمْرَ إِلى الله العليمِ الحكِيم.

لا مماثلة بين الخالق والمخلوق

إذن لا يجوزُ أنْ ننفيَ بعضَ صفاتِ الله، خوفاً من مشابَهَتِها لصفاتِ المخلوقين، بَعدما عرفنا أَنَّ صفاتِ الله لا تُشابهُ صفاتِ المخلوقين.

فوصْفُ اللّهِ بالرضا والغضبِ والمحبةِ والبغضِ مثلاً، لا يُشابِهُ ويُماثِلُ وصْفَ الإنسانِ بالرضا والغضبِ والمحبةِ والبغض، وشَتّانَ بين رضا الخالق ورضا المخلوق، وغضبِ الخالق وغضبِ المخلوق، وهكذا!!

وهذا معناهُ انتفاءُ المماثلةِ والتشابُهِ بين الخالقِ والمخلوق، إنَّ الخالقَ لا يُماثِلُ المخلوقَ في أيِّ صفةٍ ولا اسمٍ ولا فعلٍ ولا شيء، حتى لو أطلَقْنا بعضَ الأَسماءِ على الخالق، وأطلَقْناها بألفاظِها على المخلوق. فإنَّ الخالقَ والمخلوقَ يشتركان في إطلاقِ الاسم، ويتفرَّدُ الخالقُ في معنى وكيفيةِ اتصافِه بمعنى ذلك الاسم.

فَفَرْقٌ بعيدٌ بين علْمِ الخالق وعلم المخلوق، وسَمْعِ الخالق وسمع المخلوق، وحياةِ الخالق وحياة المخلوق...

العجز عن إدراك كيفيات صفات الله

وبعدَ تقريرِ نفْي المماثلةِ والمشابهةِ بين الخالق والمخلوق، في بعضِ الأسماء والصفات، نُقَرِّرُ أنَّ إطلاقَ الأسماءِ والصفات على الله، يجبُ أنْ يكونَ بدون كيفية!

بمعنى أنْ نَصِفَ اللّهَ بصفةِ العلم، دونَ محاولةِ إدراكِنا لكيفيةِ اتصافه بالعلم، ونصِفَه بصفةِ الحياة، دون محاولةِ إدراكنا لكيفيةِ اتصافه بالحياة، وهكذا باقي الأَسماءِ والصفات.

إننا لا نعرفُ كيفيةَ اتصافِ الله بصفاته، لأَنَّنا لم نَرَ الله بعيوننا، ولم

نُشَاهِدْ كيفيةَ اتصافِه بتلك الصفات، ومعلومٌ أنَّ معرفةَ الكيفيةِ مبنيةٌ على مشاهدةِ ومعرفةِ الذات!!

إنَّ الإنسانَ عندما يَسمعُ أَلفاظاً تُطلقُ على معانٍ، فإنَّه لا يفهمُ معاني الأَلفاظِ التي يَسمعُها إلاّ إذا شاهدَ عَيْنَها أو تصوَّرَ عينَها وشكْلَها.

فعندما تَسمعُ شخصاً يقول: هذا تُفّاح. فإنكَ تعرفُ معنى كلمة تفاح، لأنكَ سبقَ أنْ شاهدْتَ حبةَ التفاح.

وعندما تقول لشخص: أَنا جائع. فإنكَ تعرفُ معنى جائع، لأنكَ تعيشُ حالةَ جوع وتشعُرُ بها، وهو يفهمُ معنى جائع، لأنه سبقَ أنْ شعرَ بالجوع، وهكذا...

إنَّ المتكلمَ عندما يريدُ التعبيرَ عن المعاني التي يريدُها، فقد تكونُ هذه المعاني مما سبقَ أنْ شاهَدَها ورآها، وقد تكونُ مما يمكنُ أنْ يَتصوَّرَه ويدرِكَه ويعقِلَه ولو لم يشاهِدْه، فعند ذلك يَسهلُ على هذا المتكلمِ إطلاقُ أَلفاظٍ على تلك الأشياءِ والمعاني المشاهدةِ أو المتصَوَّرة.

فعندما يقول المتكلم: هذه عين، هذه شجرة، هذا جبل، فإنهُ يَعرفُ هو ويَعرفُ المخاطَبُ كذلك معنى عينٍ وشجرةٍ وجبل، لأَنهما سبقَ أنْ شاهدا العينَ والشجرةَ والجبل!

تقريب نعيم الجنة بألفاظ معروفة

وإذا أَرادَ المتكلمُ التعبيرَ عن مَعانٍ لم يَسبِقْ لأَحَدٍ أَنْ شاهَدَها أَو تصوَّرَها، فإنه يَحتاجُ إلى تقريبِ تلك المعاني للأَذْهان، فهو يطلِقُ عليها أَلفاظاً مستعْمَلَةً بين الناس، يُطلقونَها على أَشياءَ شاهَدوها وعَرَفوها، ويفعلُ ذلكَ لتقريبِ الأَشياءِ التي لم يَسْبِقْ له ولا لغيره مشاهدتُها ولا إدراكُها.

وأَوضحُ مثالٍ على ذلك آياتُ القرآن التي تتحدثُ عن صورٍ ونماذجَ من نعيمِ الجنة وطعامِها وشرابِها ونسائِها وولدانِها وملابسِ أهلها.

ففي الجنة أنهارٌ من لبنٍ وعسلٍ وخمرٍ وماء، وفيها طعامٌ وشراب، ولحمُ طير، وفواكهُ من كل الثمرات..

فلما أَطلقَ القرآنُ تلك الألفاظَ على نعيم الجنة، استخدمَ الألفاظَ المطلقةَ على نعيمِ الدنيا، وأَصنافِ طعامِها وشرابِها وخيراتها. وفَعَلَ ذلك من بابِ تقريبِ نعيمِ الجنة إلى المؤمنين في الدنيا، فأَطلقَ عليها أَلفاظاً يَعرفونها في الدنيا.

فعسَلُ الجنة ليسَ كعسَلِ الدنيا، وطيورُ الجنة ليستْ كطيورِ الدنيا، ونساءُ الجنة ليستْ كنساءِ الدنيا، ولا تُشابِهُ أَسماءُ نعيمِ الجنة أَسماءَ نعيمِ الدنيا إلاّ في الألفاظ، التي أُطلقَتْ عليها من بابِ التقريب.

وهذا يوضِّحُ لنا طريقةَ فهمِنا لأَسماءِ الله وصفاته، فإنَّ اللّهَ وَصَفَ نفسه بصفات، وسمّى نفْسَه بأسماءٍ، وأَطلقَ عليها ألفاظاً عربية، ألفاظاً نعرفُها نحنُ ونستخدمُها، ونطلقُها على المخلوقين، فنقول: هذا الإنسانُ حيٌّ عليمٌ حليمٌ سميعٌ بصير.

وعندما نطلِقُها على الله، ونقول: اللّهُ حيٌّ عليمٌ حليمٌ سميعٌ بصير، فلا بدَّ أنْ ندركَ الفرقَ بين إطلاقِها على الله، وإطلاقِها على الإنسان، ولا بُدَّ أنْ نتوقّفَ عن محاولةِ إدراكِ كيفيةِ اتصافِ اللّهِ بها، لاستحالةِ ذلك، لأننا لم نشاهدِ اللّهَ بعيوننا!!

صفات الله بدون تكييف ولا تعطيل

والخلاصةُ في هذه المسألة:

يجبُ أنْ نؤمنَ أنَّ اللّهَ لا شيءَ مثلُه، وأنْ نُثبتَ له ما أَثبتَهُ لنفسِه من الأَسماءِ والصفات، على أَساسِ الأَصلِ القرآني ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فلا نُشَبِّهُ اللّهَ بخلقه، ولا نَجعلُ اتصافَه بصفاتِه كاتصافِ خلْقِه بها، ولا نَنفي هذه الأسماءَ والصفاتِ عنه هرباً من التمثيل والتجسيم.

فنقول: علمُ الله ليسَ كعلْمِنا، وحياتُه ليستْ كحياتِنا، وحِلْمُه ليس كحِلْمِنا.

وعندما نستخدمُ ألفاظاً للإخبارِ عن المعاني والأشياءِ الغيبية، كنعيم الجنةِ وعذابِ النار، فإنما نفعلُ ذلك من باب تقريبِ المعاني والأشياءِ الغيبية غيرِ المشاهدة، بإطلاقِ ألفاظٍ تُستخدَمُ في أشياءَ ومعانٍ مشاهَدَة. وقد فعَلْنا ذلك لوجودِ قَدَرٍ مشترك من المعنى الغيبي والمعنى المشاهَد، فأطْلَقْنا عليهما نفسَ اللفظ، لهذا القدرِ المشترك، ويجبُ اعتقادُنا بالفرقِ البعيدِ بين حقيقةِ المعنى الغيبي وحقيقةِ المعنى المدْرَكِ المشاهَد.

كما نقول: نحنُ في الدنيا نأكلُ لحمَ طير، واللّهُ يطعمُ المؤمنين في الجنة لحمَ طير، ونعرفُ حجْمَ وطعْمَ لحمِ الطير في الدنيا لأننا شاهَدْناه وأكلناه، لكننا لا نَعرفُ حجْمَ ولا طعمَ لحمِ طيرِ الجنة، لأَننا لم نشاهِدْه ولم نتذوَّقْه حتى الآن، والقَدَرُ المشترك بينهما هو أَنَّ هذا طعامٌ وهذا طعام. فاتفقا في إطلاقِ اللفظ، واختَلَفا في الطعمِ والحجم... وهكذا.

لا شيء يعجز الله

[٣]: «وَلا شَيْءَ يُعْجِزُهُ»:

اللّهُ لا يعجزُهُ أيُّ شيء، لأَنه على كلِّ شيءٍ قدير، فقدرَتُه كاملةٌ مطلقةٌ، سبحانه وتعالى.

وقد وردَتْ آياتُ القرآن على تقريرِ كمالِ قدرته. منها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ..﴾ [البقرة: ٢٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

كما وردتْ آياتُ القرآنِ على نفيِ العجزِ عن الله، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

نفتْ هذه الآيةُ العجزَ عن الله، فما من شيءٍ في السموات أو الأرض يمكنُ أنْ يُعجزَ الله. وبعدَ ذلك أثبتتِ الآيةُ القدرةَ المطلقة لله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

نفيُ العجزِ عن الله في قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ ﴾. ومعنى: «لا يَؤُوده»: لا يُتْعِبُه ولا يُثقلُه ولا يُعجزُه حفظُ السموات والأرض، لأنه على كلِّ شيء قدير.

نفي النقص عن الله لإثبات كماله

وعندما ننظرُ في الكتابِ والسنة، فإننا نرى آياتٍ وأحاديث، تَنفي النقصَ عن الله تعالى، وهذا النفيُ ليس هَدفاً بحدِّ ذاته، إنما هو بهدفِ إثباتِ الكمال لله.

وهذه قاعدةٌ مطردةٌ في هذا الباب: كلُّ نفيٍ للنقصِ عن الله في الكتابِ والسنة، إنما هو بهدفِ إثباتِ ضدِّه، وهو الكمالُ لله تعالى. فإذا نفتْ آيةٌ الظلمَ عن الله، كان ذلك لإثباتِ عدلِ الله، وإذا نفتْ آيةٌ العجزَ عن الله، كان ذلك لإثباتِ قدرة الله، وإذا نفتْ آيةٌ الجهلَ عن الله، كان ذلك لإثباتِ علمِ الله، وهكذا.

إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] قد نفى الظلمَ عن الله، وذلك لإثباتِ كمالِ عدله.

وإنَّ قولَه تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] قد نفى الجهلَ عن الله، لأنَّ معنى «يَعْزُب»: يَغيب، ونفيُ الجهلِ عن الله لإثباتِ كمالِ علمِه.

وإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] قد نفى التعبَ

عن الله، عندما خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام، لأنَّ معنى «لُغوب»: تعب. ونفيُ التعبِ عن الله لإثباتِ كمالِ قدرته.. وهكذا.

النفي المجمل والإثبات المفصل

وبما أنَّ النفيَ كانَ لإثباتِ الكمالِ لله، كان إثباتُ صفاتِ الجلالِ والكمالِ للّهِ في القرآن مفصَّلاً، بينما كان نفيُ النقصِ عن الله في القرآن مجْملاً.

وهذا على العكسِ مما سلَكَه المتكلمون، الذين لم يَلتزموا بالمنهجِ القرآني في عرضِ أَسماءِ الله وصفاته، ولم يسلكوا طريقةَ القرآنِ في إثباتِ الكمالِ لله، ونفيِ النقصِ عنه.

إننا نرى هؤلاء المتكلمين يُثبتونَ لله الكمالَ إثباتاً مجملاً، فيقولون: اللّهُ هو المتصفُ بالجلال والكمال.

فإذا جاءوا إلى نفيِ النقصِ عن الله، فصَّلوا في ذلك، وقالوا: الله ليس بجسم، ولا خيالٍ، ولا جثةٍ، ولا مادةٍ، ولا لحم، ولا دم، ولا شخص، ولاَ فكرة، ولا مَعنى، ولا عقل، وليس له لونٌ، ولا طعمٌ، ولا رائحة، وليس فيه حرارةٌ، ولا برودةٌ، ولا رطوبة، ولا خشونة، ولا نُعومة، وليس له طولٌ، ولا عَرْض، ولا عُمق، ولا ارتفاع، ولا يتحرك، ولا يسكن، ولا يتبعَّض ويتجَزَّأ، وليس له جوارح، ولا يَمين، ولا يَسار، ولا فوق، ولا تحت... إلى غير ذلك من نفيِ النقائصِ عن الله.

فالتفصيلُ في نفيِ النقائصِ عن الله لا مَدْحَ فيه لله، ولا ثناءَ عليه، كما أنَّ فيه سوءُ أَدبٍ مع الله.

إنَّ الإنسانَ المخلوقَ لا يَقبلُ التفصيلَ في نفيِ التفاهاتِ عنه، فكيف يَقبلُ اللّهُ ذلك؟ فلو جاءَ إنسانٌ إلى مَلِك، وقال له: أَيها الملك: أَنتَ لستَ زَبّالاً، ولا فَرّاشاً، ولا خادماً، ولا خيّاطاً، ولا حَلاّقاً، فإنَّ الملكَ سيَغضبُ من هذه التفاصيلِ التافهة، وسيؤدِّبُ المتكلمَ، مع أَنه كذلك، ولكن هذا لا يليقُ بمقامه، باعتبارِه ملكاً.

وربُّ العالمين أَولى بالأدب معه، ويجبُ استخدامُ طريقةِ الكتاب والسنة، في الحديثِ عن صفاتِه وأَفعاله. فيُكتفىٰ في ذلك بالنفي المجمل.

وجوب استعمال كلمات الكتاب والسنة

يجبُ على المسلم استخدامُ أَلفاظِ ومصطلحاتِ الكتاب والسنة في الحديثِ عن اللّهِ وصفاتِه وأفعاله، ولا يَجوزُ الإِعراضُ عنها واستخدامُ أَلفاظِ المتكلمين المخالفة لها.

ثم إنَّ معظمَ ما يوردُه المتكلمون في النفيِ المفصَّلِ لما لا يليق، لا يستمدونَه من الكتابِ والسنة، وإِنما أَخذوه من تصوراتهم.

أَما العبارةُ التي أَوردها الشيخُ الطحاوي: «ولا شَيْءَ يُعْجِزُه» فإنها ليستْ من النفيِ المفصَّلِ المذموم، الذي سلكَه المتكلمون من بعدِه. وإنما هي من النفيِ الممدوحِ المقبول.

وذلك لأَنها مستمدةٌ من آيةٍ صريحة في القرآن. وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

لقد نفت الآيةُ العجزَ عن الله، بهدفِ إثباتِ كمالِ العلم والقدرة له، فهو سبحانَه ليس عاجزاً عن أيِّ شيء، ولا يعجزُه سبحانه أيُّ شيء، لأنه عليمٌ قدير، ولهذا جاءَ التصريحُ بإثباتِ هذا الكمالِ في الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

لا إله إلا الله

[٤]: «وَلا إِلٰهَ غَيْرُه...»:

الكلمةُ الطيبةُ التي دَعا لها جميعُ الرسل، هي كلمةُ التوحيد، وهي «لا إله إلا الله».

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وجملةُ «لا إله إلا الله» مكوَّنَة من قسميْن:

الأول: النفيُ في بدايتها: «لا إله».

الثاني: الإِثباتُ في آخرها: «إلا الله».

واجتماعُ النفيِ والإِثبات يدلُّ على الحصر، ففي الجملةِ حُصرت الأُلوهيةُ وقُصِرَتْ على الله، من خلالِ نفيِها عن غيرِ الله، وإِثباتِها له.

ولو كانت الجملةُ بالإِثبات، فقد يتطرّقُ إِليه احتمالُ عدمِ الحصر. فلو قلتَ: اللّهُ واحد، فقد يَرِدُ على الذهنِ احتمالُ أُلوهيةِ غيرِه معه.

ولكنكَ لَمّا قلت: لا إِله إلاّ الله، فقد حَصَرْتَ، وقَصَرْتَ الأُلوهية على الله، بأُسلوبِ النفيِ أَوّلاً ثم الإِثباتُ ثانياً، ولا يَتطرقُ احتمالُ أُلوهيةِ غيرِ الله بهذه الجملة.

وقد اجتمعَ الإِثباتُ والنفيُ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

والراجحُ في إِعراب «لا إله إلا الله» ما يلي:

لا: هي «لا» النافيةُ للجنس، تعملُ عَمَلَ «إِنَّ».

إِلهَ: اسمُ لا، مبنيٌّ على الفتح، في محلِّ نصب.

وخبرُ «لا» محذوفٌ وجوباً، تقديره: موجود.

و«إِلاّ»: أَداةُ حصر.

و«الله»: بدلٌ مرفوعٌ من محلِّ لا مع اسمها: «لا إله» لأَنها أَصلاً في محلِّ رفع، فمعنى قولِك: لا إِله إلا الله: الإِلهُ الموجودُ حقاً هو الله.

ولَمّا قَدَّرْنا خبرَ «لا» المحذوفَ بأَنه «موجود»، وقُلنا تقديرُها: لا إله موجودٌ إلا الله، فإِنَّه لا يُعْتَرَضُ عليهِ بوجودِ آلهةٍ ومعبوداتٍ باطلة، يعبدُها المشركون، ويعتبرونُها آلهةً موجودة.

فعندما نفينا وُجودَ آلهةٍ غيرَ الله، لم نَقْصِدْ نفيَ الوجودِ الذاتي، فآلهةُ الكفار موجودة، وإنَّما نفينا الوُجودَ الفعليَّ المؤثِّر، فرغْمَ أن هذه الآلهةَ موجودةٌ عند أَصحابها، إلاّ أَنها ليست آلهةً في الحقيقة، فليسَ لها وجودٌ فعليٌّ مؤثِّر.

اللّه: الأول والآخر والظاهر والباطن

٥ : «قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء»:

أَخْبَرَنا اللّهُ في القرآنِ بأَنَّه سبحانه الأولُ والآخر. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

اللّهُ أَوَّلُ فلا شيءَ قبله، ولا ابتداءَ له، وهو الآخِر، فلا شيءَ بعده، ولا انتهاءَ له.

وقد وَرَدَ هذا في حديثِ رسول الله ﷺ. فقد روى مسلمٌ وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجة، عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ، أَنه كانَ مما يقولُه عندما يأْخُذُ مضْجَعَه عندَ النوم: «. . . اللهمَّ أَنتَ الأَوّل، فليسَ قبلَك شيء، وأنتَ الآخِر، فليسَ بعدَك شيء، وأنتَ الظاهر، فليس فوقَك شيء، وأنت الباطن، فليس دونَك شيء. . .»(١).

والعلمُ بأَنَّ اللّهَ هو الأولُ لا شيء قبلَه، والآخِرُ لا شيءَ بعده، أَمْرٌ راسخٌ في الفطرةِ الإنسانية. فكلُّ المخلوقاتِ لا بدَّ أنْ تكونَ مخلوقةً من العدم، ولا بُدَّ من خالقٍ خلَقَها وأَبدعَها، ولا بدَّ أنْ يكونَ هذا الخالقُ هو الأول، وأنْ يكونَ هو الآخِر، لأَنه خالق. ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٧١٣. وأبو داود برقم: ٥٠٥١. والترمذي برقم: ٣٣٩٧. والنسائي في الكبرى ٩: ٤٢٠. وابن ماجه برقم: ٣٨٧٣.

إنَّ العلمَ بوجودِ الخالقِ ووحدانيتِه أَمْرٌ فطريّ، فطرَ اللّهُ عليه كلَّ إنسان، فالفطرةُ متوجهةٌ إلى الله، مؤمنةٌ به، معترفةٌ بوحدانيته. كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

القديم: ليس من أسماء الله

وقد أَدخلَ بعضُ المتكلمين اسمَ «القديم» ضمنَ أَسماءِ الله، فقالوا: اللّهُ قديم.

والقديمُ في اللغة العربية مشتَقٌّ من القِدَم. والقديمُ هو المتقدمُ على غيره، يقال: هذا قديمٌ للسابقِ المتقدم، وهذا حديثٌ: للجديدِ اللاحق.

ووصفَ القرآنُ القمرَ في آخرِ الشهر «المَحاق» بالعُرْجونِ القديم، فقال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٩] والعُرْجُون هو عِذْقُ النخلة وجَريدُها.

والعُرْجونُ القديم هو الذي يَبقى موجوداً إلى حين وجودِ العُرْجونِ الثاني، فإذا جاءَ العُرْجونُ الجديد، قيل للعُرجونِ السابق: قديم.

والأَقْدَمُ مبالغةٌ في القِدَم، قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٦].

والآباءُ الأَقْدمون هم السابقون في القِدَم، الذينَ مضى على ذهابِهم أَجيالٌ وأَجيال، فتقدَّموا على كلِّ مَنْ بَعْدَهم.

والمتقدِّمُ هو الذي يَسبقُ غَيْرَه، قالَ اللّهُ عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

أي أنَّ فرعونَ كانَ متقدِّماً على قومِهِ الكافرين، يتقدَّمُهم ويقودُهم، إلى أَنْ أَدخلَهم النارَ خلْفَه.

وسُميت القَدَمُ بذلك لأَنها تتقدمُ بقيةَ أَعضاءِ جِسْمِ الإِنسان.

ورغمَ أنَّ بعضَ المتكلِّمين قد أطلقوا «القديم» على الله، إلاَّ أنَّ كثيراً من السلفِ والخلف أنكروا ذلك، ولم يَجعلوهُ من أسماءِ الله تعالى.

لا مَحظورَ ـ من حيثُ اللغة ـ من إطلاقِ القديمِ على الله، فاللّهُ قديمٌ بمعنى أنه متقدِّمٌ على كلِّ المخلوقات، فلا شيءَ قبْلَه.

لكن لا نُطلقُ «القديم» على الله ـ مع أنهُ جائِزٌ في اللغة ـ لأنَّ أَسماءَ الله وصفاتِه توقيفيّة. بمعنى أننا لا نُطلقُ على الله أيَّ اسم، ولا نصِفُه بأيةِ صفة، إلاَّ إذا وردَ ذلكَ في آيةٍ صريحةٍ في القرآن، أو في حديثٍ صحيحٍ مرفوعٍ للرسولِ ﷺ.

ولا يوجَدُ نصٌّ من الكتابِ أو السنة يُطلقُ اسمَ القديم على الله، بل أَطلقَ القرآنُ على الله اسمَ ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾. قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣].

و«الأَوّل» أَحسنُ من «القديم». لأنَّ «الأولَ» يَعني أَنَّ كلَّ ما بعدَه فهو تابعٌ له، وآيِلٌ إليه. وهذا المعنى لا يوجَدُ في «القديم».

اللّه: باقٍ لا يفنى

٦ : «لا يَفْنى، ولا يبيد...»:

اللّهُ لا يَفْنى ولا يَزول، بينما المخلوقاتُ تَفنى وتزول، فاللّهُ هو الباقي، وهو الآخِرُ الذي ليسَ بعدَه شيء.

وأَشارَ القرآنُ إلى بقاءِ الخالق وفَناءِ المخلوق، وذلكَ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

فكلُّ ما على الأَرضِ من المخلوقاتِ الحية وغيرِ الحية سَيَفْنى ويَنتهي ويزول، أمّا اللّهُ فإنَّه هو الباقي ذو الجلال والإكرام، سبحانه وتعالى.

ومعنى «لا يبيد»: لا يَزولُ ولا يَذهب.

الله فعال لما يريد

٧ : «.. وَلا يَكونُ إلاّ ما يُريد..»:

لا يَحدثُ شيءٌ في الكون، للناسِ أَو لغيرِهم، إلا إذا أَرادَه الله، فالأَمْرُ أَمْرُ الله، والإِرادةُ إِرادَتُه، والمشيئةُ مشيئتُه.

وإذا لم يُرِدِ اللّهُ شيئاً فإنَّه لا يقع، لأَنَّه لا يَحدثُ شيءٌ بدونِ إِرادةٍ من الله عز وجل، فما شاءَ اللّهُ كان، وما لم يَشَأْ لم يكن.

ولهذا اتفقَ الفقهاءُ على أَنه لو حَلَفَ مسلمٌ يميناً، وعَلَّقَه بالمشيئة، ثم لم يَفْعَل المُقْسَمَ عليه أَنه لا يَحنث، وذلكَ بأَنْ يقول: واللّهِ لأَفْعَلَنَّ كذا إِن شاءَ الله، لأَنَّ اللّهَ لم يَشَأْ حُدُوثَ ذلك الشيء.

طاعةُ المؤمنين لله، يُريدُها الله منهم، ويَرضاها ويحبُّها، ويثيبُهم عليها، وعصيانُ العصاةِ لله يريدُه الله قَدَراً، لكنه لا يحبُّه، ولا يَرض عنه، ولذلك يعاقِبُ صاحبَه عليه.

إرادة الله نوعان

إِنَّ إرادةَ اللّهِ وُقوعَ الأَشياءِ نوعان:

الأول: إِرادَةٌ قَدَرِيَّةٌ كونيّة خَلْقِيَّة، ومعناها أَنَّ اللّهَ يريدُ حدوثَ أَيِّ شيء في هذا الكون، لأَنه لا يُحدثُ في الكونِ إِلاّ ما يُريدُه سبحانه، حتى كُفْرَ الكافر وعِصيانَ العاصي يَندرِجُ تحتَ هذه الإِرادةِ القَدَرية.

ولكنَّ الكفرَ والعصيانَ اللذان يَقعانِ بإِرادةِ اللّه، لا يُحبهما اللّه، ولا يرضى عن أَصحابهما، ولا يَأْمُرُهم بهما، بل يعاقبُهم عليهما.

الثاني: إرادةٌ دينيةٌ أَمْرِيَّةٌ شرعية: وهي إرادةُ الله المتعلقةُ بالطاعاتِ والعباداتِ والخيرات الصادرةِ عن المؤمنين الصالحين.

فهذه العباداتُ والطاعاتُ تنطبقُ عليها الإرادةُ الأولى، وهي الإرادةُ الكونيةُ القَدَريةُ الخَلْقِيَّة، لأنَّ المؤمنين فعلوها بإرادةِ الله ومشيئتِه. ثم تنطبقُ

عليها الإرادةُ الثانية، وهي الشرعيةُ الأَمْرية، فاللّهُ هو الذي أَمَرَهم بتلك العباداتِ والطاعات، ورضيَ عنهم لَمّا فَعلوها، وأَحَبَّهم لَمّا أَدّوها، وكتبَ لهم الأَجْرَ عليها.

إذن كُفْرُ الكافر وعصيانُ العاصي، كان بإرادةِ اللّهِ الكونيةِ القَدَرية، ولكنه لم يرضَ عنه لَمّا كفرَ أَو عصى. ولكنَّ طاعةَ المؤمن كانت بإرادةِ اللّهِ الكونيةِ القَدَرية، وبإرادتِه الشرعيةِ الأَمْرية، المقرونةِ بمحبةِ الله ورضاه وثوابه.

والإِرادَتان: الكونيةُ المجردة، والكونيةُ الشرعية، مذكورتان في آياتِ القرآن.

آيات في الإرادتين

ومن الآياتِ في ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ ..﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ذَكرت الآيةُ إِرادتيْن:

الأُولى: في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ وهذه هي الإرادةُ الشرعيةُ الأمرية، المبنيةُ على الإرادةِ الكونيةِ القَدَرية، وهي المتعلقةُ بالهدايةِ والإيمان.

فاللّهُ يُريدُ إيمانَ المؤمنِ وهدايتَه، إِرادةً كونية قَدَرية، وإِرادةً شرعية أَمْرية، فيشرحُ صدْرَه لذلك، فيقومُ المؤمن بالإيمانِ والاهتداء، فيحبُّه اللّهُ، ويرضى عنه، ويثيبُه عليه.

الثانية: في قوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا ..﴾ وهذه هي الإرادةُ الأولى فقط، الإرادةُ الكونيةُ القَدَرية، وهي الإرادةُ المتعلقةُ بكفرِ وضلالِ الكافر.

فاللّهُ أَرادَ كُفْرَ الكافرِ وضَلالَه، إِرادةً كونيةً قَدَرية، لأَنه لا يكونُ في

الكونِ إلاّ ما يريدُ سبحانه، ولكنَّ اللّهَ لم يأمُرْه بالكفر، ولم يرضَهُ منه، ولذلك غضبَ على الكافرِ وعاقَبَه على كفرِه وضلالِه.

ومن الأدلةِ القرآنيةِ الصريحةِ على أنَّ اللّهَ يُريدُ كفرَ وضَلالَ وإغواءَ الكفار، إرادةً كونيةً قدرية، لا يلزمُ منها رضاه ولا محبته، قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

إنَّ هذه الآيةَ تخبرُ عن ما قالَهُ نوحٌ عليه السلام لقومِه الكفار، حيثُ أَخبرهم أَنَّ نُصْحَه لهم لن يَنْفَعَهم، إذا كانَ اللّهُ يريدُ كفرَهم وإغواءَهم: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ..﴾.

الذي أراده الله من المؤمن والكافر

ومن الأدلةِ القرآنيةِ الصريحة على أنَّ اللّهَ يريدُ طاعةَ المؤمنين إرادةً كونيةً قدرية، وإرادةً شرعية أَمرية، وأَنه يريدُ لهم الخيرَ لمحبتِه لهم ورضاهُ عنهم، قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

أَشارتْ هذه الآياتُ إلى ما يريدُه الله للمسلمين من الخيرِ إرادةً كونية وإرادةً شرعية، وكَررتْ هذه الإرادةَ ثلاثَ مرات: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ و﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ و﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾.

ومن الآياتِ قولُه تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ومعَ أنَّ اللّهَ لا يُريدُ إيمانَ الكافر، إرادةً كونيةً قدرية، لأنه عَلِمَ عنه منذُ الأزَل أنه لن يؤمن، فقد أمَره بالإيمان، مع عِلْمِه أنه لن يؤمن، فاللّهُ أمَرَ فرعونَ بالإيمان على لسانِ موسى عليه السلام، واللّهُ أمَرَ أبا لهب بالإيمانِ على لسانِ محمد ﷺ، مع عِلْمِه الأزَليِّ أنهما لن يؤمنا.

إنَّ اللّهَ لم يُرِدْ لهما الإيمان، إرادةً كونيةً قدرية، وإنما أرادَ لهما الكفر، فكفرا واختارا الكفر، وكان اختيارُهما الكفرَ وفقَ ما أراده اللّهُ لهما إرادةً كونية، ولكنَّ اللّهَ ما أَحَبَّ الكفرَ منهما، ولا رضيه لهما.

وعلى هذا قول الله: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

الأفهام لا تدرك الله

[٨] : «لا تَبْلُغُهُ الأوْهام، ولا تُدْرِكُهُ الأفْهام»:

الأَوهام هي: الظُّنون. والأَفهام هي نَتاجُ العقول.

والمعنى: أنَّ المخلوقين لا يمكنُ أَن يُحيطوا علماً بالله، مهما ذهبتْ بهم الظُّنونُ والأفكارُ والتَّخيُّلات. فظنونُهم وتخيلاتُهم لا تبلغُ ذاتَ اللّهِ سبحانه.

ومهما فكَّرَ المخلوقون في ذاتِ الله، فإنّ عقولَهم لا يمكنُ أنْ تدركَ ذاتَ الله، ولا أَنْ تُحيطَ بها.

والمؤمنون يَعرفون اللّهَ بصفاته وأسمائه، ويُثبتونها له سبحانه، ويُسَلِّمون بعجزِ عقولِهم وأَفهامِهم عن إدراكِ ذاتِ الله.

وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

الله لا يشبه خلقه

[٩] : «ولا يُشْبِهُ الأنَام»:

الأَنام هم: الناسُ الذين خلَقَهم اللّهُ على الأرض، وجَعَلهم الخلفاء

عليها. قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ [الرحمن: ١٠ ـ ١١].

ومعنى قوله: «ولا يُشْبِهُ الأنام»: أنَّ اللّهَ لا يُشبه الناسَ في شيء، لا في ذاتِه، ولا في صفاتِه، ولا في أفعالِه.

وهذا معناه أَنه لا يشبهُهُ خلْقُه أيضاً بشيء، فهو لا يُشبه الناس، والناسُ لا يُشبهونه.

هما مقامان متمايزان غيرُ متماثليْن ولا متشابهيْن: مقامُ الألوهية، الذي تفرّدَ فيه اللّه سبحانه، وتنزَّه عن مشابهةِ خلْقِه. ومقامُ العبودية الضعيفِ الذي فيه المخلوقون جميعُهم.

ولمّا نَزَّهَ القرآنُ اللّهَ عن مشابهة الناس، نَفى عنه المماثلةَ لخلْقِه، وأَثبتَ له صفاتِه الحسنى. وورَدَ هذا في آيةٍ جامعة، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

إنَّ الآيَةَ مكوَّنةٌ من قسمين:

الأول: نفيُ مشابهةِ الله لخلْقِه، في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

الثاني: إثباتُ صفاتِ الكمال له، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وبعبارة أُخرى: القسمُ الأولُ من الآية نفيُ «التجسيم» عن الله، لأَنه لا يُشبهُ الأَنامَ في شيء، لا في ذاتِه ولا في صفاتِه ولا في أَفعاله.

والقسمُ الثاني من الآية نفيُ «التعطيل» لصفاتِ الله، بل إثباتُها له كما يليقُ بعظمتِه سبحانه.

إنَّ نفيَ مشابهةِ الله لخلْقِه لا تعني نفيَ صفاتِه سبحانه وتعالى، فالواجبُ إثباتُ ما أَثبته اللّهُ لنفسِه من الصفات، ونفيُ مشابهتِه لِخلْقِه في اتصافِه بها.

قال أَبو حنيفة: «اللّه لا يشبهُ شيئاً من خلْقِه، ولا يشبهه شيءٌ من خلْقِه».

وقال أبو حنيفة أيضاً: «وصفاتُه كلُّها خِلافُ صفاتِ المخلوقين، فهو يَعلم، لا كعِلْمِنا، وهو يَقْدر، لا كقدرتِنا، وهو يرى، لا كرؤيتنا».

وقال نُعَيْمُ بنُ حماد: مَنْ شَبَّهَ اللّهَ بشيءٍ من خلْقِه، فقد كفر، ومَنْ أَنكرَ ما وصفَ اللّهُ به نفسَه، فقد كفر، وليس فيما وصفَ اللّهُ به نفسه، أو وَصفَه به رسولُه تشبيه.

وقال إِسحاقُ بنُ راهَوَيْه: مَنْ وصفَ الله، فشبَّه صفاتِه بصفاتِ أَحدٍ مِن خلقه، فقد كفرَ به سبحانه.

وقالَ إِسحاقُ بن راهَوَيْه أيضاً؛ عَلامةُ جَهْم بن صفوان وأَصحابِه: دعواهم على أَهلِ السنةِ والجماعة أَنهم مُشَبِّهَة، مع أَنَّ جَهْماً وأَصحابَه هم المُعَطِّلَة.

نفاة صفات الكمال ليسوا من أهل السنة

إنَّ الذين ينفونَ صفاتِ الله ـ كالجهميةِ أتباعِ جهم بن صفوان ـ ويُعطلونها ليسوا على منهجِ أهل السنة والجماعة.

وإنَّ أهلَ السنةِ والجماعة يُثْبتون للّهِ ما أثبتَهُ لنفسِه من الصفات، ويؤمنون بعدمِ مشابهتِه لخلْقِه سبحانه وتعالى، فهم لا يُجَسِّمونَ اللّهَ بجسم، ولا يُشَبِّهونَه بمخلوق.

فنفْيُ مشابهةِ الله لخلْقِه، لا يعني نفيَ صفاتِه الحسنى، لأَنَّ صفاتِه الحسنى قائمةٌ بذاتِه سبحانه.

ويجبُ وصْفُ الله بكلِّ كمال، لأَنَّه الذي يليقُ به كلُّ كمال. ومعلومٌ أنَّ المخلوقَ يحبُّ أنْ يتصفَ بالكمال، ووصْفُ الخالقِ بالكمالِ أولى.

إِنَّ كلَّ كمالٍ ثبتَ للمخلوق، فإِثباتُه لله من بابِ أَولى، لأَنَّ اللّهَ هو الخالق، وهو الذي يمنحُ المخلوقَ كلَّ خيرٍ وفضل.

والخلاصةُ أنَّ اللَّهَ لا يشبهُ أَحداً من خلقه، لا في ذاتِه ولا في صفاتِه

ولا في أَفعاله، ولا يشبههُ أحدٌ من خلْقِه، لا في ذاتِه ولا في صفاته ولا في أفعاله.

اللّه: الحي القيوم

١٠ : «حَيٌّ لا يموت، قيّومٌ لا ينام»:

كان الكلامُ فيما مضى عن نفيِ مشابهةِ اللّهِ لخلقه، والكلامُ هنا عن الدليلِ على التفرقةِ بين صفاتِ الله وصفات المخلوقين، من خلالِ بيانِ ما تميَّزَ وتفرَّدَ به اللّهُ عن المخلوقين.

إن اللّهَ سبحانَه حيٌّ لا يموت، فحياتُه باقيةٌ مختصةٌ به، بينما حياةُ المخلوقين محدودة، حيث يموتون حينَ انقضاءِ أعمارِهم.

ولأنَّ الحياةَ الدنيا كلَّها إلى زوال، فقد اعتبرها اللّهُ لهواً ولعباً، بالقياسِ إلى الآخرةِ الباقية. قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وإنَّ اللّهَ سبحانه قيّومٌ لا يَنام، فلا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، بخلافِ خلْقِه الذين ينامون. ونفيُ السِّنَةِ والنومِ عنه سبحانه دليلٌ على كمالِ حياتِه وقيُّوميَّته.

«الحيّ» و«القيوم» اسمان من أسماءِ الله. وَرَدا في القرآن.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا ..﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ..﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ..﴾ [طه: ١١].

لقد وردَ في هذه الآياتِ الثلاثة «الحيُّ» و«القيُّوم» مقترنان معاً، وهُما من أعظمِ أَسماءِ اللّهِ الحسنى، لأنهما يتضمَّنان إثباتَ صفاتِ الكمالِ لله.

وتتضمنُ الآيتانُ في سورتي البقرة وآل عمران ـ اللَّتان وردَ فيهما «الحي القيوم» ـ اسمَ اللهِ الأعظم. فقد روى أبو داود والترمذي وأحمد عن أَسماءَ بنتِ يزيد رضي الله عنها قالت: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ في هاتيْن الآيتيْن اسمَ الله الأعظم: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ و﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾»[1].

والأَوْلى استخدامُ اسمِ «القيوم» بدلَ اسم «القديم»، فهو يدلُّ على معنى الأزليةِ والأَبدية لله، ما لا يدلُّ عليه لفظُ القَديم.

و«القيوم» أَبلغُ من القَيّام. وهو يفيدُ قيامَه بنفسه، كما يفيدُ إِقامتَه لغيرِه. فهو سبحانه لا يَزول، ولا يَغيب، ولا يَنقص، ولا يفنى.

الحي القيوم: أساس أسماء الله

واقترانُ القيومِ بالحي: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ يستلزمُ سائرَ صفاتِ الكمال، ويدلُّ على بقاءِ ودوامِ صفاتِ الكمال وانتفاءِ النقصِ والعدمِ عنها.

وعلى هذيْن الاسميْن ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ مدارُ الأسماءِ الحسنى كلِّها، لأنَّ الحياةَ تستلزمُ جميعَ صفاتِ الكمال. فبما أنَّ اللّهَ حيٌّ أكملَ حياةٍ وأَتمَّها، فقد ثبتَ له سبحانه كلُّ كمال، ولأنَّ «القَيوم» كمالُ غنى اللّه وكمالُ قدرتِه، فلا يحتاجُ إِلى غيره.

ولهذا السبب كانت آيةُ الكرسي ـ التي وردَ فيها هذان الاسمان ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ـ أعظمَ آيةٍ في القرآن.

روى مسلمٌ عن أُبَيٍّ بنِ كعب رضي الله عنه قال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: يا أبا المنذر: أَتدري أيَّ آيةٍ من كتابِ اللّهِ معك أعظم؟

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ١٤٩٦. والترمذي برقم: ٣٤٧٨. وأحمد: ٦:٤٦١. من طرق عن عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب. وفيهما ضعف خفيف. لكن للحديث شاهد صحيح يتقوى به من حديث أنس عند أبي داود: ١٤٩٥.

قلت: «اللّهُ ورسولُه أعلم.

قال: يا أبا المنذر: أَتدري أيَّ آيةٍ من كتابِ اللّهِ معك أعظم؟

قلت: هي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَىُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.

فضربَ رسولُ الله ﷺ في صَدْري وقال: واللّهِ لِيَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر..»(١).

إن اللّهَ حيٌّ لا يموت، قَيّوم لا ينام. روى مسلمٌ عن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله لا ينام، ولا يَنبغي له أنْ ينام، يَخْفِضُ القسطَ ويَرْفَعُه...»(٢).

اللّه غني عن العالمين

١١ : «خالِقٌ بلا حاجة، رازِق بلا مَؤُونة»:

اللّهُ الخالق، خلقَ الخلقَ لعبادتِه، وهو لا يحتاجُ إِليهم، فهو غنيٌّ عنهم. واللّهُ الرزاق، يرزقُ الخلقَ كَرَماً منه وفضلاً، بدونِ مؤونة ولا ثقل.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِىُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ ..﴾ [الأنعام: ١٤].

وروى مسلم عن أَبي ذرٍّ الغفاريِّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ،

(١) أخرجه مسلم برقم: ٨١٠.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٧٩.

فيما يَرويه عن ربِّه، أَنه قال: «... يا عبادي: لو أَنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإِنسكم وجِنَّكم كانوا على أَتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلك في مُلكي شيئاً. يا عبادي: لو أَنَّ أَوَّلكم وآخرَكم وإِنسكم وجِنكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقصَ ذلك من مُلكي شيئاً. يا عبادي: لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإِنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد، فسَألوني، فأعطيتُ كلَّ واحدٍ مسألته، ما نقصَ ذلك مما عندي إلاَّ كما يُنْقِصُ المِخْيَطُ إِذا أُدخلَ البحر...»(١).

يميت الناس ويبعثهم

١٢ : «مُميتٌ بلا مخافة، باعِث بلا مَشَقَّة»:

اللّهُ يُميتُ المخلوقين، لأَنَّه يُنهي آجالَهم، وهو لا يَخافُ منهم فيميتُهم، وإِنما يُميتُهم وفقَ حكمتِه سبحانه.

كذلك يبعثُ اللّهُ المخلوقين يومَ القيامة ليحاسبَهم على أَعمالِهم، فيُثيبُ الصالحين، ويُعاقبُ المذنبين. وبَعْثُه لهم بدونِ مشقَّة.

فالموتُ في الدنيا أمْرٌ معنويٌّ غيرُ ملموس، ولكنه مخلوق، خلَقَه اللّهُ كما خلقَ الحياة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ..﴾ [الملك: ٢].

ومعلومٌ أنَّ الناسَ لا يَموتون بعد البعث، فهم مخلَّدون، إمّا في الجنة، وإمّا في النار.

ولذلك يَقْلبُ اللّهُ الموت ـ الذي هو معنويٌّ في الدنيا ـ إلى مادةٍ مرئية، حيث يحوِّله إلى كبش حقيقي، وهذا الكبشُ يُذبَحُ بين الجنةِ والنار، ليوقِنَ أَصحابُ الجنة والنار أنَّه لا موتَ بعد ذلك.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٧٧.

رسولِ الله ﷺ قال: «يُؤتى بالموت، كهيئةِ كَبْشٍ أَملح. فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنة، فيشرَئبّون ويَنظرون.

فيقول: هل تَعرفون هذا؟

فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلُّهم قد رآه.

فيُذبح. ثم يقال: يا أهلَ الجنة خلودٌ فلا موت...»[1].

صفات الله أزلية أبدية

١٣ : قوله: «ما زال بِصفاتِه قديماً قَبْلَ خَلْقِهِم. لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شيئاً لم يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَتِه. وكَما كانَ بِصفاتِهِ أَزَلِيّاً، كَذلكَ لا يَزالُ عَلَيْها أَبَدِيّاً...».

صفاتُ اللّهِ أزليةٌ قائمةٌ بذاته، فهو متصفٌ بها منذُ الأَزل، ويَبقى متصفاً بها إِلى الأَبد، ولا يُتَصَوَّرُ ورودُ زمانٍ لم يَتصفْ فيه بهذه الصفات، لأَنها صفاتُ كمال، وصفاتُ الكمال لا تَزولُ عنه سبحانه، لأنَّ فَقْدَها نقص، واللّهُ مُنَزَّهٌ عن النقص.

يَنطبقُ هذا على صفاتِ الذاتِ التي تتعلقُ بذاتِه سبحانه كالعلمِ والحياةِ والسمعِ والبصر، فهو موصوفٌ بها منذُ الأزل وإِلى الأبد.

كما ينطبقُ هذا على صفاتِ الفعل، التي تتعلقُ بأَفعالِه سبحانه: كالخلقِ والرزق، والإحياء والإماتة، والغضب والرضا، والاستواء والإتيان والنزول.

فهذه الصفاتُ أزليةٌ أبدية، فاللّهُ يَخلقُ ويُحيي ويُميت، ويَغضب ويَرضى، ولا يمنعُ كونها أزليةً أبدية حدوثَها في بعضِ الأوقات دون بعض، وانطباقَها على الناس المخلوقين.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٧٣٠. ومسلم برقم: ٢٨٤٩.

فهذه الصفاتُ الفعليةُ لها بُعْدان:
بُعْدٌ أزليٌّ أَبَدي: وهو ثبوتُ هذه الصفاتِ بعمومها.
وبُعْدٌ تنجيزيٌّ حادث: وهو تعلُّقُها بالمخلوقين.

فالله يوصَفُ بأنه خالقٌ قبلَ خلقِ المخلوقين فِعْلًا، ولم يوصَفْ بأنه خالقٌ بعدَ خلقهم.

الصفات عين الذات والأدلة

وخاضَ علماءُ الكلامِ في الصلةِ بين ذاتِ الله وصفاتِه، وتساءَلوا: هل الصفاتُ عينُ الذات؟ أم غيرُها وشيءٌ زائدٌ عليها؟

وهذه المسألةُ لم يَخُضْ فيها السلف، فلم يقولوا: الصفاتُ هي عينُ الذات، ولا هي غيرُ الذات، والأَوْلى عدمُ الخوضِ فيها.

وإنْ كانَ لا بدَّ من القول، فالراجحُ أنَّ الصفاتِ هي عينُ الذات، فلا يُتَصَوَّرُ وجودُ ذاتٍ بدون صفات، فهي ملازمةٌ لها، ولهذا هي أزليةٌ أَبدية.

وهذا ما يُفهمُ من كلامِ الإمامِ الطحاوي: «ما زالَ بصفاتِه قديماً قبلَ خلقهم». حيث قال: ما زالَ بصفاتِه. ولم يقل: ما زالَ وَصفاتُه.

فلو قال: ما زالَ وصفاتُه، لذهبَ إِلى أنَّ الصفاتِ غيرُ الذات، لأنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ في اللغة.

ولهذا عندما كانَ الإمامُ أحمدُ بن حنبل يقولُ أَثناءَ مناظرته للجهمية: لا نقول: اللّهُ وعلْمُه، اللّهُ وقدرَتُه، اللّهُ ونوره. ولكن نقول: اللّهُ بعلمِه وقدرتِه ونوره، هو إلهٌ واحدٌ سبحانه وتعالى.

ومما يدلُّ على أنَّ الصفاتِ هي عينُ الذات، أنَّ مَنْ عاذَ بعزةِ الله فقد عاذَ بذاتِ الله، ويَستوي قولُه: أَعوذُ بعزةِ الله، مع قوله: أَعوذُ بالله.

وقد كانَ رسولُ الله ﷺ يعوذُ بعزةِ اللّهِ وقدرته وكلماته ورضاه وعظمته ونور وجهه، وهو بهذا كانَ يستعيذُ بذاتِ الله سبحانه.

روى مسلمٌ عن عثمانَ بن أَبي العاص الثقفيِّ رضي الله عنه أَنه شكا إِلى رسولِ الله ﷺ وَجَعاً يجدُه في جسده منذ أُسلم. فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ على الذي تألَّمَ من جسدِك، وقل: بسم الله (ثلاثاً) ثم قُلْ سبعَ مرات: أعوذُ بعزةِ الله وقدرتِه من شَرِّ ما أجدُ وأُحاذِرُ»[1].

وروى مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه: قالَ رسولُ الله ﷺ لرجلٍ شكا إِليه لَدْغَ عقرب له: أَمَا لو قُلْتَ حينَ أَمسيت: أعوذُ بكلماتِ الله التاماتِ من شرِّ ما خلق، لم تَضُرّك..»[2].

وروى مسلمٌ عن عائشةَ رضي اللّهُ عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو يقول: «اللهمَّ إِني أعوذُ برضاك من سَخَطِك، وبمعافاتِك من عقوبتك، وأَعوذُ بك منك، لا أُحصي ثناءً عليك، أَنتَ كما أثنيتَ على نفسك..»[3].

واستعاذتُه ﷺ بهذه المذكورات استعاذةٌ بذاتِ اللّهِ سبحانه. وهذا يدلُّ على أنَّ الصفاتِ هي الذات.

الاسم هو المسمى

ومن المسائلِ التي لم يَخُضْ فيها السلف أيضاً: الاسمُ والمسمى. هل الاسمُ هو المسمّى أم غيره؟ والأَوْلى عدمُ الخوضِ فيها.

وإنْ كانَ لا بدَّ من القولِ فيها فنقول:

يُطْلَقُ الاسمُ أَحياناً ويُرادُ به عينُ المسمى، فعندما نقول: قالَ اللّهُ كذا، أو: سمعَ اللّهُ لمن حمده. فهنا يُرادُ بالاسم المسمى.

وعندما نقول: الله: اسمٌ عربيٌّ مشتق من الأَله.. فهنا يُرادُ بالاسمِ غيرُ المسمى، لأَنه اسمٌ يطلقُ على المسمى.

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٢٠٢.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٧٠٩.
(٣) أخرجه مسلم برقم: ٤٨٦.

وإذا كانت صفاتُ الله هي ذاتُ الله، فهي أزليةٌ أبدية، وليستْ مخلوقةً حادثة فإنَّ كلَّ ما سِوى الله مخلوقٌ حادث، سواء كان ملائكةً أَمْ إِنْساً أَمْ جنّاً، أمْ أيَّ خلقٍ آخرَ في السموات والأرض.

وهذه حقيقةٌ إيمانيةٌ جاءَ بها كلُّ الأنبياءِ والرسل، ودَلَّ عليها العقلُ السليم.

الله الخالق الباري

١٤ : «لَيْسَ مُنْذُ خَلْقِ الخَلْقِ اسْتَفادَ اسْمَ الخالِقِ، وَلا بِإِحْداثِهِ البَرِيَّةَ اسْتَفادَ اسْمَ الباري..»:

قولُ الإمامِ الطحاويِّ هنا تأكيدٌ لكلامِهِ السابق في الفقرة رقم «١٣».

فاللّهُ خالق، استفادَ اسمَ «الخالق» قبلَ خلْقِه للمخلوقات. واللّهُ بارئ، استفادَ اسم «الباري» قبلَ إحداثِه وإيجادِه للمخلوقين.

إنَّ اللّهَ فَعَلَ ما أَراد، وهو لم يَزَلْ فاعلاً لما يريد. وبذلك وصفَ نفْسَه سبحانه، في قولِه تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٥ ـ ١٦].

وتدلُّ هذه الآيةُ على أُمور:

١ ـ أنَّ اللّهَ يفعلُ الأَفعالَ بإِرادتِه ومشيئته.

٢ ـ أنَّ اللّهَ لم يزلْ فعّالاً لما يُريد، لأنَّ هذا كمالٌ له، ولا يَجوزُ أنْ يُفْقَدَ هذا الكمال. ولهذا جاءَ التعبيرُ بصيغةِ المبالغة «فعال»، الدالة على استمرار الفعل والخلق. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ..﴾ [النحل: ١٧].

٣ ـ أنَّ اللّهَ إذا أَرادَ فعلَ شيءٍ فَعَلَه، فلا يعجزُ عن فعلِ شيء أَرادَه. ولهذا جاءَ التعبيرُ باسم الموصول «ما»، الدالّ على العموم: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾. أيْ أنَّ اللّهَ يفعلُ كلَّ ما يُريدُ أنْ يفعلَه.

٤ ـ أنَّ إرادةَ الله وفعْلَه متلازمان، فكلُّ ما أَرادَ أنْ يفعلَه سبحانه فَعَلَه، وكلُّ ما فعلَه فقد أَرادَه.

بخلافِ المخلوق فإنه يعجزُ عن فعْلِ كلِّ شيء، فهو أَحياناً يفعلُ بعضَ ما يريد، وأَحياناً يعجزُ عن فعْلِ ما يريد، فيُريدُ ما لا يفعل، وأَحياناً يَقهره مَنْ هو أَقوى منه على فِعْلِ ما لا يُريد.

فاللّهُ وحده هو الفَعّالُ لما يُريد.

٥ ـ أنَّ أَفعالَ اللّهِ متعددة، ودلَّ هذا على تَعَدُّدِ إِرادتِه سبحانه بحسبِ تعدُّدِ أَفعاله، لأنَّ اللّهَ فَعَلَ كلَّ فعلٍ بإرادةٍ تخصُّه، فتعدُّدُ أَفعالِه دلَّ على تعدُّدِ إِرادتِه المتعلقة بها.

٦ ـ أنَّ كلَّ ما صحَّ أنْ تتعلَّقَ به إرادةُ الله جازَ فعلُه، فإذا أَرادَ أَنْ ينزلَ كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا ـ نُزولاً يليقُ بجلاله ـ نزل، وإذا أَرادَ أَنْ يجيءَ يومَ القيامة للقضاءِ بين عبادِه جاء. فلا يمتنعُ عليه فعْلُ شيءٍ أَرادَه سبحانه.

وسبيلُنا إلى إثباتِ أَفعالِه صحةُ ورودِها بخبرٍ صادق، مقصورٍ على آياتِ القرآن وما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ. فكلُّ ما وردَ من نصوصٍ بخصوصِ أَفعالِه سبحانه يجبُ الإيمانُ بها.

وعندما نقول: اللّهُ خالقٌ، فمعناه أنَّ هذا العالَمَ مخلوقٌ بكلِّ ما فيه، خَلَقَهُ اللّهُ من العدم، وأَبدعَه إِبداعاً، وأَوجَدَه من لا شيء.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ..﴾ [هود: ٧].

دلَّت الآيةُ على أنَّ اللّهَ خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام، وهذا معناه أَنه أَوْجَدَها من العدم، فهي مخلوقةٌ حادثة وليستْ أزليةً قديمة، فهذا العالَمُ حادثٌ مخلوقٌ وليس قديماً.

كان الله ولم يكن شيء قبله

روى مسلم عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ أنتَ الأَوّل، فليس قبلكَ شيء، وأنتَ الآخر، فليس بعدَك شيء، وأنتَ الظاهر، فليس فوقَك شيء، وأنت الباطن، فليسَ دونَك شيء..»(١).

ومما يدلُّ على أنَّ هذا العالَمَ حادثٌ وليس قديماً، وأنَّ اللّهَ هو وحده الأَوَّل، وأَنه لم يكنْ معه شيءٌ قبل خلْقِه للكون، ما أجابَ به رسولُ الله ﷺ أهلَ اليمن.

روى البخاريُّ وغيرُه عن عمرانَ بن حصين رضي الله عنه قال: قالَ أهلُ اليمنِ لرسولِ الله ﷺ: جئناكَ لنتفقَّهَ في الدين، ولِنسأَلَكَ عن أولِ هذا الأمر؟

فقالَ ﷺ: «كان الله، ولم يَكن شيءٌ قبلَه..»(٢).

وفي روايةٍ أُخرى قال: «كان الله، ولم يكن شيءٌ غيرَه»(٣).

ثم قال: وكانَ عرشُه على الماء، وكتبَ في الذكرِ كلَّ شيء، وخلقَ السمواتِ والأرض». وفي رواية: «ثم خلقَ السمواتِ والأرض..».

فدلَّ الحديثُ على أَنه لم يكنْ شيءٌ قبلَ الله، فهو سبحانَه الأَوَّل الذي ليس قبلَه شيء، كما دلَّ على أَنه لم يكنْ شيءٌ معه. فكلُّ ما سواهُ مخلوقٌ حادث، خَلَقَه سبحانه.

خلقَ اللّهُ الماء، وخلقَ عرشَه، وجعَلَه على الماء، وخلقَ اللوحَ المحفوظ، وكتبَ فيه كلَّ شيء، ثم خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام.

فهذا العالَمُ مخلوقٌ حادث، وليس قديماً غيرَ مخلوق.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٧١٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٧٤١٨ بلفظ: «ولم يكن شيء قبله».

(٣) رواية «ولم يكن شيء غيره» أخرجها النسائي في الكبرى. انظر تحفة الأشراف ٨: ١٨٢، وأخرجها أحمد في المسند ٤: ٤٣١ ـ ٤٣٢.

رب خالق قبل خلق العالمين

١٥ : «لَهُ مَعْنى الرُّبوبِيَّةَ وَلا مَرْبوب، وَمَعْنى الخالِقِ وَلا مَخْلوق. وَكَما أَنَّهُ مُحْيي المَوْتى بَعْدَما أَحْيا، اسْتَحَقَّ هذا الاسْمَ قَبْلَ إِحْيائِهِم، كَذلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الخالِقِ قَبْلَ إِنْشائِهِمْ...».

هذه الفقرةُ تأكيدٌ لما سبق، في تقريرِ أَزليةِ وأَبديةِ صفاتِ اللّهِ سبحانه، لأَنها قائمةٌ بذاته.

إِن اللّهَ موصوفٌ بأنه ربٌّ قبلَ إِيجادِه للمخلوقين المربوبين، وموصوفٌ بأنه خالِقٌ قبلَ خلْقِه للعالمين المخلوقين، وموصوفٌ بأَنه محيي قبلَ إِحيائِه للعالمين الأحياء، وموصوفٌ بأَنه مميتٌ قبلَ إِماتتِه للأَحياء.

هو على كل شيء قدير

١٦ : «وَذلِكَ بِأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقير، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسير، لا يَحْتاجُ إِلى شَيْء، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء، وَهُوَ السَّميعُ البَصير...».

هذه إِشارةٌ أُخرى إِلى ثبوتِ صفاتِ الله له منذُ الأزل، وأَنها ليستْ مخلوقةً ولا حادثة.

إِنَّ اللّهَ على كلِّ شيء قدير، وكلُّ ما سواهُ مخلوق، وهو فقيرٌ محتاجٌ إِليه، لا غنى له عنه، أمّا اللّهُ فإِنه غنيٌّ عن غيره، وهو لا يحتاجُ إِلى شيءٍ من مخلوقاته.

وكلُّ أمرٍ يسيرٌ عليه سبحانه، لا يعجزُ عن فعلِ أيِّ شيء أَراده.

وقدرةُ اللّهِ مطلقة، فهو قادرٌ على كل شيء.

وكلمةُ «كُلّ» في قولنا: اللّهُ على كلِّ شيء قدير، عامةٌ تشملُ كلَّ شيء ممكنٍ عقلاً.

أمّا المستحيلُ عقلاً فهذا لا يُسمى شيئاً، ولذلك لا تتعلقُ به قدرةُ الله.

ومن المستحيلِ عقلاً الذي لا يُسمى «شيئاً» عندَ العقلاء، أنْ يخلقَ اللّهُ إلهاً مثلَه، أو أنْ يُميتَ نفسه، أو أنْ يُخرجَ إنساناً من مُلكه. فهذا لا تتعلقُ به قدرةُ الله، لأنه لا يُسمَّى شيئاً عقلاً، وقدرةُ اللّهِ إنما تتعلقُ بالشيء الذي يقبلُه العقل.

وإثباتُ القدرةِ المطلقةِ لله من لوازمِ الإيمانِ بربوبيته، فمَنْ آمَنَ بأنَّ اللّهَ ربُّ كلِّ شيء، فلا بدَّ أنْ يؤمنَ بأنه قادرٌ على كل شيء.

وإذا كان المستحيلُ عقلاً لا يسمّى شيئاً، فإنَّ «الشيء» ينطبقُ على نوعين:

الأول: شيءٌ موجودٌ في الواقع، فهو شيء في «الوجودِ» الماديِّ الخارجي. كخلْقِ السمواتِ والأرض والجن والإنس.

الثاني: شيءٌ موجودٌ في علمِ الله، وليس موجوداً في الواقع، فهو شيءٌ في «علم الله».

وهذا الشيءُ في علمِ الله سيوجِدُه اللّهُ فيما بعد، وهو يعلَمُه قبلَ إيجادِه له، ويُخبرُ به في كتابه.

مثال ذلك: قيامُ الساعة. فهي ليستْ موجودةً الآن في الواقع، ولكنها موجودَةٌ في علم الله، ولذلك سماها اللّهُ «شيئاً» في القرآن. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج: ١].

ومثالُ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

فسماه «شيئاً» عندما أراده، وقبلَ أنْ يخلُقَه ويقولَ له: كن.

ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

وقد أخبرَنا اللّهُ أنه ليس كمثله شيء. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

إن هذه الآيةَ مكوَّنَةٌ من جملتيْن، كلُّ جملة رَدٌّ على فرقةٍ من الفرقِ الضالة:

الجملةُ الأولى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: هو ردٌّ على «المشبهة» الذين شَبَّهوا اللّهَ بخلْقِه في صفاته.

إنها تخبرُ أن اللّهَ موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ والجلال، ولا يُشبهه في هذه الصفات أَحدٌ من الخلق. فاللّهُ سميعٌ بصير، والمخلوقُ سميعٌ بصير. ولكنَّ سمْعَ المخلوقِ وبصَرَه ليس كسمْعِ اللّهِ وبصره.

ومَنْ شَبَّهَ اللّهَ بخلْقِه فقد كفرَ به سبحانه.

الجملةُ الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: هي رَدٌّ على «المعطِّلة» الذين نَفَوا صفاتِ الله وعطَّلوها.

إنها تخبرُ أنَّ اللّهَ سميعٌ بصير، وأَنه له صفاتُ الكمال، ولا يَجوزُ أنْ ننفيَ صفةً من صفاتِ الله، وَصَفَ بها نفسَه أَو وصَفَه بها رسولُه ﷺ.

ومَنْ نفى صفاتِه فقد كَفَرَ به سبحانه.

قالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمّاد ـ شيخُ البخاري ـ: مَنْ شَبَّهَ اللّهَ بخلْقِه، فقد كَفَر. ومَنْ جَحَدَ ما وصفَ اللّهُ به نفسَه فقد كَفَر.

الله له المثل الأعلى

وبما أنَّ اللّهَ ليس كمثْلِه شيء، فقد وَصَفَ نفسَه سبحانه بأَنه له المَثَلُ الأَعلى، وأَخبرَ أَنَّ الكفارَ لهم مَثَلُ السوء. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ..﴾ [النحل: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

جعلَ اللّهُ مَثَلَ السوءِ لأعدائِه الكافرين ولأوثانهم، وهو المَثَلُ الذي يتضمَّنُ العيوبَ والنقائص. أَمّا هو سبحانه فله المَثَلُ الأعلى، وهو الذي يتضمنُ الكمالَ والجلالَ له سبحانه.

للّهِ المَثَلُ الأَعلى لأنَّ صفاتِه سبحانه هي الأكمل، ولا يُشاركُه أو يُشابهه فيها أَحد.

إنَّ إثباتَ صفاتِ الله الذي له المَثَلُ الأعلى يتضمَّنُ أَربعةَ أمور:

١ ـ إثباتُ هذه الصفاتِ لله.

٢ ـ العلمُ بهذه الصفات، وإثباتُها في القلبِ والشعور، واليقينُ بها. فيجبُ أنْ يمتلئَ قلبُ وشعورُ المؤمنِ بالله، الحريصُ على عبادتِه وذكْرِه، من معرفةِ الله وذكْرِه، ومحبتِه وإجلاله، وخوفِه ورجائِه، وتعظيمِه والتوكل عليه. فهذا الذي في قلبِه لله خاصٌّ بالله، لا يُشركُ به أحداً، ولهذا له المَثَلُ الأعلى عند هذا المؤمن.

٣ ـ ذكْرُ صفاتِ الله والجهْرُ بها، وإعلانُها، وإخبارُ الآخرين بها، وتنزيهُها عن العيوبِ والنقائصِ والتمثيل والتعطيل.

٤ ـ محبةُ اللّهِ المتصفِ بها وتوحيدُه، والإخلاصُ له، والتوكلُ عليه، والإنابةُ إليه. وكلَّما كان الإيمانُ بالصفاتِ أكمل، كان الحبُّ والإخلاصُ لله أَقوى.

وفي إعرابِ «كمثله» وجوه:

الأول: الكافُ فيها زائدة، للتوكيد. و«مِثْلَه» خبرُ «ليس». التقدير: ليسَ شيءٌ مِثْلَه.

الثاني: «مِثْل» فيها زائدة. والتقدير: ليس شيءٌ كَهُوَ. وهذا بعيد.

الثالث: ليسَ في الجملة زيادةٌ أصلاً، والكافُ للمبالغة في نفي مماثلةِ الخلق له. والمعنى ليس شيءٌ يماثلُه سبحانه، فليس لمثْلِه مِثْل، لو فُرِضَ له المثل.

والخلاصةُ أنَّ الآيةَ تنفي مماثلةَ ومشابهةَ مخلوقاتِه له، وتقررُ تفرُّدَه بصفاتِ الكمالِ والجلال سبحانه.

شمول علم الله

١٧ : «خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ..»:

خلقَ اللّهُ المخلوقين الأَحياء، وأَوجدهم وأَنشأَهم من العَدَم. وكان عالماً بهم. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وأَخبرَنا اللّهُ أَنَّ علمَه شاملٌ لكلِّ شيء. قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ...﴾ [الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠].

ولا بدَّ من إِثباتِ العلم لله، ونفيُ الجهلِ عنه لا يُثبتُ العلمَ له، فلا بدَّ أنْ نُثبتَ ما أَثبتَهُ اللّهُ لنفسه، وأنْ ننفيَ ما نفاهُ عن نفسه، وأنْ نمسكَ عما أَمْسَكَ عنه.

وإِثباتُ العلمِ لله عن طريقِ الدليل العقلي، إِضافةً إِلى الدليلِ النقلي المتمثلِ بالآياتِ السابقة.

فاللّهُ خلقَ المخلوقات وأَوجدها، ومستحيلٌ عقلاً أنْ يكونَ جاهلاً بها، لأنَّ الجاهلَ بالشيء لا يَقدرُ على إِيجادِه.

أَوجدَ اللّهُ المخلوقاتِ بإرادته، وإِرادتُه تستلزمُ علْمَه، لأَنه لا يريدُ الشيءَ إلا إِذا علمه، ولا يخلقُه إلاّ إِذا أَرادَه، ولذلك يخلقُ الشيءَ بعلْمِه.

ثم إِنَّ هذه المخلوقات موجودةٌ على غايةِ الإِحكام والإتقان، ووجودُها يستلزمُ علمَ اللّهِ بها، فلو لم يكن عالماً بها لما أَوجدها هكذا.

والإنسانُ يوصَفُ بالعلم وهو مخلوق، وعلْمُه محدودٌ قاصر، فكيفَ نصفُه بالعلم ولا نصفُ اللّهَ به، مع أنَّ وصْفَ اللّهِ به أَولى، وهو صفةُ كمالٍ لله. واللّهُ هو الذي عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم.

إِذنْ نُثبتُ العلمَ لله، ونُقرُّ أَنه خلقَ المخلوقين وهو عالمٌ بهم..

عنده أقدار وآجال العالمين

١٨ : «وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْداراً، وَضَرَبَ لَهُمْ آجالاً، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَعَلِمَ ما هُمْ عامِلونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ...».

خَلَقَ اللّهُ المخلوقين بعلْمِه، وقَدَّرَ لهم كلَّ شيء تقديراً، وكُلُّ أَقْدارهم قَدَّرَها سبحانه.

وأَخبرنا سبحانه أَنه قَدَّرَ كُلَّ شيء. قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣].

وقَدَّرَ اللّهُ أَعْمارَ وآجالَ المخلوقين، وجعلَ لكلٍّ منهم عمراً محدَّداً، إذا انتهى جاءَه الأجل، لا يستأخِرُ عنه ولا يستقدِمُ عليه. قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا . .﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأَكَّدَ هذا المعنى رسولُ الله ﷺ. فقد روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالَتْ أُمُّ حبيبة زوجُ النبيِّ ﷺ: اللهمَّ أَمْتِعْني بزَوْجي رسولِ الله، وبأَبي أَبي سفيان، وبأخي معاوية.

فقالَ لها النبيُّ ﷺ: «قد سأَلْتِ اللّهَ لآجالٍ مضروبة، وأَيام معدودة، وأَرزاقٍ مقسومة، لن يُعَجِّلَ شيئاً قبلَ حِلِّه، ولنْ يؤخِّرَ شيئاً عن حِلِّه. ولَو كنتِ سأَلْتِ اللّهَ أَنْ يُعيذَكِ من عذابٍ في النار، وعذابٍ في القبر، كان خيراً وأفضل. . .»[1].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٦٣.

الأَجل بين الأسباب والمسببات

إنَّ الإنسانَ لا يموتُ إلا عندما ينتهي أَجلُه الذي قَدَّرَهُ اللّهُ له، فالمقتولُ يموتُ بأجله لا بالقتل، وما القَتْلُ إلاّ سببٌ جعلَهُ اللّهُ لانتهاءِ عمرِ المقتول.

لقد قدَّرَ اللّهُ أَسباباً لانتهاءِ أعمارِ الناس، قَدَّرَ أنْ يموتَ هذا بسبب، المرض، وهذا بسببِ القتل، وهذا بسببِ الهدم، وهذا بسببِ الحرق، وهذا بِسببِ الغَرَق، وهكذا. واللّهُ هو الذي خلقَ الموتَ والحياة، وخلقَ أَسبابَ الموتِ والحياة.

ومع أنَّ الميتَ قتلاً يَموتُ بأجلِه لا بالقتل، وما القَتْلُ إلاّ سبب، فإنَّ اللّهَ أوجبَ القصاص أو الديةَ على القاتل لأنه ارتكبَ ما نهى اللّهُ عنه، وباشَرَ السببَ الذي حَرَّمَهُ الله.

وما يقالُ في أَسبابِ الموت يُقالُ في أسبابِ طولِ العمر، فمن المعلومِ أن اللّهَ هو الذي قَدَّرَ الأَعمار، وهو الذي جعلَ بعضَ الأعمالِ أَسباباً في طولها.

من هذه الأسبابِ صلةُ الرحم. روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَنسِ بن مالك رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ أَحبَّ أنْ يُبْسَطَ له في رزقِه، ويُنْسَأَ لَهُ في أَثَرِه، فلْيَصِلْ رحِمَه..»(١).

فاللّهُ جعلَ صلةَ الرحم سبباً في طول العمر، أي أَنه قَدَّرَ أنْ يَصِلَ هذا الإنسانُ رحمه، فيعيشُ بهذه الصلة إلى هذه الغاية، وقَدَّرَ أنْ لا يصلَ الإنسانُ الآخرُ رحمه، فلا يَعيشُ إلى هذه الغاية. فاللّهُ هو الذي جعلَها سبباً، وهو الذي قَدَّرَ الآجال وحَدَّدَها.

ونأخذُ من حديثِ أُمِّ حبيبةَ رضي الله عنها السابق أنه لا يَليقُ أَنْ يدعوَ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٦٧. ومسلم برقم: ٢٥٥٧.

إِنسانٌ لآخرَ بطولِ العمر، لأنَّ الأعمارَ محددة، والأَوْلى أَنْ يكون الدعاءُ بالنجاةِ من عذاب النار: «لقد سألْتِ اللّهَ لآجالٍ مضروبة، وأَيامٍ معدودة، وأَرزاقٍ مقسومة».

ولهذا كانَ الإِمامُ أحمدُ بنُ حنبل يكرَهُ أنْ يُدعىٰ له بطولِ العمر، ويقول: هذا أَمْرٌ قد فُرِغَ منه.

وبدلَ أَنْ يدعوَ الإنسانُ بطولِ العمر، يَدْعو بأنْ يُحييه اللّهُ إِذا كانت الحياةُ خيراً له، ويُميتَه إِذا كان الموتُ خيراً له.

روى النسائيُّ عن عمارَ بنِ ياسر رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «اللهمَّ بعلْمِكَ الغيب، وقدْرَتِك على الخَلْق، أَحْيِني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وتوفَّني إِذا كانت الوفاةُ خيراً لي..»[1].

العمر بين المحو والإثبات

أَمّا قولُه تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١] فظاهرُه أَنَّ العمرَ قد يَنقص. وللعلماءِ قولان في الذي يُنْقَصُ من عمره، الذي عادَ عليه الضمير «الهاء» في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ..﴾.

الأول: أنَّ الذي يُنْقَصُ من عمره مُعَمَّرٌ آخر. والتقدير: وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّر، ولا يُنْقَصُ من عمرِ مُعَمَّرٍ آخر، إلاّ في كتابٍ عند الله.

الثاني: أنَّ الذي يُنْقَصُ من عمره هو المُعَمَّرُ الأول. والمعنى: قد يُزادُ في عمرِ هذا الإنسان المعَمَّر، وقد يُنْقَصُ من عمره، وهذه الزيادةُ والنقصان في كتاب.

وعلى القولِ الثاني الذي هو ظاهر الآية يُرادُ بالكتابِ الصحفُ التي عند الملائكة، وجعَلَها اللّهُ في أيديهم.

---

(١) أخرجه النسائي: ٣: ٥٤ ـ ٥٥.

وحَمَلَ العلماءُ على هذه الآية الآية الأُخرى، وهي قولُه تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ۝٣٩..﴾ [الرعد: ٣٩].

وذَهبوا إلى أنَّ المحوَ والإثبات، إنما هو في الصحفِ التي جعلَها اللّهُ في أَيدي الملائكة، وفيها أَعمارُ المخلوقين.

والمرادُ بأمِّ الكتاب في الآية: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ اللوحُ المحفوظ، وهو أصْلُ الصحف التي بأَيْدي الملائكة، وهذا لا مَحْوَ فيه.

والخلاصةُ أنَّ اللّهَ قَدَّرَ للمخلوقين آجالاً محددة، وإذا حانَ أَجَلُ أحدِهم فإنه لا يتقدمُ عليه ولا يتأَخَّرُ عنه.

وعلْمُ اللّهِ شاملٌ لكل شيء، ويعلمُ كلَّ ما يتعلقُ بالمخلوقين، مما كان ومما يكون، وعلْمُه هذا أَزليٌّ قبلَ خلقهم، فهو يعلمُ ما سيعملون قبلَ خلْقِه وإِيجادِه لهم.

ولما خلقَ اللّهُ المخلوقين وقَدَّرَ آجالَهم، أَمرهم بطاعتِه وعبادتِه، ونَهاهم عن معصيتِه ومخالفته، لأَنه خلَقَهم لعبادته.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ..﴾ [الملك: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

طلاقة مشيئة الله وإرادته

١٩ : «وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْري بِتَقْديرِه وَمَشِيئتِه، وَمَشيئَتُه تَنْفُذ، لا مَشيئَةَ لِلْعِبادِ إلاّ ما شاءَ لَهُم. فَما شاءَ لَهُم كان، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُن».

كلُّ شيء يَجري في هذا الكون فهو بتقديرِ الله سبحانه ومشيئتِه، فما شاءَ اللّهُ كان، وما لم يشأْ لم يكن، ومشيئتُه سبحانه تنفذُ وتتحقق، لأَنه لا رادَّ لمشيئته.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ..﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ..﴾ [يونس: ٩٩ ـ ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ..﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وما يشاؤُه الناسُ إنما هو شاءَهُ الله، وهم لا يَشاءون إلاّ ما شاءَهُ الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٩ ـ ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٧ ـ ٢٩].

كلُّ هذه النصوصِ تدلُّ على طلاقةِ مشيئتِه سبحانه، فما شاءَ اللّهُ كان، وما لمْ يشأْ لم يكن، ولا يكونُ في ملْكِ اللّهِ إلا ما يشاؤُه سبحانه.

المشيئة الكونية والشرعية

ومشيئةُ اللّهِ نوعان:

مشيئةٌ كونية: تقومُ على العلم. ومن هذا البابِ مشيئةُ الله كفْرَ الكافر، فهو يشاؤُه سبحانه، بمعنى أنه يعلمُ أنَّ هذا الكافرَ سيكفر، ولكنَّهُ لا يَرضاهُ منه.

ومشيئةٌ شرعية: تَقومُ على المحبةِ والرضا، ومن هذا البابِ مشيئةُ الله طاعةَ المؤمن، فهو يعلمُ أنه سيطيع، ويَرضى منه الطاعةَ، ويثيبُه عليها.

وقد ذمَّ اللّهُ الكفارَ لأنهم احتجوا على كفرِهم بمشيئةِ الله:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ ..﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [النحل: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠].

وسببُ ذمِّهم في هذه الآياتِ أَنهم احتجّوا بمشيئةِ الله على رضاه، فقالوا: اللّهُ شاءَ لنا أنْ نكفر، ورضيَه مِنّا وأَحبَّنا، ولو لم يرضَ ذلك لمنَعَنا منه، وجعلوا مشيئتَه دافعةً وملغيةً لأمرِه بالإيمانِ والتوحيد، وبذلك بَرّروا كفرَهم بالمشيئةِ الإلهية.

وبَيّنا أن هذه المشيئةَ مشيئةُ عِلْم، لا مشيئةَ رضا ومحبة.

وهكذا يفعلُ الجُهّالُ العصاة، حيث يحتجّون بمشيئةِ اللّهِ على ارتكابهم المعصية.

وقد سَرَقَ أَحدهم زمنَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فسأَلَه عمرُ عن السرقة، فقال: سرقْتُ بقضاءِ الله وقَدَرِه، فردَّ عليه عمرُ رداً حكيماً حيث قال له: وأَنا أقطعُ يَدَكَ بقضاءِ الله وقدره!!.

احتجاج آدم وموسى في القدر

وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنه حصلَ احتجاجٌ بين آدمَ وموسى عليهما السلام في موضوعِ القدر.

فروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدمَ عليهما السلام، فقال له: أنتَ الذي أَخرجْتَ الناسَ بذنبكَ من الجنة وأشقيْتَهم.

قال آدم: يا موسى: أنتَ الذي اصطفاكَ اللّهُ برسالاتِه وبكلامِه، أَتلومُني على أمْرٍ قد كتبهُ اللّهُ عليَّ قبلَ أنْ يخلُقَني؟

قالَ رسولُ الله ﷺ: «فَحَجَّ آدمُ موسى..»(١).

أي أنَّ آدمَ غلبَ موسى عليهما السلام بقوةِ الحجة.

والراجحُ في معنى الحديث أنَّ موسى لامَ آدمَ عليهما السلام على المصيبةِ التي أُصيبَ بها، وهي إخراجُه من الجنة، التي أَدَّتْ إِلى إِخراجِ أَولادِه من الجنة، ولم يَلُمْهُ على أكْلِه من الشجرة.

وكان احتجاجُ آدمَ عليه السلام بالقَدَرِ على المصيبة وإِخراجِه من الجنة، وهو أنَّ اللّهَ قَدَّرَ عليه قبلَ أنْ يخلقَه الخروجَ من الجنة. ولم يحتجّ آدمُ على أكلِه من الشجرة. ولهذا حجَّ آدمُ موسى.

ومعلومٌ أنَّ المؤمنَ يحتجُّ بالقدرِ عند المصائب، لأَنه يعلمُ أنَّ المصيبةَ تصيبُه بقدَرِ الله، فيستسلمُ ويرضى بقدَرِ الله.

أمّا الذنبُ فلا يجوزُ للمسلم أنْ يحتجَّ بمشيئةِ اللّهِ وقَدَره على ارتكابه له، وعليهِ أنْ يستغفرَ اللّهَ ويتوبَ إليه عندما يذنب، وعليهِ أنْ يرضى بالقدرِ ويصبرَ على الابتلاء عندما تصيبه المصيبة. قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ..﴾ [غافر: ٥٥].

قال وهْبُ بن مُنَبِّه: نظرْتُ في القَدَرِ فتحيَّرْتُ، ثم نظرْتُ فيه فتحيَّرْتُ، ووجدْتُ أعلمَ الناسِ بالقَدَر أكفَّهم عنه، وأجهَلَ الناسِ بالقدر أَنطقَهم فيه..

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٩. ومسلم برقم: ٢٦٥٢.

وما أحسنَ قولِ الشاعر يخاطبُ ربَّه:

فَمـا شِـئْـتَ كـانَ وَإنْ لَـمْ أَشَـأْ ... وَمـا شِـئْـتُ إنْ لَـمْ تَـشَـأْ لَـمْ يَـكُـنْ

الله يهدي ويضل

[٣٠] : «يَهْدي مَنْ يشاء، وَيَعْصِمُ وَيُعافي فضلاً، وَيُضِلُّ مَنْ يَشاء، وَيَخْذِلُ وَيَبْتَلي عَدْلاً. وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبونَ في مَشيئَتِه، بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ..».

هذا استمرارٌ لبيانِ طلاقةِ المشيئة، فاللّهُ يفعلُ ما يشاء، وهو يُضلُّ مَنْ يشاء، ويَهدي مَنْ يشاء. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ..﴾ [القصص: ٥٦].

الخطابُ في الآيةِ للنبي ﷺ، والآيةُ مواساةٌ له بشأنِ عمِّه أَبي طالب، فقد كانَ ﷺ يَدعوه إلى الإسلام، وكان راغباً في إسلامه، بل كانَ حريصاً على ذلك، وعندما كان أَبو طالب على فراشِ الموت، ذهبَ إليه رسولُ الله ﷺ يَدعوه، ولكنه رفضَ الدخولَ في الإسلام، وماتَ كافراً. فحزنَ رسولُ الله ﷺ على موتِه كافراً، فخاطَبَه اللّهُ بهذه الآية مواسياً له.

وأَخبرَهُ فيها أَنهُ عاجزٌ عن أَنْ يهديَ مَنْ أَحَبَّ هدايتَه، لأَنَّ هذه الهداية ليست بيده، إنما هي بيدِ الله، فاللّهُ هو الذي يَهدي مَنْ يشاء.

والهدايةُ التي نَفاها عن الرسولِ ﷺ، هي قَذْفُ الإيمانِ في قلبِ المدعُوّ، وتوفيقُه إليه، وإعانتُه عليه، فهذه بيدِ الله.

بينما أَثبتَ اللّهُ لنبيِّه ﷺ الهدايةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهذه الهدايةُ المثبتةُ له، هي الإرشادُ والبيانُ والدلالةُ إلى الخير.

والهدايةُ بمعنى الإعانةِ على الإيمان والتوفيقِ إليه والثباتِ عليه بيدِ الله سبحانه، فهو الذي يَهدي هذه الهدايةَ لمن يشاء، ويَحرمُ منها ما يشاء.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

وبما أنَّ مشيئةَ الله طليقة، يَفعلُ ما يشاء، يُضلُّ مَن يشاء، ويَهدي مَنْ يشاء، ولا يَجبُ عليه فعْلُ شيء سبحانه، وهو حكيمٌ في أَفعاله.

اللّهُ يَهدي مَنْ يشاء، ويَحفظه ويُعافيه، فضْلاً منه وكَرَماً ورحمةً وإنعاماً. ويُضلُّ مَنْ يشاءُ ويَخذُلُه، وهو عادلٌ معه في ذلك.

والناسُ يتقلَّبون في مشيئةِ الله، سواء كانوا مهتدين مؤمنين، أَمْ كانوا كافرين ضالين. فمَنْ هداهُ اللّهُ فقد هداهُ بفضْلِه، ومَنْ أضلَّه فقد أَضلَّه بعدله، وهو سبحانه يفعلُ ما يشاء. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ . .﴾ [التغابن: ٢].

اللّه ليس له شبيه ولا مثيل

[٣١]: «وَهُوَ مُتَعالٍ عَنِ الأَضْدادِ وَالأَنْداد، لا رَادَّ لِقَضائِه، وَلا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه وَلا غالِبَ لِأَمْرِه. آمَنّا بِذلِكَ كُلِّه. وَأَيْقَنّا أَنّ كُلّاً مِنْ عِنْدِه..».

الضّدّ: المخالف. والنّدّ: المِثْل.

اللّهُ سبحانه تَعالى عن الأَضداد، فلا مُخالِفَ له ولا مُعارض، ولا يَقدِرُ أَحدٌ على أَنْ يُبطلَ أَمْرَ اللّهِ أو يوقِفَ مشيئَته.

كما أَنه ليس له شبيهٌ ولا مثيلٌ ولا نِدٌّ ولا مُساوٍ. وهذا ما وردَ صريحاً في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

والكِفءُ هو: المماثِلُ المشابهُ المساوي.

واللّهُ سبحانه لا يَرُدُّ أَحدٌ قضاءَه مهما كان قوياً، لأنَّ كلَّ ما سواه مخلوق، وهو ضعيفٌ عاجزٌ أَمامَ قوةِ الله، فكيف يردُّ قضاءَه؟

واللّهُ لا معقِّبَ لحكمه، ولا يؤخِّرُه أحد، فما حَكَمَهُ اللّهُ نافذ، وما قَضاهُ اللّه منجَزٌ واقع.

ولا غالبَ لأمْرِه سبحانه، لأنَّ المخلوقين ضعفاءَ أَمامَ الله، لا يتحدّونَه ولا يغلبونه ولا يوقِفون أَمْرَه. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وهذا كلُّه لأنَّ اللّهَ هو الواحدُ القهارُ سبحانه وتعالى.

ونحنُ نؤمنُ بهذا ونوقِنُ به، إيماناً جازماً ويقيناً راسخاً: اللّهُ خالقُ كلِّ شيء، وهو على كلِّ شيء وكيل، له مقاليدُ السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم...

محمد رسول الله ﷺ

٣٢ : «وَإِنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ المُصْطَفىٰ، وَنَبِيُّهُ المُجْتَبىٰ، وَرَسولُهُ المُرْتَضىٰ»:

الكلامُ هنا عن الإيمانِ بنبوةِ محمدٍ ﷺ.

وهمزةُ «إِنّ» مكسورةٌ هنا: «وإن محمداً عبده المصطفى»، لأنَّ الجملةَ معطوفةٌ في كلامِ الإمامِ الطحاوي على أولِ عبارةٍ في الرسالة. وهي قولُه: «نقول في توحيدِ الله ـ معتقدين بتوفيق الله ـ: إِنَّ اللّهَ واحدٌ لا شريك له...».

وهنا قال: «وإِن محمداً عبدُه المصطفى»، فعَطَفَها على تلك الجملة. والمعنى: نقول: إِن اللّهَ واحدٌ لا شريك له، وإِنَّ محمداً عبدُه المصطفى.

المصطفى من الاصطفاء، والمجتبى من الاجتباء، والمرتضى من الارتضاء، والكلماتُ الثلاثةُ متقاربةٌ في المعنى، وهي بمعنى الاختيار. أي: أنَّ اللّهَ اختارَ محمداً رسولاً ﷺ، واصطفاه واجتباه وارتضاه من خلقه.

وهنا وَصَفَ محمداً ﷺ بالعبوديةِ وبالنبوةِ وبالرسالة.

ووُصفَ محمدٌ ﷺ بالعبوديةِ لله، لأنَّ مقامَ العبوديةِ للّهِ هو أكملُ وأفضلُ وأعلى مقاماتِ المخلوقين. وكلَّما ازدادَ المخلوقُ العابدُ في تحقيقِ عبوديتِه لله، كلما علَتْ درجتُه عند الله.

وقد وصفَ اللّهُ الملائكةَ بأنهم عبادٌ مُكْرمون عند الله. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦].

ووَصفَ اللّهُ نبيَّه محمداً ﷺ بالعبوديةِ له في أكثرَ من آية.

قال تعالى عن الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ..﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ..﴾ [البقرة: ٢٣].

إن رسولَ الله محمداً ﷺ أكثرُ المخلوقين جهداً في تحقيقِ عبوديتِه لله، ولهذا كان أفضلَ الناسِ عند الله.

من الأدلة على إثبات النبوة

وقد أيّدَ اللّهُ محمداً ﷺ بالمعجزاتِ الدالةِ على نبوته ورسالته، كما أيّدَ أنبياءَه ورسلَه بهذه المعجزات.

ولكنَّ المعجزاتِ ليست هي الدليلَ الوحيدَ لإثباتِ النبوة. فمن الأدلةِ على إثباتِ النبوة:

١ ـ المعجزاتُ التي أَيّدَ اللّهُ بها أَنبياءَه ورسلَه.

٢ ـ ملامحهُ الخارجيةُ دالةٌ على صدقِه ونبوته، فصِدْقُ الصادقِ يبدو على ملامحه، وكَذِبُ الكاذبِ يبدو على ملامحه.

ولهذا قالَ حسانُ بن ثابت رضي الله عنه يمدحُ محمداً ﷺ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فيه آياتٌ مُبَيِّنَةٌ   كانَتْ بَديهَتُهُ تَأْتيكَ بِالخَبَرِ

روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «عليكم بالصدق، فإنَّ الصدقَ يَهدي إلى البر، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، ولا يزالُ الرجلُ يصدق، ويتحرّى الصدق، حتى يُكْتَبَ عند الله صِدّيقاً. وإيّاكم والكَذب، فإنَّ الكذبَ يَهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجورَ يَهدي إلى النار، ولا يزالُ الرجلُ يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يُكتبَ عند اللّهِ كَذّاباً. . .»[1].

والملائكةُ لا يُنزلهم اللّهُ على الكذابين، إنما ينزلُ عليهم الشياطين، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٦].

وهذا ما قررهُ رسولُ الله ﷺ لابنِ صَيّاد، الكاهنِ اليهودي الكاذب الذي ادَّعى النبوةَ في المدينة.

فقد روى مسلمٌ عن أَبي سعيدِ الخدري رضي الله عنه قال: لقيَ رسولُ الله ﷺ ابنَ صياد في بعضِ طرقِ المدينة، ومعه أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما. فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «أَتشهدُ أَني رسولُ الله؟

فقالَ له ابنُ صَيّاد: أَتشهدُ أَنتَ أَني رسولُ الله؟!

فقال عليه الصلاةُ والسلام: آمنتُ باللّهِ وملائكته وكتبه.

ماذا ترى؟

قال ابنُ صياد: أَرى عَرْشاً على الماء!

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٠٧.

قالَ عليه الصلاة والسلام: ترى عرشَ إبليسَ على البحر»[١].

٣ ـ مطابقةُ قولِه لفعلِه، فالكاذبُ والكاهنُ لا يطابقُ قولُه فعلَه..

إِنَّ أفعالَ وأعمالَ الرسولِ تطابقُ أقوالَه، وهي علامةُ صدْقِه، ودليلُ نبوتِه. ولو كان كاذباً لظهرَ هذا على وجْهِه ولسانه.

ولهذا قالَ عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه: ما أَسَرَّ أَحَدٌ سريرَةً إلا أَظهرَها اللّهُ على صفحاتِ وجهه، وفلتانِ لسانه..

لقد كانتْ صفاتُ وأفعالُ رسولِ الله ﷺ دليلاً على نبوته، وهذه هي النتيجةُ التي خرجَ بها الناظرونَ في صفاتِه وأفعالِه من معاصريه.

من هؤلاء زوجُه خديجةُ رضي الله عنها. فقد روى البخاريُّ ومسلم عن عائشةَ رضي الله عنها أنه لما جاءَ الوحيُ إلى رسول الله ﷺ، أتى خديجةَ رضي الله عنها وقالَ لها: «إنّي قد خشيتُ على نفسي!

فقالت: كَلاّ. واللّهِ لا يُخزيكَ اللّهُ أبداً: إنك لتصلُ الرَّحم، وتصدقُ الحَديث، وتَحملُ الكَلَّ، وتُقري الضَّيْفَ، وتُكسبَ المعدومَ، وتُعينُ على نوائبِ الحق..»[٢].

ولما أَرادَتْ خديجةُ رضي الله عنها التأكدَ من ذلك ذهبتْ هي ورسولُ الله ﷺ إلى ابنِ عمها ورقةَ بنِ نوفل، ولمّا سمعَ ورقةُ من رسول الله ﷺ، قالَ له: «هذا هو الناموسُ الذي كان يأتي موسى عليه السلام..»[٣].

هرقل يتثبت من دلائل النبوة

ومن هؤلاء أيضاً هرقل قيصرُ الروم، فلمّا وصلَهُ كتابُ رسولِ الله ﷺ يَدعوه إلى الإسلام، سألَ أَبا سفيان ـ الذي كان زعيمَ الكفارِ من قريش

(١) أخرجه مسلم: ٢٩٢٥.

(٢)(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣. ومسلم: ١٦٠.

وكان في تجارةٍ في الشام - عن صفاتِ رسولِ الله ﷺ. وخرجَ من هذه الأسئلةِ بحقيقةٍ قاطعة، وهي أنه رسولُ اللّه.

وعندما ننظرُ في أسئلةِ هرقلَ وإجاباتِ أَبي سفيان، والنتيجةِ التي خرجَ هرقلُ بها من كلِّ جواب، فإننا نقفُ على وسيلةٍ ناجحة من وسائلِ إثباتِ النبوة، وهي معرفةُ صفاتِ وأفعالِ النبي، ودلالةُ هذه الصفاتِ والأفعالِ على نبوته.

ونوردُ فيما يلي روايةَ البخاريّ ومسلم عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما: أَن أَبا سفيان ابنَ حرب رضي اللهُ عنه أَخبره: أن هرقلَ أرسلَ إليهِ في ركبٍ من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدَّةِ التي كان رسولُ الله ﷺ مادَّ فيها أَبا سفيان وكفارَ قريش.

فأَتوه وهم بإيلياء، فَدَعاهم في مجلسه، وحولَه عظماءُ الروم.

ثم دَعاهم، ودَعا بترجمانِه. فقال: أَيُّكم أَقربُ نَسَباً بهذا الرجلِ الذي يزعمُ أَنه نبي؟

قال أبو سفيان: أَنا أقربُهم نَسَباً.

فقال: ادْنوهُ مني، وقَرِّبوا أَصحابَه، فاجْعلوهم عند ظهره.

ثم قالَ لترجمانه: قل لهم: إني سائلٌ هذا الرجل، فإنْ كَذَبَني فَكَذِّبوه، فواللّهِ لولا الحياءُ مِن أنْ يأْثِروا عَلَيَّ كذباً لكَذَبْتُ عنه!

ثم كانَ أولَ ما سألَني عنه أَنْ قال: كيف نَسَبُه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نَسَب

قال: فهل قال هذا القولَ أحدٌ منكم قبلَه؟

قلتُ: لا.

قال: فهل كان مِن آبائِه مِنْ مَلِك؟

قلت: لا.

قال: فأَشرافُ الناس يتبعونَه أَمْ ضعفاؤُهم؟

قلت: بل ضعفاؤُهم.

قال: أَيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدُّ أَحدٌ منهم سَخْطَةً لدينه بعد أَنْ يدخلَ فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونَه بالكذبِ قبلَ أنْ يقولَ ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يَغدر؟

قلت: لا. ونحنُ منه في مدة، لا نَدري ما هو فاعلٌ فيها!

ولم تمكنّي كلمةٌ أُدخلُ فيها شيئاً غيرَ هذه الكلمة!!!

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيفَ كان قتالُكُم إياه؟

قلت: الحربُ بيننا وبينه سِجال، ينالُ منّا وننالُ منه.

قال: بماذا يأمرُكم؟

قلت: يقول: اعبدُوا اللّهَ وحده، ولا تُشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقولُ آباؤكم، ويأْمُرُنا بالصلاةِ والصدقِ والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له:

سألْتك: عن نَسَبِه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نَسَب، فكذلك الرسل، تُبعثُ في نَسَب قومِها.

وسألتك: هل قالَ أحدٌ منكم هذا القول؟ فذكرْتَ أَنْ لا. فقلت: لو كانَ أحدٌ قال هذا القولَ قبلَه لقلت: رجلٌ يأْتَسي بقولٍ قيلَ قبلَه.

وسألتك: هل كانَ من آبائِه من ملك؟ فذكرتَ أَنْ لا. قلت: فلو كانَ مِن آبائِه من ملك قلت: رجلٌ يطلبُ ملكَ أَبيه.

وسألْتُك: هل كنتم تتهمونَه بالكذب قبلَ أنْ يقولَ ما قال؟ فذكرْتَ أن لا. فقد أَعرفُ أنه لم يكن ليذَرَ الكذبَ على الناس ويكذبَ على الله.

وسألتك: أَشرافُ الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤُهم؟ فذكرْتَ أنَّ ضعفاءهم اتبعوه، وهم أَتباعُ الرسل.

وسألْتُك: أَيزيدون أَم ينقصون؟ فذكرتَ أَنهم يزيدون، وكذلك أمْرُ الإيمانِ حتى يتمّ.

وسألْتك: أَيرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أنْ يدخلَ فيه؟ فذكرتَ أنْ لا. وكذلكَ الإيمانُ حين تخالطُ بشاشتُه القلوب.

وسألْتُك: هل يغدر؟ فذكرتَ أَنْ لا. وكذلك الرسلُ لا تَغدر.

وسألْتُك: بما يأمُرُكم؟ فذكرتَ أَنه يأمركم أنْ تعبدوا اللّهَ ولا تشركوا به شيئاً، ويَنهاكمُ عن عبادةِ الأوثان، ويأمركم بالصلاةِ والصدقِ والعفاف.

فإنْ كانَ ما تقولُ حقاً، فسيملكُ موضعَ قدميَّ هاتين!

وقد كنتُ أعلمُ أَنه خارج، لم أكنْ أظنّ أَنه منكم، فلو أَني أَعلمُ أَني أخلصُ إليه لتجَشَّمْتُ لقاءه، ولو كنتُ عنده لغَسَلْتُ عن قدمِه!![(١)].

فهرقلُ عرفَ أنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ، لما وقفَ على صفاتِه وأَفعالِه، من إجاباتِ أبي سفيان.

٤ ـ ومن الأدلةِ على نبوةِ الرسل: نصْرُ اللّهِ لهم ولأَتْباعهم المؤمنين،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧ واللفظ له. وأخرجه مسلم برقم: ١٧٧٣.

وإهلاكه لأعدائهم الكافرين، وثبتَ هذا في التاريخ ثبوتاً متواتراً.

هذا ما فعلَه اللّهُ بكلٍّ من نوحٍ وهودٍ وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام. فلما وردَتْ قصصُ هؤلاءِ الأنبياء في سورة الشعراء، كانت كلُّ قصةٍ تُختَمُ بكونِها آية ودليلاً على النبوة، وعبرةً على نصرِ اللّهِ لرسله الصادقين. وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٦٧ ـ ٦٨].

الفرق بين النبي والرسول

وقد ذكَرَ العلماءُ فرقاً بين النبي والرسول، واختلفوا في التفريقِ بينهما، ولعلَّ الراجحَ في التفريقِ بينهما أنَّ الرسول: هو النبيُّ الذي يرسلُه اللّهُ برسالةٍ إلى قومِه ويأمُرُه بتبليغِها.

أمّا النبي: فهو الذي يأمرهُ اللّهُ أنْ يعملَ برسالةِ رسولٍ قبلَه، وأنْ يبلِّغَها للناس، ولم يعطِه رسالةً خاصةً به.

إنَّ إنكارَ نبوةَ محمدٍ ﷺ طَعْنٌ في اللّهِ ربِّ العالمين، ونسبتُه إلى الظلمِ والسَّفَهِ، سبحانه وتعالى!

لأَنه إذا لم يكنْ محمدٌ ﷺ صادقاً في دعوى النبوة، كان كاذباً مفترياً على الله، وقد أَيَّدَهُ اللّهُ ونصره، وأَعلى أَمْره، ومكَّنَ له، وهزَمَ أَعداءَه، واستجابَ دعاءه، ورفعَ له ذكْرَه، ولو كان كاذباً مفترياً متقوِّلاً لما أَيَّده الله، ولأَهلكه ودَمَّره، لأنَّ اللّهَ لا يَنصرُ مَن افترى وتَقَوَّلَ عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

وقد أخبرَ اللّهُ أنَّ الذين يُنكرونَ النبوةَ لا يُقَدِّرون اللّهَ حَقَّ قَدْره، ولا يُعَظِّمونه حَقَّ تعظيمه. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . .﴾ [الأنعام: ٩١].

وإنَّ إرسالَ محمدٍ رسولاً ﷺ من أعظم نعم اللّهِ على الناس. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وأرسلَه اللّهُ رحمةً للعالمين. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

[٢٣] : «وَأَنَّهُ خاتَمُ الأَنْبِياءِ، وَإِمامُ الأَتْقِياءِ..»:

نؤمنُ أنَّ محمداً ﷺ خاتَمُ الأنبياء، خَتَمَ به اللّهُ الأنبياءَ والمرسلين، فلا نبيَّ ولا رسولَ بعده.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ..﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مَثَلي ومَثَلَ الأنبياءِ من قَبْلي كَمَثَلِ رجلٍ بنى بيتاً، فأَحسَنَه وأَجمله، إلاّ موضعَ لَبِنَة من زاوية، فجعلَ الناسُ يَطوفون به، ويَعجبون له، ويقولون: هَلاّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة! فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتمُ النبيين..»(١).

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن جبيرِ بن مطعم رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: إنّ لي أَسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللّهُ بي الكفر، وأَنا الحاشر، الذي يُحشرُ الناسُ على قَدَمَيّ، وأَنا العاقب، الذي ليس بعدَه نبي..»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٣٥. ومسلم برقم: ٢٢٨٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٣٢. ومسلم برقم: ٢٣٥٤.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستّ: أُعطيتُ جوامِعَ الكَلِم، ونُصرتُ بالرُّعب، وأُحِلّتْ لي الغنائم، وجُعلتْ لي الأرضُ طَهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلقِ كافة، وخُتِمَ بي النبيون..»(١).

وروى أبو داود عن ثوبانَ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «سيكونُ من أُمتي كَذّابون ثلاثون، كُلُّهم يزعمُ أنه نبي، وأنا خاتمُ النبيين، لا نبيَّ بعدي..»(٢).

ونؤمنُ أنَّ محمداً ﷺ هو إمامُ الأتقياء، يَقتدونَ به، ويتبعونه، لينالوا محبةَ الله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ..﴾ [آل عمران: ٣١].

محمد سيد المرسلين

٢٤ : «وَسَيِّدُ المُرْسَلين، وَحَبيبُ رَبِّ العالَمينَ..»:

ونؤمنُ أنَّ محمداً ﷺ سيدُ الأنبياءِ والمرسلين. روى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدم يومَ القيامة، وأولُ مَنْ ينشقُّ عنه القبر، وأولُ شافع، وأولُ مُشَفَّع..»(٣).

وروى مسلمٌ عن واثلةَ بنِ الأسقع رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللّهَ اصطفى كِنانةَ من ولدِ إسماعيل، واصطفى قريشاً من كِنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم..»(٤).

ولا تَعارُضَ بين النصوصِ السابقة ـ وغيرها ـ التي تبيِّنُ فضْلَ محمدٍ ﷺ على الأنبياء، وبين النصوصِ الأُخرى التي تَنهى عن تفضيلٍ بمعنى خاص.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٢٣.
(٢) أخرجه أبو داود: ٤٢٥٢.
(٣) أخرجه مسلم برقم: ٢٢٧٨.
(٤) أخرجه مسلم برقم: ٢٢٧٦.

التفضيل بين الرسل: جوازاً ومنعاً

لقد أخبَرَنا اللّهُ في القرآن أنه فَضَّلَ بين أَنبيائِه ورسله. قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ . .﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

والحديثُ الذي يَنهى عن التفضيلِ بين الرسل كانت له مناسبةٌ خاصة، وحادثةٌ وقعَتْ في المدينة.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه قال: بينما يهوديٌّ يَعرِضُ سلعةً له، أُعطِيَ بها شيئاً كَرِهَه، فقال: لا. والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر!

فسمعَهُ رجلٌ من الأَنصار، فلطَمَ وجْهَه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشرِ ورسولُ الله ﷺ بينَ أَظْهُرِنا؟

فذهبَ اليهوديُّ إِلى رسول الله ﷺ. فقال: يا أبا القاسم: إِنَّ لي ذمَّةً وعهداً. فُلانٌ لطمَ وجهي!

فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لِمَ لطمْتَ وجْهَه؟

قال: قالَ يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، وأنتَ بين أظهرنا!

فغضبَ رسولُ الله ﷺ حتى عُرفَ الغضبُ في وجهه. ثم قال: «لا تُفَضِّلوا بين أنبياءِ الله. فإنه يُنفخُ في الصور، فيُصْعَقُ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض إلاّ مَنْ شاءَ الله. ثم يُنفخُ فيه أُخرى، فأكونُ أولَ مَنْ بُعِث، فإذا موسى عليه السلام آخِذٌ بالعرش. فلا أَدري أَحوسِبَ بصعْقَتِه يومَ الطور، أو بُعِثَ قبلي.

ولا أَقولُ: إِنَّ أَحداً أفضلُ مِن يونسَ بنِ مَتّى عليه السلام...»[١].

لقد نهى رسولُ الله ﷺ عن التفضيلِ بين الأنبياء: «لا تُفَضِّلوا بين أنبياء الله» لأنَّ موقفَ الأَنصاريِّ مع اليهوديِّ يُشيرُ إِلى انتقاصِ المفضولِ موسى عليه السلام، ولهذا غضبَ رسولُ الله ﷺ ونهى عن التفضيل.

كذلك نهْيُه عنِ التفضيلِ على يونسَ بن مَتّى عليه السلام. فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال اللّهُ تعالى: لا يَنبغي لعبْدٍ لي أنْ يقول: أَنا خيرٌ من يونسَ بنِ مَتّى عليه السلام..»[٢].

وروى مسلمٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «ما يَنبغي لعبدٍ أنْ يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى..»[٣].

فهذا النهيُ لئلاّ يقودَ التفضيلُ إِلى انتقاصِ يونسَ عليه السلام، بسببِ ما جَرى له من ابتلاء.

والجمْعُ بين النصوصِ السابقةِ أنَّ التفضيلَ بين الأنبياءِ إذا قادَ إِلى انتقاصِ أَقدارِ الأنبياء المفضولين فهذا لا يَجوز. أمَّا إِذا بقيَ مجردَ تفضيل، وبقيَ للأنبياءِ المفضولين أَقدارُهم العالية، فإنهُ يكون جائزاً.

والخلاصة: أَننا نؤمنُ أَنَّ محمداً ﷺ هو سيدُ المرسلين، وأَفضلُ النبيين، بل أفضلُ الخلقِ أجمعين عند الله، مع عدمِ انتقاصِ أقدارِ باقي الأنبياءِ والمرسلين..

محمد حبيب اللّه وخليله

ونؤمنُ أَيضاً أنَّ محمداً ﷺ هو حبيبُ اللّهِ وخليلُه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤١١. ومسلم برقم: ٢٣٧٣.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٧٦.
(٣) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٧٧.

لقد اتخذَ اللّهُ إبراهيمَ عليه السلام خليلاً، وأَخبَرَنا عن ذلك في القرآن. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

وليستِ الخُلَّةُ خاصةً بإبراهيم عليه السلام، فإنَّ محمداً ﷺ هو خليلُ اللّهِ أيضاً.

روى مسلمٌ عن جندبِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه قال: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول قبلَ أنْ يَموتَ بخمس، وهو يقول: «إنّي أبرأُ إلى اللّهِ أَنْ يكونَ لي منكم خليل، فإنَّ اللّهَ تعالى قد اتَّخذني خليلاً، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً، ولو كنتُ متخذاً مِن أُمتي خليلاً لاتخذْتُ أَبا بكرٍ خليلاً..»(١).

وروى مسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لو كنتُ متخذاً من أهلِ الأرض خليلاً، لاتخذْتُ ابنَ أَبي قحافةَ خليلاً، ولكنَّ صاحبَكُم خليلُ الله..»(٢).

إبراهيمُ خليلُ الله، ومحمدٌ خليلُ الله، عليهما الصلاة والسلام، والمحبةُ لَهما ولغيرهما. فالمحبةُ عامة، لأنَّ اللّهَ يحبُّ جَميعَ أَنبيائه ورسلِه، وهو يحبُّ الصالحين من المحسنين والمتقين والتوابين والمتطهرين.

المحبةُ عامة، والخُلَّةُ خاصة، وهي أَعلى مراتبِ المحبة.

ومحبةُ الله وخُلَّتُه كما يَليقُ بجلالِه وعظمته، كسائرِ صفاتِه سبحانه، التي لا تُشبهُ صفاتِ المخلوقين.

وجعَلَ بعضُهم المحبةَ عشْرَ مراتب، مرتبةً هكذا:

١ - العِلاقة: وهي تعلُّقُ القلبِ بالمحبوب.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٣٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٨٣.

٢ ـ الإِرادة: وهي ميلُ القلبِ إِلى المحبوبِ وطلَبُه.

٣ ـ الصَّبابة: وهي انْصبابُ القلبِ إِلى المحبوب، كما ينصبُّ الماءُ في الإِناء.

٤ ـ الغَرام: وهي الحبُّ اللازمُ للقلب، بحيثُ يلازمُ المحبوبُ القلبَ.

٥ ـ المودَّة: وهي صفوُ المحبة وخالصُها ولُبُّها.

٦ ـ الشِّغاف: وهي وصولُ المحبةِ إِلى شغافِ القلب، وهو غلافُه.

٧ ـ العشق: وهي الحبُّ المفرِطُ الذي يُخافُ على صاحبِه منه.

٨ ـ التَتَيُّمُ: وهي بمعنى التعبُّد.

٩ ـ التعبد: وهي غايةُ الحبِّ وغايةُ الذل.

١٠ ـ الخُلَّة: وهي المحبةُ التي تخلَّلَتْ روحَ المحب وتغلغلَتْ قلْبَه.

محمد رسول للإنس والجن

[٢٥]: «وَكُلُّ دَعْوَةِ نُبُوَّةٍ بَعْدَهُ فَغَيٌّ وَهَوى، وَهُوَ المَبْعوثُ إِلى عامَّةِ الجِنِّ وَكافَّةِ الوَرىٰ، بِالحَقِّ وَالهُدى، وَبِالنّورِ وَالضِّياء..»:

بما أنَّ محمداً ﷺ هو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين، فكلُّ مَن ادَّعى النبوةَ بعده فهو كاذب. وكلُّ دعوى نبوةٍ بعده فهي غَيٌّ وهوى، ولهذا تكونُ باطلة.

والغَيُّ: ضدَّ الرشاد. والهوى: شهوةُ النفس.

وقد بعثَ اللّهُ محمداً ﷺ رسولاً إِلى الإِنسِ والجنّ جميعاً، ورِسالتُه حقٌّ وهُدى ونورٌ وضياء، أَيَّده بالآياتِ الباهرة والمعجزاتِ القاطعة، وأَقامَ بها الحجةَ على الناس.

والدليلُ على أَنه مبعوثٌ إِلى الجنّ قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم

مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١].

والراجحُ أنَّ اللّهَ لم يَبعثْ قبلَ محمدٍ ﷺ رسولاً من الإنسِ إلى الجن، وإنما كانَ يَبعثُ للجنِّ رسلاً منهم. ويدلُّ على هذا ظاهرُ قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ ..﴾ [الأنعام: ١٣٠].

نصوص في عموم بعثته للعالمين

وقد دَلَّت الآياتُ والأحاديثُ على عمومِ بعثةِ محمدٍ ﷺ إلى الناس جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ..﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ..﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ومن الأحاديثِ الدالةِ على ذلك ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «أُعطيتُ خَمْساً لم

يُعْطهنَّ أحدٌ من الأنبياءِ قبلي: نُصِرْتُ بالرعبِ مسيرةَ شهر. وجُعلَتْ لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً، فأيُّما رجلٌ من أُمتي أدركَتْه الصلاةُ فلْيُصَلِّ. وأُحِلَّتْ لي الغنائم، ولم تُحَلَّ لأحدٍ من قبلي. وأُعطيتُ الشفاعة. وكان النبيُّ يُبعثُ إلى قومِه خاصة، وبُعثْتُ إلى الناس عامة»[1].

وروى مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصراني، ثم يَموت، ولم يؤمنْ بالذي أُرسلتُ به، إلاّ كانَ من أصحابِ النار...»[2].

وهذا معناهُ أَنَّ الناسَ في كلِّ زمانٍ ومكان، منذُ بعثةِ محمد ﷺ وحتى قيامِ الساعة، مأمورون باتباعِه والدخولِ في الإسلام، وأنَّ اللّهَ نسخَ الرسالاتِ السابقة بالإسلام، كاليهوديةِ والنصرانية، وأنَّ اليهودَ والنصارى كفارٌ وإِنْ آمَنوا بأنبيائهم، لأَنهم لم يُؤمنوا بمحمدٍ ﷺ.

القرآن كلام الله غير مخلوق

[٢٦]: «وإِنَّ القرآنَ كَلامُ الله، مِنْهُ بَدا بِلا كَيْفِيَّةٍ قَوْلاً، وأَنْزَلَهُ على رَسولِهِ وَحْياً، وَصَدَّقَهُ المُؤْمِنونَ على ذلِكَ حَقّاً، وَأَيْقَنوا أَنَّهُ كَلامُ اللّهِ تعالى بِالحَقِيقة، ليسَ بِمَخْلوقٍ كَكَلامِ البَرِيَّة، فَمَنْ سَمِعَه، فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلامُ البَشَر، فَقَدْ كَفَر، وَقَدْ ذَمَّهُ اللّه، وَعابَه، وَأَوْعَدَهُ بِسَقَر، حَيْثُ قالَ تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)﴾ فَلَمّا أَوْعَدَ اللّهُ بِسَقَرَ لِمَنْ قالَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥)﴾ عَلِمْنا وَأَيْقَنّا أَنَّهُ قَوْلُ خالِقِ البَشَر، وَلا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَر...».

الكلامُ هنا عن القرآنِ وعن كلامِ الله. والنظرةُ إِلى كلامِ الله وإِلى القرآنِ قاعدةٌ شريفة، وأَصلٌ كبير من أصولِ الدين.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٥. ومسلم برقم: ٥٢١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٥٣.

وكلامُ اللّهِ صفةٌ من صفاتِ الله، وصِفاتُ الله أَزليةٌ أَبدية، قائمةٌ بذاتِ الله، ليسَ لها بدايةٌ ولا نهاية.

فكلامُ اللّهِ صفةٌ كريمةٌ تَليقُ بعظمةِ اللّهِ وجلاله، أَزليٌّ أَبدي، ليسَ له بدايةٌ ولا نهاية، وليسَ مخلوقاً ولا حادثاً.

فاللّهُ متكلِّم، ولم يَزَلْ متكلِّماً، يتكلمُ سبحانه إِذا شاء، ومَتى شاء، وكيفَ شاء، ويَسْمَعُ بعضُ الملائكةِ كلامَه، وهم الذين أَرادَ أَنْ يُسمعَهم كلامَه.

ولَمّا نقول: هذا كلامُ الله، فقدْ أَضَفْنا الكلامَ إِلى الله. والذي يُضافُ إِلى اللّهِ نوعان:

الأَوّل: الأَعيان: وهي التي لها وُجودٌ ماديّ، كالبيت والناقة: نقول: هذا بيتُ الله، وهذه ناقةُ الله.

وهذه الإِضافةُ لتشريفِ وتكريمِ هذه الأَعيانِ المضافةِ إِلى الله.

الثاني: المعاني: وهي الأُمورُ المعنويةُ غيرُ الماديةِ كالعِلْم والكلام. نقول: عِلْمُ اللّهِ، وكلامُ الله، وقدرةُ الله، وجلالُ الله.

وهذه الإِضافةُ حقيقية، لأَنَّ المضافَ صِفاتٌ كريمةٌ من صفاتِ الله، وصِفاتُ اللّهِ حقيقية، اتَّصفَ اللّهُ بها حقيقة.

ووَصْفُ اللّهِ بأنه متكلمٌ من أَوصافِ الكمال، واتّصافُ اللّهِ بالكلامِ كمالٌ له سبحانه. وسَلْبُهُ صفةَ الكلامِ نَقْص، لا بدَّ أَنْ يُنَزَّهَ عنه!

وعندما أَنكرَ اللّهُ على بني إِسرائيل عبادةَ العجلِ الذهبِ أَخبرَ أَنه لا يكلِّمُهم، وعدمُ تكليمِه لهم نقص، يَبْطُلُ به كونُه إِلهاً. قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . .﴾ [الأعراف: ١٤٨].

كلام الله بما يليق بجلاله

وعندما نُثبتُ صفةَ الكلامِ لله، ونَصِفُه بأَنه متكلِّم، فإنه لا يلزمُ من

ذلك تجسيمُ ذاتِه سبحانه، ولا تشبيهُه بالبشرِ المتكلِّمين. فإنَّ كلامَ البشرِ مخلوقٌ مثلُهم، يتكلَّمون بفمٍ وصوتٍ وهواءٍ خارجٍ من الرئتين، ولسانٍ وشفتين.

أَما اللّهُ تعالى فإنه يتكلمُ كما يليقُ بجلالِه.

ولا يُشترطُ في الكلامِ المسموعِ أنْ يَخرجَ من الفمِ واللسان، فقد يصدرُ الكلامُ عن بعضِ المخلوقين من غير الفم!

فقد أَخْبَرَنا اللّهُ أنَّ أَيديَ وأرجلَ الكفارِ والعصاةِ تتكلمُ وتشهدُ عليهم يوم القيامة، مع أَنها ليس لها فم! قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ..﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢١].

وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنه كان يسمعُ تسليمَ الحجرِ عليه، مع أَنه ليسَ للحجرِ فمٌ يتكلمُ به!

روى مسلمٌ عن جابرِ بنِ سَمُرَة رضيَ اللّهُ عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنّي لأعرفُ حَجَراً بمكة، كانَ يسلِّمُ عليَّ قبلَ أنْ أُبْعث، إنّي لأَعرفُه الآن..»[١].

فهؤلاء المخلوقون تكلَّموا، وليسَ لهم فمٌ يتكلمونَ به.

تكليم الله لبعض خلقه

ويَتكلمُ اللّهُ كلاماً يَليقُ بجلالِه سبحانه.

لقد أَخبرَنا اللّهُ أَنه كلَّمَ الملائكة، وأَنَّهم سَمعوا منه كلامَه. قال

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٢٧٧.

تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ..﴾ [البقرة: ٣٠].

وأَخبرَنا أنه كلَّمَ موسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ..﴾ [النساء: ١٦٤].

وأَخبرَنا أنه سيكلمُ المؤمنين في الجنة، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨].

وأَفضلُ نعيمِ أهلِ الجنة النظرُ إِلى الله سبحانه، وسماعُ كلامِه.

وأَخبرَنا اللّهُ أَنه لا يكلِّمُ الكفارَ يومَ القيامة كلامَ تكريم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧].

وبما أنَّ الكلامَ صفةٌ من صفاتِ الله، أَزليةٌ أَبدية، فإنه لا نهايةَ له، وإنَّ اللّهَ لم يَزَلْ متكلماً: إذا شاء، بما شاء، وكيف شاء.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ..﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

وبما أنَّ كلامَ اللّهِ لا نهاية له، فإنَّ كتبَهُ التي أَنزلَها على رسله، كالتوراةِ والزبور والإنجيل والقرآن، هي بعضُ كلامِ الله حقيقة، لأَنَّها محدودة، وكلامُ الله غيرُ محدودٍ ولا نهايةَ له.

هذا عن إِثباتِ صفةِ الكلامِ لله، وفْقَ ما يليقُ بجلالِ اللّهِ وعظمته.

القرآن بعض كلام الله

أمّا القرآن، فإنَّه بعضُ كلامِ الله.

قالَ الإمامُ الطحاوي: «وإنَّ القرآنَ كلامُ الله». وهذه الجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها، وهمزةُ «إنَّ» مكسورة، لأنَّ ما قبلَها واقعةٌ بعد القول: «نقول: إنَّ اللّهَ واحدٌ لا شريك له... وإن محمداً عبده المصطفى.. وإن القرآن كلام الله..».

إننا نؤمنُ أنَّ القرآن كلامُ اللّهِ حقيقة، وأنه غيرُ مخلوق، وأنَّ جبريلَ عليه السلام أَخَذَه من الله، وبَلَّغَه للرسولِ ﷺ، والرسولُ ﷺ بَلَّغه للناس.

وهذا ما عليهِ أهلُ السنةِ من السلف والخلف.

وللإمام أَبي حنيفة رضي الله عنه كلامٌ عظيم في هذا الموضوع. قالَ في رسالته «الفقه الأكبر»: «والقرآنُ كلامُ الله، في المصاحفِ مكتوبٌ، وفي القلوبِ محفوظٌ، وعلى الألسنِ مَقروءٌ، وعلى النبيِّ ﷺ منزلٌ، وكتابتُنا له مخلوقَةٌ، وقراءَتُنا له مخلوقة، والقرآنُ غيرُ مخلوق.

وما ذكَرَهُ اللّهُ في القرآن حكايةً عن موسى عليه السلام وغيرِه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن فرعونَ وإبليس، فإنَّ ذلك كلَّه كلامُ الله، إخبارٌ عنهم. وكلامُ اللّهِ غيرُ مخلوق، وكلامُ موسى وغيرِه من المخلوقين مخلوق، والقرآنُ كلامُ اللّهِ لا كلامَهم.

وسمعَ موسى عليه السلام كلامَ اللّهِ تعالى، ولمّا كَلَّمَ اللّهُ موسى كَلَّمه بكلامِه الذي هو من صفاتِه لم يَزَلْ.

وصِفاتُه كلُّها خِلافُ صفاتِ المخلوقين: يَعْلَمُ لا كعِلْمِنا، ويَقْدِرُ لا كقدرَتِنا، ويَرى لا كرؤيتِنا، ويتكلمُ لا كَكَلامنا..».

نقض بدعة خلق القرآن

والقولُ بأَنَّ القرآنَ مخلوقٌ بدعةٌ حادثةٌ، وضلالةٌ باطلة، أَنكرها أهلُ السنة، وردّوا على أَصحابِها القائلين بها.

ولا دليلَ عند هؤلاء المبتدعين على أنَّ القرآنَ مخلوق، وقد التبسَ

عليهم فهمُ بعضِ الآيات، فظنّوها أدلةً على خلْقِ القرآن، وليستْ كذلك.

من هذه الآياتِ قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

قالوا: القرآنُ شيء، ويدخلُ في عمومِ الآية، فهو مخلوق.

وكلامُهم مردودٌ عليهم، لأنَّ المرادَ بـ«كلّ شيء» في الآية، كلُّ شيء مخلوق. والخالقُ سبحانه غيرُ داخلٍ فيها، وصفاتُه أيضاً غيرُ داخلةٍ فيها، لأَنها قائمةٌ بذاتِ اللّهِ أزليةً أبديةً، والكلامُ صفةٌ من صفاتِ اللّهِ غيرُ مخلوق، والقرآنُ كلامُ الله فهو غيرُ مخلوق، وهو غيرُ داخلٍ في عمومِ الآية.

ومثالُ تخصيصِ عُموم «كل شيء» في القرآن قولُه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ..﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥].

فمساكنُ قومِ عادٍ شيء، ومع ذلك لم تَدخلْ في عُموم «كلِّ شيء» دَمَّرَتْه الريح، لأنَّ المرادَ في الآية: تدمُرُ كلَّ شيء قابلٍ للتدميرِ بالريحِ عادة.

وكذلك عمومُ «كلّ شيء» في مخلوقاتِ الله. فاللّهُ خالقُ «كلِّ شيء» مخلوق، أَمّا غيرُ المخلوقِ فإنه لا يدخلُ في عمومه.

ومن هذه الآياتِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ..﴾ [الزخرف: ٣].

اعتبروا فعل ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بمعنى: خلقناه. فدلَّ على أن القرآن مخلوق!

وكلامُهم مردودٌ عليهم. لأنَّ فعْلَ «جَعَلَ» يَرِدُ بمعنيَيْن:

الأول: بمعنى «خَلَق». وفي هذه الحالةِ ينصبُ مفعولاً واحداً. كقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ..﴾ [الأنبياء: ٣٠ ـ ٣١].

الثاني: بمعنى «حَوَّلَ وَصَيَّرَ». وفي هذه الحالةِ ينصبُ مفعولين. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ..﴾ [البقرة: ٢٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ..﴾ [الإسراء: ٢٩].

ومن هذا النوعِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ..﴾.

فليسَ معناه: إنا خلَقْناه قرآناً عربياً. وإنما معناه: إنا صَيَّرْناهُ قرآناً عربياً..

ومن هذه الآياتِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠] فاعتبرت الآيةُ القرآنَ قولَ رسول، والرسولُ مخلوق، فالقرآنُ عندَهم مخلوق.

وكلامُهم مردودٌ عليهم، فإضافتُه إلى الرسول إضافةُ تبليغٍ ونُطْق، وليسَ إِضافةَ خَلْقٍ وإيجاد. فالرسولُ نطقَ بكلامِ الله، وبَلَّغَهُ لغيرِه.

فالخلاصةُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله، فهو غيرُ مخلوق.

القرآن كلام الله وليس عبارة عن كلام الله

ويُذْكَرُ القرآنُ ويُرادُ به كلامُ اللّهِ المقروءُ الذي يقرؤُه ويَتلوه المسلم. كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨].

ويُذكَرُ القرآنُ أحياناً ويُرادُ به القراءة، كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]. والمعنى: قراءة القرآن في صلاة الفجر.

ومعنى قولِ الإمامِ الطحاوي: «وإِنَّ القرآنَ كلامُ الله، منه بَدا، بدون كيفية قولاً». أنَّ القرآنَ كلامُ الله، ظَهَرَ من الله وبَدا منه، ولا نَعرفُ كيفيةَ تَكَلُّمِه به سبحانه.

ولم يَقُلْ بعضُهم: القرآنُ كلامُ الله. وإنما قال: القرآنُ عبارةٌ عن كلامِ الله. وهذا كلامٌ باطل. فالقرآنُ كلامُ اللّهِ حقيقة، وليس عبارةً عن كلامِ الله. والقارئُ عندما يقرأُ القرآن فإنما يقرأُ كلامَ الله.

والدليلُ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وليس عبارةً عن كلامِ الله، أنَّ

الإنسانَ عندما يسمعُ القرآنَ فإنما يسمعُ كلامَ الله. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ..﴾ [التوبة: ٦].

والسامعُ عندما يسمعُ كلامَ الله، لا يَسمعُه من الله، وإنما يسمعُه من الشخصِ الذي يبلِّغُه إياه، ومع هذا اعتبرَتْهُ الآيةُ أنه سمعَ كلامَ الله. ولو كانَ القرآنُ المكتوبُ أو المسموعُ أو المقروءُ عبارةً عن كلامِ الله، لقالت الآية: فأَجِرْهُ حتى يسمعَ ما هو عبارةٌ عن كلامِ الله.

القرآنُ كلامُ الله، فإذا قرأهُ المسلم فقد قرأَ كلامَ الله، وإذا حفظَهُ فقد حفظَ كلامَ الله، وإذا كتبهُ فقد كتبَ كلامَ الله، وإذا سمعَهُ فقد سمعَ كلامَ الله. فهو كلامُ الله المقروءُ المكتوبُ المحفوظُ المسموع.

أنزل الله القرآن على رسوله وحياً

ومعنى قولِ الإمامِ الطحاوي: «وأنزَلهُ على رسولِه وحياً» أنَّ اللّهَ تكلمَ بالقرآن، منهُ بَدا وظَهر، ولما تكلمَ سبحانه به أَسمعَهُ لجبريلَ عليه السلام، ولا نعرفُ كيفيةَ تكلُّمِه به سبحانه، ولا كيفيةَ إسماعِه لجبريل.

ولمّا سمعَهُ جبريلُ عليه السلام من الله سبحانه نزلَ على محمد ﷺ به، فأَسمعهُ له، ولما سمعَهُ الرسولُ ﷺ من جبريلَ حفظَه وَوَعاه، ثم أَسمعَهُ للصحابة، وقرأَه على الناس. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

والآياتُ التي تتحدثُ عن إنزالِ القرآنِ كثيرة. منها قولُه تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: ١ ـ ٢].

والنصُّ على إنزالِ القرآن فيه إثباتُ صفةِ العلوِّ لله، وهو العلُوُّ الذي يَليقُ بالله سبحانه.

ومعنى قولِ الإمام الطحاوي: «وَصَدَّقَه المؤمنون على ذلك حقاً..»

صَدَّقَ المؤمنون أنَّ القرآنَ كلامُ الله حقيقة، وأَنه تكلَّمَ به، وأنَّ جبريلَ نزلَ به على قلبِ محمدٍ ﷺ.

وهذا قولُ الصحابةِ والتابعين بإحسان.

رد بدعة الكلام النفسي للقرآن

ومعنى قوله: «وأَيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية..» أنَّ هذا القرآنَ كلامُ اللّهِ حقيقة، وأَنه ليس مخلوقاً، ككلامِ الناسِ المخلوقين، وإِنما هو أزليٌّ أبديٌّ مثلُ باقي كلامِ الله، وباقي صفاتِ الله.

وكلامُه هذا رَدٌّ على مَنْ زعموا أنَّ اللّهَ لم يتكلمْ بالقرآن، ولم يسمعْهُ منه جبريل، وإِنما هو معنى كان قائماً بذاتِ الله، وهو ما يسمى بـ«الكلامِ النفسيِّ».

وفكرةُ «الكلامِ النفسي» فكرةٌ مردودة، وبدعةٌ باطلة، فلو كانَ القرآنُ معنى نفسياً قائماً بذاتِ الله، فكيفَ أَخذه جبريلُ عليه السلام منه؟

ولو صحَّتْ هذه البدعةُ الباطلةُ لما كانَ القرآنُ كلامَ الله، وإِنما هو كلامُ جبريلَ عليه السلام، وهذا كفرٌ وضلالٌ كبير.

إِنَّ حديثَ النفسِ لا يسمّى كلاماً، وإِنَّ إِشارةَ الأخرسِ ليستْ كلاماً، وإِنما الكلامُ هو ما يصدرُ من فمِ الإنسانِ من نطقٍ مسموع.

والدليلُ على ذلك، ما رواهُ مسلم عن معاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إِنَّ هذه الصلاةَ لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلامِ الناس، وإنما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآن..»[١].

واتفقَ العلماءُ على أنَّ «الكلامَ النفسيَّ» الذي يُحَدِّثُ به المصلي نفسَه

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٣٧.

في الصلاة ليسَ كلاماً، وأنَّ هذه الخواطرَ والأفكارَ لا تُبطلُ الصلاة، أمّا إنْ تكلمَ في الصلاة عامِداً لغيرِ مصلحتها، وأَخرجَ الكلامَ من فمه، فقد بطلَتْ صلاتُه.

والدليلُ على ذلك أيضاً ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللّهَ تَجاوَز لِأُمَّتي عَمّا حدثَتْ به أَنفسَها ما لم تتكلمْ به أو تعملْ به..»(١).

فاللّهُ عفا عن حديثِ النفس، لأَنه ليس كلاماً، والإنسانُ لا يؤاخَذُ إلاّ على الكلامِ الذي يخرجُ من فمه، أو العملِ الذي يصدرُ عنه.

القرآنُ ليسَ كلامَ اللّهِ النفسيِّ المعنويِّ القائم بذاتِ الله، وإنما هو كلامُ الله حقيقة، سمعَه منه جبريل، ثم بلَّغَهُ للرسولِ ﷺ.

ولقد كانَ الصحابةُ والتابعونَ لهم بإحسان يَعرفون معنى الكلام، ومعنى إطلاقِه على الله، ولهذا لم يحصُلْ بينهم نزاعٌ في ذلك، إنما حصلَ النزاعُ فيمن جاءوا بعدهم من أَصحابِ البدعِ والأفكارِ الباطلة.

قالَ الإمامُ الطحاوي: «فمنْ سمعَه فزعَمَ أنه كلامُ البشر، فقد كفر، وذمَّه اللّهُ، وعابَه، وأَوعده بسقر...».

وقولُه هذا يدلُّ على كُفرِ مَنْ زعمَ أَنَّ القرآنَ ليس كلامَ الله، وإنما هو كلامُ مخلوق، سواء كان مَلَكاً أم بشراً. ولا شكَّ في كُفْرِ مَنْ زعمَ ذلك.

لقد كَفَّرَ اللّهُ الذي زعمَ أَنَّ القرآنَ كلامُ بشر. وذلك في قوله عنه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٤ ـ ٢٥].

وتوعَّدَه أنْ يُعذِّبَه في سَقَر، فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٢٨].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٥٢٨. ومسلم برقم: ١٢٧.

إعجاز القرآن

وبما أنَّ القرآنَ كلامُ الله، فإنه لا يشبهُ كلامَ البشر. ولهذا قال الإمامُ الطحاوي: «عَلِمْنا وأَيْقَنّا أنه قولُ خالقِ البشر، ولا يشبهُ قولَ البشر..».

إنَّ القرآنَ قد أعجزَ الكفارَ العرب، وهم الأفصحُ والأبلغ، فقد أخبرَ اللّهُ أنَّ الإنسَ والجنَّ عاجزون عن الإتيانِ بمثلِ القرآن، وتحقَّقَ عجْزُهم الذي أخبرَ اللّهُ عنه. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

تحدّى اللّهُ الكفارَ بالقرآن، وطالَبهم أنْ يأتوا بسورةٍ مثلِه، وبعشرِ سورٍ مثلِه. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣].

وقد عجزَ هؤلاء عن الإتيانِ بالمطلوب، وانهزَموا في التحدي، ودلَّ ذلك على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وأنه لا يشبهُ كلامَ البشر.

صفات الله ليس كصفات البشر

[٣٧]: «وَمَنْ وَصَفَ اللّهَ بِمَعْنى مِنْ مَعاني البَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ. فَمَنْ أبْصَرَ هٰذا اعْتَبَرَ. وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الكُفّارِ انْزَجَرَ، وَعَلِمَ أنَّ اللّهَ بِصِفاتِهِ لَيْسَ كَالبَشَرِ..».

إثباتُ صفةِ الكلام لله، وإثباتُ باقي الصفاتِ لله لا يَعني تشبيهَ اللّهِ بخلقه. فاللّهُ متكلم، لكنْ ليسَ كونُه متكلماً مثلَ تكلُّم الإنسان، فهو تَكَلُّمٌ يليقُ بجلاله، لأنَّ اللّهَ ليس كمثلِه شيء، وهو السميع البصير.

نفيُ الصفاتِ عن اللّهِ تعطيلٌ لها، وهذا ضلال، وتشبيهُ اللّهِ بخلْقِه في اتصافِه بها تجسيمٌ وتشبيه، وهذا ضلالٌ أيضاً.

والصوابُ هو إثباتُ صفاتِ اللّهِ بدونِ تعطيلٍ ولا تَشبيه، وإذا كانَ اللَّبَنُ يخرجُ من بينِ فَرْثٍ ودَم، ويكونُ خالِصاً سائغاً للشاربين، فهكذا الإثباتُ الصحيحُ لصفاتِ الله، من بينِ فَرْثِ التعطيلِ ودَمِ التشبيه.

إنَّ المعطِّلَ الذي يَنفي الصفاتِ عن الله يعبُدُ «عَدَماً»، وإنّ المشبِّهَ الذي يُشَبِّهُ اللّهَ بخلْقِه يعبدُ صنماً، وهذا ضلال! والصوابُ هو تنزيهُ اللّهِ، بين التعطيلِ والتشبيه، بإثباتِ الصفاتِ له، بما يليقُ بجلاله.

والمؤمنُ ينظرُ بعينِ بصيرته، من إثباتِ الصفاتِ لله، ونفي التشبيهِ عنه سبحانه، وبذلكَ ينزجرُ عن قولِ الكفار، ويَبقىٰ مع الصوابِ، بتوفيقِ الله.

رؤية اللهِ في الجنة حق

[٢٨]: «وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الجَنَّةِ، بِغَيْرِ إِحاطَةٍ وَلا كَيْفِيَّةٍ، كَمَا نَطَقَ بِها كِتابُ رَبِّنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ وَتَفْسِيرُهُ على ما أَرادَ اللّهُ تَعالى وَعَلِمَهُ، وَكُلُّ ما جاءَ في ذلِكَ مِنَ الحديثِ الصَّحيحِ عَنْ رَسولِ الله ﷺ فَهُوَ كَما قال، وَمَعْناهُ كَما أَرادَ، لا نَدْخُلُ في ذلِكَ مُتَأَوِّلينَ بِآرائِنا، وَلا مُتَوَهِّمينَ بِأَهْوائِنا، فَإِنَّهُ ما سَلِمَ في دينِهِ إِلاّ مَنْ سَلَّمَ لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِرَسولِهِ ﷺ، وَرَدّ عِلْمَ ما اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلى عالِمِهِ...».

المؤمنونَ يروْنَ رَبَّهم في الجنة، بغيرِ إحاطةٍ ولا كيفية، ودلَّتْ عليها نصوصُ الكتابِ والسنة، وقالَ بالرؤيةِ الصحابةُ والتابعون، وأئمةُ المسلمين وعلماؤهم وأفرادُهم من أهلِ السنة والجماعة.

ولم ينفِ هذه الرؤيةَ إلاّ الفرقُ المبتدعة، المخالفةُ للكتابِ والسنة وفهمِ سلفِ الأمة.

ورؤيةُ المؤمنين لربِّهم في الجنةِ من أشرفِ وأجلِّ مسائلِ أصول الدين، وهي الغايةُ التي شمَّرَ إليها المشمِّرون من الصالحين، وتنافَسوا فيها لينالوها.

آيات تنص على الرؤية

من الآياتِ القرآنيةِ التي تقررُ هذه الرؤيةَ وتثبتُها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

وجوهُ المؤمنين ناضرةٌ في الجنة، ونُضرتُها من نظرِها إلى الله. والذي ينظرُ في الوجوه هو العيون، فالمعنى: عيونُ المؤمنين تنظرُ إلى ربِّها في الجنة.

وتعديةُ النظرِ في الآيةِ بحرفِ الجرّ «إلى»: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ صريحةٌ في إثباتِ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم في الجنة.

والنظرُ في القرآنِ له ثلاثةُ استعمالات:

الأول: أنْ يتعدّى إلى ما بعدَه بنفسه، كأنْ تقول: فلانٌ نظرَ فلاناً، ويكون بمعنى التوقُّفِ والانتظار.

ووردَ بهذا المعنى في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ..﴾ [الحديد: ١٣].

والمعنى: أَمْهِلونا وانتظرونا وتوقَّفوا قليلاً، كي نقتبسَ من نوركم...

الثاني: أنْ يتعدّى بحرفِ الجر «في»، فيكون بمعنى التفكرِ والاعتبار. كما في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ..﴾ [الأعراف: ١٨٥].

والمعنى: أَوَ لَمْ يتفكروا في ملكوتِ الله ومخلوقاته، ويعتبروا بذلك.

الثالث: أنْ يتعدّى بحرفِ الجرّ «إلى»، فيكون بمعنى الرؤيةِ بالعينِ والمشاهدةِ بالبصر. كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ ..﴾ [الأنعام: ١٤١].

والمعنى: شاهِدوا بعيونكم ثمارَ الأشجار.

وبما أنَّ النظرَ في الآية: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: تعدى بحرف «إلىٰ» فقد دلَّ على أن المرادَ به الرؤيةُ بالعين والمشاهدةُ بالبصر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: تنظرُ إلى الله عز وجل.

وقال عكرمة: ناضرة: من النعيم.

وقال الحسنُ البصري: نَظرتْ إلى ربها، فَنُضِّرَتْ بنورِه.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ..﴾ [يونس: ٢٦].

الحُسنى التي جعلَها اللّهُ للمحسنين هي الجنة، والزيادةُ على الحسنى هي النظرُ إلى وجهِه الكريم سبحانه.

بهذا فسَّرَها رسولُ الله ﷺ، وليس بعد تفسيره تفسير.

روى مسلمٌ عن صهيبٍ الرومي رضي الله عنه قال: قرأَ رسولُ الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى مُنادٍ: يا أهلَ الجنة: إن لكم عندَ الله موعداً، ويُريدُ أن يُنجزكُموه!

فيقولون: ما هو؟ ألم يُثقِّل موازينَنا، ويُبيضْ وُجوهَنا، ويُدخلْنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟

فيُكشفُ الحجاب. فينظرونَ إليه، فما أَعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظرِ إليه..»(١).

وبهذا فسَّرها مجموعةٌ من الصحابة. منهم: أَبو بكر الصديق، وأبو موسى الأشعري، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، رضي الله عنهم.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥].

المعنى: للمؤمنينَ ما يشاءونَ في الجنة، لا يُمنعون من شيءٍ أَرادوه، ويُكرمُهم اللّهُ بإعطائِهم المزيدَ على كلِّ ما شاءوا.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٨١.

والمزيدُ هو النظرُ إلى وجهه سبحانه وتعالى. وهو قولُ عليٍّ بن أبي طالب وأنسِ بن مالك، رضي الله عنهما.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

أَخبرَ اللّهُ في هذه الآية أنَّ الكفارَ محجوبون عن اللّهِ يومَ القيامة.

ووجْهُ الاستدلالِ بها على الرؤية أنه إذا كانَ الكفارُ محجوبين عن الله عِقاباً لهم، فإنَّ المؤمنين ليسوا محجوبين عنه، وإنما يرونَه.

بهذا احتجَّ الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه.

جاءت الإمامَ الشافعيَّ رقعةٌ من الصعيد فيها سؤال: ما تقولُ في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾؟

فقال الشافعي: لَمّا أنْ حُجِبَ هؤلاء في السَّخْط، دلَّ هذا على أنَّ أولياءه يرونَه في الرضا.

نقض حجة من نفوا الرؤية

والذينَ نَفَوْا رؤيةَ المؤمنين لله في الجنة احتجّوا بآيتيْن على بدعتهم:

الأولى: قولُ الله لموسى: لن تراني. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

اعتبروا قولَ اللّهِ لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ دليلاً على عدم رؤيةِ الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنَّ «لن» للتأبيدِ الأبَديِّ في الدنيا والآخرة.

واستدلالُهم بهذه الآيةِ مردودٌ عليهم. فاللّهُ قالَ له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولم يَقل له: إنني لا أُرىٰ.

والمعنى: لَنْ تراني لأنَّ قُواكَ البشرية لا تَحتملُ رؤيتي في الدنيا.

وقدَّمَ اللّهُ لموسى عليه السلام دليلاً على عدمِ احتماله رؤيتَه في الدنيا، وهو الجبل، فإنَّ الجبلَ لا يثبتُ لتجلّي اللّهِ له، مع قوتِه وصلابتِه، فكيف يَثبتُ لها الإنسان؟ ولذلك لما تجلّى اللّهُ للجبل ـ تجلّياً يليقُ بجلالِه ولا نعرفُ كيفيتَه ـ دُكَّ الجبلُ ولم يَحتمل التجلّي، فعرفَ موسى أَنه لن يَرى اللّهَ في الدنيا.

هذا في الدنيا، أَمّا في الجنة فإنَّ الله يُمَكِّنُ المؤمنين من رؤيته سبحانه.

وزعْمُ الذين نفوا رؤيةَ اللّهِ في الجنة أنَّ حرف «لن» للتأبيدِ مردود، حيث وردَتْ آياتٌ قرآنيةٌ فيها حرفُ النفي «لن»، ومع ذلك ما دلَّ على التأبيد.

من هذه الآياتِ قولُه تعالى عن قول كبيرِ أَبناءِ يعقوبَ عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ ..﴾ [يوسف: ٨٠].

فهو «لن» يبرحَ الأرضَ ولن يغادرَها، إلا إذا أَذنَ له أبوه، فإذا أَذِنَ له أَبوه برحَ الأرضَ وغادرَها، فلا تأبيدَ في النفي إذن.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ ..﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٥].

أَخبرَ اللّهُ أنَّ اليهودَ لن يتمنوا الموتَ أَبداً. وقرنَ الخبرَ بين حرفِ النفيِ «لن» وبين التأبيد «أبداً».. ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾. ومع ذلك ما دلَّ هذا على التأبيد. فيومَ القيامة عندما يكونونَ في جهنم يتمنون الموت. قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ الزخرف: ٧٧].

معنى عدم إدراك الأبصار لله

الآيةُ الثانيةُ التي احتجَّ بها مَنْ نفوا الرؤية قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ

ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

اعتبروا نفْيَ إدراكِ الأبصارِ لله، نفيَ رؤيةِ العيونِ له في الآخرة.

واستدلالُهم بهذه الآيةِ باطل، فهي تتحدثُ عن الإدراك، ولا تتحدثُ عن الرؤية، ونفيُ الإدراكِ لا يستلزمُ نفيَ الرؤية!

والإدراكُ هو الإحاطةُ بالشيء، وعلى هذا قولُه تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ ..﴾ [يونس: ٩٠].

ومعنى: أدركَه الغرق: أحاطَ به وغشيَه.

والشيءُ قد يُرىٰ، ولكن لا يُدرك، فالإدراكُ شيءٌ زائدٌ على الرؤية، فليس كلُّ ما يُرىٰ يُدرك. وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

فجنودُ فرعون لما لَحقوا ببني إسرائيل رأَوهم من بعيد، ولكنهم لم يُدركوهم ولم يُحيطوا بهم.

إن الآيةَ نفتْ إدراكَ الأبصارِ لله، أي: نفَتْ إحاطَتَها بالله، فهي لا تُدركُ اللّهَ لعظمتِه وكمالِه.

وعدمُ إدراكِها لله لا ينفي رؤيتَها له، حتى في الجنة أبصارُ المؤمنين ترى الله، لكنها لا تُدركُه ولا تُحيطُ به. فالله يُرىٰ ولا يُدرَك.

أحاديث صحيحة في الرؤية

هذا عن ثبوتِ رؤيةِ المؤمنين لربهم في الجنة بالقرآن. أمّا السّنّة، فقد تواترت الأحاديثُ الصحيحةُ عن رسولِ الله ﷺ في إثباتِ هذه المسألةِ الإيمانيةِ النفيسة. من هذه الأحاديث:

١ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أَنّ أُناساً قالوا: يا رسولَ الله: هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟

قال: هل تُضارّون في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدر؟

قالوا: لا يا رسولَ الله.

قال: «هل تُضَارّون في رؤيةِ الشمسِ ليسَ دونها سحاب؟

قالوا: لا.

قال: فإنكم ترونَه كذلك..»[1].

٢ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ ناساً في زمنِ رسولِ الله ﷺ قالوا: يا رسولَ الله: هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟

قال: «نعم. هل تُضارّون في رؤيةِ الشمس بالظهيرةِ صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تُضارّون في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدرِ صحواً ليس فيها سحاب؟

قالوا: لا يا رسولَ الله.

قال: ما تُضارّون في رؤيةِ اللّهِ تبارك وتعالى يوم القيامة إلاّ كما تُضارّون في رؤيةِ أَحدهما...»[2].

٣ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن جَريرِ بنِ عبدِ الله البجليِّ رضي الله عنه قال: كُنّا جُلوساً مع النبي ﷺ، فنظَرَ إِلى القمر ليلةِ البدر، فقال: «إِنكم سترونَ ربَّكم كما تَرونَ هذا القمر، لا تُضامّون في رؤيته...»[3].

٤ ـ روى البخاريُّ ومسلم عن أَبي موسى الأشعريِّ رضي اللّهُ عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «جَنّتانِ من فضّة، آنيتُهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب، آنيتُهما وما فيهما، وما بينَ القومِ وبين أَنْ يَنظروا إلى ربِّهم، إلاّ رداءُ الكبرياءِ على وجهه...»[4].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٤٣٧. ومسلم برقم: ١٨٢.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٧٤٣٩. ومسلم برقم: ١٨٣.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٥٥٤. ومسلم برقم: ٦٣٣.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٧٨. ومسلم برقم: ١٨٠.

٥ ـ روى مسلمٌ عن صهيبٍ رضي الله عنه قال: قرأَ رسولُ الله ﷺ قولَه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، ثم قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنة، وأهلُ النارِ النار، نادى منادٍ: يا أهلَ الجنة: إنّ لكم عندَ اللّهِ موعداً، ويُريدُ أنْ ينجزكموه!

فيقولون: ما هو؟ أَلم يُثَقِّلْ موازينَنا، ويبيِّضْ وُجوهَنا، ويُدخلْنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟

فيكشفُ الحجاب. فينظرونَ إليه. فما أَعطاهُم شيئاً أحبُّ إليهم من النظرِ إليه..»[١].

٦ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه، عن رسولِ اللّهِ ﷺ قال: «... ثمَّ لَيَقِفَنَّ أحدُكم بينَ يديِ الله، ليس بينَه وبينَه حجاب، ولا تُرجمانٌ يترجمُ له.. ثم ليقولَنَّ له: أَلم أُوتِكَ مالاً؟ فلَيقولَنّ: بلى.

ثم ليقولَنّ له: ألم أُرسلْ إليك رسولاً؟ فليقولَنّ: بلى.

فينظرُ عن يمينِه فلا يَرى إلاّ النار، ثم ينظرُ عن شِماله فلا يَرى إلاّ النار...»[٢].

وقد روى أحاديثَ الرؤيةِ نحوُ ثلاثين صحابياً، وبَلغتْ حَدّ التواتر، ولا يجوزُ لمسلمٍ أنْ يخالِفَها ويعارضَها.

ومعلومٌ أنَّ الإسلام وَأُصولَه وحقائقَه يؤخَذُ من الكتاب والسنة، ومن لم يفعلْ ذلك وقعَ في أَخطاء كثيرة، وهذا ما وقعَ فيه الذين أَنكروا رؤيةَ اللّهِ في الجنة، فخالَفوا الآياتِ الصريحةَ والأحاديثَ الصحيحة.

هذا عن رؤيةِ اللّهِ في الجنة، وهي حقيقةٌ إيمانية.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٨١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٤١٣. ومسلم برقم ١٠١٦.

الله لا يُرى في الدنيا

أما رؤيةُ اللّهِ بالأبصارِ في الدنيا فهذا غيرُ واقع. لأنَّ أبصارَنا عاجزةٌ عن رؤيةِ الله، لا لأنَّ اللّهَ لا يُرى، وإلاّ فإنَّ الملائكةَ يرونَ ربَّهم.

وها هي الشمسُ موجودة، ويَراها أحدُنا عن بُعد، فإذا حَدَّقَ البصرَ في شعاعِها ضعفَ عن رؤيتها، لا لأنَّها لا تُرى، بل لعجزِ الإنسانِ عن ذلك!

واتفقَ المسلمونَ على أنه لا يَرى اللّهَ أحدٌ غير رسول الله ﷺ في الدنيا بعينيه.

واختلفَ العلماءُ ـ بل والصحابةُ ـ في رؤيةِ الرسولِ ﷺ لله ليلةَ المعراج.

فذهبتْ عائشةُ رضي اللّهُ عنها إلى أنه ﷺ لم يَرَ اللّهَ ليلةَ المعراج.

روى مسلمٌ عن مسروق قال: كنتُ متكئاً عندَ عائشة. فقالَتْ: يا أَبا عائشة: ثلاثةٌ مَنْ تكلَّمَ بواحدةٍ منهنَّ فقد أعظمَ على الله الفرية.

قلت: ما هُن؟

قالت: مَنْ زعمَ أنَّ محمداً ﷺ رأى ربَّه فقد أعظمَ على اللّهِ الفرية.

وكنتُ متكئاً، فجلَسْتُ، فقلت يا أُمَّ المؤمنين: انْظِريني ولا تَعْجليني، ألم يَقل اللّهُ عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣] و: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣].

فقالَتْ: أنا أولُ هذه الأمة سألَ عن ذلك رسولَ الله ﷺ. فقال: «إنما هو جبريل. لم أَرَهُ على صورتِه التي خُلقَ عليها غيرَ هاتيْن المرتيْن. رأيتُه منهبطاً من السماء، سادّاً عِظَمُ خلْقِه ما بينَ السماءِ إلى الأرض.

ثم قالَتْ عائشة: أَوَ لَمْ تسمعْ أنَّ اللّهَ يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

أَوَ لَمْ تسمعْ أنَّ اللّهَ يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا

أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١]..»[١].

وروى البخاريُّ عن مسروقٍ قال: قلتُ لعائشةَ رضي اللّهُ عنها: «يا أُمَّتاه: هل رأى محمدٌ ربَّه؟

قالت: لقد قَفَّ شَعري مما قلت! أينَ أَنتَ من ثلاث: مَنْ حَدَّثكهُنَّ فقد كَذَب. مَنْ حدثَك أنَّ محمداً رأى ربَّه فقد كَذَب! ثم قرأَتْ قولَه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ..﴾»[٢].

وممن ذهبَ إلى ما ذهبتْ إليه عائشةُ عبدُ الله بن مسعود، وأبو هريرة، رضي الله عنهم.

الراجح أن الرسول لم ير ربه

أما ابنُ عباس رضي الله عنهما فقد كانَ يقولُ بالرؤية.

روى البخاريُّ عنه رضيَ اللّهُ عنهما قال: «قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] هي رُؤْيا عين، أُرِيَها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسريَ به...»[٣].

وروى مسلمٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: رآهُ بقلبه.

وفي روايةٍ أُخرى قال: رآهُ بفؤادِه مرتيْن[٤].

فأحياناً يقولُ ابنُ عباس: إن محمداً ﷺ رأى ربَّه ليلةَ المعراج بعينيْه، وأَحياناً يقول: إِنه رآهُ بقلبه مرة. وأَحياناً يقول: إِنه رآهُ بفؤاده مرتين.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧٧.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٥٥.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٤٧١٦.
(٤) أخرجه مسلم برقم: ١٧٦.

والراجحُ في هذه المسألة ما ذهبتْ إليه عائشةُ رضي الله عنها، فالرسولُ ﷺ لم يَرَ ربَّه ليلةَ المعراج بعينيه.

ومما يدلُّ على أنَّ هذا هو الراجح، ما رواه مسلمٌ عن أَبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه قال: سأَلْتُ رسولَ الله ﷺ: هل رأيتَ ربَّك؟

فقال: «نورٌ أَنّى أَراه..»[1].

والمعنى أن الرسولَ ﷺ لم يَرَ ربَّه بعينيه، لأنَّ النورَ هو الحجابُ الذي يمنعُ من رؤيتِه سبحانه وتعالى.

وكأنَّ الرسولَ ﷺ قال: كيف أَراه، والنورُ حجابٌ بيني وبينه، يمنعني من رؤيته؟

رؤية الله بدون إحاطة

ومعنى قولِ الإمامِ الطحاوي: «والرؤيةُ حقٌّ لأهلِ الجنة بغيرِ إحاطة ولا كيفية..»: أنَّ المؤمنين هم الذينَ يرونَ اللّهَ في الجنة، تكريماً من الله لهم، أما الكافرون فإنهم لا يرونَه سبحانه، وإنما يكونون محجوبين عنه.

ونحنُ نؤمنُ بهذه الرؤية، ونُثبتُها، لكن بدونِ إحاطةٍ ولا كيفية، أيْ أنَّ عيونَ المؤمنين تَرى اللّهَ في الجنة، لكنها لا تدركُه ولا تُحيطُ به، لأنَّ الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

ونحنُ عندما نُثبتُ الرؤية، نُثبتُها بدونِ تكييفٍ لها، لأَنه لا يجوزُ تكييفُ صفاتِ الله.

ولهذا قالَ الإمامُ الطحاوي: «وتفسيرُه على ما أَرادَ تعالى وعَلِمَه، وكلُّ ما جاءَ في ذلك من الحديثِ الصحيحِ عن رسول الله ﷺ، فهو كما قال، ومعناه كما أَراد..».

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧٨.

فمن الواجبِ على المسلمِ أنْ يلتزمَ بما وردَ في القرآنِ، وما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ.

وقد أنكرَ الإمامُ الطحاوي التأويلَ المذموم، وذلك في قوله: «ولا نَدخلُ في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهِّمين بأهوائنا..»:

إنَّ التأويلَ نوعان:

الأول: تأويلٌ صحيح: وهو حسنُ فهم النص، آيةً كانَ أو حديثاً، وهو الذي يكونُ موافِقاً لما جاءتْ به الآياتُ والأحاديث.

الثاني: تأويلٌ فاسد: وهو الذي يخالفُ آيةً أَو حديثاً صحيحاً، ولا يتفقُ مع السياق، ولا توجَدُ معه قرينةٌ تقتضيه..

والتأويلُ الذي يذمُّهُ الإمامُ الطحاوي هو التأويلُ الثاني.

وإذا كان التأويلُ المذمومُ مرفوضاً فعلى المسلمِ أنْ يُسْلِمَ في دينَه للّهِ ولرسولِه ﷺ.

قال الإمامُ الطحاوي: «فإنه ما سَلِمَ في دينه إلاّ مَنْ سَلَّمَ لله عز وجل ولرسولِه ﷺ..».

والمعنى أنَّ المسلمَ مأمورٌ بالتسليمِ والاستسلامِ لنصوصِ الكتاب والسنة، وعدمِ الاعتراضِ عليها بالشكوكِ والشبهاتِ والتأويلاتِ الفاسدة، وعدمِ إعلاءِ العقلِ فوقَ النص.

وفي الحقيقةِ لا يوجَدُ تعارضٌ بين العقلِ الصريحِ والنقلِ الصحيح. وإذا كان هناكَ تعارضٌ بينهما، فإمّا أنْ يكونَ النقلُ غيرَ صحيح، وإمّا أنْ يكونَ فهمُه غيرَ صحيح.

وجوب اعتماد صحيح الحديث

إنَّ الواجبَ على المسلم هو كمالُ تسليمِه للرسولِ ﷺ، وانقيادُه لأمْرِه، وتلقّي حديثِه بالقَبول والتَّصديق، وعدمُ معارضتِه بأفهامٍ باطلة، وعدمُ تقديمِ آراءِ الرجالِ عليه.

وإذا بلغَ هذا المسلمَ حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، يأخُذُه ويؤمنُ به، وكأنَّه سمعَه من رسولِ الله ﷺ، ولذلك لا يقدِّمُ عليه رأيَ إنسان، أو يَعرضَه على رأيِ إنسان.

وإذا كان نصٌّ أَمامَ هذا المسلم من المتشابه، فعليه أنْ يردَّ علْمَه إلى الله، لأنَّ اللّهَ هو الذي اختصَّ بعلمِ المتشابه، والمسلمُ يؤمنُ به، ويقول: «آمنا به، كل من عند ربنا».

وقد أنكرَ رسولُ الله ﷺ الاختلافَ والمراءَ والنزاعَ في فهمِ نصوصِ القرآن.

روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: هَجَّرْتُ إلى رسولِ الله ﷺ يوماً، فسمعَ أصواتَ رجليْن، اختلَفا في آية، فخرجَ علينا رسولُ الله ﷺ، يُعْرَفُ في وجهه الغضب. فقال: «إنما هلكَ مَن كانَ قبلكُم باختلافهم في الكتاب..»[١].

وقد نهى اللّهُ المسلمين عن القولِ بدونِ علم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

والعلمُ يكون بحسنِ اتباعِ رسولِ الله ﷺ، وحسنِ فهمِ ما جاءَ به من الله، وحسْنِ تطبيقِه والالتزامِ به، فهذا هو الأصلُ الأصيلُ الذي يُبنىٰ عليه الإسلام.

وجوب التسليم للنص الثابت

٣٩ : «وَلا تَثْبُتُ قَدَمُ الإِسْلامِ، إِلاّ على ظَهْرِ التَّسْليمِ والاسْتِسْلام..».

لا يَثبتُ إسلامُ المسلم إلاّ باستسلامِه لنصوصِ الكتاب والسنة، بحيث يؤمنُ بهذه النصوص، ويَنقادُ إليها، ولا يَعترضُ عليها، ولا يُعارضُها برأيه أو رأيِ غيره.

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٦٦.

وللإمام محمدِ بن شهابِ الزهري رحمه الله كلمةٌ نافعةٌ جامعة في ذلك: فقد سأَلَه الإمامُ الأوزاعيُّ قائلًا: يا أَبا بكر: ما معنى قولِ النبي ﷺ: «ليسَ مِنّا مَنْ شَقَّ الجيوب..»؟

فقالَ له: مِنَ اللّهِ العلم، وعلى رسولِه البلاغ، وعلينا التسليمُ..

ومعنى كلامِ الإمام الزهريِّ أن اللّهَ عَلَّمَ رسولَه ﷺ، وأنزلَ عليه القرآن، وبلَّغَ الرسولُ ﷺ وحْيَ الله، وعلينا نحنُ التسليمُ لما وَرَدَ عن الرسول عليه الصلاة والسلام، والتسليمُ يكون بفهمِ الآية أو الحديث، ثم قبولِه والرضا به، ثم التزامِه وتنفيذِه.

فالعقلُ تابعٌ للنصِّ المتمثلِ بالآيةِ الصريحة والحديث الصحيح، وصلةُ العقلِ مع النصِّ كصلةِ العامّيِّ المقلِّدِ مع العالم المجتهد.

والعقلُ المهتدي يستسلمُ للنصِّ لأَنه يَعلمُ أَنَّ رسولَ الله ﷺ معصومٌ من الخطأ، وأَنه بَلَّغَ المسلمين شرعَ الله، وبيَّنَ لهم أحكامَه.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

حيرة وشك من خالف الكتاب والسنة

[٣٠]: «فَمَنْ رامَ عِلْمَ ما حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْليمِ فَهْمُه، حَجَبَهُ مَرامُه عَنْ خالِصِ التَّوْحيد، وَصافي المعرفة، وصَحيحِ الإيمان.. فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الكُفْرِ وَالإيمانِ، وَالتَّصْديقِ وَالتَّكْذيبِ، وَالإقْرارِ وَالإنْكارِ، مُوَسْوِساً تائِهاً، شاكّاً زائِغاً، لا مُؤْمناً مُصَدِّقاً، وَلا جاحِداً مُكَذِّباً..».

هذا الكلامُ تأكيدٌ من الإمامِ الطحاويِّ لما سبقَ له تقريرُه، من وجوبِ الاعتمادِ على نصوصِ الكتاب والسنة، ومتابعةِ العقلِ للنص.

فمن خالَفَ ذلك، ولم يستسلمْ للكتابِ والسنة، وخاضَ في ما لم يزوِّدْهُ اللّهُ من الوسائلِ للخوضِ فيه، وبحثَ في ما حظَرهُ اللّهُ عليه من الغيبيات، فإنه يُخطئُ الطريق، ويَدفعُ الثمنَ غالياً، حيث يَفقدُ التوحيدَ الخالص، والمعرفةَ الصافية، والإيمانَ الصحيح، كما يفقدُ اليقينَ والطمأنينةَ والرضى، والعلمَ النافعَ والنورَ الهادي.

ويقعُ في الحيرةِ والشك، وتَستولي عليه الشبهاتُ والإشكالات، فيتذبذبُ بين الإيمانِ والكفر، والتصديقِ والتكذيب، والإقرار والإنكار.

فأنتَ تراهُ أَسيرَ التيهِ والوسوسة، صريعَ الشكِّ والزيغ، فلا هو مؤمنٌ مصدِّق، ولا هو جاحدٌ مكذِّب.

وهذا هو حالُ كلِّ مَنْ خالفَ الطريقَ الصحيحَ في العلم والمعرفة، ذلك الطريقُ الملتزمُ بالكتابِ والسنة.

لقد أوجبَ اللهُ على المسلمين التعلم، ونهاهم عن الكلامِ في أصولِ الدين ومسائلِ الإيمانِ ـ وفي غيرها من العلوم ـ بغير علم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

ذم المجادلين بالباطل المتبعين للهوى

وذمَّ اللّهُ الذين يجادلون بغيرِ علم. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج: ٨ ـ ٩].

كما ذمَّ الرسولُ ﷺ مَنْ يجادلُ بغيرِ علم، ويَحرصُ على الجدلِ ويستمرُّ فيه:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أبغضَ الرجالِ إلى الله الألَدُّ الخَصِمُ..»[(١)].

وروى الترمذيُّ عن أَبي أمامةَ الباهلي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدى كانوا عليه إلاّ أُوتوا الجدل...»[(٢)].

وكلُّ مَنْ رفضَ الاستسلامَ التامَّ للكتابِ والسنة، واتبعَ هواه، وأصَرَّ على الجدل، فإنه يُنقصُ من إيمانِه وتوحيدِه ودينه.

وذمَّ اللّهُ الذي اتخذَ هواه وجعلَه إلهاً. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ..﴾ [الجاثية: ٢٣].

وذكرَ عبدُ الله بنُ المبارك ثلاثَ فِرَقٍ من متَّبِعي الأهواء، وجَعَلَهم أَسبابَ الفسادِ. فقال:

رَأَيْتُ الذُّنوبَ تُميتُ القُلوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إدْمانُها
وَتَرْكُ الذُّنوبِ حَياةُ القُلوب ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيانُها
وَهَلْ أَفْسَدَ الدّينَ إلاّ المُلوكُ ... وَأَحْبارُ سوءٍ وَرُهْبانُها

إنهم: الملوك، وأَحبارُ السوء، والرهبان.

فالملوكُ الظالمون يقولون: إذا تعارضَ الشرعُ والسياسة، قَدَّمْنا السياسةَ على الشرع. وهذا ضلال.

وأَحبارُ السوءِ مثالُ الذين يقولون: إذا تعارضَ العقلُ والنقل، قَدَّمْنا العقلَ. وهذا ضلال.

والرهبانُ مثالُ الذين يقولون: إذا تعارضَ الذوقُ والشرع، قَدَّمْنا الذوقَ على الشرع. وهذا ضلال.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤٥٧. ومسلم برقم: ٢٦٦٨.
(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٣٢٥٠.

إنَّ التزامَ الكتابِ والسنةِ يَدْعو المسلمَ إلى تركِ الجدلِ بالباطل، ورفضِ «علم الكلام»، الذي وضعهُ علماءُ الكلام ورجالُ الفرق، وهو غريبٌ على الكتابِ والسنة، وفهمِ الصحابةِ والتابعين.

البقاء مع الكتاب والسنّة وفهم سلف الأمة

يجبُ على المسلمِ أنْ يبقى مع الصحابة، في فهمِهم للكتابِ والسنّة، فيقولُ بما قالوا به، ويسكتُ عما سكتوا عنه. وقد كانَ الصحابةُ علماءَ أتقياء، أعلمَ من غيرهم.

والمسائلُ والمباحثُ الجدليةُ الكلاميةُ التي سكتوا عنها، لعلْمِهم أنها لا فائدةَ منها، وأنها تفتحُ أَبواباً من الشر، تُنقصُ الإيمانَ والدينَ والتوحيد. وهذا ما حصلَ للذين لم يلتزموا بمنهجِ الصحابة، وخاضوا في تلكَ المسائل.

لقد ذمَّ السلفُ «علْمَ الكلام»، لاشتمالِه على أُمورٍ كاذبة مخالفةٍ للحق، ولأن طريقَه مخالفةٌ للكتاب والسنة.

وما فيه من بعضِ الفوائدِ القليلة قليلُ النفعِ؛ لأنه مطمورٌ وسطَ رُكامِ من الكلامِ الكثيرِ الذي لا نفعَ فيه.

وأحسنُ ما عندَ علماءِ الكلام، فهو في القرآن أَصحُّ تقريراً، وأحسنُ تفسيراً، أما هم فليسَ عندهم إلاّ التكلُّفُ والتطويلُ والتعقيد.

وهم يزعمونَ أَنهم يدفعونَ بعلمِ الكلام الذي عندهم الشبهاتِ والشكوك، ولم يَنجحوا في ذلك، وإنما زادت الشُّبَهُ والشكوكُ بما فعلوه.

وصدَقَ في علماءِ الكلام قولُ القائل:

لَوْلا التَّنافُسُ في الدُّنْيا لَما وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّناظُر: لا المُغْني وَلا العَمَدُ
يُحَلِّلونَ بِزَعْمِ مِنْهُمُ عُقَداً ... وَبِالذي وَضَعوهُ زادَت العُقَدُ

و«المُغْني والعَمَدُ» كتابان لشيخِ المعتزلةِ القاضي عبدِ الجبار بنِ أحمد الهمداني. وهما أساسُ علمِ الكلام عند المعتزلة.

لا علمٌ ولا هدى ولا يقينٌ ولا شفاءٌ إلاّ في كتاب الله، وما صحَّ من حديثِ رسول الله ﷺ.

ولذلك يجبُ على المسلم أنْ يجعلَ ما قالَه اللّهُ ورسولُه هو الأصل، فيتدبَّرُ معناه ويعقلُه، ويَعرفُ برهانَه ودليلَه، ويعرفُ دلالتَه وحكمتَه، ويحاكمُ كلامَ الآخرين إليه، فما وافقَ الكتابَ والسنةَ من كلامِهم أَخذَه وقبلَه، وما خالفَ الكتابَ والسنةَ من كلامهم ردَّه وتركَه، واعتمدَ الكتابَ والسنة..

ذم علم الكلام وأصحابه

إن سببَ ضلالِ علماءِ الكلام هو إعراضُهم عن تدبُّرِ كلامِ الله وكلامِ رسوله ﷺ، والاشتغالُ بكلامِ الفلاسفة وأهلِ اليونان.

وسُميَ علمُهم «علمَ الكلام»، وهي تسميةٌ صادقة، فهم لم يأتوا بعلمٍ جديد لم يكن موجوداً، وإنما أَتوا بكلامٍ مطوّلٍ مكررٍ لا يُفيد.

وكلُّ مَنْ قدمَ العقلَ أو السياسةَ أو الذوقَ على النص، وخالفَ النصَّ واتبعَ ما سواه، فقد اقتدى بإبليس، الذي لم يستسلمْ لأمْرِ اللّهِ له بالسجودِ لآدم، وحَكَّمَ فيه هواه. قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

علماً أنَّ إيمانَ المؤمن لا يتمُّ إلاّ باستسلامِه لحكمِ اللّهِ ورسوله، وطاعتِه المطلقة للّهِ ورسوله، ومتابعتِه الصادقة لهدي رسولِه ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد صوَّرَ الإمامُ الطحاويُّ حالةَ كلِّ مَنْ خرجَ على منهجِ الكتابِ والسنة في العقيدة، وتابعَ مناهجَ الفلاسفة والمتكلمين، ووقوعَه في الحيرةِ والاضطرابِ والشك، وذلك في قوله: «فيتذبذبُ بينَ الكفرِ والإيمان، والتصديقِ والتكذيب، والإقرارِ والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكّاً زائغاً، لا مؤمناً مصدِّقاً، ولا جاحداً مكذِّباً».

علماء يندمون على الخوض في علم الكلام

وقد خاضَ بعضُ العلماءِ في علم الكلام على مناهجِ المتكلمين ومقاييسهم، فلم يَجنوا من ذلك إلاّ الحيرةَ والشك، فتخلّوا عن ذلك الطريق، وعادوا إلى منهجِ القرآنِ والسنة، وسَجّلوا في ذلك عباراتٍ ذاتَ دلالة، تحذيراً لمن بعدَهم، لئلا يقعوا فيما وقعوا فيه، وتذكيراً لهم ليبقوا مع القرآنِ والسنة.

قال الإمامُ ابنُ رشد الحفيد: «لم يقلْ أحدٌ من الناس في العلومِ الإلهيةِ شيئاً يعتدُّ به».

ووقفَ الإمامُ الآمدي حائراً في المسائلِ الكلاميةِ الكبار، ولم يخرجْ منها بنتيجة.

والإمامُ أبو حامد الغزالي انتهى آخِرَ أمْرِه إلى التوقفِ والحيرةِ في المسائل الكلامية، فأعرضَ في آخرِ عمرِه عن تلك الطرقِ كلِّها، وأقبلَ على حديثِ رسولِ الله ﷺ، حتى إنه ماتَ وهو واضعٌ صحيحَ البخاريِّ على صدره.

وهذه أبياتٌ شعرية وعباراتٌ رائعة للإمام فخرِ الدين الرازي، سجَّلَها بعد التجربةِ المُرَّة التي خاضَها مع مسائلِ علم الكلام:

نِهايَةُ إقْدامِ العُقولِ عِقالُ وَغايَةُ سَعْيِ العالَمينَ ضَلالُ
وأَرْوَاحُنا في وَحْشَةٍ مِنْ جُسومِنا وَحاصِلُ دُنْيانا أذىً وَوَبالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِن بَحْثِنَا طولَ عُمْرِنا سِوى أنْ جَمَعْنا فيهِ: قيلَ وَقالُوا

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنا مِنْ رِجالٍ وَدَوْلَةٍ   فَبادوا جَميعاً مُسْرِعينَ وَزالُوا
وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفاتُها   رِجالٌ، فَزالوا وَالجِبالُ جِبالُ

ثم قال: لقد تأملتُ الطرقَ الكلامية والمناهجَ الفلسفية، فما رأيتُها تَشفي عَليلاً، ولا تَروي غَليلاً، ورأيتُ أقربَ الطرقِ طريقةَ القرآن. اقرأْ في الإثبات قولَه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

واقرأْ في النفي قولَه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾ [طه: ١١٠].

ومَنْ جَرَّبَ مثلَ تجربتي، عرفَ مِثْلَ معرفتي.

والإمامُ الشهرستانيُّ يقول: إنه لم يجدْ عندَ الفلاسفةِ والمتكلمين إلاّ الحيرةَ والندم. ثم يُنشد:

لَعَمْري لَقَدْ طُفْتُ المعَاهِدَ كُلَّها   وَسَيَّرْتُ طَرْفي بَيْنَ تِلْكَ المعَالِمِ
فَلَمْ أرَ إلاّ واضِعاً كَفَّ حائِرٍ   عَلى ذَقَنٍ أوْ قارِعاً سِنَّ نادِمِ

وقال الإمامُ أبو المعالي الجويني ناصِحاً أصحابَه: يا أصحابَنا: لا تَشتغلوا بالكلام، فلو عرفْتُ أنَّ الكلامَ يبلغُ بي إلى ما بلغَ ما اشْتغلْتُ به.

وقالَ الجويني عند موته: لقد خضتُ البحْرَ الخِضَمّ، وخلَّيتُ أهلَ الإسلام وعلومَهم، ودخلتُ في الذي نَهوني عنه. والآن: إنْ لم يتداركْني ربي برحمتِه، فالويلُ لابن الجويني، وها أنا ذا أموتُ على عقيدةِ عجائزِ نيسابور.

ودخلَ الإمامُ شمسُ الدين الخَسرو شاهي الفيلسوفُ المتكلمُ على أحدِ الفضلاء. فسألَه: ما تعتقد؟.

أجابَه: أعتقدُ ما يعتقدُه المسلمون.

فقالَ الخسرو شاهي: تعتقدُ هذا وأنت منشرحُ الصدر لذلك، مستيقنٌ به؟

قالَ له: نعم!!

فقالَ الخسرو شاهي: أشكر الله على هذه النعمةَ! لكنّي والله ما أدري ما أعتقد! والله ما أدري ما أعتقد!! والله ما أدري ما أعتقد!!! ثم بكى حتى أخْضَلَ لحيتَه!!

وقال الإمامُ ابنُ أبي الحديد:

فـيـكَ يـا أُغْـلـوطَـةَ الـفِـكْـرِ حـارَ أمْـري وانْـقَـضـى عُـمـري
سـافَـرَتْ فـيـكَ الـعُـقـولُ فـمـا رَبِـحَـتْ إلاَّ أذى الـسَّـفَـرِ
فَـلَـحَـىٰ الله الألـىٰ زَعَـمـوا أنَّـكَ الـمَـعْـروفُ بِـالـنَّـظَـرِ
كَـذَبـوا إنَّ الـذي زَعَـمـوا خـارِجٌ عَـنْ قُـوَّةِ الـبَـشَـرِ

وقالَ الإمامُ الخونجي عند موته: ما عرفْتُ مما حصَّلْتُه شيئاً، سوى أنَّ الممكنَ يفتقرُ إلى المرجح.

ثم قال: الافتقارُ وصْفٌ سلبي. وأنا أموتُ وما عرفْتُ شيئاً!!.

وقال ابنُ واصل الحموي: اضطَجعُ على فراشي، وأضَعُ الملحفةَ على وجهي، وأُقابلُ بين حججِ هؤلاء وهؤلاء، حتى يطلعَ الفجر، ولم يترجَّحْ عندي منها شيء!!!

هذه النقولُ والأقوالُ لهؤلاءِ الأئمةِ الأعلام، نتيجةُ تجربتهم المرةِ مع علمِ الكلام، ولا بدَّ للمؤمن أنْ يعتبر بها ويستفيدُ منها، فلا يقعُ فيما وقعوا فيه.

علماء يذمون علم الكلام

قالَ الإمامُ أبو يوسف: مَنْ طلبَ الدين بالكلام، تَزَندق.

وقالَ الإمامُ الشافعي: حُكمْي في أهلِ الكلام أنْ يضربوا بالجريدِ والنعال، ويُطافَ بهم في القبائلِ والعشائر! ويقال: هذا جزاءُ مَنْ تركَ الكتابَ والسنة، وأقبلَ على الكلام!!

وقالَ الشافعيُّ أيضاً: لأنْ يُبتلى العبدُ بكلِّ ما نهى الله عنه ـ ما خَلا الشركَ بالله ـ خيرٌ له من أنْ يُبتلىٰ بالكلام.

وكُلُّ مَن ابتلي بالكلامِ والفلسفة والإعجابِ بهذه الأفكارِ والمباحث عليه أنْ يُقبلَ على الله، متضرِّعاً داعياً، طالِباً منه الشفاءَ من هذا البلاء، ويدعو بما صحَّ من دعاء رسولِ الله ﷺ.

روى مسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا قامَ يصلِّي من الليل يفتتحُ صلاتَه بقوله: «اللَّهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السمواتِ والأرض، عالمَ الغيبِ والشهادة، أنتَ تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهْدِني لما اخْتُلفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنكَ تهدي من تشاءَ إلى صراطٍ مستقيم»(١).

وهذا توسُّلٌ إلى الله بربوبيته لهؤلاءِ الملائكة الثلاثة عليهم السلام، لأنْ يهديَ قلبَ المؤمن فيما اختلَفوا فيه إلى الحق، وهدايةُ القلبِ إلى الحق في المسائل الخلافية حياةٌ له، ونعمةٌ غامرةٌ من الله عليه.

عدم تأويل رؤية الله

[٣١]: «ولا يَصِحُّ الإيمانُ بِالرُّؤْيَةِ لأهْلِ دارِ السَّلام لِمَنْ اعْتَبَرَها مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أوْ تأوَّلَها بِفَهْم. إذْ كانَ تأويلُ الرُّؤْيَةِ ـ وَتَأوِيلُ كُلِّ مَعنى يُضافُ إلى الربوبية ـ تَرْكَ التأويل، وَلُزومَ التَّسليم، وَعَلَيْهِ دينُ المسلمين».

الكلامُ عن رؤية الله في الجنة، أورَدَهُ الإمامُ الطحاويُّ هنا ليبني عليه كلامَه عن التأويل، فقد سبقَ أنْ تحدَّثَ عن الرؤية.

فالذينَ نفوا الرؤية، وأوّلوا النصوصَ التي تتحدثُ عنها، إنّما فعلوا ذلك فراراً مما ظنّوه تشبيهَ الله بخلقه، والأمْرُ ليسَ كذلك.

والحديثُ الذي أخبرَ عن الرؤية وردَ فيه تشبيه، وهو قولُه ﷺ: «إنكم ترونَ ربَّكم، كما ترونَ القمرَ ليلةَ البدر».

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٧٧٠.

والكافُ في «كما» حرفُ تشبيه. و«ما» فيها حرفٌ مصدري، والمصدرُ في محلِّ جرٍّ بالكاف. والتقدير: إنكم ترونَ ربَّكم كرؤيتكم القمر.

فالتشبيهُ في الرؤية، ووجْهُ الشبهِ هو الوضوحُ بدون جهد. أي رؤيتُكم لربكم في الجنة ستكونُ بمنتهى الوضوح، كرؤيتكم القمرَ ليلةَ البدر.

وليس التشبيهُ في المرئي، فلا يجوزُ أنْ تشبَّهَ ذاتُ الله بالقمر سبحانه!

والذين أوَّلوا الرؤيةَ هنا، صَرَفوها من الرؤيةِ العينية البصريةِ إلى العلم، وقالوا: معنى الحديث: إنكم تعلمونَ ربَّكم. وهذا ضلال.

والدليلُ على أنَّ المرادَ بالرؤيةِ في الحديث الإبصارُ بالعين قولُه: «كما ترون القمر» و«كما ترونَ الشمسَ في الظهيرة» فهذه قرينةٌ دالةٌ على أنها رؤيةٌ بصرية.

والمرادُ بقولِ الطحاوي: «دار السلام» الجنة.

ومعنى كلامِ الإمام الطحاوي: «ولا يصح الإيمانُ بالرؤيةِ لأهلِ دارِ السلامه لمن اعتبرَها بوهم، أو تأوَّلَها بفهم»: أن القولَ برؤيةِ الله في الجنة لا يَقبلُ الوهمَ والظن.

الهاربون من التجسيم إلى التعطيل

فَمَنْ ظَنَّ وتوهَّمَ أنَّ في هذه الرؤية تشبيهَ الله بخلْقِه فلن يفهمَها حقاً. فإمّا أنْ يُؤوِّلَها ويُعَطِّلَها ويَنفيها، هرباً من تَوَهُّمِ تشبيهِ الله بخلقه، وإمَّا أن يُشَبِّهَ الله بخلقه فعلاً، ويجسِّمَه بجسمٍ ماديٍّ محدود.

وكلا الأمريْن باطل، وسببُ الخطأ فيهما هو التوهُّمُ والظن.

فلا بدَّ أنْ ينفيَ المسلمُ الوهمَ والظنَّ، ليكونَ إيمانُه برؤيةِ الله في الجنة صحيحاً، كما فهمها الصحابة.

فإن لم يفعلْ، ولم يَحذر التعطيلَ والتشبيهَ زَلَّ وهلك، ووقعَ في الباطل.

ومعنى قول الطحاوي: «إذ كان تأويلُ الرؤية ـ وتأويل كل معنى يُضافُ إلى الربوبية ـ تركَ التأويل. ولزومَ التسليم»: حسنُ فهمِ الرؤية ـ وحسْنُ فهمِ كلِّ معنى يُضافُ إلى الربوبية ـ هو عدمُ تأويلِ النصوص، وعدمُ صَرْفِها عن معانيها الصحيحةِ إلى مَعانٍ أخرى، والتسليمُ بما دَلَّتْ عليه تلكَ النصوص.

التأويلُ مذكورٌ مرتيْن في الجملةِ السابقة: «تأويل الرؤية.. ترك التأويل».

الأولُ مَعْناه: حسنُ الفهم. والثاني معناه: التَّحريف.

أي: حسْنُ فهمِ النصِّ بعدم صرْفِه عن معناه!

ثلاثة معانٍ للتأويل

للتأويلِ ثلاثةُ معانٍ:

الأول: هو بيانُ الحقيقةِ التي يَؤُول ويَنتهي إليها الكلام. وبهذا المعنى وردَ في القرآنِ والحديث.

ولهذا التأويلِ صورتان:

الصورة الأولى: تأويلُ الأمر: ويكونُ بفعْلِ وأَداءِ المأمورِ به، فالنصُّ الذي تضمنَ الأمرَ والتكليفَ نظري، وعندما يُؤَوِّلُ المكلفُ هذا النصَّ النظريَّ فإنه يوجدُه في صورةٍ عملية في الخارج. وهذه الصورةُ هي الهدفُ من النص، وهي الحقيقةُ العمليةُ التي يَؤُولُ ويَنتهي إليها.

ومن الأدلةِ على هذه الصورة ما رواه مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله يُكثرُ في آخرِ أمرِه مِن قولِ: سبحانَ الله وبحمدِه، أستغفرُ الله وأتوبُ إليه.

فقلتُ: يا رسولَ الله: مالي أَراكَ تُكثرُ مِنْ قول: سبحان الله وبحمده أستغفرُ الله وأتوبُ إليه؟

قال: «إنّ ربّي عز وجل كان أخبرني أني سأرى علامةً في أُمتي. وأمَرني إذا رأيتُها أنْ أُسبِّحَ بحمدِه، وأستغفرَه»[١].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: كان رسولُ الله ﷺ يُكثرُ أنْ يقولَ في ركوعِه وسجودِه: سبحانك اللّهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللّهمّ اغفر لي، يتأوّلُ القرآن»[٢].

الشاهدُ في الحديث قولُها: «يتأوَّلُ القرآن». أي: ينفِّذُ الأمرَ بالتسبيحِ والاستغفارِ الواردِ في القرآن، وتنفيذُه للأمر تأويلٌ له، لأنه حققَ الهدفَ منه، وهذه هي الحقيقةُ التي يَؤولُ وينتهي إليها.

تأويل الخبر وقوعه

الصورة الثانية: تأويلُ الخبر: وقوعه وتحققه فعلاً. ويكونُ هذا عند أحداثِ ومشاهدِ يوم القيامة.

لقد أخبرَنا الله في القرآن عن مشاهدِ القيامة، وهذا خبرٌ نظريٌّ لم يتحققْ في الواقع، وتأويلُه هو قيامُ الساعة ومجيءُ يوم القيامة، وبذلك يتحوَّلُ الخبرُ النظريُّ إلى صورةٍ عمليةٍ، وهذه هي الحقيقةُ التي يَؤولُ إليها الخبر.

والدليلُ على هذه الصورةِ من التأويل قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف: ٥٣].

الكفارُ ينكرونَ يومَ القيامة، والآيةُ تهدُدهم، تقولُ عنهم: لماذا هم ينكرون يومَ القيامة؟ ماذا ينتظرون؟

سيتمُّ تأويلُ يومِ القيامة! أي: سيتمُّ تحقيقُ الأخبارِ القرآنيةِ التي تتحدثُ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٤٨٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٨١٧. ومسلم: ٤٨٤.

عن يومِ القيامة! أي: سيتمُّ تحقيقُ الأخبارِ القرآنيةِ التي تتحدثُ عن يومِ القيامة في عالم الواقع، وهذا يكونُ عندما تبدأ مشاهدُ القيامة، وهذا هو التأويلُ للأخبار القرآنية.

إذن: تأويلُ الخبر: تحققُه في عالم الواقع.

تأويل الكلام: تفسيره وبيانه

المعنى الثاني للتأويل: تفسيرُ الكلام، وبيانُ معانيه، وحسنُ فهمه.

وهذا هو معناهُ عند المفسرين، فهو عندهم قريبٌ من معنى التفسير، ولهذا سَمّى الطبريُّ تفسيرَه: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».

وآيةُ المحكم والمتشابهِ والتأويلِ في سورةِ آل عمران يمكنُ أنْ تشيرَ إلى النوعين من التأويل.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ﴾ [آل عمران: ٧].

للآيةِ تفسيران. حسبَ المعنى المرادِ من التأويلِ المذكورِ فيها:

فإنْ كانَ المرادُ بالتأويل بيانَ الحقيقة التي يَؤولُ إليها الكلام، كما قلنا في تأويلِ الخبر، وهو عينُ المخبَرِ به، كان هذا التأويلُ خاصاً بالله، فلا يَعلمُ تأويلَ هذا المتشابهِ إلاَّ الله، أمّا الراسخون في العلمِ فإنهم يعترفونَ بعجزِهم عن تأويله، ويَقْصرونَ العلمَ بتأويلِه على الله.

وعلى هذا المعنى والتفسيرِ يكون الوقْفُ واجباً على قولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وتكون القراءةُ هكذا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. ثم يَستأنفُ القارئ بعدَ ذلك: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

وإنْ كانَ المرادُ بالتأويل المعنى الثاني، وهو التفسيرُ والبيان، يكون

الراسخون في العلم عالمين بتأويلِ المتشابه، ولا يكونُ هذا التأويلُ مقصوراً على الله.

وعلى هذا المعنى يَجوزُ عطفُ «الراسخون في العلم» على لفظ الجلالة: «الله». وتكونُ القراءةُ هكذا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

وعلى الاحتمال الأول: إذا قَصَرْنا العلمَ بالتأويلِ على الله، فليس معناهُ أنَّ الراسخين في العلم لا يَعلمون معناه، إنهم يعلمون معنى الآية القرآنية، لأن القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، وأوجبَ الله على المسلمين تدبُّرَه وفهمَ معناه.

وعلى الاحتمال الثاني: إذا كان الراسخونَ في العلم يعلمونَ تأويلَ الآية، فإنهم بهذا العلم يتميزونَ عن عوامِّ المسلمين، ويُسمى فهمُهم للآيةِ تأويلاً، لأنهم يَحملون هذه الآية التي في معناها غُموضٌ ولبسٌ على آيةٍ أخرى واضحة، بينما يعجز عوامُّ المسلمين عن ذلك.

وكان عبدُ الله بن عباس ممن يقولُ بالقولِ الثاني، ويحملُ التأويلَ على التفسيرِ والبيان، وإزالةِ الغموضِ واللبس عن اللفظ.

ولهذا كان يقول: أنا ممن يعلمُ تأويلَه.

وقد صَدَقَ رضي الله عنه في ذلك. فقد دَعا له النبيُّ ﷺ بذلك، واستجابَ الله دعاءَه، فكان ابنُ عباس أعلمَ الصحابةِ بالتأويلِ والتفسير.

روى البخاريُّ ومسلم عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: إن النبيَّ ﷺ دخلَ الخلاء، فوضعْتُ له وضوءاً. قال: مَنْ وَضَعَ هذا؟ فأُخبر.

فقال: اللَّهمَّ فَقِّهْهُ في الدين[1].

وروى أحمد في المسند الدعاءَ بلفظ: «اللهمَّ فقِّهْهُ في الدين، وعَلِّمْهُ التأويل»[2].

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٤٣. ومسلم برقم: ٢٤٧٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند: ١:٢٦٦.

ولهذا تكلمَ ابنُ عباس رضي الله عنهما في جميع معاني القرآن، ولم يَقلْ عن آيةٍ في القرآن: إنَّ معناها من المتشابه الذي لا يعلمُ تأويلَه إلا الله.

قال مجاهد: عرضْتُ المصحفَ على ابنِ عباس، من أوَّله إلى آخره، أوْقِفُهُ عند كلِّ آية وأسألُهُ عنها.

التأويل: صرف اللفظ

المعنى الثالث للتأويل: هو صرفُ اللفظِ عن الاحتمالِ الراجحِ إلى الاحتمالِ المرجوح لدلالةٍ توجبُ ذلك.

وهذا هو التأويلُ عند الفقهاء والمتكلمين.

وهذا التأويلُ نوعان: تأويلٌ صحيحٌ مقبول. وتأويلٌ باطلٌ مردود.

والتأويلُ الصحيح: هو الذي يوافقُ ما دلَّتْ عليه نصوصُ الكتابِ والسنة.

والتأويلُ الفاسد: هو الذي خالفَ الكتابَ والسنة.

وأصحابُ التأويلِ الفاسد يَصرفون آياتِ القرآن عن دلالاتِها المفهومة، بغير دليلٍ ولا قرينة، بحجةِ أنَّ ظاهرها باطلٌ يجبُ صرفُه.

موقفهُم هذا باطلٌ مردود. لأنَّ ما دلَّ عليه القرآن فهو حق، ليس فيه باطل ولا ضلال.

والأصلُ عدمُ فتحِ بابِ التأويل للآيات القرآنية، وعدمُ صرفِ معناها عن ما تدلُّ عليه إلى معنى آخر ليس عليه دليلٌ أو قرينة.

حتى آيات الصفات، التي خاضَ المتكلمون المتأخِّرون كثيراً فيها متوهِّمين متأوِّلين، الأصْلُ فهمُ معانيها بدونِ تأويل، وكذلك بدون تجسيم.

والأصْلُ في ذلك ما صحَّ عن محمدِ بن الحسن تلميذِ أبي حنيفة وصاحبه، أنه سئلَ عن الآياتِ والأخبار التي تخبر عن صفاتِ الله فقال:

نُمِرُّها كما جاءَتْ، ونُؤمِنُ بها، ولا نقول: كيف وكيف! وهذا ما كان عليه سلفُ الأمة.

الحذر من تعطيل صفات الله وتجسيمها

٣٢ : «وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ والتَّشْبيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ. فإنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلا مَوْصوفٌ بِصِفاتِ الوَحْدانِيَّة، مَنْعُوتٌ بِنُعوتِ الفَرْدَانِيَّة، لَيْسَ في مَعْناهُ أحَدٌ مِنَ البَرِيَّة.

وَتعالى عَنِ الحُدود والغاياتِ، والأرْكانِ والأعْضاءِ والأدواتِ، لا تَحْويهِ الجِهاتُ السِّتُّ كَسائِرِ المُبْتَدَعات».

قولُ الإمامِ الطحاوي: «ومَنْ لم يتوقَّ النفيَ والتشبيه، زلَّ، ولمْ يصب التنزيه»:

مَنْ لم يحذرْ نفيَ صفاتِ الله وتعطيلَها بحجةِ التنزيه لله، فإنه يَزِلُّ ويُخطِئ، ولم يُنزه الله، لأنَّ تنزيهَ الله لا يكونُ بنفي الصفاتِ عنه سبحانه.

ومَنْ لم يَحذرْ تشبيهَ الله بخلقه، فإنه يَزِلُّ ويُخطِئ، لأنَّ الله لا يُشبهُ أحداً من خلقِه سبحانه.

فنفيُ الصفاتِ عند الله، وتشبيهُ الله بخلقه، مَرَضان خطيران، يُصيبان قلوبَ المعطِّلين للصفات، والمجسِّمين لله.

إنَّ أمراضَ القلوب نوعان:

الأول: مرضُ الشهوة، والرغبةُ في الشهوات. وأشارَ إلى هذا المرض قولُه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

الثاني: مرضُ الشبهة، وأشارَ له قولُه تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

كما أشارَ له قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥].

وإنَّ مرضَ الشبهة أردأُ وأخطرُ من مرض الشهوة، لأنَّ مرضَ الشهوة قد يَزولُ بقضائِها، أمّا مرضُ الشبهة فإنه لا يزولُ إذا لم يتدارك الله صاحبَه برحمته.

والشبهةُ في صفاتِ الله إمَّا بنفيِها وتعطيلِها، وإمّا بتجسيمِها وتشبيهِها، ومُعَطِّلُ الصفات يعبدُ عَدماً، ومُشَبِّهُ الصفاتِ يعبدُ صنماً!!

وتشبيهُ الخالقِ بالمخلوق ضلال وكفر، وتشبيهُ المخلوقِ بالخالق ضلالٌ وكفرٌ أيضاً.

الذين شَبَّهوا الخالقَ بالمخلوق هم المجسِّمة الذين قالوا: لله يدٌ كأيدينا، وعينٌ كعيوننا، ووجْهٌ كوجوهنا، والذين شَبَّهوا المخلوقَ بالخالق هم الذين عبدوا الشمسَ والقمرَ والملائكة والجن، والمسيحَ والعُزَيْر.

الآية الأساس في تنزيه الله

وقد ردَّ القرآنُ على الذين يُشَبِّهون الله بخلقه، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

كما ردَّ على الذين يَنفون الصفاتِ ويُعطلونها في القسمِ الثاني من الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

وإذا كان الذين ينفونَ الصفات لا يمكنُ أن ينزهوا الله بهذا النفي، فإنَّ تنزيهَ الله يكونُ بأنْ نَصِفَه بما وَصَفَ به نفسَه سبحانه، إثباتاً ونفياً، ولا نُلغي صفةً من هذه الصفات، فهو الذي عَرَّفَنا على صفاتِه وأفعاله سبحانه.

وسورةُ الإخلاص هي الأساسُ في تنزيهِ الله، بإثباتِ صفاتِ الكمال والجلال له، وعدمِ نفْيِ صفةٍ من صفاته. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. فهو موصوفٌ بصفاتِ الوحدانية.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾: فهو فردٌ صَمَد، ليس له بدايةٌ مخلوقة، فهو لم يلدْ سبحانه، ولم يلدْه أحدٌ قبلَه سبحانه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: ليس له شبيهٌ ولا مثيلٌ ولا مساوٍ، لأنه خالق وكلُّ ما سواه مخلوق، والمخلوقُ ليس كفواً ولا شبيهاً للخالق.

وهذه السورةُ تأكيدٌ للحقيقةِ الإيمانية، من إثباتِ الصفاتِ لله، مع نفيِ تشبيهِ الخالق بالمخلوق.

وقد أكَّدَ الإمامُ الطحاويُّ على تنزيه الله، بإثباتِ الصفاتِ له مع عدم تشبيهه بخلقه، وذلك في قوله: «وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات».

وهذه الفقرةُ من كلامِ الإمامِ الطحاوي تعني عدمَ تشبيهِ الله بخلقه، وعدمَ تجسيمِه وتحديدِه وحصْرِه، بعكس المخلوقين الموصوفين بالتجسيم والتحديد والحصر!

إنَّ الله تعالى عن هذه النواقص، لأنه خالق، فلا يُحَدَّدُ ولا يُجَسَّمُ ولا يُحْصَر.

عدم تجسيم الله وحصره وتحديده

والحدودُ جمعُ حَدّ. والحَدُّ فيه تجسيمٌ وتشبيه، والذين يجعلون لله حَدّاً هم الذينَ يُشَبِّهونَ الله بخلقه، ويقولون: الله جسمٌ وجثةٌ وأعضاء، وهذا تحديدٌ لله سبحانه. وهذا باطل.

وقد اتفقَ السلفُ على عدمِ تحديدِ الله وتجسيمه.

قالَ أبو داودَ الطيالسي: كان سفيانُ الثوري وشعبةُ بن الحجاج وحمادُ بن زيد وحمادُ بن سلمة وشريكُ بن عبد الله وأبو عوانة: لا يَحُدّونَ، ولا يُشَبِّهونَ، ولا يُمَثِّلونَ، يَرْوُونَ الحديث، ولا يَكيِّفون الصفات، وإذا سُئلوا عن الصفات اكتفوا بإيرادِ الحديث.

إن الله تعالى عن الحَدِّ والتجسيم، وهو غيرُ حالٍّ في خلقه، بل هو قيومٌ قائمٌ بنفسه، ومُقيمٌ لغيره، حافظٌ له.

وقد صَدَقَ الإمامُ سَهْلُ بنُ عبدِ الله التُّسْتَري، حيث قالَ مجيباً مَنْ سألَه عن ذاتِ الله: ذاتُ الله موصوفةٌ بالعلم، غيرُ مدركَةٍ بالإحاطة، ولا مرئيةٍ بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودةٌ بحقائقِ الإيمان، من غيرِ حدٍّ ولا إحاطةٍ ولا حلول، وتَراهُ العيونُ في العُقبى، ظاهِراً في مُلكه وقدرتِه، قد حَجَبَ الخلقَ عن معرفةِ كُنْهِ ذاتِه، ودَلَّهم عليه بآياتِه، فالقلوبُ تعرفُه، والعيون لا تدركُه، يَنظرُ إليه المؤمنون بالأبصار، من غيرِ إحاطة، ولا إدراكِ نهاية.

وتعالى الله عن «الأركان والأعضاء والأدوات» كما قالَ الطحاوي أي: ليستْ له أعضاءٌ وأركانٌ كأعضاء المخلوقين وأركانهم.

لقد خلقَ الله الإنسانَ بجسم، له أركانٌ وأعضاءٌ وأدوات، له يَدٌ ورجل وبطنٌ وظهر، ورأسٌ وجذع، وعينٌ وأذن ولسانٌ وفم. والناسُ يعرفون ذلك.

أمّا الله فقد تعالى سبحانه عن هذه الأعضاء والأركانِ والأدوات.

إثبات صفات الله بدونِ تكييف ولا تأويل

وعدمُ تشبيهِ الله بخَلْقِه ليس معناه أن ننفيَ الصفاتِ التي أخبرَنا عنها، والتي اتصفَ بها سبحانَه، كاليد والوجهِ والنفس.

قال تعالى في اليدين: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥﴾ [ص: ٧٥].

فالله خلقَ آدمَ عليه السلام بيديه.

وقالَ تعالى في اليمين: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقالَ تعالى في الوجه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

وقالَ تعالى في النفس: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

لا يصحُّ تأويلُ هذه الصفات لأجلِ تنزيهِ الله، فلا نقول: اليد: القدرة، والوجه: الذات.

ونحنُ مع الإمامِ أبي حنيفة رضيَ الله عنه في قولِه: لله يَدٌ ووجْهٌ ونفس، كما ذَكَرَ تعالى في القرآن، فهو له صفةٌ بلا كيف، ولا يُقال: إنَّ يده هي قدرتُه ونعمتُه، لأنَّ في هذا إبطالاً للصفة.

الله لا تحويه جهة مخلوقة

وكما تعالى الله عن الحَدِّ والجارحةِ والعضوِ والأداةِ التي عند المخلوقين، تعالى كذلك عن الجهةِ التي تحدُّ المخلوقين، ولهذا قال الطحاوي: «لا تحويهِ الجهاتُ الست كسائر المبتدعات».

والجهاتُ الست هي: أمام وخلف، وفوق وتحت، ويمين وشمال. وهي جهاتٌ مخلوقةٌ خلقها الله، وجعلَ فيها المخلوقين، فهي تحويهم وتحصرُهم، لأنَّ المخلوقَ لا بدَّ أنْ ينحصرَ في واحدةٍ من هذه الجهات الست.

أما الخالقُ فلا تحويه هذه الجهاتُ الستّ، كما تحوي المخلوقاتِ المبتدعات، وهي لا تَحويه سبحانه لأنها جهاتٌ مخلوقة، والله خالق، ولا يُحيطُ به شيء من مخلوقاته، فهو يحيطُ بكلِّ شيء علماً، ولا يُحيطُ به أيُّ شيء.

وكونُه لا تحويه جهةٌ مخلوقةٌ سبحانه، ليس معناه أنْ ننفيَ ما ثبتَ له من صفةِ العُلُوِّ والاستواء، فالله استوى على العرش استواءً يليقُ بجلاله وعظمتِه، وهو فوقَ خلقِه سبحانه فوقيةً تليقُ بعظمته وجلاله، وهو الأعلى وعُلُوُّهُ يليقُ بعظمته وجلاله.

وليس استواؤه وعُلُوّه وفوقيَّتُه كاستواءِ المخلوقين وعلوِّهم وفوقيتهم!

الإسراء والمعراج مرة يقظة

٣٣ : «وَالمِعْراجُ حَقٌ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي اليَقَظَة، إلى السَّماء، ثُمَّ إلى حَيْثُ شاءَ الله مِن العُلا، وأكْرَمَهُ الله بِما شَاءَ، وأوْحَىٰ إلَيْهِ ما أوْحَىٰ، ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأى، فَصَلّى الله عَلَيْهِ في الآخِرَةِ والأولى».

المعراجُ على وزن «مِفْعال» من العُروجِ، وهو الآلةُ أو الوسيلةُ التي يُعْرَجُ وَيُصْعَدُ بها إلى أعلى.

وقولُ الطحاوي: «المعراج حق» يريدُ به عروجَ رسول الله ﷺ إلى السماءِ ليلةَ الإسراء والمعراج.

فهو حقٌّ ثابتٌ للنبي ﷺ، لأنه وردَ في الأحاديثِ الصحيحةِ الصريحة، التي أخبرَ بها رسولُ الله ﷺ عما جرى في تلك الليلةِ المباركة.

وموقفُنا من المعراجِ كموقفنا من باقي المغيبات، نؤمنُ به ونثبتُه، ولا نخوضُ في كيفيته.

وقولُ الطحاوي: «وقد أسري بالنبي ﷺ» يريدُ به الإسراءَ بالنبي ﷺ من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى. وهذا صريحٌ في كتابِ الله، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وقد اختُلفَ في الإسراءِ والمعراج: فذهَبَ بعضُهم إلى أنَّ الإسراءَ

والمعراجَ كان بروحِ رسولِ الله ﷺ، ولم يفارِقْ جسدُه مكة.

وذهب آخرون إلى أنَّ الإسراءَ والمعراج كان مناماً وليس يقظة.

وذهب آخرون إلى أنه كان مرتين: مرةً يقظة، ومرةً مناماً.

وذهب آخرون إلى أنه كان مرتين: مرةً قبل الوحي، ومرةً بعده.

والراجحُ أنَّ الإسراءَ والمعراجَ كان مرةً واحدة، بعدَ الوحي، وكان يقظة، وكان بالروحِ مع الجسد. ولهذا قالَ الإمامُ الطحاوي: «وقد أسري بالنبي ﷺ، وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا».

لقد كانَ الإسراءُ والمعراج قبلَ الهجرة بحوالي سنة.

أسريَ بجسدِ رسولِ الله ﷺ، في اليقظة من المسجدِ الحرام في مكة، إلى المسجدِ الأقصى في بيتِ المقدس، وقد أتاهُ جبريلُ عليه السلام بالبُراق، فركبهُ إلى المسجدِ الأقصى، ثم نزلَ فربطَهُ بحلقةٍ من حلقاتِ بابِ المسجد، ثم صلَّى بالأنبياءِ إماماً، ثم عُرِجَ به إلى السماء ومعه جبريل، وقابل في السماءِ الأولى آدم، وفي السماء الثانية يحيى وعيسى، وفي السماءِ الثالثة يوسف، وفي السماءِ الرابعة إدريس، وفي السماء الخامسة هارون، وفي السماءِ السادسة موسى، وفي السماء السابعة إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام.

ثم عُرِجَ بالرسولِ ﷺ إلى الجبارِ جل جلاله، وَفَرَضَ عليه خمسين صلاة في اليوم والليلة، ولما سأل الله التخفيفَ جعلها الله خمساً في العددِ وخمسين في الأجر.

ومما يدلُّ على أنَّ الإسراءَ كان بالجسدِ يقظةً قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾.

العبدُ هو مجموعُ الروح والجسد، وليس الروحَ فقط.

ومن الحِكَم في الإسراءِ بالرسول ﷺ إلى بيت المقدس قبلَ العروجِ به إلى السماء، إقامةُ الدليل على صدْقِ رسولِ الله ﷺ، عندما يخبرُ كفارَ قريشٍ عن الحادثة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «لَمّا كَذَّبَتْني قريش، قمتُ في الحِجْر، فَجَلاّ الله لي بيتَ المقدس، فطفقْتُ أخبرهم عن آياتِه، وأنا أنظرُ إليه»(١).

ولو كان المعراجُ من مكةَ إلى السماء، لما قَدَّمَ لهم دليلاً يعرفونَه.

الرسول لم ير ربه ليلة المعراج

وقد اختلفَ العلماءُ في رؤيةِ الرسول ﷺ لربه ليلةَ المعراج، فذهبَ بعضهم إلى أنه رآه بَعينيْ رأسِه، واعتمدوا على ظاهرِ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ٨ ـ ١٨].

وذهبوا إلى أنَّ الآياتِ تتحدثُ عن رؤيةِ الرسولِ ﷺ لربه.

والراجحُ أنَّ الرسولَ ﷺ لم يَرَ ربَّهُ ليلةَ المعراج بعينيْ رأسِه، لورودِ أحاديثَ صحيحة عن عائشة وأبي ذر الغفاري رضي الله عنهما ـ أوردْناها في كلامِنا عن رؤيةِ الله ـ صرَّحَ فيها رسول الله ﷺ بأنه لم يَرَ رَبَّهُ تلك الليلة المباركة.

والآياتُ من سورةِ النجم تتحدثُ عن رؤيةِ الرسول ﷺ لجبريل، فهذا هو سياقُ الآيات، وهذا هو فهمُ وتفسيرُ عائشة رضي الله عنها لها، وهي من أفهمِ الصحابة بمعاني القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٨٨٦. ومسلم برقم: ١٧٠.

روى مسلمٌ عن مسروق رضي الله عنه قال: كنتُ متكئاً عندَ عائشة، فقالَتْ: يا أبا عائشة: ثلاثٌ من تكلَّمَ بواحدةٍ منهن فقد أعظمَ على الله الفِرْيَة!

قلت: ما هُنّ؟

قالَتْ: مَنْ زعمَ أنَّ محمداً ﷺ رأى ربَّه فقدْ أعظمَ على الله الفِرْيَة!

قال: كنتُ متكئاً، فجلسْتُ، فقلت: يا أمَّ المؤمنين: انْظِريني ولا تَعْجليني، ألَم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ و﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

قالت: أنا أولُ هذه الأمةِ سألَ عن ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: إنما هو جبريل لم أرَهُ على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتيْن المرتيْن. رأيتُه منهبطاً من السماء، سادّاً عِظَمُ خَلْقِه ما بينَ السماءِ إلى الأرض»[١].

الإسراء والمعراج في حديث صحيح

وقد وردتْ حادثةُ الإسراءِ والمعراج في عدةِ أحاديثَ صحيحة، نكتفي منها بهذا الحديثِ الصحيح.

روى مسلمٌ عن ثابتِ البُنانِيِّ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: أتيتُ بالبُراق، وهو دابةٌ أبيضُ طويل، فوقَ الحمارِ ودونَ البغل، يضعُ حافرَه عند منتهى طَرْفه.

قال: فركبْتُه، حتى أتيتُ بيتَ المقدس، فربطْتُه بالحَلْقة التي يَربطُ بها الأنبياء، ثم دخلتُ المسجد، فصليتُ فيه ركعتين.

ثم خرجت، فجاءَني جبريلُ عليه السلام بإناءٍ من خمر، وإناءٍ من لبن. فاخترتُ اللَّبن. فقال جبريل: اخترتَ الفطرة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧٧.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء. فاستفتح جبريل. فقيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريل، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: بُعث إليه.

ففُتح لنا، فإذا أنا بآدم. فرحَّب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ إلى السماء الثانية. فاستَفْتح جبريل عليه السلام، فقيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه.

ففُتح لنا، فإذا أنا بابْنَي الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، صلوات الله عليهما، فرحَّبا ودعَوا لي بخير.

ثم عُرِجَ بي إلى السماء الثالثة. فاستَفْتح جبريل. فقيل: مَنْ أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: ومن بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه.

ففُتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ، فإذا هو قد أعطي شَطْرَ الحُسْن، فرحَّب ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة. فاستَفتح جبريل عليه السلام. قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلَ. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد ﷺ. قال: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه.

ففُتح لنا. فإذا أنا بإدريس. فرحَّب ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماءِ الخامسة، فاستَفْتَح جبريل، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه.

ففُتح لنا. فإذا أنا بهارون ﷺ. فرحَّب، ودعا لي بخير.

ثم عُرَجَ بنا إلى السماءِ السادسة. فاستَفْتح جبريل عليه السلام، قيل:

مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ. قال: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه.

ففُتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحَّب، ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماءِ السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: مَنْ هذا؟ قال جبريل، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه.

ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ، مُسنداً ظهرَه إلى البيتِ المعمور، وإذا هو يدخلُه كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك، لا يعودون إليه!!

ثم ذُهِبَ بي إلى سدرةِ المنتهى، وإذا ورَقُها كآذانِ الفيلة، وإذا ثَمَرُها كالقُلال. فلما غشيها مِن أمْرِ الله ما غشي تغيَّرتْ. فما أحدٌ من خلْقِ الله يستطيعُ أنْ يَنْعَتَها من حسنها.

فأوحى الله إلَيَّ ما أوحى. فَفَرَضَ عَلَيَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فنزلْتُ إلى موسى ﷺ. فقال: ما فَرَضَ ربُّك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجعْ إلى ربك فاسألْه التخفيف، فإنَّ أُمَّتك لا يُطيقون ذلك، فإنِّي قد بلوتُ بني إسرائيل وخبرتُهم.

فرجعْتُ إلى ربي فقلت: يا ربِّ خَفِّفْ على أُمّتي. فَحَطَّ عَنِّي خمساً.

فرجعتُ إلى موسى، فقلت: حَطّ عني خمساً، قال: إنَّ أمَّتَكَ لا يُطيقون ذلك، فارجعْ إلى ربِّك، فاسألْه التخفيف.

فلم أزَلْ أرجع بين ربِّي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد: إنَّهنَّ خمسُ صلوات كلَّ يوم وليلة، لكلِّ صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، ومَنْ هَمَّ بحسنة فلمْ يعملْها كُتبتْ له حسنة، فإنْ عملَها كُتبَتْ له عشراً. ومَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملْها لم تُكتبْ شيئاً، فإنْ عملَها كُتبتْ سيئة واحدة.

فنزلْتُ حتى انتهيتُ إلى موسى ﷺ، فأخبرتُه، فقال: ارجِعْ إلى ربك فاسأله التخفيف.

فقلت: قد رجعتُ إلى ربي، حتى استحييتُ منه»[١].

الحوض خاص بالنبي في الآخرة

٣٤ : «وَالحَوْضُ - الذي أكْرَمَهُ الله تعالى بِهِ غِياثاً لأمَّتِهِ - حَقٌّ».

الكلامُ هنا عن الحوضِ الذي جعلَهُ الله لمحمد ﷺ في الموقفِ يوم القيامة، وخَصَّه به.

والأحاديثُ الصحيحةُ التي ذَكَرت الحوضَ بَلَغَتْ حَدَّ التواتر، وقد رواها بضعٌ وثلاثون صحابياً. من هذهِ الأحاديث:

١ - روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ قَدْرَ حوضي كما بينَ أَيْلَةَ إلى صنعاء من اليمن، وإنّ فيه من الأباريقِ كعددِ نجومِ السماء..»[٢].

و«أَيْلَة» هي مدينةُ العقبة الأردنية، الواقعةُ على خليج العقبة.

٢ - روى البخاريُّ ومسلم عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَيَرِدن عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوض. حتى إذا عرفْتهُم اخْتُلِجوا دوني، فأقول: أُصَيْحابي. فيقول: لا تَدْري ما أحدثوا بعدك»[٣].

ومعنى «اخْتُلِجوا دوني»: اجْتُذِبوا ونُزِعوا، وذُهِبَ بهم بعيداً عن الحوض.

٣ - روى مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: أغفى رسولُ الله ﷺ إغفاءة، فرفعَ رأسَه مبتسماً، فقالوا له: لِمَ ضَحِكْتَ؟ فقال

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٢.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٥٨٠. ومسلم برقم: ٢٣٠٣.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٦٥٨٢. ومسلم برقم: ٢٣٠٤.

رسولُ الله ﷺ: «إنه نزلَتْ عليَّ آنفاً سورة. فقرأ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾» حتى ختمها.

ثم قال: هل تَدرون ما الكوثر؟

قالوا: الله ورسولُه أعلم.

قال: «هو نهرٌ أعطانيه ربّي عز وجل في الجنة، عليه خيرٌ كثير، هو حوضٌ تَرِدُ عليه أُمّتي يومَ القيامة. آنيتُه عددَ النجوم. فيُخْتَلَجُ العبدُ منهم فأقول: ربِّ إنه من أُمّتي فيقول: ما تَدري ما أحدثَ بعدَك»[١].

وهذا الحديثُ معناه، أنَّ نهرَ الكوثر في الجنة، ويخرجُ منه «ميزابان» من الماء، يَسيلان ويصبّانِ في الحوض، والحوضُ يكونُ في أرضِ الموقف، وليس في الجنة، لأنَه يُمْنَعُ أقوامٌ من المسلمين المغيِّرين من الشربِ منه، وهذا لا يكونُ في الجنة، إنما يكونُ في ساحةِ العرض.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن سهلِ بن سعد الأنصاري رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنّي فَرَطُكُمْ على الحوض، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِب، ومَنْ شربَ لم يظمأْ أبداً، لَيَرِدنَّ عَلَيَّ أقوام، أعرفُهم ويعرفوني، ثم يُحالُ بيني وبينهم، فأقول: إنهم من أمّتي! فيقال: إنك لا تَدْري ما أحدثوا بعدَك، فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لمن غَيَّر بعدي»[٢].

ومعنى «فَرَطُكم على الحوض»: أتقدمُكم في الذهاب إلى الحوض وأسبقُكم إليه.

واختلفَ العلماءُ في الحوض: هل هو قبلَ الميزان أم بعدَه؟ قال: بكلِّ قولٍ قومٌ من العلماء.

والراجحُ أنه قبلَ الميزان، لأنَّ الناسَ يخرجونَ عِطاشاً من قبورهم، فيشربون منه قبلَ الحساب.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٤٠٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٧٠٥٠. ومسلم برقم: ٢٢٩٠.

والذي يتخلصُ من الأحاديثِ الصحيحة في صفةِ الحوض ما يلي: هو حوضٌ عظيم، ومورِدٌ كريم، يُمَدُّ مِن نهرِ الكوثر في الجنة، الذي هو أشدُّ بياضاً من اللَّبن، وأبردُ من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيبُ ريحاً من المسك، وهو في غايةِ الاتساع، طولُه وعرضُه سواء.

شفاعة الرسول العظمى بفتح باب الحساب

٣٥ : «والشَّفاعَةُ التي ادَّخَرها لَهُمْ حَقّ، كما رُوِيَ في الأخْبارِ».

ادَّخَرَ الله لنبيِّه محمدٍ ﷺ الشفاعة يومَ القيامة.

والشفاعةُ يومَ القيامة شفاعات، وليست شفاعةً واحدة.

١ ـ الشفاعةُ الأولى: وهي الشفاعةُ العظمى. وهي الخاصةُ بنبيِّنا محمدٍ ﷺ، وتكونُ من أجْلِ بدءِ حسابِ الناس. فلا يبدأ الحسابُ إلاّ بعدَ شفاعةِ الرسولِ ﷺ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي رسولُ الله ﷺ يوماً بلحم، فرُفِعَ إليه الذراع، وكانتْ تُعجبه، فَنَهَس منها نَهْسَة، فقال:

أنا سيدُ الناسِ يوم القيامة. وهل تدرون بِمَ ذاك؟

يَجمعُ الله يومَ القيامة الأوّلين والآخرين في صعيدٍ واحد، فيسمَعُهم الداعي، وينفذُهُم البصر، وتَدنو الشمس، فيبلُغُ الناسَ من الغم والكرب ما لا يُطيقون وما لا يَحتملون.

فيقولُ بعضُ الناسِ لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا تَرون ما قدْ بلغَكم؟ ألا تنظرون مَنْ يَشفعُ لكم إلى ربكم؟

فيقولُ بعضُ الناس لبعض: ائتوا آدم.

فيأتون آدمَ. فيقولون: يا آدم: أنتَ أبو البشر. خَلَقَكَ الله بيده، ونَفخَ فيك من روحه، وأَمَرَ الملائكة فسجدوا لك. اشفَعْ لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بَلَغَنا؟

فيقول آدم: إنّ ربي غضب اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَه مثْلَه، ولن يغضَبَ بعدَه مثلَه، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيْتُه. نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى نوح.

فيأتونَ نوحاً، فيقولون: يا نوح، أنتَ أولُ الرسلِ إلى الأرض، وسَمّاكَ الله عبداً شكوراً. اشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغَنا؟

فيقول لهم: إنّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً، لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنه قد كانتْ لي دعوة، دعوْتُ بها على قومي. نفسي، نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ.

فيأتونَ إبراهيم فيقولون: أنتَ نبيُّ الله وخليلُه إلى أهلِ الأرض. اشفعْ لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بَلَغَنا؟

فيقولُ لهم إبراهيم: إنّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَه مثْلَه، ولا يغضبُ بعده مثله، وَذَكَرَ كِذْباتِه، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى ﷺ، فيقولون: يا موسى: أنتَ رسول الله. فَضَّلَكَ الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفعْ لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغَنا؟

فيقولُ لهم موسى ﷺ: إنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنّي قتلْتُ نفساً لم أومَرْ بقتلها، نفسي نفسي، اذْهبوا إلى عيسى ﷺ.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنتَ رسولُ الله، وكلَّمْتَ الناسَ في المهد، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، فاشفَعْ لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغنا؟

فيقولُ لهم عيسى ﷺ: إن ربي قد غضبَ اليومَ غضباً، لم يغضبْ

قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثلَه، ولم يذكُرْ ذنباً، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمدٍ ﷺ.

فيأتوني فيقولون: يا محمد: أنتَ رسولُ الله ﷺ، وخاتمُ النبيين، وغفرَ الله لك ما تقدمَ من ذنبك وما تأخَّر، اشفَعْ لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغَنا؟

فأنطلقُ، فآتي تحتَ العرش، فأقَعُ ساجداً لربّي. ثم يفتحُ الله عَلَيَّ، ويُلهِمُني من محامِده، وحسْنِ الثناءِ عليه، شيئاً لم يفتحْهُ لأحدٍ قبلي.

ثم يُقال: يا محمد: ارفَعْ رأسَك، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فأرفعُ رأسي، فأقول: يا ربِّ: أُمّتي. أُمّتي.

فيقال: يا محمد: أدْخِل الجنةَ مِن أُمتك، مَن لا حسابَ عليه، من البابِ الأيمنِ من أبوابِ الجنة، وهم شركاءُ الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفسُ محمدٍ بيده إنَّ ما بينَ المصراعيْن من مصاريعِ الجنة، لكما بين مكةَ وهُجَر، أو كما بين مكةَ وبُصرى»[(١)].

إنّ هذا الحديثَ الصحيحَ نَصٌّ في الشفاعةِ الأولى العظمى الكبرى، التي يبدأُ بعدَها حسابُ الناس.

وللرسول سبع شفاعات أخرى

٢ ـ **الثانية**: شفاعَةُ الرسولِ ﷺ في أقوامٍ من المسلمين، تساوَتْ حسناتُهم وسيئاتهم، فيدخلون الجنةَ بهذه الشفاعة.

٣ ـ **الثالثة**: شفاعةُ الرسول ﷺ في أقوامٍ من المسلمين، أُمِرَ بهم إلى النار، فلا يَدخلونها بشفاعتِه ﷺ.

٤ ـ شفاعَتُه ﷺ، في رفَعِ درجاتِ مَنْ يدخلونَ الجنة مِنْ أمته، فيُعطيهم الله من النعيمِ فوقَ ما تقتضيه أعمالُهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٧١٢. ومسلم: ١٩٤.

٥ ـ شفاعَتهُ ﷺ في أقوامٍ من صالحي المؤمنين، حيثُ يَدخلونَ الجنةَ بغير حساب.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يَدخُلُ الجنةَ من أمتي زُمرة، هي سبعون ألفاً، تُضيءُ وجوههم إضاءةَ القمر.

فقامَ عُكاشَةُ بنُ محصن الأسَدي، يرفعُ نمرةً عليه، فقال: ادْعُ الله لي يا رسولَ الله أنْ يجعلَني منهم.

فقال: اللّهم اجعلْهُ منهم.

ثم قامَ رجلٌ من الأنصار، فقال: يا رسولَ الله ادْعُ الله أنْ يجعلَني منهم!

فقال ﷺ: سَبَقَكَ بها عُكاشة»[1].

٦ ـ شفاعَتُه ﷺ في تخفيفِ العذابِ عمن يستحقُّه، كشفاعتِه في عمِّه أبي طالب، الذي مات كافراً فصار مخلّداً في نار جهنم، فشفاعتُه فيه من أجل تخفيفِ العذابِ الدائم عليه.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال: يا رسولَ الله: هل نفعْتَ أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطُك ويغضبُ لك؟ قال: نعم. هو في ضحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكانَ في الدركِ الأسفلِ من النار»[2].

لا تعارُضَ بين شفاعتِه ﷺ في تخفيفِ العذابِ عن بعضِ الكفار، وبين قولِه تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

فالشفاعةُ التي لا تنفعُهم هي الشفاعةُ في خروجِهم من النارِ إلى

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٨١١. ومسلم برقم: ٢١٦.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٨٨٣. ومسلم برقم: ٢٠٩.

الجنة، كما تنفعُ عُصاةَ المسلمين، حيث يُخرجهم الله إلى الجنة، أمّا الشفاعةُ في تخفيفِ العذابِ الأبديِّ عليهم فإنها تنفعهم بإذن الله!.

٧ ـ شفاعتُه في الإذنِ بدخولِ المؤمنين الجنة، حيث يكونونَ واقفينَ على بابِها ومعهم الأنبياء، ولا يَدخلونها إلاَّ بعدَ شفاعةِ رسول الله ﷺ.

روى مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولُ الناسِ يشفعُ في الجنة، وأنا أكثرُ الأنبياءِ تَبَعاً»[١].

٨ ـ شفاعَتُه في أهلِ الكبائر والعصاةِ والمذنبين من أمتِه، الذين يُدخلُهم الله النارَ بسببِ ذنوبهم ومعاصيهم، فعند انتهاء مدةِ عقوبتهم يَشفعُ فيهم رسولُ الله ﷺ، فيُدخلهمُ الله الجنة.

وقد أنكرَ هذه الشفاعة بعضُ فرقِ المسلمين، وذهبوا إلى أنَّ مَنْ يَدخلونَ النارَ لا يَخرجونَ منها، ولو كانوا موحِّدين.

وكلامُهم هذا مردودٌ بالنصوص، فقد تواترت الأحاديثُ الصحيحة في هذه الشفاعة، ولا يَجوزُ إنكارُ شيء وردَ بحديثٍ صحيح.

روى أَبو داود والترمذيُّ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «شَفاعتي لأَهْلِ الكبائرِ من أمتي..»[٢].

شفاعة الرسول للعُصاة أربع مرات

يَشفعُ رسولُ الله ﷺ في العصاةِ من أمته أربعَ مرات، ويُخرجهم منها على أَربعِ دفعات.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مَعْبَدِ بنِ هِلال العَنَزِي قال: انطلَقْنا إِلى أَنسِ بن مالك، وتشفَّعْنا بثابِت، فانتهينا إِليه وهو يُصلي الضحى، فاستأذَنَ لنا ثابت.

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٩٦.
(٢) أخرجه أبو داود: ٤٧٣٩. والترمذي: ٢٤٣٥.

فدخلْنا عليه، وأَجلسَ ثابتاً معه على سريره. فقالَ له: يا أَبا حمزة: إنَّ إخوانك من أهلِ البصرة يسألونَك أنْ تُحدثَهم حديثَ الشفاعة.

قال: حَدَّثَنا رسولُ الله ﷺ قال: «إذا كانَ يومُ القيامة، ماجَ الناسُ بعضُهم إلى بعض، فيأتونَ آدم، فيقولونَ له: اشفَعْ لذريتك، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام، فإنه خليلُ الله، فيأتون إبراهيم، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام، فإنه كليمُ الله، فيُؤْتىٰ موسى، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام، فإنه روحُ الله وكلمتُه، فيؤتى عيسى، فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمدٍ ﷺ.

فأُوتىٰ، فأَقول: أَنا لها.

فأَنطلقُ، فأَستأذِنُ على ربّي، فيُؤْذَنُ لي، فأقومُ بين يديه، فأحمدُه بمحامدَ لا أَقدرُ عليه الآن، يلهمُنيه الله، ثم أَخِرُّ ساجداً.

فيُقال لي: يا محمد. ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسْمَعْ لك، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فأَقول: ربِّ: أمتي، أمتي!

فيُقال: انْطَلِق، فمَنْ كان في قلبه مثقالُ حبةٍ من بُرَّةٍ أَو شعيرةٍ من إيمانٍ فأَخرجْه منها، فأَنطلقُ فأَفعل.

ثم أَرجعُ إلى ربي، فأحمدُه بتلك المحامد، ثم أَخِرُّ له ساجداً.

فيُقال لي: يا محمد: ارْفَعْ رأْسَك، وقُلْ يُسْمَعُ لك، وسَلْ تُعْطَه، واشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فأَقول: أمتي. أمتي.

فيُقال لي: انْطَلِق، فمنْ كانَ في قلبه مثقالُ حبةٍ من خردلٍ من إيمان فأَخْرِجْه منها. فأَنطلقُ فأَفعل.

ثم أَعودُ إلى ربي، فأحمدُه بتلكَ المحامد، ثم أَخِرُّ له ساجداً.

فيُقال لي: يا محمد: ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسْمَعْ لك، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ!

فأقول: يا ربِّ: أمتي. أمتي.

فيُقال لي: انْطَلِقْ، فمن كانَ في قلبه أَدْنى أَدْنى أَدْنى من مثقالِ حبةٍ من خردل من إيمانٍ فأَخرجْهُ منها، فأَنطلقُ فأَفعل..».

قال مَعْبَدُ العَنَزي: هذا حديثُ أنسٍ الذي أنبأَنا به، فخرجْنا من عنده.

فلمّا كُنّا بظهرِ الجَبّان [اسمُ مكانٍ في البصرة] قُلْنا: لو مِلْنا إِلى الحسنِ [هو الحَسَنُ البصري] فسلَّمْنا عليه، وهو مستَخْفٍ في دارِ أَبي خليفة [كان متوارِياً متخفِّياً في دارِ أَبي خليفة خوفاً من بطشِ الحجاجِ بنِ يوسف الثقفي].

فدخَلْنا عليه، فسلَّمْنا عليه. فقلْنا: يا أَبا سعيد: جئْنا من عندِ أَخيك أَبي حمزة، فلم نسمعْ مثلَ حديثٍ حَدَّثَناه في الشفاعة.

قال: هيه. فَحَدَّثناهُ الحديث. فقال: هيه! قلْنا: ما زادَنا!

قال: قد حَدَّثَنا به منذ عشرين سنة، وهو يومئذٍ جميع [مجتمعُ القوةِ والحفظِ والذاكرة]. ولقد تَرَكَ شيئاً، ما أَدري أَنسيَ الشيخ، أو كرهَ أَنْ يحدثَكُم فتتَّكِلوا.

قلنا له: حَدِّثْنا.

فضحك. وقال: خُلِقَ الإنسانُ من عجل، ما ذكَرْتُ لكم هذا إلاّ وأَنا أُريدُ أَنْ أحدثكموه!.

ثم قالَ رسولُ الله ﷺ: «ثم أَرجعُ إِلى ربي في الرابعة، فأَحمدُه بتلك المحامد، ثم أَخِرُّ له ساجداً.

فيُقال لي: يا محمد: ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسْمَعْ لك، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فأقول: يا رب: ائذنْ لي فيمن قالَ: لا إله إلا الله.

فيقول الله: ليس ذاكَ لك، ولكن: وعِزَّتي وكبريائي وعظمتي، لأُخْرِجَنَّ منها مَنْ قال: لا إله إلا الله...»[1].

أَوْرَدَ الحديثُ أربعَ شفاعاتٍ لرسول الله ﷺ في العصاة والمذنبين من أمته.

في الأُولى: يأذنُ له اللّهُ في أنْ يُخرجَ من النار، مَنْ كانَ في قلبه مثقالُ حبةِ قمحٍ أَو حبةِ شعيرٍ من إيمان.

وفي الثانية: يأذنُ له اللّهُ في أنْ يُخرجَ من النار، مَن كان في قلبه مثقالُ حبةِ خردلٍ من إيمان، وحبةُ الخردلِ أصغرُ من حبةِ القمح أو الشعير.

وفي الثالثة: يأذنُ له اللّهُ في أنْ يُخرجَ من النار، مَنْ كان في قلبه أَدنى أدنى من مثقالِ ذرةِ خردلٍ من إيمان.

وفي المرة الرابعة: يُخرجُ اللّهُ نفسه ـ بعد شفاعةِ رسوله ﷺ ـ كلَّ مَنْ قال: لا إله إلا الله.

هذه ثماني شفاعاتٍ لرسولِ الله ﷺ يومَ القيامة، ويُخطئُ مَنْ يظنُّ أن له شفاعةً واحدةً فقط.

وهناك شفاعاتٌ أُخرى يأذنُ بها اللّهُ لغيره، كالأنبياءِ الآخرين، والملائكة، والمؤمنين، والعلماءِ والشهداء، لكنها شفاعاتٌ صغيرةٌ أَمامَ شفاعاتِ محمدٍ ﷺ.

ومعلومٌ أن هؤلاء الشفعاء لا يَشفعونَ إلاّ بإذْنٍ من الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذا عن شفاعةِ رسولِ الله ﷺ في الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٥١٠. ومسلم برقم: ١٩٣.

التوسل بالرسول في حياته وبعد وفاته

أمّا الاستشفاعُ به عليه الصلاةُ والسلامُ في الدعاء في الدنيا ففيه تفصيل، وهو الذي يُسمى: «التوسُّلُ بالنبيِّ ﷺ».

فالاستشفاعُ والتوسلُ به ﷺ في حياته جائز، وقد فعلَهُ الصحابةُ رضوان الله عليهم. حيث كانوا يأتونَ إليه طالبين منه أنْ يدعوَ اللَّهَ لهم، وأنْ يستغفرَ اللَّهَ لهم. وكان يَدعو لهم، وهم يُؤَمِّنونَ على دعائه، وذلك في الاستسقاءِ وغيره.

روى الترمذيُّ عن عثمانَ بنِ حنيف رضي الله عنه أنَّ رجلاً ضريرَ البصر أتى النبيَّ ﷺ فقال: ادعُ اللَّهَ أنْ يَعافيني.

قال: إنْ شئتَ دعوتُ، وإنْ شئتَ صبرتَ، فهو خيرٌ لك.

قال: فَادْعُ.

فأَمَرَهُ ﷺ أنْ يتوضّأ، فيُحسنَ وضوءَه، ويَدعو بهذا الدعاء: «اللهمّ إنّي أَسأَلُكَ وأَتوجَّهُ إليك بنبيِّكَ محمدٍ نبيِّ الرحمة، إنّي توجَّهْتُ بك إلى ربي في حاجتي، لتُقضىٰ لي. اللهمَّ فَشَفِّعْهُ فِيّ..».

ففعلَ الرجلُ. فبرأ[1]..

أَمّا بعدَ وفاتِه ﷺ، فإنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس، ولم يستسْقِ برسولِ الله ﷺ.

روى البخاريُّ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ عمرُ بنَ الخطاب رضيَ اللَّهُ عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباسِ بن عبد المطلب، فقال: اللهمَّ إنّا كُنّا نتوسَّلُ إليك بنبِّينا ﷺ، فتَسقينا. وإنّا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبينا، فاسْقِنا. فيُسْقَوْن..»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٥٧٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٠١٠.

والأَوّلى عدمُ التوسلِ والاستشفاعِ بالنبيِّ ﷺ في الدعاء. والأَولى أنْ لا يَقولَ المسلم: اللهمَّ إني أتوسَّلُ إِليك برسول الله ﷺ، أو أنْ يقول: اللهمَّ بحقِّ نبيك، أو بجاهِ نبيِّك.

الأَوْلى أنْ لا يفعَل المسلمُ ذلك لأنَّ الصحابةَ لم يَفعلوه بعد وفاةِ رسول الله ﷺ.

التوسل إلى الله بصالح العمل

على المسلم أنْ يَستعيضَ عن ذلك بالتوسلِ إلى اللّهِ بصالح الأعمال. كما فعلَ الثلاثةُ من السابقين الذين أَوْوا إِلى غار، فأَغلقَتْ صخرةٌ بابَ الغار، فتوسَّل كلٌّ منهم إِلى اللّهِ بصالح عمله، فاستجابَ اللّهُ لهم، وفَرجَ الصخرةَ، وخرجوا سالمين[١]..

فالأَعمالُ الصالحةُ الخالصةُ لله هي من أعظمِ ما يتوسَّل به العبدُ إلى ربه.

هذا وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أَنَّه لا يملكُ لأحدٍ من الله شيئاً، حتى لو كانَ أقربَ الناسِ إليه، فلا يَنفعُ أَحداً بنفسه، وشفاعَتهُ تكونُ بإذن الله سبحانه.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا بَني عبدِ مناف، لا أَملكُ لكم من اللّهِ من شيء، يا صفيةَ عمةَ رسولِ الله لا أملكُ لك مِن الله مِن شيء، يا عباس: عَمَّ رسولِ الله ﷺ: لا أملكُ لكَ من الله من شيء»[٢].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ

---

(١) انظر قصة الثلاثة في صحيح البخاري حديث رقم: ٢٢١٥. وصحيح مسلم حديث رقم: ٢٧٤٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٧٥٣. ومسلم برقم: ٢٠٤.

رسولَ الله ﷺ: «لا أُلفِيَنَّ أَحدَكم يأتي يومَ القيامة على رقبته بعيرٌ لهُ رغاء، أو شاةٌ لها يُعار، أو رِقاعٌ تخفق، فيقول: أَغِثْني، أَغِثْني، فأقول: قد أَبلغْتُك، لا أملكُ لك مِن الله من شيء..»[1].

يُحَذِّرُ هنا رسولُ الله ﷺ السارق، ويُبين أَنه يأتي بما سرقَهُ يحملُه يوم القيامة، إنْ سرقَ بعيراً يأتي يحملُه وله رُغاء، وإنْ سرقَ شاةً يأتي يحملُها لها يَعار، واليَعارُ صوتُ الشاة، وإنْ سَرَقَ ثياباً ورِقاعاً يأتي يحملُها يومَ القيامة، تخفقُ وتتحركُ فوقَ رأسه. فيستنجدُ بالنبي ﷺ، فيقول له: قد بلغتُك وحذَّرْتُك ونهيتُك عن السرقة، وهنا لا أَملكُ لك من الله من شيء..

الميثاق على الناس وعهد الفطرة

[٣٦] : «وَالميثاقُ الذي أَخَذَهُ اللَّهُ مِنْ آدَمَ وَذُرِّيَتِهِ حَقّ..»

الميثاقُ هو العهدُ الذي أَخذَهُ اللَّهُ على آدمَ وذريتِه، في عالم الغيب، وأَشهدَهم فيه على أَنفسهم، وأَقروا أَنه ربُّ العالمين.

وأَشارَ إلى هذا الميثاق قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

يخبرُنا اللَّهُ في هذه الآية أَنه استخرجَ ذريةَ بني آدم من ظهورِهم وأصلابهم، وكان هذا في عالم الغيب، قبلَ أَنْ يخلقَ آدم. استخرجَهم استخراجاً غيبياً، وجمعَهم جمعاً غيبياً، وأَشهدَهُم على أنفسِهم، وقرَّرَهم بألوهيتِه ووحدانيته فَشَهِدوا وأَقَرّوا. وقالوا: شَهِدْنا وَأَقْرَرْنا يا ربَّنا أَنكَ وحدَك إلهنا.

وذَكَّرَنا اللَّهُ في هذه الآيةِ بذلك العهدِ والميثاقِ الغيبي، وحَذَّرَ الذين يغفلون عن ذلك الميثاق. ويَعبدون غيرَ الله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٧٣. ومسلم برقم: ١٨٣١.

وأَخبرَنَا الإمامُ الطحاويَّ أن هذا الميثاقَ حقّ، لأنه مذكورٌ صراحةً في القرآن، في آيةِ سورةِ الأعراف السابقة.

والمرادُ بهذا الميثاقِ والإشهادِ هو الفطرة، أَو عهدُ الفطرة التي فطرَ اللَّهُ الناسَ عليها. فاللَّهُ قد فطرَ الناسَ على التوحيد. وهذا ما وردَ في صريح القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ . .﴾ [الروم: ٣٠].

وبعدَ أنْ أخذَ اللَّهُ على بني آدم العهدَ والميثاقَ وهم في عالم الغيب، وفَطرهم على التوحيد، أَقامَ عليهم الحجة عندما أَوجدَهم على الأرضِ في عالمِ الواقع. حيث منحهم العقلَ المهتديَ إلى الوحدانية، المتوافقَ مع الفطرةِ المهتدية، وبعثَ لهم الرسلَ يوضِّحون لهم الحق، وأَنزلَ عليهم كتبه.

وفي ذلك كلِّه أقامَ الحجةَ عليهم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ [إبراهيم: ١٠].

ومعلومٌ أنَّ الإقرارَ بالربوبيةِ والوحدانية أمرٌ فطري، توافقَتْ فيه الفطرةُ مع ذلك الميثاقِ الغيبي. وإنَّ الشركَ حادثٌ طارئٌ شاذٌّ غريب، قلَّدَ فيه الأبناءُ آباءَهم، ورَفضوا التخلي عن دينِ آبائهم الباطل واعتناقِ الدين الحق.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

وذَكَرَتْ آيةُ الميثاق أنَّ الكفارَ سيحتجّون لكفرِهم بأنهم قلَّدوا وتابَعوا فيه الآباء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُوا بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣].

وقد وضَّحَ رسولُ الله ﷺ العهدَ والميثاقَ الذي أَخذه اللَّهُ على بني آدم بتوحيدِ اللَّهِ وعدمِ الشرك به.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَنسِ بن مالك رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «يُقالُ للرجلِ من أَهْلِ النار يومِ القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنتَ مفتدياً به؟

فيقولُ: نعم!!

فيقول له: قد أردتُ منكَ أهونَ من ذلك. قد أخذتُ عليكَ في ظهرِ آدمَ أنْ لا تشركَ بي شيئاً. فأبيْتَ إلاّ أنْ تشركَ بي..»[1].

والشاهدُ في الحديث قولُه: أخذتُ عليك في ظهرِ آدم أن لا تشركَ بي شيئاً. فهذا هو الميثاقُ الذي أخذه اللَّهُ على بني آدم وهم في عالمَ الغيب، وعاهَدوه أنْ يَعبدوه وحده، وأنْ يُقروا له وحدَه بالألوهيةِ والربوبية.

علم الله أزلي أبدي شامل

٣٧ : «وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعالى فِيما لَمْ يَزَلْ عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النّارَ، جُمْلَةً واحِدَة، فَلا يُزادُ في ذلكَ العَدَدِ، وَلا يُنْقَصُ مِنْه، وَكَذلِكَ أَفَعالُهُمْ، فيما عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلوهُ. وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَه. وَالأعَمالُ بِالخَواتيم، والسعيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضاءِ الله، وَالشْقِيُّ مَنْ شَقيَ بِقَضاءِ اللَّهِ...».

يتحدثُ الإمامُ الطحاويُّ في هذه الفقرة عن علْمِ اللَّهِ الأزلي، عِلْمِهِ بكلِّ شيء سيكون، سواءٌ مما كان يتعلقُ بالبشر أو بغيرهم.

إن اللَّهَ موصوفٌ بأنه بكلِّ شيء عليم، وعِلْمُه أزَليّ أَبديّ، كباقي صفاتِ الله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وبما أنَّ الله عالِمٌ بكلِّ شيء، فهو منزَّهٌ عن الجهلِ والنسيان. قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٤. ومسلم برقم: ٢٨٠٥.

واللَّهُ يعلمُ كلَّ ما يتعلقُ بالبشر، وعلْمُه بهم وبماذا سيختارون، وماذا سيفعلون أَزَلي، عَلِمَ ذلك قبلَ خلقهم. فقد علمَ منذُ الأزل عددَ مَن يختارُ الإيمانَ والاستقامة فيدخلُ الجنة، وعددَ مَنْ يَختارُ الكفرَ والعصيان فيدخلُ النار، وهذا العددُ ثابتٌ لا يزيدُ ولا ينقص.

كما عَلِمَ اللَّهُ منذُ الأَزَل ماذا سيفعلون من أَفعال، سواء كانت خيراً أم شراً، طاعةً أم معصية.

والناسُ في أفعالهم يتوافَقون مع ما علمَ منهم منذُ الأزل، وهم في اختيارهم الإيمانَ أو الكفرَ والطاعةَ أو المعصيةَ يتوافقون مع ما علمَ اللَّهُ عنهم منذُ الأزل.

واللَّهُ ييسِّرُ كلَّ إنسانٍ لما علمه عنه منذُ الأزل، فإنْ علمَ أنَه سيختارُ الحسنى والهُدى فإنه ييسِّرُه لذلك، وإنّ علمَ أنه سيختارُ الكفرَ أو المعصيةَ فإنه يُيَسَّرُ لذلك.

كل ميسر لما خلق له والحديث

وقد أكَّدَ هذه الحقيقةَ الإيمانيةَ رسولُ الله ﷺ:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنّا في جنازةٍ في بقيعِ الغَرْقَد. فأَتانا رسولُ الله ﷺ، فقعدَ، وقعَدْنا حوْلَه، ومعه مِخْصَرَةَ [وهي عصا صغيرة] فَنَكَسَ رأْسَه، فجعلَ ينكُتُ بِمِخْصَرَتِه، ثم قال:

ما من نفسٍ منفوسَةٍ إلا قد كتبَ اللَّهُ مكانَها من الجنةِ أَو النار، وإلاّ قد كتبتْ شقيةً أَو سعيدة.

فقالَ رجل: يا رسولَ الله: أَفلا نمكثُ على كتابنا، ونَدَعُ العمل؟

فقال: مَنَ كانَ مِن أهلِ السعادة، فسيصيرُ إلى عملِ أهلِ السعادة، ومَنْ كان مِن أهلِ الشقاوة، فسيصيرُ إلى عمل أهلِ الشقاوة.

ثم قال: اعملوا، فكلٌّ مَيْسَّرٌ لما خُلق له. أمّا أهلُ السعادة، فييسَّرون

لعملِ أهلِ السعادة، وأمّا أهلُ الشقاوة، فييسَّرون لعملِ أهلِ الشقاوة.

ثم قرأ قولَه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠][١].

كلُّ إنسانٍ ييسِّرُهُ اللَّهُ لما خَلقه له. فالصالحُ الذي علمَ اللَّهُ منذ الأزل صلاحَه فإن اللَّهَ ييسِّرُه للصلاحِ والعبادةِ والتقوى.

وليسَ هذا معناه أنْ يقعدَ المسلمون عن الأعمالِ الصالحة، فلا بدَّ لهم من العملِ الصالح، وهم في هذا يتوافقون مع ما علمهُ اللَّهُ عنهم.

روى مسلمٌ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: جاءَ سُراقَةُ بْنُ مالِكِ بن جُعْشَم، فقال: يا رسولَ الله: بَيِّنْ لنا دينَنا كأنّا خلِقْنا الآن:

فيمَ العملُ اليوم؟ أفيما جَفَّتْ به الأقلام، وجَرَتْ به المقادير أمْ فيما يُستقبَل؟

قالَ عليه الصلاة والسلام: لا. بل فيما جَفَّتْ به الأَقلام، وجَرَتْ به المقادير.

قال سراقة: ففيمَ العمل؟

قالَ عليه الصلاة والسلام: اعملوا فكلٌّ مَيَسَّرٌ فيما خُلِقَ له[٢]..

الأعمال بالخواتيم

والأعمال بخواتيمها، والمهمُّ أنْ يُخْتَمَ للمسلم الصالح بالعملِ الصالح ليُخْتَمَ له بالخير، وقد يَعملُ الإنسانُ الأعمالَ الصالحة، فيختمُ حياتَه بالعملِ السيء، فيُختمَ له بالسوء، وقد يَعملُ الإنسانُ الأعمالَ السيئة، فيختمُ حياتَه بالعملِ الصالح، فتكونُ خاتمتُه حسنة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٦٢. ومسلم برقم: ٢٦٤٧.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٤٨.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن سهلِ بن سعدِ الساعدي رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ التقى هو والمشركون، فاقْتتَلوا، فلما مالَ رسولُ الله ﷺ إلى عسكره، ومالَ الآخرون إلى عسكرهم.

وفي أصحابِ رسولِ الله ﷺ رَجل، لا يَدَعُ لهم شاذَّةً ولا فاذَّةً إلاّ اتبعها، يضربُها بسيفه.

فقالَ أحدُنا: ما أَجزأَ مِنّا اليوم أحدٌ كما أَجزأَ فلان!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أمّا إِنه من أَهلِ النار!!

فقالَ رجلٌ من القوم: أَنا صاحبُه!

فخرجَ معه، كلَّما وقف، وقف معه، وإِذا أَسرع، أَسرع معه.

فَجُرِحَ الرجلُ جرحاً شديداً، فاستعجلَ الموت، فوضَعَ نَصْلَ سيفه في الأرض، وذُبابَهُ بين ثَدْيَيْه، ثم تحامَلَ عليه، فقتَلَ نَفْسَه!

فقالَ رسولُ الله ﷺ عند ذلك: إنَّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجنة فيما يبدو للناس وهو مِن أهلِ النار، وإنَّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ النار فيما يبدو للناس، وهو من أهلِ الجنة»[١].

وزادَ البخاريُّ في روايةٍ أُخرى للحادثة نفسِها عبارة: «وإِنما الأَعمالُ بالخواتيم..»[٢].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ، وهو الصادقُ المصدوق: إنَّ أَحدَكمُ يُجْمَعُ خلْقُه في بطنِ أمه أَربعين يوماً، ثم يكونُ عَلَقَةً مثلَ ذلك، ثم يكونُ مضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَلُ إِليه المَلَك، فينفخُ فيه الروح، ويُؤْمَرُ بأربعِ كلمات: يكتبُ رزْقَه وأجلَه وعملَه وشقيٌّ أمْ سعيد.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٩٨. ومسلم: ١١٢.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٤٩٣.

فوالذي لا إله غيره، إنَّ أَحدكم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنة حتى ما يكونُ بينَه وبينَها إلاّ ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمَلُ عملَ أهلِ النار، فيدخلَها.

وإنَّ أَحَدَكُمْ ليعملُ بعملِ أهلِ النار، حتى ما يكونُ بينه وبينهَا إلاّ ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعملُ بعملِ أهلِ الجنة، فيدخلها...»[1].

كل شيء بقدر الله

٣٨ : «وَأَصْلُ القَدَرِ: سِرُّ اللَّهِ تَعالى في خَلْقِه، لَمْ يَطَّلِعْ عَلى ذلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّب، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَل، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ في ذلِكَ ذَريعَةُ الخِذْلان، وَسُلَّمُ الحِرْمان، وَدَرَجَةُ الطُّغْيان، فَالحَذَرُ كُلُّ الحَذَرِ مِنْ ذلِكَ، نَظَراً وَفِكْراً وَوَسْوَسَةً، فإنَّ اللَّهَ تَعالى طَوىٰ عِلْمَ القَدَرِ عَنْ أَنامِهِ، وَنَهاهُمْ عَنْ مَرامِهِ. كَما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾. فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الكِتاب، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الكِتاب كانَ مِنَ الكافِرين...».

قولُ الطحاوي: «وأصلُ القَدَر سِرُّ الله تعالى في خلقه».

وهذا مستمدٌّ من قولِ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «القدرُ سِرُّ اللَّهِ فلا تكْشِفْه».

وهو مبنيٌّ على أَساسِ أَنَّ كلَّ الأمورِ بقَدَرِ اللَّهِ سبحانه، فاللَّهُ هو الذي أَوجدَ وأَفْنى، وأَفقرَ وأَغنى، وأَماتَ وأَحيا، وأَضلَّ وهدى.

والذي عليه أهل السنة: أَنَّ كلَّ شيء فهو بقضاءِ الله وقدره، وأَنَّ اللَّهَ سبحانه هو الذي خلقَ أَفعالَ العباد.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٨. ومسلم برقم: ٢٦٤٣.

وبعضُ أصحابِ الفرق من المتكلمين أنكروا أنْ يكونَ كلُّ شيء بقدرِ الله، وبذلك وَقعوا في الضلال. وزعمَ بعضُهم أَنه قد يكونُ في الكون مما لا يريدُه الله، ولا يشاؤه سبحانه.

ومن طريفِ ما يُروىٰ عن سخافاتِ هؤلاءِ المتكلمين، أَنه وقفَ أَعرابيٌّ على حَلْقَةٍ فيها عمروُ بنُ عبيد المعتزليُّ القدري، وكانَ ممن ينكرُ إرادةَ اللَّهَ في كلِّ شيء يحدث.

فقالَ الأعرابيُّ للجالسين: يا هؤلاء سُرِقَت ناقتي، فادْعُوا اللَّهَ أنْ يردُّها عَليَّ..

فدعا عمروُ بن عبيد دعاءَ القدرية وقال: اللهمَّ إنك لم تُرِدْ أنْ تُسْرَقَ ناقتُه فسُرقتْ. فارْدُدْها عليه!!!

فقالَ له الأعرابي: لا حاجَةَ لي في دعائك!

قال ابن عبيد: وَلِمَ؟

قال الأعرابي: كما أَرادَ اللَّهُ أنْ لا تُسرقَ فسُرقتْ، فأخافُ أنْ يُريدَ اللَّهُ رَدَّها فلا تُرَدّ!!

آيات في طلاقة مشيئة الله

والآياتُ الدالةُ على طلاقةِ المشيئة، وأنَّ كلَّ شيء فهو بمشيئةِ الله كثيرة. من هذه الآيات:

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

وقولُه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ..﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقولـه تـعـالـى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الدهر: ٣٠].

ومنشأُ الضلالِ عند رجالِ الفرق من المتكلمين، أَنهم لم يُفرِّقوا بين المشيئةِ والإرادة من جانب، وبين المحبةِ والرضا من جانب آخر. فسوّوا بين المشيئةِ والرضا، وبين الإرادةِ والمحبة!

فقالَ بعضُهم: كلُّ ما أَرادَهُ اللَّهُ وقضاه، فإنه يحبُّه ويرضاه، فكلُّ ما وقعَ في الكون من معاصٍ ومنكرات وكفرٍ وظلم، فإنَّ اللَّهَ شاءَه وأَرادَه، وهو يحبُّه وَيرضاه!! وهذا ضلالٌ كبير.

وَرَدَّ عليهم آخَرونَ بالذهاب إلى النقيض، فقالوا: إنَّ اللَّهَ لا يحبُّ المعاصي ولا يَرضاها، ولذلك لا يُريدُها ولا يشاؤها، ولا تتمُّ هذه المعاصي بقضاءِ الله وقدرِهِ!! وهذا ضلالٌ كبيرٌ أيضاً.

الفرق بين الإرادة والمحبة

والصوابُ هو التفريقُ بين المشيئةِ والمحبة، وبينَ الإرادةِ والرضا.

ليس كلُّ ما يشاؤُه اللَّهُ يحبُّه، وليس كلُّ ما يريدُه اللَّهُ يرضى عنه، فكلُّ ما في الكون يتمُّ بقدرِ الله ومشيئته وإرادتِهِ، لكن المعاصي التي تقعُ بإرادتِهِ ومشيئته سبحانه، لا يرضى عنها اللَّهُ ولا يحبُّها..

ومن الآياتِ على التفريقِ بين الإرادةِ والمحبة قولهُ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

اللَّهُ يُريدُ أن يُضِلَّ الضال، فالضالُّ يضلُّ بإرادةِ الله ومشيئته.

ولكنَّ الله لا يحبُّ الضلالَ والفسادَ من صاحبه، مع أَنه أراده.

قـالَ تـعـالـى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقالَ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

واللَّهُ يكرهُ كلَّ ما حرَّمه على عباده. فبعدَ أنْ ذكرتْ آياتُ سورة الإسراء مجموعةً من الفواحشِ والمنكرات، ختمتْ ذلك بقولِها: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨].

فاللَّهُ يكرهُ هذه الفواحش، وقد أكَّدَ رسولُ الله ﷺ على كراهيةِ اللَّهِ لما نهىٰ عنه.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن المغيرةِ بن شعبة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ كَرِهَ لكم ثلاثاً: قيلَ وقال، وكثرةَ السؤال، وإضاعةِ المال»[1].

ووضَّحَ هذا في دعائِه ﷺ. فروى مسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ إني أعوذُ برضاكَ من سَخَطِك، وبمعافاتِكَ من عقوبتك، وأعوذُ بك منك..»[2].

لقد استعاذَ رسولُ الله ﷺ بصفةِ الرضا من صفةِ السخط، واستعاذَ بفعلِ المعافاةِ من فعْلِ العقوبة.

والثانيةُ ثمرةٌ للأولى مترتبةٌ عليها. فمَنْ رضيَ اللَّهُ عنه فقد عافاه، ومَنْ سخطَ اللَّهُ عليه فقد عاقبه.

والأمرانِ راجعانِ إلى الله: المعافاةِ والعقوبة، واقعان بإرادتِه ومشيئته، فمَنْ شاءَ أنْ يعافيه عافاهُ لرضاهُ عنه، ومَنْ شاءَ أن يُعاقبَه عاقبَه لسخطِه عليه.

ولهذا قالَ: «وأعوذُ بك منك». أي: أَعوذُ بصفاتِك التي فيها المعافاةُ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٤٧٧. ومسلم برقم: ١٥٩٣.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٤٨٦.

محبة الخير وكره الشر

وإذا كانَ اللَّهُ خلقَ كلَّ شيءٍ بقدره، ولا يكونُ إلاّ ما شاءَه وأَرادَه سبحانه، فإنَّ الإنسانَ مأمورٌ أنْ يُطيعَ الله، وأنْ لا يُخالِفَه ويَعصيه. لأنَّ اللَّهَ أَمره بالطاعة، ونهاهُ عن المعصية.

وطاعةُ الله تكونُ بموافقةِ الأمرِ الدينيِّ الشرعي، لأنَّ اللَّهَ يرضى هذا الأمْرَ، ويحبُّ من ينفذُه، ويُثيبُه عليه.

ولا تكونُ الطاعةُ بموافقةِ قَدَرِ الله ومشيئته، ولو كانتْ موافقةُ القَدَرِ طاعةً لكانَ إِبليسُ بكفره من أعظم المطيعين لله، لأَنه بكفرهِ وتمردِهِ وافقَ قَدَرَ الله ومشيئَتَه، مع أنَّ اللَّهَ أَمرهُ بالسجودِ لآدم آَمْراً شرعياً دينياً، فعصى أَمْرَه وخالَفَه.

إِنَّنا مأمورون بكُرْهِ إِبليسَ وجنودِه، وكُرْهِ الكفرِ والفسوق والعصيان، وعدمِ محبةِ ذلك والرضا به، مع أَنه حصلَ بقدرِ الله ومشيئته.

إنّ ما يقدِّرُهُ اللَّهُ نوعان:

الأول: ما يقدرهُ اللَّهُ من الخير، المتمثلُ بالعبادات والطاعات والحسنات، فهذا نؤمنُ به أَنه بقدرِ الله ومشيئته وإِرادتِه، وهذا نحبُّه ونرضى به، لأنَّ اللَّهَ يُحبه ويَرضاه.

الثاني: ما يقدِّرُهُ اللَّهُ من الشر، المتمثل بالكفرِ والفسوقِ والعصيان والفسادِ والمعصية، فهذا نؤمنُ به أنه بقدرِ الله ومشيئتِهِ وإرادته، لكننا لا نحبُّه ولا نَرضىٰ به، لأنَّ اللَّهَ لا يحبُّه ولا يرضىٰ به. وإِنما نكرهُه ونبْغضُه ونمقته، لأن اللَّهَ يكرهُه ويبغضُه ويمقتُه!!

الحذر من التعمق في القدر

والقدَرُ اختصَّ اللَّهُ به، لم يُطلعْ عليه أَحداً من خلقه، وهذا معنى كلامِ الإمامِ الطحاوي: «وأَصْلُ القدرِ سِرُّ الله تعالى في خلقه، لم يَطلع على ذلكَ مَلَكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل..».

ونحنُ مأمورونَ بالإيمانِ بالقدر، بدونِ التعمُّق فيه: قال الإمامُ الطحاوي: «والتعمُّقُ والنظرُ في ذلك ذريعةُ الخذلان، وسلَّمُ الحرمان، ودرجةُ الطغيان..».

والتعمُّقُ هو المبالغةُ في طلبِ الشيء.

والمعنى: أنَّ المبالغَة في طلبِ القدَر والغوصَ فيه ذريعةٌ ووسيلةٌ وسببٌ إلى الخذلانِ والحرمان والطغيان.

وبسببِ ذلك يُحَذِّرُ الإمامُ الطحاويَّ قائلاً: «فالحذرُ كلُّ الحذر من ذلك: نظراً وفكراً ووسوسة».

على المسلمِ أنْ يحذرَ من التعمقِ والمبالغةِ والخوضِ في القدر، في النظر والفكر والوسوسة.

وهكذا كان أَصحابُ رسولِ الله ﷺ، حيث كانوا يكتفونَ بالإيمانِ بالقدر، ولا يُخوضونَ فيه، ولا يتعَمَّقون في بحثِ مسائله، بل كانوا يستعظمونَ الكلامَ فيه، وإذا ذهبتْ أَفكارُهم إلى مسائلهِ العويصة يَخافون خوفاً شديداً، ويَفزعون إلى رسولِ الله ﷺ.

روى مسلمٌ عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه قال: جاءَ ناسٌ من أَصحابِ النبيّ ﷺ إليه، فَسَأَلوه وقالوا: إِنّا نجدُ في أنفِسنا ما يتعاظَمُ أَحَدُنا أنْ يتكلمَ به؟.

قال: وَقَدْ وجدْتُموه؟

قالوا: نعم.

قال: ذاك صريحُ الإيمان»[1].

وروى مسلمٌ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الوسوسة؟

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٣٢.

فقال: تلكَ محضُ الإيمان[١]..

صريحُ الإيمان، ومحضُ الإيمان الخالص، هو استعظامُ الصحابةِ من التعمقِ في الخوضِ في القدر، وخوفُهم وتحرُّجُهم من ذلك. وهذه شهادةٌ من الرسولِ ﷺ لهم، لأنَّ مدافعةَ وساوسِ الشيطان حولَ القدر، واستعظامَها، هو الإيمانُ الخالصُ الصريح.

والأصلُ أنْ نقتديَ بالسلفِ الصالحِ من الصحابةِ والتابعين لهم بإحسان، من الإيمانِ بالقدر وإثباتِه، وتركِ التعمقِ في مسائله العويصة، والقضاءِ على الوساوس حوله، واستعظامِ ذلك والخوفِ منه.

ترك كلام المتكلمين في القدر

نقتدي بالصحابةِ والتابعين في ذلك، ولا نقبلُ ما فعلَه الذين خَلَفوا من بعدهم من رجالِ الفرق والمتكلمين، الذين سَوّدوا الصفحاتِ والأوراقَ الكثيرةَ بتلك الوساوس، التي هي شكوكٌ وشبهات، سَوّدوا بها القلوب، وأَوْقعوا المسلمين في اللّبسِ والحيرة، وجادلوا بالباطلِ ليدحِضوا به الحق.

علينا أنّ لا نذهبَ إلى كلامِ علماءِ الكلام حولَ القدر، لئلا نقعَ في الشبهات، ولئلا نفقدَ الإيمانَ واليقين، ولئلا نصابَ بالخذلان. ونكتفي في القدرِ بالنظرِ في الآياتِ الصريحة والأحاديث الصحيحة، وفهمِ الصحابة والتابعين لها.

نفهمُ الآياتِ والأحاديث، ونلتزمُ بها، ونؤمنُ بما جاءَ فيها، لأنَّ العبوديةَ الحقةَ لله تقومُ على الإيمانِ والتسليم والتنفيذ.

والأوامرُ التي أَمَرَنا اللّهُ بها في الكتابِ والسنة، موقفُنا منها في الخطوات التالية

١ ـ الإيمانُ والتصديقُ بها.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٣٣.

٢ ـ العزمُ الجازمُ الجادُّ على امتثالها.

٣ ـ المسارعةُ والمبادرةُ إلى التنفيذِ وإزالة المعوقات.

٤ ـ بذلُ الجهدِ والنصح في الإتيانِ بالمطلوبِ على أحسن الوجوه.

٥ ـ فعلُ الأمرِ وأداؤه وتنفيذه، وعدمُ تعليقِ التنفيذِ على بيانِ حكمته.

وبعدَ الامتثالِ والالتزام والتنفيذ نحاولُ معرفةَ الحكمةِ التي تبدو لنا من الأمر، وذلك لتطمئنَّ قلوبُنا، ويزدادَ إيمانُنا.

إنَّ معرفَتنا للحكمةِ لم تنشئ الإيمانَ والالتزامَ والتنفيذ، فهذا موجودٌ قبلَ معرفتِها، لأنه مبنيٌّ على العبودية لله، وتصديقِ رسله، واتباعِ شرعه، لكن هذه المعرفةَ تزيدُ الإيمان، وتطمئنُ القلب!!

وهذا ما نفهمهُ من إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى . .﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وبَيَّنَ الإمامُ ابنُ عبدِ البر السؤالَ المرغوبَ والمذمومَ في هذا الموضوع: «فَمَنْ سألَ مستفهماً راغباً في العلم، ونفي الجهل عن نفسه، باحِثاً عن معنى يجبُ الوقوفُ في الديانةِ عليه، فلا بأسَ به، فَشِفاءُ العَيِّ السؤال.

ومَنْ سألَ متعنِّتاً غيرَ متفقهٍ ولا متعلم، فهو الذي لا يَحِلُّ قليلُ سؤاله ولا كثيرُه.

قالَ الإمامُ أبو بكر ابن العربي المالكي: الذي ينبغي للعالمِ أنْ يشتغل به هو بَسْطُ الأدلة، وإيضاحُ سبلِ النظر، وتحصيلُ مقدماتِ الاجتهاد، وإعدادُ الآلةِ المُعِينة على الاستمدادِ.

فإذا عرضَتْ نازلة، أُتِيَتْ من بابِها، ونُشِدَتْ من مظانها، واللّهُ يفتحُ وجْهَ الصوابِ فيها. . .

العلم الموجود والعلم المفقود

[٣٩] : «فَهذا جُمْلَةُ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ، مَنْ أَوْلِياءِ اللَّهِ تعالى، وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخينَ في العِلْمِ. لأَنَّ العِلْمَ عِلْمانِ: عِلْمٌ في الخَلْقِ مَوْجودٌ، وَعِلْمٌ في الخَلْقِ مَفْقودٌ. فَإِنْكارُ العِلْمِ الموجودِ كُفْر، وَادِّعاءُ العِلْمِ المَفْقودِ كُفْر، وَلا يَثْبُتُ الإِيمانُ إلاّ بِقَبولِ العِلْم المَوْجود، وَتَرْكِ طَلَبِ العِلْمِ المَفْقود...».

الكلامُ السابقُ الذي تَمّ بيانُه حولَ مسائلِ الإيمان هو مما يجبُ اعتقادُه والعملُ به، وهو الذي يَحتاجُ إليه كلُّ مسلم موفَّق، من أولياءِ الله الصالحين، نَوَّرَ اللَّهُ قلْبَه بالإيمانِ والفهمِ والعلم. وإذا أَحسنَ فهْمَ العلمِ الوارد في الكتاب والسنة كانَ من الراسخين في العلم.

وإنَّ العلْمَ علمان:

الأول: علْمٌ موجود: وهو ما جاءَ به الرسولُ ﷺ، وثبتَ في الكتابِ والسنة، وعَرَضَهُ السلفُ الصالح من هذه الأمة، هو علمُ الشريعة في أصولِها وفروعِها وميادينها، جملةً وتفصيلاً، فهذا العلمُ يجبُ أَخْذُه والالتزامُ به، ويجبُ قبولُه والإيمانُ به، وتَركُه وإنكارُهُ وردُّه كفرٌ وخروجٌ من هذا الدين.

الثاني: علمٌ مفقود: وهو العلمُ الذي طواهُ اللَّهُ وأَخفاهُ عن عبادِهِ وخلْقِه، ونهاهُم عن الخوضِ فيه، وهو المتعلقُ بالقَدَرِ والغيبيّات، فهذا يجبُ التوقفُ فيه، ومَن ادّعاه فقد كَفَر.

فلا يثبتُ الإيمانُ إلاّ بقبولِ العلمِ الموجود، وتركِ طلَبِ العلمِ المفقود!!

الإيمان باللوح والقلم الغيبيين

[٤٠] : «وَنُؤْمِنُ باللَّوْحِ وَالقَلَمِ، وَبِجَميعِ ما فيه قَدْ رُقِمَ».

المعنى: ونؤمنُ باللوحِ والقلمِ اللّذيْن خلقهما الله، ونؤمنُ بكلِّ ما رُقم وكُتب في ذلك اللوح من مقاديرِ الخلائق.

وأَشارَ القرآنُ إلى اللوح في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

واللوحُ المحفوظُ المذكورُ في هذه الآية: لوحٌ خاص، خلَقَه الله، وهو غيبي، لا نعرفُ نحنُ حجمَه ولا صفتَه ولا كيفيتَه، كتبَ اللّهُ فيه كلَّ ما سيكونُ مما يتعلقُ بالخلائق جميعاً، وهي كتابةٌ غيبية أَيضاً، لا نعرفُ نحنُ كيفَ كانت.

والقلمُ هو قلمٌ خاصّ خلقَه الله، وهو غيبي، لا نعرفُ نحن حجْمَه ولا صفتَه ولا كيفيتَه، كتبَ اللّهُ به في اللوح المحفوظ تلكَ المقاديرَ المتعلقةَ بالخلائق، وهي كتابةٌ غيبيةٌ أيضاً، لا نعرفُ كيفَ كانت.

روى أَبو داود والترمذيُّ عن عبادةَ بنِ الصامت رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أولُ ما خلقَ اللّهُ القلم، فقال له: اكتبْ.

قال: يا ربِّ: وما أكتب؟.

قال: اكتبْ مقاديرَ كلِّ شيء حتى تقومَ الساعة..»[1].

فهذا الحديثُ نصٌّ في أنَّ اللّهَ كتبَ بذلك القلمِ الغيبي مقاديرَ كلِّ شيء مما سيخلُقُه الله، حتى قيام الساعة.

الأقلام الأربعة

ودلَّت السّنَّةُ على أنَّ الأقلامَ أربعة.

الأول: القلمُ العام: وهو أولُ ما خلقه الله، وكتبَ به كلَّ شيء في اللوح المحفوظ، مما يتعلق بالخلائق كلِّها، حتى قيامِ الساعة. وهو المذكورُ سابقاً.

الثاني: قلمُ الوحي: وهو الذي يكتبُ اللّهُ به ـ كتابةً غيبية ـ وحْيَه

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٧٠٠. والترمذي برقم: ٢١٥٥.

وأمْرَه وقَدَرَه، ويوجِّهُ ذلك إلى الملائكة، لينفِّذوه في السمواتِ والأرض.

ولما عُرِجَ برسولِ الله ﷺ إلى السماءِ السابعة سمعَ صَريفَ الأقلام.

روى البخاريُّ ومسلم ـ ضمن حديثِ أَنسِ بن مالك في الإسراء ـ عن ابنِ شهاب ـ الزُّهري قال: وأخبرني ابنُ حزم: أنَّ ابنَ عباس وأبا حيةَ الأنصاريَّ كانا يقولان: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ثم عُرِجَ بي، حتى ظَهْرتُ لمستوى أَسمعُ فيه صريفَ الأقلام..»[1].

وصَريفُ الأقلام: خروجُ صوتِها أَثناءَ الكتابة.

قالَ الإمامُ الخطابي: هو ما تكتبهُ الملائكةُ من أقضيةِ اللَّهِ تعالى ووحْيِه، وما ينسخونَه من اللوحِ المحفوظ.

والمعنى أن اللَّهَ عَرَجَ برسولِه ﷺ في السماءِ السابعة أو رفَعَهُ إلى مستوى عالٍ فيه، بحيثُ سمعَ صَريفَ الأقلام التي تكتبُ بها الملائكةُ وحيَ الله.

القلم الثالث: القلمُ الخاصُّ بكلِّ إنسان: وذلك حين يكونُ الإنسانُ جنيناً في بطنِ أُمه، حيث يُرسلُ اللَّهُ إليه مَلَكاً من ملائكته، فيَنفخُ فيه الروح، ويُؤْمَرُ بأربع كلمات: بكتْبِ رِزْقِهِ، وعملِه، وأجلِه، وشقي أو سعيد.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ـ ضمنَ حديثِ خلقِ الإنسان في رحم أمه ـ «.... ثم يُرْسَلُ إليه المَلَك، فينفخُ فيه الروح، ويُؤْمَرُ بأربعِ كلمات: بكتْبِ رزقِه، وأجلِه، وعملِه، وشقيٌّ أم سعيد...»[2].

القلم الرابع: وهو القلمُ الذي تكتبُ به الملائكةُ كلَّ أعمالِ الإنسان بعدَ بلوغِه وتكليفه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٩. ومسلم برقم: ١٦٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٨. ومسلم برقم: ٢٤٦٣.

وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

روى أبو داود عن عائشةَ رضي الله عنها عن رسولِ الله ﷺ قال: رُفعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائمِ حتى يستيقظ، وعن المجنونِ حتى يفيق، وعن الصبيِّ حتى يحتلم..»[١].

والمرادُ بالقلم في كلامِ الإمام الطحاوي: «ونؤمن باللوح والقلم..» القلمُ الأول، الذي خلَقَه الله، وكتبَ به كلَّ شيء، وذلك قبلَ خلْقِ السموات والأرض، وقبلَ خلْقِ الملائكة والجن والإنس.

أما القلمُ الذي أقسمَ اللَّهُ به في قوله تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: ١] فالراجحُ أنه لا يُرادُ به القلم الغيبي، وإنما القلمُ الماديُّ المعروف، الذي يستخدمُه الناس في الكتابة، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ٣ ـ ٥].

لا راد لما أراد الله

٤١ : «فَلَو اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهُمْ على شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تعالى أَنَّهُ كائنٌ، لِيَجْعَلوهُ غَيْرَ كائِن، لَمْ يَقْدِروا عَلَيْهِ، وَلَو اجْتَمَعوا كُلُّهُمْ على شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تعالى فيهِ أَنَّهُ غَيْرُ كائِنٍ لِيَجْعَلوهُ كائِناً، لَمْ يَقْدِروا عَلَيْهِ. جَفَّ القَلَمُ بِما هُوَ كائِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَة.
وَمَا أَخْطَأَ العَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ، وَما أَصابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ..».

كتبَ اللَّهُ كلَّ ما هو كائنٌ بالقلم، وجعَلَه في اللوحِ المحفوظ، وثبتَ هذا واستقرَّ، فلا مبدِّلَ له.

ولو اجتمعَ المخلوقون جميعاً ليغيِّروا أَو يبدِّلوا شيئاً كتبهُ اللَّهُ فلن يستطيعوا ذلك، لن يُلْغوا شيئاً كتبَ اللَّهُ إيجادَه، ولن يوجِدوا شيئاً لم يكتبهُ الله ولم يُرِدْ إيجادَه.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٣٩٨.

فما كتبهُ اللّهُ وأَرادَه فإنه كائنٌ وواقعٌ لا محالة، وما لم يكتبهُ اللّهُ ولم يُرِدْهُ فلن يكون ولن يقعَ أَبداً.

ومعنى قول الطحاوي: «جَفَّ القَلمَ بما هو كائِنٌ إلى يوم القيامة». أن اللّهَ كتبَ بالقلم في اللوح كلَّ ما سيكون، مما يتعلقُ بالمخلوقين جَميعاً حتى يومِ القيامة، وأنَّ ما كتبهُ اللّهُ قد فُرِغَ منه، وأنه لا تبديلَ ولا تغييرَ فيه.

وهذا ما أكّده رسولُ الله ﷺ.

فقد روى مسلمٌ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: جاءَ سُراقَةُ ابنُ مالك بن جُعْشُم، فقال: يا رسولَ الله: بَيِّنْ لنا دينَنا كأَنّا خُلِقنا الآن، فيمَ العملُ اليوم؟ أفيما جفَّت به الأقلام، وجَرَتْ به المقادير أمْ فيما يُستقبل؟

قال: لا. بل فيما جَفَّت به الأقلام، وجَرَتْ به المقادير..»[١].

وروى الترمذيُّ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبيِّ ﷺ يوماً، فقال: يا غلام: إنّي أُعلِّمُك كلمات: احْفظِ اللّهِ يحفظْك، احفظ اللّهَ تجدْهُ تجاهَك، إذا سأَلْتَ فاسألِ الله، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ بالله، واعلم أنَّ الأمةَ لو اجتمعت على أنْ ينفعوك بشي، لم ينفعوك إلاّ بشيءٍ قد كتبهُ اللّهُ لك، وإن اجتمعوا على أنْ يضرُّوك بشيء، لم يضرُّوك إلاّ بشيء قد كتبهُ اللّهُ عليك. رُفعت الأَقلام، وجَفَّت الصُّحف..»[٢].

ولهذا قال الإمامُ الطحاوي: «وما أَخطَأَ العبدَ لم يكنْ ليصيبَه، وما أصابَه لم يكن ليخطِئَه».

فهو قولٌ مقتبسٌ من حديثِ رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٤٨.
(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٢٥١٦.

وما أحسنَ قولَ القائل:

ما قَضى اللَّهُ كائِنٌ «لا مَحالَةْ» وَالشَّقِيُّ الجَهولُ مَنْ «لامَ حالَهْ»

وقولَ الآخر:

اقْنَعْ بِما تُرزَقُ يا ذَا الفَتى فَلَيْسَ يَنْسى رَبُّنا «نَمْلَةْ»
إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قائِماً وَإِنْ تَوَلّى مُدْبِراً «نَمْ لَهْ»

خشية الله وطلب مرضاته

وإذا أيقنَ العبدُ المسلمُ بهذه الحقيقة، وعلمَ أنَّ ما قدرهُ اللَّهُ فهو واقعٌ لا محالة لا يمنعُه أحد، وأنَّ ما لم يقدِّره اللَّهُ لن يقع، فإنه يتوجَّهُ إلى اللَّهِ وحدَه، يؤمنُ به ويَرجوه ويخافُه، ويتقيه ويخشاه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

إنَّ الإنسانَ لا بدَّ أنْ يخشى ويَتقي، فإنْ لم يتَّقِ الله، فسوفَ يتقي الناسَ ويَخشاهم، ويَرجوهم ويَحذرهم، ولا يمكنُ أنْ ينالَ رضى الجميع، فسوفَ يرضى عنه بعضُهم، ويبغضُه آخرون.

وحولَ هذا المعنى يقولُ الإمامُ الشافعي رضي الله عنه: رِضى الناسِ غايَةٌ لا تُدرك، فعليكَ بالأمرِ الذي يُصلحك فالزمه، ودَعْ ما سواه، فلا تُعانِه، فإرضاءُ الخلق لا مَقدورٌ ولا مَأمور، وإرضاءُ الخالق مقدورٌ ومأمور. . .

ثم إنَّ الناسَ لن يُغنوا عن الإنسانِ من الله شيئاً، فإذا اتّقاهم ورَجاهم فلَن ينفعوه، أمّا إذا اتقى اللَّهَ فإنَّ اللَّهَ يكفيهِ مَؤونةَ الناس.

روى الترمذيُّ أنَّ معاويةَ بنَ أبي سفيان رضي الله عنه كتبَ لعائشةَ

رضي الله عنها قائلاً: اكْتُبي إِليَّ كتاباً توصيني فيه، ولا تُكْثِري عَلَيّ.

فكتبتْ له عائشةُ رضي الله عنها: مَنْ أَرضى اللّهَ بسخطِ الناس، رضيَ اللّهُ عنه، وأرضى عنه الناس. ومَنْ أَرضى الناسَ بسخطِ الله، عادَ حامِدُه من الناس ذامّاً..

إِذا رضيَ اللّهُ عن المؤمن فإنه يحبُّه، ويُحَبِّبُهُ إِلى الناسِ الصالحين، ويَكفيه أُمورَه، وبذلكَ لم يخسَرْ شيئاً.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «إِذا أحبَّ اللّهُ العبد، نادى جبريلَ: إنه يحبُّ فلاناً، فأَحِبَّه، فيحبُّه جبريل. ثم يُنادي جبريلُ في السماء: إنَّ اللّهَ يحبُّ فلاناً، فأَحِبّوه، فيحبُّه أهلُ السماء. ثم يوضَعُ له القبوُل في الأرض...»[1].

وعندما يتقي المؤمنُ ربَّه، ويؤمنُ بقضاءِ الله وقَدَرِه، فإنه ينالُ سعادةَ الدنيا والآخرة. حيث يجعلُ اللّهُ له مخرجاً ورزقاً. قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

والتوكلُ الواجبُ على الله لا يَعني تركَ الأسباب، والقعودَ عن السعيِ والعملِ والاكتساب، بحجةِ أنَّ اللّهَ إِذا كان كتبَ الشيء وقدَّره فهو واقع، فلماذا الأخذُ بالأسباب؟

وقدوتُنا في التوكلِ والأخذِ بالأسباب هو رسولُ الله ﷺ، فقد كان أَفضلَ المتوكِّلين على الله، ومع هذا كان يسعى ويعملُ، ويمشي في الأسواق، حتى قال عنه الكفار: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٩. ومسلم برقم: ٢٦٣٧.

الله علم كل شيء وقدره تقديراً

٤٢ : «وَعَلى العَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ: أَنَّ اللَّهَ سَبَقَ عِلْمُهُ في كُلِّ كائِنٍ مِنْ خَلْقِه، فَقَدَّرَ ذلِكَ تَقْديراً مُحكَماً مُبْرَماً، لَيْسَ فيه ناقِضٌ ولا مُعَقِّب، ولا مُزيلَ وَلا مُغَيِّرَ، وَلا مُحَوِّلَ وَلا ناقِص، ولا زائِدَ مِنْ خَلْقِهِ في سَمواتِهِ وَأَرْضِه...وَذلِكَ مِنْ عَقْدِ الإِيمان، وَأُصولِ المَعْرِفَة، وَالاعْتِرافِ بِتَوْحيدِ اللَّهِ تعالى وَرُبوبِيَّتِهِ، كما قالَ تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾. وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

على المؤمنِ أنْ يعتقدَ أنَّ اللَّهَ عالمٌ بكل شيء. وأنَّ علمه سبحانه أزلي، وأنه عَلِمَ كلَّ ما سيكون من المخلوقات، وأنه قَدَّرَ مقادير المخلوقاتِ وفقَ عِلْمِه بها، وأنَّ تقديرَه لها دقيقٌ محكَم، ونافذٌ واقعٌ مبرم.

فاللَّهُ سبقَ علْمُه بالمخلوقات قبلَ خلقها، كما أَنه سبقَ تقديره لها قبلَ خلقِها أيضاً، وقد أوجدَ هذه المخلوقاتِ في أوقاتها، كما عَلِمَه عنها وقَدَّرها.

روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «كتبَ اللَّهُ مقاديرَ الخلق. قبلَ أنْ يخلقَ السمواتِ والأرض بخمسين ألفَ سنة، وكان عرشُه على الماء..»[1].

وهذا ما أَخبرَنا اللَّهُ عنه في القرآن قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ومعناه: أن اللَّهَ قدَّرَ كلُّ شيء وفقَ علمه الأزلي، وأَنه خَلَقَ كلَّ شيء، وأوجده إيجاداً، فجاءَ إيجادُه كما عَلِمَه وقَدَّرَه.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ومعناه: أنَّ أمْرَ الله الذي أَرادَه وأَوجَده وخلَقَه، كان قبلَ خلْقِه قَدَراً

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٥٣.

مقدَّراً مقدوراً، وشيئاً معلوماً محدوداً، وإيجادُه وفق علمه وتقديره.

والإيمانُ بالقدرِ بهذه الصورة من أركان الإيمان، ولهذا قال عنه الطحاوي: «وذلكَ من عقدِ الإيمان، وأصولِ المعرفة، والاعترافِ بتوحيدِ الله وربوبيته..»

ودليلُ أنه من أركانِ الإيمان ما وردَ في حديثِ عمر في الإيمان.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه في قدوم جبريلَ على النبيِّ ﷺ، على مرأى ومسمع من الصحابة، وأنه سألَهُ عن الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ والساعة وعلاماتها.

الشاهدُ فيه مما يتعلق بموضوعنا قولُه: «فأخبرْني عن الإيمان.

فقال ﷺ: أنْ تؤمِنَ باللّهِ وملائكتِه وكتبه ورسله واليوم الآخر. وتؤمنَ بالقَدَرِ خيرِه وشره..».

فلما انصرفَ قالَ الرسولُ الله ﷺ: يا عمر: أتدري مَن السائل؟ قال عمر: اللّهُ ورسوله أعلم.

قال عليه الصلاة والسلام: فإنه جبريل، أتاكم يعلِّمُكم دينَكم...»[1].

إنَّ الإيمانَ لا يتحقق إلاّ بالإيمانِ بالقدر، والإيمانِ بأسماءِ الله وصفاتِه، وتوحيدِه في ألوهيتِه وربوبيتِه.

والإيمانُ بالقدرِ يتضمَّنُ الإيمانَ بعلمِ الله القديم، وبقَدَرِ اللّهِ الحكيم، الذي جاءَ وفْقَ علمه سبحانه.

وقد ضلَّ في علمِ الله وقَدَرِه طوائفُ من المشركين والصابئةِ والفلاسفةِ وبعضُ رجالِ الفرق المسلمين، فأنكرَ بعضُهم علْمَ الله، وأنكرَ آخرون قَدَرَه، وأنكرَ غيرُهم علْمَه سبحانه بالجزئيات قبلَ إيجادِه لها.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٠. ومسلم برقم: ٨.

وجوب الإيمان بالقدر

ومِنْ أولِ مَنْ أنكرَ على الذينِ ينفون القدرَ والعلمَ من «القَدَرِيّة» من المسلمين، عبدُ الله بنُ عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

روى مسلمٌ عن يحيى بنِ يعمر رحمه الله قال: «كانَ أولَ مْنَ قال في القَدَرِ بالبصرة، مَعْبَدُ الجُهَنِيّ. فانطلقْتُ أنا وحَميدُ بنُ عبد الرحمن الحِمْيَري، حاجَّيْن أو معتمريْن، فقلنا: لو لَقينا أحداً من أصحابِ رسول الله ﷺ، فسألْناهُ عما يقولُ هؤلاء في القدر.

فوُفّقَ لنا عبدُ الله بن عمر بن الخطاب، داخلاً المسجد.

فاكتنفْتُه أَنا وصاحبي، أَحَدُنا عن يمينه، والآخرُ عن شماله. فظننْتُ أنَّ صاحبي سَيَكِلُ إليَّ الكلام.

فقلت: أبا عبد الرحمن: إنه ظَهَرَ قِبَلَنا ناس، يَقرءون القرآن، ويَتَقَفَّرونَ العلم ـ وذكَرَ من شأنهم ـ وأَنهم يزعمون أَنْ لا قدر، وأنَّ الأمْرَ أُنُف!

قال: فإذا لقيتَ هؤلاء فأخبِرْهم أَني بريءٌ منهم وأنهم بُرَءاءُ مني! والذي يحلفُ به عبدُ الله بن عمر لو أنَّ لأحدِهم مثْلَ أُحُدٍ ذهباً، فأنفقَه، ما قَبله اللَّهُ منه حتى يؤمنَ بالقدر...»[(١)].

إنَّ القدرَ هو: التقديرُ الحكيمُ المطابقُ للعلمِ القديم. وهذا يتضمنُ أُصولاً أساسيةً عظيمة:

١ ـ أنَّ اللَّهَ عالمٌ بالأُمورِ المقدَّرة قبلَ خلْقِها وإيجادِها. وفي هذا إثباتٌ لعلمه القديم سبحانه.

٢ ـ أنَّ التقديرَ الحكيم يتضمنُ مقاديرَ المخلوقات. وهي صفاتُها الخاصةُ بها، كَمّاً ومقداراً. والخلْقُ يتضمنُ التقدير. لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٨.

٣ ـ أنَّ اللَّهَ كتبَ هذه المقادير التي عَلِمَها وقَدَّرها في اللوحِ المحفوظ، قبلَ إِيجادِها وخَلْقِها في عالم الواقع، فكتابتُها ملازمةٌ لعلمِه بها، وثمرةٌ له.

٤ ـ أنَّ اللَّهَ مختارٌ فيما يَخلقُ ويوجِدُ منها، لا يُلزِمُهُ أَحدٌ بذلك.

٥ ـ أنَّ هذه المخلوقات والأَقدارِ التي يوجِدُها اللَّهُ مخلوقةٌ حادثة، أَوجدها الله بعد أنْ كانت غيرَ موجودة، فاللَّهُ قَدَّرها ثم أَوجَدَها.

إذن هي خمسةُ أصولٍ مرتبطةٌ بالقدر: عِلْمُ اللَّهِ بها، وتقديرُها المطابقُ لعلمهِ بها، وكتابتُها المتوافقةُ مع تقديرها، وطلاقةُ إرادتهِ ومشيئته في تقديرِها، وخلْقُها وإِيجادُها وفق ما علمَ وقَدَّرَ وكتبَ وأَراد!!

قلب الخائض في القدر مريض

[٤٣] : «فَوَيْلٌ لِمَنْ صارَ قلْبُهُ في القَدَرِ قَلْباً سَقيماً. لَقَدِ الْتَمَس بِوَهْمِهِ في فَحْصِ الغَيْبِ سِرّاً كتيماً، وَعَادَ بِما قالَ فيهِ أَفّاكاً أثيماً..».

يذمُّ الإمامُ الطحاويُّ الذي يخوضُ في القدرِ بالباطل، لأنَّ خوضَه فيه بالباطل، وتعمُّقَه في مسائلهِ الغيبية، أَدّى إلى سقمِ قَلْبه ومرضِه، وهي مصيبةٌ عظيمةٌ يُصابُ بها.

وأَساسُ مصيبته أَنه «التمسَ بوهْمِه في فحصِ الغيب سراً كتيماً»: أي أَنه بحثَ في عالمِ الغيب بظنونِه وأَوهامِه وشكوكِه، وحاولَ معرفةَ سرِّ الغيب المكتوم عنه، وبذلك ضلَّ واحتارَ وانحرف. لأنَّ القَدَرَ سِرُّ الله تعالى في خلقه، لم يُطلعْهم على كيفيتِه، وكلُّ مَنْ حاولَ الخوضَ في هذا السرِّ فإنه يكونُ كَذّاباً أَفّاكاً، ومفترياً آثماً.

ومن المعلوم أنَّ قلبَ الإنسان له حياةٌ وموت، وله مرضٌ وشفاء، وله داءٌ ودواء، وغذاءٌ وعلاج، والمرادُ بكلِّ ذلك الأمورُ المعنوية.

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أي: أنَّ القلبَ يكون ميتاً بالكفر، فيُحييهِ اللَّهُ بالإيمان.

والقلبُ الصحيحُ الحي إذا عُرِضَ عليه القبيحُ والباطل، أَبغضه ورَفضه، ونَفَرَ منه بطبعه، ولم يلتفتْ إليه.

بخلافِ القلبِ الميت، والمريضِ بالشهوةِ أو الشبهة، فإنه يَقبلُ الباطلَ ويأخذه، فيزيدُ بذلك مرضُه.

جاءَ عِتْريسُ بنُ عُرقوبِ الشَّيباني إلى عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه فقال: هَلَكَ مَنْ لم يأمُرْ بالمعروفِ، ولم ينْهَ عن المنكر!

فقالَ ابنُ مسعود: بل هلكَ مَنْ لم يَعرفْ قلبُه المعروف، ولم يُنكر قلْبُه المنكر.

ومعلومٌ أنَّ مرضَ الشبهة أشدُّ وأردأُ من مرضِ الشهوة، فقد لا يحسُّ به صاحبُه، وقد يتعمقُ مرضُ الشبهة عنده ويشتدُّ وهو لا يَعرف، ويَموتُ قلبُه وهو لا يَشعرُ بموتِه!

وعلامةُ ذلك أنه لا تؤلمهُ جراحاتُ القبائح، ولا يوجعُه جهلُه بالحق، ويتبعُ الباطل، لأنَّ القلبَ الحيَّ هو الذي يتألمُ بورودِ القبائح، ويتوجَّعُ إذا جهل الحق. وأَنّى للقلبِ الميتِ أنْ يحسَّ أَو يتوجّع!

قال المتنبي:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوانُ عَلَيْهِ ... ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلامُ

وعلى المؤمنِ أنْ يصبرَ على الحق، وأنْ لا يتخلّى عنه، وأنْ لا يستجيبَ للباطل، ليبقى قلبُه في صحتِه وصفاءه وإشراقِه.

قال الحسنُ البصري ناصحاً: «السنةُ بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكمُ الله، فإنَّ أهلَ السنة كانوا أقلَّ الناس فيما مضى، وهم أقلُّ الناس فيما بقي، إنهم هم الذين لم يَذهبوا مع أَهْلِ الإتْرافِ في إتْرافِهم، ولا مع أهلِ البدعِ في بدعهم، وصَبَروا على سُنَّتِهم حتى لقوا ربَّهم، فكذلك فكونوا..».

وقالَ عبدُ الرحمن بن إسماعيل، المعروف بأَبي شامة المقدسي: «حيثُ جاءَ الأمْرُ بلزومِ الجماعة، فالمرادُ به لزومُ الحقِّ واتباعُه، وإنْ كانَ المتمسِّكون به قليلين، والمخالِفونَ له كثيرين.. لأنَّ الحقَّ هو ما كانتْ عليه الجماعةُ الأولى، على عهدِ النبي ﷺ وأصحابِه رضوان الله عليهم. ولا ننظرُ إلى كثرةِ أهلِ الباطل بعدهم.

إنَّ من علاماتِ مرضِ القلب عدولَه عن الغذاءِ النافع إلى الغذاءِ الضار، وعدولَه عن الدواءِ النافع إلى الدواءِ الضار!

بينما القلبُ الحيُّ السليمُ الصحيحُ على العكس، يأخذُ النافعَ من الغذاءِ والدواء، ويتركُ الضارَّ منهما.

وإنَّ أنفعَ الأغذيةِ للقلب هو غذاءُ الإيمان والتقوى، وإنَّ أنفعَ الأدويةِ الشافيةِ له هو دواءُ القرآن وشفاؤُه. ومَنْ طلبَ الغذاءَ والدواءَ في غيرِ الكتاب والسنة فهو أجهلُ الجاهلين وأضلُّ الضالين.

قال تعالى عن الاستشفاء بالقرآن للمؤمنين: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

عرش الله وكرسيه

٤٤ : «وَالعَرْشُ وَالكُرْسِيُّ حِقٌّ».

خلقَ اللّٰهُ العرش، وجعلَه على الماء. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ..﴾ [هود: ٧].

وأخبرَنا اللَّهُ أَنه استوى على العرش، استواءً يليقُ بجلاله، ولا نعرفُ كيفيتَه. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ..﴾ [الأعراف: ٥٤].

واللَّهُ ذو العرش. قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ..﴾ [غافر: ١٥].

وهو ربُّ العرش الكريم العظيم، فعرشُه كريم: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦ ..﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وعرشُه عظيم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾ [النمل: ٢٦].

وجعلَ اللَّهُ لعرشه ملائكةً يحملونَه، ويسبحونَ بحمد الله. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

وحَمَلَةُ العرش يوم القيامة ثمانية: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ...﴾ [الحاقة: ١٧].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أَنه كان يقولُ في دعاءِ الكرب: «لا إِله إلاّ اللَّهُ العظيمُ الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرشِ العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربِّ الأرض، ربُّ العرش الكريم...»(١).

وأَخبرَنا رسولُ الله ﷺ أَنَّ عرشَ الله أَعلى الجنة. روى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «إذا سأَلتم اللَّهَ فسلوهُ الفردوس، فإنه أَوسطُ الجنة، وأَعلى الجنة، وفوقَه عرشُ الرحمن، ومنه تُفَجَّرُ أنهارُ الجنة»(٢).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٣٤٥. ومسلم برقم: ٢٧٣٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٧٤٢٣.

وعرشُ اللَّهِ له قوائمُ، تحملُه الملائكة، كما وردَ في الآيات السابقة، وكما أَخبرَ رسولُ الله ﷺ.

فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ: «إنّ الناسَ يُصعقون يومَ القيامة، فأكون أولَ مَنْ يُفيق، فأجدُ موسى باطشاً بساقِ العرش..»[1].

وأَجسامُ الملائكة الذين يحملونَ العرش ضخمةٌ، روى أَبو داود عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لي أَنْ أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكةِ الله عز وجل من حملةِ العرش: إنّ ما بينَ أُذُنيه إلى عاتقهِ مسيرةُ سبعِ مائةِ عام..»[2].

وقالَ عبدُ الله بنُ رواحة رضي اللَّهُ عنه شعراً:

شَهِدْتُ بأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النّارَ مَثْوى الكافِرينا
وَأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ الماءِ طافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العالَمينا
وَتَحْمِلُهُ مَلائِكَةٌ شِدادٌ ... مَلائِكَةُ الإِلهِ مُسَوَّمينا

العرش والكرسي حقيقيان

وقد ذهبَ بعضُهم إلى أنّ العرش كنايةٌ عن المُلك، وأن الله ليس له عرشٌ حقيقي، إنما له مُلْكٌ عظيم.

وكلامُه باطلٌ مردود، لأن ظاهرَ الآياتِ والأحاديثِ التي أوردناها تدلُّ على أَنه عرشٌ حقيقيٌّ خلقه الله، واستوىٰ عليه سبحانه.

لكننا لا نعرفُ حجْمَ هذا العرشِ الحقيقي، ولا كيفيتَه، ولا كيفيةَ استواءِ اللَّهِ سبحانه عليه، فلا نخوض في ذلك، ونبقى مع الآياتِ والأحاديثِ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤١١. ومسلم برقم: ٢٣٧٣.

(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٤٧٢٧.

هذا عن العرش.

أما الكرسيُّ فقد ذُكِرَ في القرآن، في آيةِ الكرسي. قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ..﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والكرسيُّ غيرُ العرش.

ولابن عباس رضي الله عنهما قولان في المرادِ بالكرسي:

القولُ الأول: أنه موضعُ القدمين. قال: «الكرسيُّ موضع القدمين. والعرشُ لا يَقْدِرُ قَدْرَه إلا الله تعالى..»[١].

القول الثاني: أنه العلم. قالَ ابن عباس: «وسع كرسيه»: كرسيُّه: علمُه. أَلا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾[٢].

ورجحَ إمامُ المفسرين الطبري القولَ الثاني: «وأما الذي يدلُّ على صحتِه ظاهرُ القرآن، فقولُ ابن عباس: «هو علمُه». وذلك لدلالةِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ على أنَّ ذلك كذلك، فأخبرَ أنه لا يؤودُه حفظُ ما عَلِمَ وأحاطَ به، مما في السموات والأرض، وكما أخبرَ عن ملائكتِه أَنهم قالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ..﴾ [غافر: ٧] فأخبر تعالى ذكره: أنَّ علْمَه وسعَ كلَّ شيء، فكذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[٣].

الله مستغن عن كل شيء

٤٥: «وَهُوَ مَسْتَغْنٍ عَنِ العَرْشِ وَما دونَه، مُحيطٌ بِكُلِّ شَيْء، وَفَوْقَه، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الإحاطةِ خَلْقَه...»

اللَّهُ خلقَ العرش، ثم استوى عليه، استواءً يليقُ بجلاله، ولا نعرفُ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢:٢٨٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره. طبعة محمود شاكر. أثر رقم: ٥٧٨٧ و٥٧٨٨.

(٣) انظر تفسير الطبري ـ بتحقيق محمود شاكر ٥:٤٠١ ـ ٤٠٢.

كيفيتَه، وهو سبحانَه لم يفعل ذلك لحاجته إليه، فهو مستغْنٍ عن العرش، وعن كلِّ شيء.

اللّهُ سبحانه غنيٌّ عن المخلوقات كلِّها. قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

والمخلوقاتُ محتاجةٌ إليه، لا تستغني عنه. قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧].

إنَّ خلْقَه سبحانه للعرش واستواءَه عليه ليسَ لحاجتِه إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضَتْه.

وكونُ العالي فوقَ السافل لا يلزمُ منه أن يكونَ السافلُ حاوياً للعالي، محيطاً به، حاملاً له. ولا أنْ يكونَ العالي مفتقراً إليه.. فانظرْ إلى السماءِ، كيف هي فوقَ الأرض، وليست مفتقرةً إليها!

فاللّهُ سبحانه أعظمُ شأناً من السماء، وأجلُّ من أنْ يلزمَ مِن علوِّه واستوائِه على عرشه إحاطةُ عرشِه به أو حملِه له!!

إنَّ من لوازمِ علوِّه واستوائِه على عرشه سبحانه: أنه هو الذي يحملُ العرشَ بقدرته، وليس العرشُ الذي يحملُه، وأنه مستغنٍ عن عرشِه، والعرشُ مفتقرٌ إليه، وأنه سبحانَه محيطٌ بعرشه، والعرشُ لا يُحيطُ به، وأنه سبحانه حاصِرٌ لعرشه، والعرشُ لا يَحصره!!

ولو أنَّ العرشَ هو الذي يحملُ اللّهَ ويحيطُ به ويحصرُه، لما صارَ اللّهُ إلهاً مستغنياً عن المخلوقات! اللّهُ هو الذي يحملُ المخلوقات بقدرتِه، وهي لا تحملُه، ويحصرُها، وهي لا تحصرُه، ويحيطُ بها، وهي لا تحيطُ به، وهو في غنى عنها، وهي لا تَستغني عنه.

إننا نؤمنُ أنَّ اللّهَ قد استوى على العرش، استواءً خاصاً يليقُ بجلاله، ولا نعرفُ كيفيتَه.

استواء الله على عرشه كما يليق به

وقد سُئلَ الإمامُ مالك رحمه الله عن معنى قوله: «ثم استوى على العرش» فقالَ له السائل: كيفَ استوى على العرش؟.

أجابَ مالك قائلاً: الاستواءُ معلوم، والكيفُ مجهول.

وفي رواية أُخرى قال: الاستواءُ غيرُ مجهول، والكيفُ غيرُ معقول، والإيمانُ به واجب.

ومعنى قولِ الإمامِ الطحاوي: «محيطٌ بكل شيء وفوقَه»: أن اللَّهَ سبحانه محيطٌ بكل شيء من مخلوقاته، وأنه فوقَ كلِّ شيء أيضاً.

ومعنى قوله: «وقد أعجزَ عن الإحاطة خلْقَه»: أن الخلائقَ كلَّهم لا يُحيطون بالله سبحانه علماً ولا رؤية. ولا غيرَ ذلك من وجوه الإحاطة.

فاللَّهُ محيطٌ بكل شيء، ولا يحيطُ به أيُّ شيء.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: ١٢٦].

وليس المرادُ بإحاطةِ الله بكل المخلوقات إحاطةٌ مادية مجسمة، وأنَّ هذه المخلوقات داخلَ ذاته، فإن اللَّهَ منزَّهٌ عن هذا التجسيم.

إنما المرادُ بها إحاطةُ عَظَمةٍ وسَعَة، وعلمٍ وقدرة. وجميعُ السمواتِ والأرض أمامَ عظمة الله كحبةِ الخردل.

إن اللَّهَ سبحانه وسعَ كلَّ شيء علماً، وإحاطة، وقدرة، وحكمة.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: ما السمواتُ السبع، والأرضون السبع، وما فيهن وما بينهن، في يد الرحمن، إلاّ كخردلةٍ في يدِ أحدكم!

نصوص في فوقية الله

هذا عن إحاطتهِ سبحانه بالمخلوقات. أما كونُه فوقَ المخلوقات، فقد وردتْ نصوصٌ تصرحُ بفوقيته سبحانه.

منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨].

ومنها قوله تعالى عن خوف الملائكة من ربهم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٩ ـ ٥٠].

ومن الأحاديثِ التي تنصُّ على فوقيته سبحانه:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «لما قضى اللَّهُ الخلقَ كتبَ في كتاب ـ فهو عندَه فوق العرش ـ: إنَّ رحمتي سبقَتْ غضبي..»(١).

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ أنتَ الأول، فليس قبلك شيء، وأنتَ الآخر، فليس بعدَك شيء، وأنت الظاهِرُ فليس فوقَك شيء، وأنت الباطن، فليس دونَك شيء..»(٢).

وهو ﷺ يفسِّرُ بهذا الدعاء قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣].

والمرادُ بالظهور هنا العلوّ والفوقية، ولهذا قال: «أنت الظاهر فليس فوقك شيء.

وهذه الأسماءُ الأربعةُ المباركةُ متقابلة:

اسمان لأزليةِ اللَّهِ وأبديته: «الأول والآخر».

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣١٩٤. ومسلم برقم: ٢٧٥١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٧١٣.

واسمان لعلوِّه وقُربِه: «الظاهر والباطن».

وروى البخاريُّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت زينبُ بنتُ جحش رضي الله عنها تفخرُ على أزواج النبي ﷺ، وتقول: زوَّجكنَّ أهاليكن، وزوَّجَني اللَّهُ من فوقِ سبع سموات..»(١).

وأنشدَ حسانُ بنُ ثابت رضيَ اللَّهُ عنه قولَه:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّداً ... رَسولُ الذي فَوْقَ السمّواتِ مِنْ عَلِ
وَأَنَّ أَبا يَحْيى وَيَحْيى كِلاهُما ... لَهُ عَمَلٌ مِنْ رَبِّهِ مُتَقَبَّلُ
وَأَنَّ الذي عادى اليَهودُ ابْنَ مَرْيَمٍ ... رَسُولٌ أَتىٰ مِنْ عِنْدِ ذي العَرْشِ مُرْسَلُ
وَأَنَّ أَخا الأَحْقافِ إِذْ قامَ فيهِمُ ... يُجاهِدُ في ذاتِ الإلهِ وَيَعْدِلُ

إنَّ اللَّهَ سبحانه فوقَ مخلوقاتِه كلِّها، وهي فوقيةٌ تليقُ بعظمتِه سبحانه وجلاله، صفاتُ كمالٍ وتنزيهٍ له، ونحنُ نؤمنُ بها ونثبتُها ونقولُ بها، لكننا لا نُشبهها بفوقية المخلوقين، ولا نعرفُ كيفيتَها، فاللَّهُ فوقَ عبادِه، فوقيةً تليقُ بجلاله، بلا تشبيهٍ ولا تجسيمٍ، ولا تأويل ولا تعطيل.

نصوص في علو الله

وكما أَنه سبحانه فوقَ المخلوقات، فإنه له صفةُ «العُلُوّ»، وهو علوٌّ يليقُ بعظمتِه وجلالِه، نثبتُه له سبحانَه بدون تشبيهٍ ولا تجسيمٍ ولا تعطيل.

ومن الآياتِ الدالةِ على علوِّه سبحانه، إضافةً إلى النصوصِ السابقة المصرحةِ بفوقيته:

١ ـ التصريحُ بعروجِ الملائكة إليه، والعروجُ يكون إلى أعلى. قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٤٢٠.

٢ ـ التصريحُ بصعودِ العملِ الصالح والكلام الطيب إليه، والصعودُ كالعروجِ يكونُ إلى أَعلى. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ ..﴾ [فاطر: ١٠].

٣ ـ التصريحُ برفْعِ عيسى عليه السلام إلى الله، والرفعُ يكونُ إلى أَعلى. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ..﴾ [آل عمران: ٥٥].

٤ ـ التصريحُ بتنزيلِ القرآن من عندِ الله إلى النبي ﷺ. والنزول يكون من أعلى. قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: ١ ـ ٢].

٥ ـ التصريحُ بأنَّ بعضَ الملائكة عنده، وهي «عِنْدِيَّةٌ» تليقُ بجلاله، لا تجسيمَ فيها، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩﴾ [الأنبياء: ١٩].

٦ ـ التصريحُ بالعلوِّ المطلقِ لله سبحانه، العلوِّ الدالِّ على جميعِ مراتبه، فهو علوُّ ذات، وعلوُّ قدر، وعلوُّ منزلة. وهو علوٌّ يليقُ بعظمته، بدونِ تمثيل ولا تجسيم.

قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورى: ٥١].

٧ ـ التصريحُ بأنه سبحانَه في السماء، وهو في السماءِ كما يليقُ بجلاله، بدونِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ولا تجسيم. قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ

أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧].

٨ ـ التصريحُ بأَنه استوى على العرش. وهو استواءٌ يليقُ بعظمته: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

أحاديث في علو الله

ومن الأَحاديثِ الصحيحةِ الدالةِ على علوِّه سبحانه عُلُوّاً يليق بجلالِه بدون تشبيه ولا تجسيم:

١ ـ روى أَبو داود والترمذيُّ عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ يستحيي من عَبدِه إذا رَفَعَ إِليه يديْه أنْ يردَّهما صفراً»[١].

ورفعُ يدي المؤمن إلى الله دليلٌ على عُلُوِّه سبحانه.

٢ ـ روى مسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما حديثَه في وصف حجةِ النبيِّ ﷺ. ومما جاءَ في الحديثِ قولُ جابر عن خطبة الوداع: . . . . وقال رسول الله ﷺ: «أَنتم تُسْأَلون عَنّي. فما أَنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أَنكَ بَلَّغْتَ وأَدَّيْتَ ونَصَحْتَ!

فقالَ بإِصبعهِ السبابة، يرفعُها إلى المساء، وينكتُها إِلى الناس: اللهمَّ اشْهَد. اللهمَّ اشهد. .»[٢].

٣ ـ روى مسلمٌ عن معاويةَ بنِ الحكم السّلمي أَنه ضربَ جاريةً له، لأَنَّ الذئبَ أخذَ شاةً من غنمٍ له كانتْ ترعاها.

قال: فأَتيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ فأخبَرْتُه، فعظَّمَ ذلك عليَّ.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ١٤٨٨. والترمذي برقم: ٣٥٥١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٢١٨.

قلت: يا رسولَ الله: أَفلا أعتقُها؟

قال: ائْتِني بها.

فأتيتُه بها، فقالَ لها: أينَ الله؟.

قالت: في السماء.

قال: مَنْ أنا؟.

قالت: أنتَ رسولُ الله!.

قال: أَعْتِقْها، فإنها مؤمنة»[١].

لقد حكَمَ الرسولُ ﷺ للجاريةِ بالإيمان، لأَنها أَخبرَتْه أنَّ الله في السماء، وأَنه رسولُ الله.

ومعلومٌ أنَّ الله في السماء، وكما يليقُ بعظمتِه، وبدونِ تشبيهٍ ولا تجسيم.

٤ ـ إِخبارُهُ ﷺ عن تردُّدِه بين موسى عليه السلام وبينَ ربه، ليلةَ المعراج، عندما فرضَ اللَّهُ عليه خمسينَ صلاةً في اليوم والليلة.

حيث جاءَ في الحديث الذي رواهُ مسلم عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ أَنه قال: «. . . . فلم أَزَلْ أَرجعُ بين ربّي تبارك وتعالى وبينَ موسى عليه السلام، حتى قالَ الله: إِنهنَّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يوم وليلةَ، لكلِّ صلاةٍ عشر، فذلك خمسون صلاة. .»[٢].

وهذا مع تنزيه اللَّهِ عن التجسيم والتمثيلِ والتشبيه. .

هذه النصوصُ من الآياتِ والأحاديثِ تثبتُ العلوَّ لله سبحانه وتعالى، كما يليقُ بجلاله، بدون تجسيمِ ولا تمثيلِ ولا تشبيه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٣٧.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٦٢.

سألَ رجلٌ أَبا حنيفة عَمَّنْ قال: لا أعرفُ ربي في السماء أَمْ في الأرض؟

قالَ أبو حنيفة: هذا قد كَفَرَ لأنَّ اللَّهَ يقول: «الرحمن على العرش استوى..». وعرشُه فوقَ سبع سموات.

فقالَ له: فإنْ قالَ: إن اللَّهَ على العرش. لكن لا أدري هل العرشُ في السماء أم على الأرض؟

قالَ أبو حنيفة: هذا قد كفر. لأَنه أنكرَ أنَّ العرشَ في السماء.

علو الله وفوقيته كما يليق به

تدلُّ النصوصُ السابقةُ على أن الله له الفوقية المطلقة: فوقيةُ القهر، وفوقيةُ القدر، وفوقيةُ الذات التي تليقُ بجلاله، ولا تشبه فوقيةَ المخلوقين.

وتدلُّ على أنَّ اللَّهَ له العلوُّ المطلق: علوُّ المكانةِ والمنزلة، وعلوُّ المكان الذي يليقُ بجلاله، والذي لا ينتجُ عنه تجسيمٌ ولا تشبيهٌ بالمخلوقين.

وذكرَ محمدُ بنُ طاهرِ المقدسي: أنَّ الشيخَ أَبا جعفر الهمذاني حَضَرَ مجلسَ الأستاذِ أَبي المعالي الجويني المعروفِ بإمام الحرمين. وكانَ إمامُ الحرمين يتكلمُ في نفسِ صفةِ العلو. وكان يقولُ: كانَ اللَّهُ ولا عرش، وهو الآنَ على ما كان!

فقالَ له الهمذاني: يا أُستاذ أَخِبْرنا عن هذه الضرورةِ التي نجدُها في قلوبنا؟ فإنَّه ما قال عارفٌ قط: يا الله، إلاّ وَجَدَ في قلبه ضرورةً تطلبُ العُلُوّ. لا يلتفتُ يمنةً ولا يسرة، فكيفَ ندفعُ هذه الضرورة عن أنفسنا؟

فَلَطَمَ أَبو المعالي على رأسِه ونزل، وبكى، وقال: حَيَّرَني الهمذاني!

أيّ أنَّ علوَّ الله أمْرٌ فطري، فطرَ الله عليه عبادَه، من غيرِ أنْ يتلَقَّوْهُ من المعلمين، فهم يجدونَ في قلوبهم طلَباً ضرورياً فطرياً، يتوجَّهُ إلى الله، ويُثبتُ له العلو.

خليل الله وكليم الله

٤٦ : «وَنَقولُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْراهيمَ خليلاً، وَكَلَّمَ موسى تَكْليماً، إيماناً وَتَصْديقاً وَتَسْليماً».

المعنى: نؤمنُ ونصدقُ أنَّ اللَّهَ اتخذَ إبراهيمَ عليه السلام خليلاً، وكلّم موسى عليه السلام تكليماً، ونقرُّ بذلك ونسلِّم به.

وبما أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو أفضلُ الخلق، فقد اتخذه اللَّهُ أَيضاً خليلاً، وكلَّمه تكليماً.

ومعلومٌ أنَّ الخلةَ أَعلى مرتبة من المحبة، فهي كمالُ المحبة وصفاؤُها.

ومحبةُ الله وخلَّتُه لهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما يليق به سبحانه وتعالى، وليست كخلَّةِ المخلوقين ومحبتهم، وذلك كباقي صفاته سبحانه.

والدليلُ على أن محمداً ﷺ خليلُ الله أَيضاً، ما رواه مسلمٌ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لو كنتُ متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لا تخذتُ ابنَ أَبي قُحافة خليلاً، ولكنَّ صاحبكم خليلُ الله..»[1].

ومع أنه ﷺ لم يتخذ خليلاً من البشر لأَنه خليلُ الله، فقد اتخذَ من الصحابة أحباباً له.

بدليلِ ما رواهُ البخاري ومسلم عن عمرو بنِ العاص رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها. قال: ثم مَنْ؟ قال: ثم عمر بن الخطاب[2]..

ودلَّ هذا على أنَّ الخلةَ أخصُّ من المحبة.

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٨٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٦٢. ومسلم برقم: ٢٣٨٤.

وبما أنَّ النبيَّ ﷺ أفضلُ من إبراهيم عليه السلام، فكيفَ نطلب له من الصلاة مثلَ ما لإبراهيم في الصلاة؟ ونقول في الصلاة الإبراهيمية: اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»؟.

الجوابُ أن محمداً ﷺ من آل إبراهيم. فعندما نقول: «كما صليتَ على آل إبراهيم» فإنما نصلّي على آل إبراهيم وذريتهِ من الأنبياء. أَي أننا نصلِّي على محمد ﷺ.

ولما كانَ بيتُ إبراهيم عليه السلام أشرفَ بيوت العالمين، فقد خصَّهم الله بخصائص:

١ ـ جعلَ اللَّهُ في آلِ إبراهيم النبوةَ والكتاب.

٢ ـ جعلَ اللَّهُ آلَ إبراهيم أئمةً يهدون بأمره.

٣ ـ اتخذَ اللَّهُ من آل إبراهيم الخليليْن إبراهيمَ ومحمداً، والكليميْن موسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام.

٤ ـ جعلَ اللَّهُ صاحبَ البيت إبراهيم عليه السلام إماماً للناس.

٥ ـ أجرى اللَّهُ على يدي إبراهيم وإسماعيل بناءَ البيتِ الحرام.

٦ ـ أمرَ اللَّهُ المصلّين حتى قيام الساعة أن يصلُّوا على آلِ إبراهيم عليه السلام.

نصوص في أركان الإيمان

٤٧ : «وَنُؤْمِنُ بِالمَلائِكة وَالنَّبِيّين، وَالكُتُبِ المُنَزَّلَةِ علَى المرسَلين، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كانوا على الحَقِّ المبين..».

يَذكرُ الإمامُ الطحاويّ هنا ثلاثةَ أركانٍ من أركانِ الإيمان، وهي الإيمانُ بالملائكةِ والكتب والرسل.

وقد وردتْ معظمُ أركانِ الإيمان في القرآن.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن لم يؤمنْ بهذهِ الأركان الخمسة فهو كافر. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

وردتْ أركانُ الإيمان الستة في حديثِ رسولِ الله ﷺ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ حديثَ عمر رضي الله عنه الذي روى فيه مجيءَ جبريل عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ، حيثُ سألَه عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة.

فلما سألَه عن الإيمان، قالَ رسولُ الله ﷺ: «الإيمان: أنْ تؤمنَ بالله وملائكتِه وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدرِ خيره وشره..»(١).

إنَّ أصلَ الدين هو الإيمانُ بكلِّ ما جاءَ به رسولُ الله ﷺ، ولهذا كان للآيتيْن الأخيرتين من سورةِ البقرة شأنٌ عظيم، وفضيلةٌ سامية عند الله.

والآيتان هم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥ ـ ٢٨٦].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٠. ومسلم برقم: ٨.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي مسعود عقبةَ بنِ عمرو الأنصاري رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ قرأَ الآيتيْن من آخرِ سورة البقرة في ليلةٍ كَفَتاه..»(١).

الإيمان بالملائكة

الإيمانُ بالملائكةِ ركنٌ من أركان الإيمان. وقد دلَّ القرآنُ والسنةُ على أصنافِ الملائكة، وأنها موكلةٌ بأصنافِ المخلوقات.

وكَّلَ اللَّهُ بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالجنين في الرحم ملائكة، ووكَّل بالإنسان وعمله وحياته ملائكة، ووكَّل بالموت ملائكة، ووكَّل السؤال في القبر ملائكة، ووكَّل بالأفلاك ملائكة، ووكَّل بالشمس والقمر ملائكة، ووكَّل بالنارِ وإيقادِها وتعذيبِ أهلها ملائكة، ووكَّل بالجنة ونعيمها ملائكة.

مِن أصنافِ الملائكة مَنْ قال عنهم القرآن: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات: ١ ـ ٦].

ومن أصنافهم مَنْ قالَ عنهم القرآن: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ١ ـ ٥].

ومِن أصنافهم مَن قال عنهم القرآن: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات: ١ ـ ٣].

والملائكةُ جنودٌ لله، يرسلُهم اللَّهُ بالمهمات وينفِّذون أوامرَ الله في خلقه، وليس لهم من الأمر شيء، فالأمْرُ أمْرُ الله. قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٠٠٨. ومسلم برقم: ٨٠٨.

وهم عبادٌ مُكْرَمون لله، منهم الصافّون، ومنهم المسبِّحون. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦].

وهم عابدون لله بدون مَللٍ أو فتور، وبدون تمردٍ أو عصيان. قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

من أصناف الملائكة وأعمالهم

وقد تحدثَ القرآنُ كثيراً عن الملائكةِ وأصنافهم ومراتبهم وأعمالهم ووظائفهم. أحياناً يصفُهم بالإكرام والكرم، وأحياناً بالقوةِ والإخلاصِ والطهارة، وأحياناً بالتقريبِ والعلوّ.

منهم حملةُ العرش، ومنهم المسبِّحون المستغفرون، ومنهم الكرامُ الكاتبون، ومنهم المقرَّبون. وكلُّهم عابدون حامدون مسبِّحون لله، معصومون من الذنوب، بريئون من الإثم.

ومنهم رسُلُ اللّهِ في خلقه، وسفراؤه بينه وبين عباده، يَنزلونَ إليهم بأمر الله، ويَصعدونَ إلى الله بأعمالهم، وهم يحفظونَ الناسَ من الأذى بأمر الله.

ورؤساءُ الملائكة ثلاثة: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيل، وهم الموكَّلون بالحياة على الأرض.

جبريلُ عليه السلام: موكَّل بالوحي، الذي به حياةُ القلوب والأرواح، فهو أمينُ الوحي الذي يبلِّغُ الأنبياءَ والرسلَ شرعَ الله.

وميكائيل عليه السلام: موكَّل بالغيثِ والقطر، الذي به حياةُ الأرض والنبات والحيوان.

وإسرافيلُ عليه السلام: موكَّلٌ بالنفخِ في الصور، الذي به حياةُ الناس بعد مماتهم!

وأَعدادُ الملائكةِ كثيرةٌ لا يُحصيها إلا الله. روى الترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قالَ سولُ الله ﷺ: «إنّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، إن السماءَ أطّتْ، وحق لها أنْ تَئِطّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلاّ ومَلَكٌ واضعٌ جبهتَه، ساجداً لله..»(١).

ومن كثرةِ عددهم أنه يدخُل البيتَ المعمورَ كلَّ يوم سبعون ألفاً منهم.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه حديث المعراجِ الطويل، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «.... فرُفِعَ لي البيتُ المعمورَ، فسألتُ جبريل، فقال: هذا البيتُ المعمور يصلّي فيه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ مَلَك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه، آخرَ ما عليهم...»(٢).

المفاضلة بين الملائكة والصالحين

وقد تكلمَ بعضُ العلماءِ في المفاضلةِ بين الملائكة وصالحي المسلمين، فذهبَ بعضُهم إلى أنَّ الملائكةَ أفضلُ من المؤمنين، وذهبَ آخرون إلى أنَّ المؤمنين الصالحين أفضلُ من الملائكة، وأنَّ الأنبياءَ والأولياء على وجه الخصوص أفضلُ من الملائكة، وأوردَ كلُّ فريقٍ أدلَّته الاجتهاديةَ لما ذهبَ إليه.

والأَوْلى عدمُ الخوضِ في هذه المسألة، لأنَّ نصوصَ الكتابِ والسنة لم تتحدثْ عنها، ولو كان فيها خيرٌ لعرضَها القرآن، فالكلامُ فيها من نافلةِ القول.

وإذا كان لا بدَّ من القول، فإننا نشيرُ إشارةً موجزةً إلى ما نرجحه:

يجبُ الإيمانُ بالملائكة، والاعتقادُ بفضلِهم ومكانتِهم عند الله وعصمتِهم من الوقوع في المعاصي.

ويجبُ الإيمانُ بأنَّ رسولَ الله محمداً ﷺ هو أفضلُ البشر، وهو أفضلُ المخلوقين، أي أنه أفضلُ من الملائكة أنفسهم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢٣١٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٠٧، ومسلم برقم: ١٦٤.

والراجحُ أن الأنبياءَ والمرسلين أفضلُ عند الله من الملائكة، فاللَّهُ علَّمَ آدمَ أبا البشر عليه السلام الأسماءَ كلَّها، وتفوّقَ آدمُ على الملائكة في ذلك، وهذا من فضلِه عليهم، وبعد ذلك أمرهم اللَّهُ بالسجودِ لآدم، فنفَّذوا أمر الله، وخَرّوا له ساجدين.

وصالحو المؤمنين من أولياء الله أفضلُ عند الله من الملائكة، لأنهم جاهدوا في سبيل الله، واستعلوا على ضعفهم وشهواتهم، ورفضوا وساوسَ الشيطان ونزغاتِ المعصية، بينما الملائكة مفطورون على عبادة الله، بدون جهدٍ ولا مجاهدة، ولا كَدٍّ ولا تعب.

هذا عن الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالرسل

أما الإيمانُ بالأنبياءِ والمرسلين، فيجبُ علينا أنْ نؤمنَ أنَّ اللَّهَ بعثَ أنبياء ورسلاً إلى البشر، وكلُّ أمةٍ بعثَ اللَّهُ لها نبياً.

وقال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٣ ـ ٢٤].

ونؤمنُ أنَّ اللَّهَ أخبرَنا عن بعضِ الأنبياء والرسل، ولم يخبرنا عنهم جميعاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَۗ ..﴾ [غافر: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ ..﴾ [النساء: ١٦٤].

أما الأنبياءُ الذين وردتْ أسماؤهم في القرآن فيجبُ علينا الإيمانُ بهم جميعاً، لا ننفي نبوةَ أحدٍ منهم. والأنبياءُ المذكورون في القرآن هم: آدم، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، شعيب، يعقوب، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، يونس، أيوب، إدريس، إلياس،

إليسع، ذو الكفل، زكريا، يحيى، عيسى، محمد. عليهم الصلاة والسلام. فهم خمسةٌ وعشرون نبياً.

ونؤمنُ أَنهم جميعاً بلَّغوا ما أَمرهم اللَّهُ بتبليغه لأَقوامِهم. قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢].

ونؤمنُ بأولي العزم من الرسل، وهم الذين قالَ اللَّهُ عنهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ..﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهم الذين بذلوا جهوداً أكثرَ من غيرهم من الرسلِ في الدعوةِ إلى الله، والصبرِ على ما وُجهوا به من أذى أقوامهم، وتمتَّعوا بعزمٍ قويٍّ أكثرَ من غيرهم، وتركوا آثاراً بعد وفاتهم أكثرَ من غيرهم.

وأُولو العزم من الرسل خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.

وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

الإيمان بالكتب

وأمّا الإيمانُ بالكتب، فنؤمنُ بأنَّ اللَّهَ أنزلَ كُتُباً على رسله، وجعلَها نوراً وهدى لأقوامهم.

ونؤمنُ بالكتبِ الأربعة التي أخبرَنا اللَّهُ بها: التوراةُ التي أنزلَها اللَّهُ على موسى عليه السلام، والزبورُ الذي أنزلَه اللَّهُ على داود عليه السلام، والإنجيلُ الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، والقرآنُ الذي أنزله اللَّهُ على محمد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ . . .﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

ونؤمنُ أن هذه الكتبَ أنزلَها اللَّهُ لهداية الناس، ولتشريع حياتهم والحكم بينهم قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

أمّا القرآنُ ففي الإيمانِ به أمرٌ زائد على الإيمانِ بالكتب السابقة، فلا نكتفي بالإيمانِ بأنه كلام الله، وإنما نحنُ مأمورون بالإقرارِ به، والتصديقِ بأحكامه، والاتباعِ الجادِّ الصادق له.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

أهل القبلة مسلمون

[٤٨]: «وَنُسَمّي أَهْلَ قِبْلَتِنا مُسْلِمينَ مُؤْمِنين، ما داموا بما جاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ مُعْتَرِفين، وَلَهُ بِكُلِّ ما قالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقين..».

أهلُ القبلة هم المسلمونَ الموحِّدون، الذين يستقبلونَ الكعبةَ في الصلاة، فهؤلاء مسلمون موحِّدون، وإنْ كانوا من أهلِ الأهواء، أو من أهلِ الذنوب والمعاصي، ما داموا لم ينقضوا إيمانَهم.

نُسمي هؤلاءِ الموحِّدين مسلمين مؤمنين، بشرطِ أنْ يكونوا معترفين بكلِّ ما جاءَ به النبيُّ ﷺ، ومصدِّقين بكلِّ ما قالَه وأَخبرَ به عليه الصلاة والسلام.

روى البخاريُّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه النبي ﷺ قال: «مَنْ صلّى صلاتَنا، واستقبلَ قبلتَنا، وأَكَلَ ذبيحتَنا، فذلك المسلم، الذي له ذمةُ اللّهِ وذمةُ رسوله، فلا تَخْفِروا اللّهَ في ذمَّتِه...»[١].

عدم التوسع في الكلام عن صفات الله

٤٩ : «وَلا نَخوضُ في الله، وَلا نُماري في دينِ الله، وَلا نُجادلُ في القُرآن، وَنَشْهدُ أَنَّهُ كَلامُ رَبِّ العالمين، نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأَمين، فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ المُرْسَلينَ مُحَمَّداً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ أَجْمَعين.. وَهُوَ كَلامُ اللَّهِ تَعالى، لا يُساويهِ شَيْءٌ مِنْ كَلامِ المَخْلوقين، وَلا نَقولُ بِخَلْقِهِ، وَلا نُخالِفُ جَماعَةَ المُسْلِمين...».

«لا نخوض في الله». وهذا معناهُ أنْ نكفَّ عن كلامِ الفلاسفة والمتكلمين الذين خاضوا في الله، بغيرِ علمٍ ولا هدى، فوقعوا في الباطل.

إنَّ التوسُّعَ في الكلامِ عن ذاتِ اللّهِ وأسمائه وصفاته مذموم. فلا يجوزُ الخروجُ عن ما وردَ في الكتابِ والسنة عن ذلك.

قالَ الإمامُ أَبو حنيفة رحمه الله: لا يَنبغي لأَحَدٍ أنْ ينطقَ في ذاتِ اللّهِ بشيء، بل يصفُه بما وصفَ به نفسَه.

وقالَ أبو بكر الشبلي: الانبساطُ بالقولِ مع الحقِّ سبحانه وتعالى تركُ الأدب.

إنَّ البقاءَ مع الكتابِ والسنة في الحديث عن ذاتِ الله وأسمائِه وصفاته هو التزامُ الأدبِ مع الله، وحسنُ تعظيمه وتقديره، وهذا هو الواجبُ علينا.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٩١.

أما الخوضُ في ذاتِ الله وأسمائه وصفاته، والتوسُّعُ والانبساطُ في الحديث عنها، والزيادةُ على ما وردَ في الكتاب والسنة منها، فهو تركُ الأدبِ مع الله.

ومعنى قولِ الطحاوي: «ولا نُماري في دينِ الله»: لا نجادلُ ولا نخاصمُ في الدين والإسلام، ولا نثيرُ الشبهاتِ حول الدين والقرآن، ولا نسيرُ مع أهل الأهواءِ المخالفين للحق.

وإنما نبقى مع الكتابِ والسنة، وفهمِ السلفِ الصالح من هذه الأمة.

عدم المراء والاختلاف في القرآن

ومعنى قوله: «ولا نجادل في القرآن»: لا نخوضُ فيه مع الخائضين، ولا نسيرُ بشأنِه مع أهل الأهواء من أصحابِ الفرقِ الكلامية، الذين اختلفوا فيه، وتماروا فيه بالباطل.

ونؤمنُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله رب العالمين، أَوحى به إلى الروح الأمين جبريل عليه السلام، وكلمه به، وأَمَره أنْ ينزلَ به على قلبِ سيدِ المرسلين محمد ﷺ فنفذَ جبريلُ أمْرَ ربه، وبلَّغَ القرآنَ لمحمد ﷺ، وبلَّغَ الرسولُ ﷺ القرآن للناس.

وجُمعَ القرآنُ زمنَ أبي بكر الصديق، ثم جُمعَ زمنَ عثمان بن عفان، رضي الله عنهما، وما بين دفتي المصحف هو كلامُ الله، وقد أَنزلَ اللَّهُ القرآنَ على سبعةِ أحرف، تيسيراً على الأمة، وهذه الأحرفُ السبعةُ شملَها رسمُ المصحف الذي كتبه الصحابة زمن عثمان رضي الله عنه، والمسمى «المصحف العثماني».

والقراءاتُ القرآنيةُ الصحيحة ـ وهي عشرُ قراءات ـ كلُّها كلامُ الله، أَذِنَ الله أنْ تُقرأَ كلماتُ القرآنِ بها، وليست باجتهادِ الصحابة، أو باجتهادِ القراء من بعدهم.

وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن الاختلافِ والمراءِ والخصامِ في القرآن.

روى البخاريُّ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ رجلاً قرأَ آية، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأُ خلافَها، فأخذْتُ بيده، فانطلقتُ به إلى رسولِ الله ﷺ.

فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ. فعرفْتُ في وجهه الكراهة. وقال: كِلاكُما محسن، ولا تَختلفوا، فإنَّ مَنْ كانَ قبلكم اختلفوا فهلكوا..»[1].

والاختلافُ في القرآنِ الذي نهى عنه رسولُ الله ﷺ هو الاختلافُ الذي ينكرُ فيه الواحدُ ما عند الآخر، مع أنَّ كُلًّا منهما على حق، وأَنه محسن، وأَنه يَقرأُ كلامَ الله. وهذا غير الاختلاف في القراءاتِ القرآنية التي أَنزلَها الله، ورخَّصَ للمسلمين القراءةَ بها.

جمع القرآن زمن عثمان

وقد ألهمَ اللَّهُ حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه أنْ يشيرَ على عثمانَ بن عفان رضي الله عنه أنْ يجمعَ القرآن، وأنْ يكونَ مضمَّناً للأحرفِ السبعة، ليُزيلَ الاختلافَ بين المسلمين حوله.

روى البخاريُّ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه قَدِمَ على عثمان رضي الله عنه، وكان يُغازي أهلَ الشامِ في فتحِ أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزعَ حذيفةَ اختلافُهم في القراءة.

فقال حذيفةُ لعثمان: يا أميرَ المؤمنين: أَدْرِكْ هذه الأمةَ قبلَ أنْ يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهودِ والنصارى.

فأرسلَ عثمانُ إلى حفصة: أَن أَرْسِلي إِلينا بالصحف، ننسخُها في المصاحف، ثم نردُّها إِليك، فأرسلت بها حفصةُ إلى عثمان.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤١٠.

فأمرَ زيدَ بنَ ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام، فنَسخوها في المصاحف.

وقالَ عثمانُ للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتُبوه بلسانِ قريش، فإنما نزلَ بلسانهم. ففعلوا.

حتى إذا نسخوا الصحفَ في المصاحف، ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة، فأرسلَ إلى كلِّ أُفُقٍ بمصحفٍ مما نسخوا، وأمرَ بما سواه من القرآنِ في كلِّ صحيفةٍ أو مصحف أنْ يُحْرَق..»[١]

ومعنى قول الطحاوي: «ولا نَقول بخلقه، ولا نُخالف جماعةَ المسلمين»: لا نزعمُ أنَّ القرآنَ مخلوق، كما ذهبَ إلى ذلك بعضُ أصحابِ الأهواء، وخالَفوا بذلك جماعةَ المسلمين.

يجبُ أنْ نوافق جماعةَ المسلمين، وأنْ نقولَ بما قالَ به أهلُ السنة، من أنَّ القرآنَ كلامُ الله، ولذلك هو غيرُ مخلوق، لأن كلامَ اللَّهِ غيرُ مخلوق.

عدم تكفير مرتكب الكبيرة

٥٠ : «وَلا نُكَفِّرُ أَحَداً مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْب، ما لَمْ يَسْتَحِلَّهُ. وَلا نَقولُ: لا يَضُرُّ مَعَ الإيمانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ..».

يقررُ الإمامُ الطحاويُّ هنا قاعدةً ضروريةً في التكفيرِ وفي المحاسبةِ على الذنوب، ويردُّ بها على الإفراطِ والتفريط الذي حصَلَ من بعضِ الفرقِ حولَ هذه المسألة، فريقِ الذين يُكفِّرون بالذنب، والفريقِ المقابل الذي جعلَ الذنبَ لا يضرُّ صاحبَه.

والمرادُ بأهلِ القبلة هنا المسلمون الموحِّدون، الذين أَشارَ لهم الإمامُ الطحاوي في فقرةٍ سابقة: «ونُسمي أهلَ قبلتِنا مسلمين مؤمنين..».

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٨٧.

وموضوعُ التكفير وعدَمُه عَظُمتْ فيه المحنةُ والفتنةُ بين فرقِ المسلمين، حيث اختلفتْ فيه الآراء والأقوال، وكثرَ فيه التنازعُ والاختلاف.

قولُ الطحاوي: «لا نكفِّرُ أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلَّهُ»: ردٌّ فيه على فرقتيْن من فرقِ المسلمين:

الأولى: فرقة الخوارج: فهم يكفِّرون المسلمَ إذا ارتكبَ كبيرةً من الكبائر، إِذ يعتبرونه كافراً خارجاً من الإسلام، أي: أَنه مخلَّدٌ في نارِ جهنم.

الثانية: فرقةُ المعتزلة: وهم في هذه المسألةِ قريبونَ جداً من الخوارج، حيثُ يقولون فيها «بالمنزلةِ بين المنزلتيْن». المنزلةِ الأولى الإيمان، والمنزلةِ الثانية الكفر. فعندما يرتكبُ المسلمُ الكبيرة، فإنه يخرجُ من الإيمان، ولكنه لا يدخلُ في المنزلة الثانية، وهي الكفر، إنما يبقى في منزلةِ بينهما وهي الفسق.

مرتكبُ الكبيرة عند المعتزلة فاسق، ليس مؤمناً ولا كافراً، هذا عندهم في الدنيا، أما في الآخرةِ فهو مخلَّد في نار جهنم.

المعتزلةُ والخوارجُ ملتقون كثيراً ومتقاربون جداً، في النظرةِ إلى المسلمِ مرتكبِ الكبيرة، والفرقُ بينهما شكليٌّ لا يكادُ يُذكر.

فالخوارجُ قالوا: هو خرجَ من الإيمان، ودخلَ في الكفر، يأخذ حكمَ الكافرِ في الدنيا والآخرة، وهو مخلَّدٌ في النار.

والمعتزلةُ قالوا: هو خرجَ من الإيمان، لكنه لم يدخلْ في الكفر، وإنما هو فاسق، فلا يأخذُ حكمَ الكافر في الدنيا، لكنه يأخذُ حكمَ الكافرِ في الآخرة، ويخلَّدُ في نارِ جهنم.

فالفرقتانِ ملتقيتان على تكفيرِ مرتكبِ الكبيرة. ولهذا ردَّ الطحاويُّ عليهما بقوله: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله..».

تكفير المنافقين والمرتدين

ولا يُعتبرُ المنافقون من أهلِ القبلة، ولو صلُّوا إلى القبلةِ مع المسلمين، لأنَّ قلوبَهم ممتلئةٌ كفراً، وهم كفارٌ مخلَّدون في النار، كاليهودِ والنصارى.

كما لا يُعتبرُ من أهلِ القبلة المرتدون، فلو أَنكرَ مسلمٌ واجباً من الواجبات، فإنه يكونُ كافراً مرتداً، يستتابُ ليعودَ عن إنكاره وردته، فإنْ تابَ عادَ مسلماً. وإنْ لم يتبْ قُتل، وصار مرتداً كافراً، يخلَّدُ في نارِ جهنم مع الكفار.

قالَ محمدُ بنُ سيرين: إنَّ أسرعَ الناسِ ردةً أهلُ الأهواء، وينطبقُ عليهم قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وعدمُ تكفيرِ المسلم بالذنبِ ليس على إطلاقِه، وإنما هو مقيدٌ بعدمِ استحلالِه له، ولهذا قال الطحاوي: «ما لم يستحلّه».

فإذا ما استحلَّ المذنبُ ذنبَه الذي حَرَّمه الله، فإنه يكونُ كافراً مرتداً.

إذا ارتكبَ مسلمٌ الزنا أَو أكلَ الربا، فإننا لا نكفرُه بذلك، ونقول: هو مرتكبُ كبيرة. أمّا إذا استحلَّ الزنا أو الربا. وقال: هو حلالٌ وليس حراماً فإنه يكونُ بذلك مرتداً كافراً.

وإذا تركَ مسلمٌ الصيامَ أو الزكاة، فإنه لا يكون كافراً بذلك، ونقول: هو مرتكبُ كبيرة. أَمّا إذا أنكرَ وجوبَ الصيام أو الزكاة، فإنه يكونُ كافراً مرتدّاً.

وهذا معناهُ أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ مذنبٌ عاصٍ فاسقٌ ظالم، لكنه ليس كافراً إلا إذا أنكرَ ذلك واستحلَّ كبيرتَه.

الذنب يضر صاحبه

وقولُ الطحاوي: «ولا نَقول: لا يضرُّ مع الإيمانِ ذنبٌ لمن عمله» ردٌّ على

أصحابِ القولِ المقابل لقول المعتزلة والخوارج، الذين تطرفوا في التساهل.

الذين قالوا: لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ هم «المرجئة». فقد اعتبروا جميعَ المسلمين في الجنة، لا يَدخلون النار، ولا يعذَّبون فيها، وإنْ تركوا الواجبات وارتكبوا الكبائر، فإنها لا تؤثِّرُ فيهم. وهؤلاء في طرفٍ مقابلٍ للخوارج والمعتزلة.

ونظرةُ أهلِ السنة إلى الذنوب والكبائر هي الوسطُ والاعتدال، فرفضوا تشدُّدَ الخوارجِ والمعتزلة، كما رفضوا تساهلَ وتفريطِ المرجئة.

أهلُ السنة لم يكفِّروا المسلمَ مرتكبَ الكبيرة كالخوارج، ولم يُجعلوه سالماً من العقوبة إنْ لم يتبْ كالمرجئة، وإنما رتبوا على الذنوب والكبائر نتائجها وآثارها. فإن لم يتبْ هذا المسلمُ العاصي فهو عرضةٌ للعذابِ يومَ القيامة، إنْ لم يرحمْه الله. ولكنه إنْ تعذَّبَ في النار فلا يخلَّدُ فيها كالكفار، وإنما يخرجُه اللّهُ إلى الجنة بعدَ ذلك، لأن اللّهَ لا يخلِّدُ في النار مَنْ كانَ في قلبه مثقالُ ذرةِ خردلٍ من إيمان.

وهذه هي النظرةُ المتزنةُ القائمةُ على التوسطِ والاعتدال، التي سلمتْ من إفراطِ الخوارج وتفريطِ المرجئة.

حتى الأقوالُ والأَعمالُ التي وُصفَتْ بأنها كفر، نقولُ فيها: إنها كفر، وإنَّ مَنْ صدرتْ عنه كافر، كما أَخبرت النصوص، وذلك مثلُ بدعةِ القولِ بخلق القرآن.

قالَ أَبو يوسف: ناظرتُ أَبا حنيفة ستةَ أَشهر، فاتفقَ رأْيُنا على أنَّ مَنْ قال: القرآن مخلوق، فهو كافر.

الاحتياط في تكفير المعين

أمّا الشخصُ المعينُ فلا نشهدُ عليه أنه كافر، فلا نقول: فلانُ بنُ فلان كافر، لأَنه قالَ بالكفر أو عملَ كفراً، إلا إذا قامَ الدليلُ القاطعُ على كفره،

لأنه قد يكونُ مجتهداً مخطئاً، وقد يكونُ متأولاً ملتبساً عليه الأمر، وقد يكونُ جاهلاً لم يبلُغْه النصُّ أو الحكم.

نفعلُ هذا من بابِ الاحتياط والتحرج، لئلاّ نُؤاخَذَ أمامَ الله.

روى أبو داود عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كانَ رجلان في بني إسرائيل متواخيَيْن. فكانَ أحدُهما يذنب، والآخرُ مجتهدٌ في العبادة. فكانَ لا يزالُ المجتهدُ يرى الآخرَ على الذنب، فيقول: أَقْصِرْ:

فوجَده يوماً على ذنب، فقالَ له: أَقْصِرْ.

فقال: خَلِّني وربّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رقيباً؟

فقال: واللّهِ لا يغفرُ اللّهُ لك. أو: لا يُدخلكَ اللّهُ الجنة!

فقبض أَرواحَهما. فاجتمعا عندَ رب العالمين.

فقال لهذا المجتهدِ: أَكنتَ بي عالماً؟ أَو كنتَ على ما في يديَّ قادراً؟.

وقالَ للمذنب: اذهبْ فادخلِ الجنةَ برحمتي.

وقالَ للآخر: اذهبوا به إلى النار.

قالَ أبو هريرة: والذي نفسي بيده: لقد تكلَم بكلمةٍ أَوْبَقَتْ دنياه وآخرتَه..»[1].

إنَّ القولَ إذا كانَ في نفسه كفراً، قيل: إنه كفر، والذي يقولُه كافر، إذا تحققتْ شروطُ تكفيرِه، وانتفت الموانعُ من ذلك.

إن الناسَ ثلاثةُ أصناف، كما بينتْ ذلك الآياتُ الأُولى من سورة البقرة:

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٩٠١.

الأول: المؤمنون المتقون: وهم الذين كانوا مسلمين ظاهراً وباطناً.

الثاني: الكافرون: وهم الكافرون ظاهراً وباطناً.

الثالث: المنافقون: وهم المسلمون ظاهراً باللسان، الكافرون في الباطن والحقيقة، وهؤلاء كفارٌ مخلَّدون في النار.

نجاة مذنبين نادمين

وكلُّ مَنْ كَفَّرَ الشخصَ المعيَّن بسببِ نطقه بالقولِ الكُفْرِيّ أَو أدائِه الفعلَ الكفريَّ يكون مخطئاً، لأن ذلكَ الشخصَ المعيَّنَ قد يكون محباً لله ورسوله، وقد يكونُ دافعهُ لذلك القولِ خشيتَه من الله وخوفَه منه، فيكونُ هذا سبباً لامتناعِ تكفيره.

دليلُ هذا ما رواهُ البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «كان رجلٌ يسرفُ على نفسِه، فلما حضرَهُ الموتُ قالَ لبنيه: إذا أَنا مِتُّ فاحْرِقوني، ثم اطْحنوني، ثم ذَرُّوني في الريح، فواللَّهِ لئن قَدَرَ ربّي عَلَي ليعَذِّبَنّي عذاباً ما عَذَّبَه أحداً.

فلما ماتَ فُعِلَ به ذلك. فَأَمَرَ اللَّهُ الأرض فقال: اجمعي ما فيكِ منه. ففعلَتْ، فإذا هو قائم.

فقالَ اللَّهُ له: ما حملَك على ما صنعت؟.

قال: خشيتُك ومخافتُك يا رب.

فغفرَ اللَّهُ له..»[1].

فهذا الرجلُ قالَ قولاً مكفِّراً، لأنَّ ظاهرُه الشكُّ في قدرةِ اللَّهِ عليه: «فوالله لئن قَدَرَ عليّ ربّي ليعذبَنّي..» والشكُّ في قدرةِ الله كفر، والنطقُ بهذا كفر.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٨١. ومسلم برقم: ٢٨٥٦.

ومع ذلك غفرَ اللَّهُ له، لأنَّ الباعثَ له على قولِه مزيدُ خوفِه من الله وخشيته، وقد جهلَ بأنَّ اللَّهَ لا يعجزُ عنه.

إن بعضَ المذنبين والعصاةِ يحبّون اللَّهَ ورسولَه، رغم ارتكابِ أحدهم الذنبَ والكبيرة، فهذا نعاقبه، ونقيمُ عليه الحدَّ والعقوبةَ في الدنيا، وهو عرضَةٌ للعذاب في الآخرة، لكن لا نلعنُه ولا نكفِّرُه.

روى البخاريُّ عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه: أنَّ رجلاً كان على عهدِ النبي ﷺ، كان اسمُه عبد الله، وكان يُضحِكُ رسولَ الله ﷺ. وكان رسولُ الله ﷺ جَلَدَه في الشراب.

فأُتِيَ به يوماً، فأَمَرَ به فَجُلِدَ.

فقالَ رجلٌ من القوم: اللهمَّ الْعنه! ما أكثرَ ما يؤْتىٰ به!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: لا تلعَنْه، فإنهُ يحبُّ اللَّهَ ورسولَه..»[1].

فهذا الرجلُ شربَ الخمر عدةَ مرات، وارتكبَ هذه الكبيرة، والرسولُ ﷺ جلَدَه وعاقبه، ومع ذلك نهى عن لعنِه، وشهدَ له أنه يحبُّ اللَّهَ ورسولَه.

وإذا كانَ الرسولُ ﷺ قد شهدَ لهذا المخطئِ مرتكبِ الكبيرة بأنه يحبُّ اللَّهَ ورسولَه، فإننا يجبُ أنْ نشهدَ هذه الشهادةِ للعلماء الأئمة، الراسخين في العلم، رغمَ بعضِ الأخطاءِ في أفكارِهم وآرائهم وأقوالهم، نشهدُ لهم هذه الشهادة، ونُبقي لهم المنزلةَ العاليةَ في العلمِ والدين، ومع ذلك نرفضُ الخطأَ الذي وقعوا به ولا نأخُذُه!!

إنَّ من عيوبِ أهلِ الأهواء والبدع أَنهم يكفِّرُ بعضُهم بعضاً، أو يفسِّقُ بعضُهم بعضاً، ومن حسناتِ أهلِ العلم أَنهم يحترم بعضُهم بعضاً، ويخطِّئونَ المخطئَ منهم بأدبٍ وعفةِ لسان، واستمرارِ الاحترام والتقدير له.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٠.

أحاديث في كفر بعض الأفعال والأقوال

بقيتْ مسألةٌ في هذا الموضوع، وهي ورودُ أحاديث صحيحة وَصَفَتْ بعضَ الأقوالِ والأفعال بأنها كفر.

١ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «سِبابُ المسلم فُسوق، وقِتالُه كُفْر..»[١].

٢ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «لا تَرجعوا بعدي كُفّاراً، يضربُ بعضُكم رِقابَ بعض..»[٢].

٣ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إذا قالَ الرجلُ لأخيه: يا كافر، فقد باءَ بها أَحَدُهما»[٣].

٤ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «أَربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومَنْ كان فيه خصلةٌ منهن، كانَ فيه خصلةٌ من النفاقِ حتى يدعَها: إِذا حدثَ كَذَب، وإِذا وعدَ أخلف، وإذا عاهدَ غدر، وإِذا خاصَم فَجَر..»[٤].

٥ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «لا يَزْني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يَسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمن، ولا يَشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمن. والتوبةُ معروضَةٌ بعد..»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨. ومسلم برقم: ٦٤.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٤٠٣. ومسلم برقم: ٦٦.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٦١٠٤. ومسلم برقم: ٦٠.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٣٤. ومسلم برقم: ٥٨.
(٥) أخرجه البخاري برقم: ٢٤٧٥. ومسلم برقم: ٥٧.

٦ - روى مسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَ المسلمِ وبينِ الكفر تركُ الصلاة»[١].

٧ - روى مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ثنتان في أُمَّتي هما كفر: الطعنُ في النسب، والنياحةُ على الميت..»[٢].

٨ - روى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أتى كاهناً فصدَّقه، أَو أَتى امرأة في دبرها، فقد كَفَرَ بما أُنزلَ على محمد ﷺ..»[٣].

إنَّ المسلمَ الذي يرتكبُ شيئاً من الأَقوالِ والأفعال المذكورةِ في الأحاديث السابقة يُعتبرُ مخطئاً مذنباً، وفاسِقاً عاصياً، وهو في ذلك يقولُ بأقوالِ الكفار، أو يَفعلُ أفعالَ الكفار.

الكبيرة ليست كفراً

وارتكابُ الكبيرةِ ليس كفراً، ومرتكبُ الكبيرةِ لم يُخرجْ من الإسلام، ولم يُدخلْ في الكفر، إِذ لو كان كافراً بارتكابِه الكبيرة لكان جزاؤُه القتلَ لكفرِه وردتِه، ولَمَا جازَ عفوُ وليِّ القتيل عن القاتل عمداً، وَلَما أُقيمت الحدودُ على السارق والزاني وشارب الخمر.

ومرتكبُ الكبيرةِ لا يخلَّدُ في النار، بل إن الآياتِ اعتبرتْه مسلماً وأخاً للمسلمين، وهذا دليلٌ آخر على عدمِ كفره كما قالَ الخوارج، وعدمِ خلودِه في النار كما قال المعتزلة.

من هذه الآياتِ قولُه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟

(١) أخرجه مسلم برقم: ٨٢.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٦٧.
(٣) أخرجه أبو داود برقم: ٣٩٠٤ والترمذي برقم: ١٣٥.

بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠].

فرغمَ أنَّ الحديثَ اعتبرَ قتالَ المسلم للمسلم كفراً، إلا أنَّ الآية اعتبرت المسلمين المؤمنين المتقاتلين مؤمنين وإخواناً، ولم تنفِ عنهم الإيمان.

ومن هذه الآياتِ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالقاتلُ المتعمدُ أخٌ لوليِّ القتيل، ووليُّ القتيل عندما يتنازلُ عن القصاص إلى الدية، فإنما يتنازلُ عن أخيه، ولو كان القاتلُ المتعمدُ كافراً لما كان أخاً لولي القتيل.

ودلَّت الأحاديثُ على أنَّ المسلمَ العاصي الذي يذنبُ ويرتكبُ الكبيرة يسمى عاصياً ويسمى ظالماً، لكنه قد يكونُ له حسنات يوم القيامة، ولو كان كافراً لما كانت له حسنات.

روى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَن كانَتْ عنده لأخيه مظلمةٌ من عِرْضٍ أو شيء فليتحلَّلْهُ منه اليوم، قبلَ أنْ لا يكونَ درهمٌ ولا دينار. إنْ كانَ له عملٌ صالح أُخِذَ منه بقدرِ مظلمته، وإنْ لم تكن له حسنات أُخِذَ من سيئاتِ صاحبه، فطُرحتْ عليه، ثم أُلقيَ في النار..»[1].

وروى مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال:

أَتدرون ما المفلس؟

(١) أخرجه البخاري: ٢٤٤٩.

قالوا: المفلسُ فينا مَنْ لا درهمَ له ولامتاع!

قال: إنّ المفلسَ من أُمتي يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مال هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعطى هذا مِن حسناتِهِ، وهذا مِن حسناته، فإنْ فنيتْ حسناتُه قبلَ أنْ يُقضَى ما عليه، أُخِذَ مِن خطاياهم، فطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار..»[1].

بعدَ هذا اختلفَ أهلُ السنة اختلافاً لفظياً في إطلاقِ الكفرِ على بعضِ الأقوالِ والأفعالِ الواردة في الأحاديثِ الثمانيةِ السابقة التي أوردْناها، وفي بعضِ آياتِ القرآن، كالآية التي أخبرتْ بكفرِ مَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ الله. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

واختلافُهم اللفظي: هل الكفرُ على مراتب؟ والإيمانُ على مراتب؟ وهل هناك كفرٌ دون كفر وإيمانٌ دون إيمان؟

اختلاف لفظي في حقيقة الإيمان

واختلافُهم هذا مبنيٌّ على اختلافِهم في مسمّى الإيمانِ وحقيقته:

١ ـ منهم مَن قال: الإيمانُ قولٌ وعمل، ويَزيدُ وينقص.

عند هؤلاءِ الإيمانُ مراتبُ والكفر مراتب. فهناكَ كفرٌ دونَ كفر، وهناك كفرٌ اعتقاديٌّ يُخرجُ صاحبَه من الإسلام، وهناكَ كفرٌ عملي، لا يُخْرِجُ صاحبَه من الإسلام، وإنما يكونُ في ذنوبه يعملُ أَعمالَ الكفار.

عند هؤلاء: الحكمُ بغير ما أنزلَ الله كفر، كما أخبرَ الله، فلا يجوزُ أنْ يُسمّي اللَّهُ ورسولُه الحاكمَ بغير ما أنزل الله كافراً، ولا نُسميهِ نحن كافراً، فهو كافرٌ بنصِّ الآية.

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٨١.

لكنه قد يكونُ كفراً اعتقادياً يُخرجُ صاحبَه من الإسلام، ويَنقلُه إلى دائرةِ الكفر، ويكونُ مخلَّداً في النار كباقي الكفار.

وهذا في الحاكم الذي عرفَ حكمَ الله، ثم تعمَّدَ أنْ يَحكمَ بغيره، واعتقدَ بأنَّ الحكمَ بما أنزل الله ليس واجباً عليه، وأنه مخيَّرٌ فيه، أو أنَّ حكمَ الله لا يناسبه ولا خيرَ فيه.

وقد يكونُ الحكمُ بغيرِ ما أنزل الله كفراً عملياً، فيكون صاحبُه يعملُ عملَ الكفار، لكنه لا يكون كافراً حقيقة، ولا يكون مخلَّداً في نارِ جهنم، وإنما يكونُ مرتكباً كبيرة من الكبائر.

وهذا في الحاكمِ الذي عرفَ حكمَ الله في الواقعةِ التي أَمامه، لكنه لم يحكُمْ به، مع اعتقادِه وجوب الحكم بما أَنزلَ الله، واعترافِه بالخطأ والتقصير لعدم حكمه به.

وقد لا يكونُ الحكمُ بغيرِ ما أنزلَ الله كفراً اعتقادياً، ولا كفراً عملياً. وإنما يكونُ صاحبُه مخطئاً ومأجوراً عند الله!

وهذا في الحكمِ الذي لم يَعرفْ حكمَ اللَّهِ في المسألة المعروضة عليه، وبذلَ جهدَه في معرفةِ حكم الله، واجتهدَ في ذلك، وأَصدرَ حكمه فيها، لكنه أخطأَ في الحكم، فهذا مجتهدٌ مخطئ، وله أجرٌ على اجتهاده، وخطؤه مغفورٌ عند الله.

٢ ـ ومِن أهل السنة مَنْ قال: الإيمانُ هو التصديق فقط، والكفرُ هو الجحودُ والإنكارُ فقط، والعملُ لا يَدخلُ في الإيمان، فالإيمانُ عند هؤلاء لا يَزيدُ ولا يَنقص، فليس عند هؤلاء كفرٌ عملي، ولا كفرٌ دون كفر.

ويَعتبرُ هؤلاء النصوصَ السابقةَ التي أَطلقت الكفر على بعضِ الأقوال والأعمال، من بابِ الإطلاقِ المجازي. فالكفرُ الذي فيها كفرٌ مجازي، لأن الكفرَ الحقيقيَّ هو الذي ينقلُ عن الإسلام، والقائمُ على الجحود والإنكار.

والخلافُ بين الفريقين من أهل السنة خلافٌ لفظي، والأَرجحُ هو قولُ

الفريقِ الأول، وأنَّ الإيمانَ قولٌ وعمل، يزيدُ وينقص، وأنَّ هناك كفراً دون كفر، وهناك كفراً اعتقادياً وكفراً عملياً.

رجاء الرحمة وخوف العذاب

[٥١] : «وَنَرْجو لِلْمُحْسِنينَ مِنَ المُؤْمِنينَ أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُم، وَيُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِه، وَلا نَأْمَنُ عَلَيْهِم، وَلا نَشْهَدُ لَهُمْ بِالجَنَّه، وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسيئِيهِم، وَنَخافُ عَلَيْهِم، وَلا نُقَنِّطُهُمْ. وَالأَمْنُ وَالإِياسُ يَنْقُلانِ عَنْ مِلَّةِ الإِسْلامِ، وَسَبيلُ الحَقِّ بَيْنَهُما لِأَهْلِ القِبْلَةِ..».

المعنى: نرجو اللَّهَ أنْ يَعفوَ عن المؤمنين المحسنين، وأنْ يُدخلهمُ الجنةَ برحمتِه، ولا نأمنُ عذابَ الله، فلا نشهدُ لهم بالجنة، ولا نجزمُ لهم بها، ونستغفرُ للمسيءِ منهم، وندعو اللَّهَ أنْ يغفرَ لهم، ونخافُ عليهم من عذابِ النار، لكن لا نقنطهمْ من رحمةِ الله.

ويجبُ على المؤمن أنْ لا يأمنَ مكْرَ الله وعذابَه، بل يبقى خائفاً وَجلاً، كما أنه يَجبُ عليه أنْ لا ييأسَ من رحمةِ الله، بل يبقى راجياً راغباً. وهذا هو التوسطُ والاعتدالُ الذي أمَرَ به الإسلام.

وقد دَلَّت النصوصُ على أنَّ المؤمنَ يجب أَن يرجوَ رحمةَ الله، وأنْ يخشى عذابَه..

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ..﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

روى الترمذيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قلتُ يا رسولَ الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هل هو الذي يَزني ويشربُ الخمرَ ويسرق؟.

قال: لا، يا ابنةَ الصّدّيق، ولكنه الرجلُ يصومُ ويصلي ويتصدق، ويخافُ أنْ لا يُقبلَ منه...»[1].

وقال الحسنُ البصريُّ في الذين تتحدثُ عنهم آياتُ سورة «المؤمنون» السابقة: عَملوا واللّهِ بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافُوا أنْ تُرَدَّ عليهم، إنَّ المؤمنَ جمعَ إحساناً وخشية، وإنَّ المنافقَ جمعَ أَمْناً وإساءة.

والمؤمنُ الذي يرجو رحمةَ اللّهِ ونعيمَه، لا بدَّ أنْ يأتيَ بالأسبابِ التي تؤهِّلُه لنيلِ رحمةِ الله، وهي الطاعاتُ والأعمالُ الصالحة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

فهم لم يرجوا رحمةَ الله إلاّ بعدَ أنْ أَتوا بالأسبابِ والأعمالِ الصالحة، وهي الإيمانُ والهجرةُ والجهادُ في سبيل الله.

إنَّ الرجاءَ النافعَ الذي ينفعُ صاحبَه لا بدَّ أَنْ يستلزمَ أموراً ثلاثة:

الأول: محبةُ الذي يرجوه محبةً صادقة.

الثاني: خوفُه منْ أنْ يفوتَه فلا يظفر به.

الثالث: سعيُه وبذلُه جهدَه في تحصيلِه بقدرِ الإمكان.

فإنْ لم يقترنْ رجاءُ المسلم بهذه الأمور الثلاثة كان «أمانيَّ» فارغة، وهي لا تنفعُ صاحبَها.

إنَّ كلَّ راجٍ فهو خائف، والخائفُ يسرعُ السيرَ على الطريق، ليحققَ ما يرجوه، لأنه يخشى أنْ يفوتَه.

---

(١) الترمذي: ٣١٧٥.

المسلمُ إذا ارتكبَ كبيرة، ثم استعظَمها واستحيا من الله، وخافَ من عذابِه بسببها، فإنها تتحوَّلُ إلى صغيرة، وإذا تابَ منها فإن اللَّهَ يغفرها له.

والصغيرةُ من الصغائر إذا قارنَها قلةُ الحياء، وعدمُ المبالاة، والاستهانةُ بها، وقلةُ الخوفِ منها، فإن هذا قد يُلحقُها بالكبائر.

والمسلمُ إذا أذنبَ وأساء، فهو عرضةٌ للعذاب في نارِ جهنم، إن لم يُسقطِ اللَّهُ عقوبتَه.

أحد عشر سبباً لسقوط العقوبة

وهناك أحدَ عَشَرَ سبباً، جعلها اللَّهُ أَسباباً لسقوطِ العقوبة، هي:

١ ـ التوبة: ولا بدَّ أنْ تكونَ نصوحاً خالصةً لله، بأنْ يندمَ المسلمُ على ما فات، ويُقلَع عن الذنب، ويَعزمَ على أنْ لا يعودَ له، ويُعيدَ الحقوقَ الماديةَ لأصحابها.

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٤].

٢ ـ الاستغفار: بأنْ يُكثرَ المذنبُ من استغفارِ الله، ويطلبَ منه مغفرةَ ذنبه.

والفرقُ بين التوبة والاستغفار، أنَّ الاستغفارَ يكون على ما مضى، بأن يطلبَ من اللَّهِ أنْ يقيَه شرَّ ذنبه السابق.

أمّا التوبةُ فإنها تعني تجديدَ الحياة، والرجوعَ إلى الطاعة، والعهدَ مع الله بأنْ يُحسنَ في المستقبل.

٣ ـ فعلُ الحسنات: لأنَّ اللَّهَ يضاعفُها، فالحسنةُ بعشر أمثالها، بينما يَجزي اللَّهُ السيئةَ بمثلها، والويلُ لمن غلبتْ آحادُ سيئاته عشراتَ حسنات.

فعلى المذنب أنْ يسارعَ بفعلِ الحسنات بعدَ السيئاتِ لتمحوها. قال

تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤].

وروى الترمذيُّ عن أَبي ذرٍّ الغفاريِّ رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[1].

٤ ـ المصائبُ الدنيويةُ التي تصيبُ المسلم، مِن هَمٍّ أو غمٍّ أَو حزنٍ أَو مرض. إذا صبرَ المؤمنُ على المصائبِ فإنها تكفِّرُ ذنبَه، والصبرُ يُثابُ عليه، فإنْ جزِعَ وسخطَ فإنه يأثم.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما يُصيبُ المؤمنَ مِن وَصَبٍ ولا نَصَب، ولا غمٌّ ولا هَمٌّ، ولا حَزَن، حتى الشوكةَ يشاكُها، إلاَّ كُفِّرَ بها من خطاياه..»[2].

٥ ـ عذابُ القبر.

٦ ـ دعاءُ المؤمنين للمسلم المذنب، واستغفارُهم له، في حياتِه وبعد مماتِه.

٧ ـ ما يُهدىٰ إِلى الميتِ بعدَ موته، من ثوابِ صدقة، أو قراءةِ قرآن، أَو حج، أو غير ذلك.

٨ ـ أهوالُ وشدائدُ يوم القيامة.

٩ ـ شفاعةُ الشافعين يومَ القيامة.

١٠ ـ عفوُ أرحمِ الراحمين سبحانه وتعالى، من غيرِ شفاعةِ أحد.

١١ ـ وُقوفُ المؤمنين بعدَ اجتيازِهم الصراط على قنطرةٍ قبلَ دخولهم الجنةَ ليتصافُوا ويتهذَّبوا.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ١٩٨٧.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٥٦٤١. ومسلم برقم: ٢٥٧٣.

ودليلُ هذا ما رواهُ البخاريُّ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «إذا خَلَصَ المؤمنون من النار، حُبِسوا بقنطرةٍ بين الجنةِ والنار، فيتقاصّون مظالمَ كانتْ بينهم في الدنيا، حتى إِذا نُقّوا وهُذِّبوا أُذِنَ لهم بدخول الجنة..»[(١)].

التوازن بين الخوف والرجاء

ومع هذه الأسبابِ التي يُسقطُ اللَّهُ بها العقوبة عن المذنب، فإنه لا بدَّ أنْ يبقى خائفاً وَجِلاً، ولا يجوزُ أنْ يأمنَ مكْرَ اللَّهِ وعذابَه.

على العبدِ المسلمِ أنْ يجمعَ بين الخوفِ والرجاء، وأنْ يوازنَ بينهما..

إنّ الخوفَ المحمودَ الصادقَ هو الذي يَحولُ بين صاحبه وبين محارم الله. فإنْ تجاوزَ ذلك وزادَ عن حَدِّه، كان مذموماً، لأنه يُخْشى أنْ يؤديَ إلى اليأسِ والإحباط والقنوط.

وإنَّ الرجاءَ المحمودَ الصادقَ هو الذي يدفعُ صاحبَه إلى العمل بطاعةِ الله، على نور منه، وهو راجٍ لمغفرتهِ وعفوه، آملٌ بثوابه وجنته.

أما إذا كان الرجلُ متمادياً في الذنوب، مسرِفاً على نفسه في المعاصي، وهو مع ذلك يرجو رحمةَ الله، فهذا رجلٌ مغرورٌ يعيشُ على الأماني الفارغة، والرجاءِ الكاذب.

قال أَبو علي الرُّوذْباري: الخوفُ والرجاءُ كجناحَي الطائر، إذا استويا استوى الطائر وتَمَّ طيرانُه، وإذا نقصَ أَحدهما وقعَ فيه النقص، وإذا ذهبا صارَ الطائر في حَدِّ الموت.

إنَّ الرجاءَ يستلزمُ الخوف، ولولا ذلك لكان أَمْناً مذموماً، لأنه في غيرِ محلِّه. وإنَّ الخوفَ يستلزمُ الرجاء، ولولا ذلك لكانَ يأساً وقنوطاً.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤٤٠.

وكلُّ مخلوق تخافُه تهربُ منه، أمّا اللّهُ فإنك عندما تخافُه تهربُ إليه، سبحانه وتعالى.

وقد مدحَ اللّهُ أهلَ الخوف والرجاءِ بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ﴾ [الزمر: ٩].

وقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦].

وقد حثَّ رسولُ الله ﷺ المسلمَ على أنْ يُحسنَ ظنَّه بالله. روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: قبلَ موتِه بثلاث: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلاّ وهو يحسنُ الظنَّ بربه..»[(١)].

والقاعدةُ أنَّ العبد: في حالِ الصحة ينبغي أنْ يكونَ خوفَه أرجحَ من رجائه، وفي حالِ المرض يَنبغي أنْ يكونَ رجاؤُه أَرجحَ من خوفه...

وقالَ بعضُهم: مَنْ عبدَ اللّهَ بالحبِّ وحده، فهو زنديق. ومَنْ عَبدَهُ بالخوفِ وحده، فهو خارجيٌّ متشدد. ومَنْ عبدَه بالرجاء وحده، فهو مرجئٌ مُفْرِط. ومَنْ عبدَه بالخوفِ والحبِّ والرجاء، فهو مؤمنٌ موحد.

ما هي حقيقة الإيمان؟

[٥٢]: «وَلا يَخْرُجُ العَبْدُ مِنَ الإيمانِ إلاّ بِجُحودِ ما أَدْخَلَهُ فيه. وَالإيمانُ هو: الإِقْرارُ بِاللِّسان، وَالتَّصْديقُ بِالجَنان. وَجَميعُ ما صَحَّ عَنْ رَسولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ الشَّرْعِ وَالبَيانِ كُلُّهُ حَقّ. وَالإيمانُ واحِد، وَأَهْلُهُ في أَصْلِه سَواء. وَالتَّفاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالخَشْيَةِ وَالتُّقى، ومُخَالَفَةِ الهَوىٰ وَمُلازَمَةِ الأَوْلىٰ..».

كلامُ الإمامِ الطحاويِّ عن الإيمانِ والإسلام، والصلةِ بينهما.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٨٧٧.

معنى قوله: «ولا يَخرجُ العبدُ من الإيمان إلاّ بجحودِ ما أَدخله فيه»: أنَّ المسلمَ يدخلُ في الإيمان باعتقادِه وإِقرارِهِ ونطقه، ولا يَخرجُ من الإِيمانِ إِلا بإِنكارِه وجحودِه بعضَ ما أَقَرَّ به. وهذا ردٌّ على المعتزلةِ والخوارج، الذين يُكفرون مرتكبَ الكبيرة.

ويشيرُ قولُ الإمامُ الطحاوي: «والإيمانُ الإقرارُ باللسان، والتصديقُ بالجنان» إلى حقيقةِ الإيمان، التي يقعُ عليها اسمُه. حيثُ يرى الإمامُ الطحاويُّ أنَّ الإيمانَ هو: إِقرارٌ ونطقٌ باللسان، وهذا يتوافقُ مع التصديقِ بالقلب ـ والجَنانُ هو القلب.

وقد اختلفَ المسلمون في حقيقةِ الإيمان التي يقعُ عليها اسْمُه، وأَشهرُ أَقوالِهم فيها هي:

١ ـ قولُ مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه، وسائرِ أهلِ الحديث وأهلِ المدينة وأهل الظاهر، وبعضِ المتكلمين: الإيمانُ هو: تصديقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان.

٢ ـ قولُ أَبي حنيفة وأَصحابِه والطحاوي: الإيمانُ هو: الإقرارُ باللسانُ، والتصديقُ بالقلب، فقط. أما العملُ فليسَ من حقيقته.

٣ ـ الإيمانُ هو تصديقٌ بالقلب فقط، وليس منه النطقُ باللسانِ ولا العمل بالأركان، وهذا قولُ أَبي منصور الماتُريدي.

٤ ـ الإيمانُ هو النطقُ باللسان، فكلُّ مَنْ نطقَ بالشهادتيْن فهو مؤمنُ، وهو قولُ الكَرَّامِيّة، وهذا مردودٌ وباطل، لأَنه يَعتبرُ المافقين مؤمنين، لأَنهم نطقوا بألسنتهم.

معرفة القلب لا تكفي في الإيمان

٥ ـ الإيمانُ هو المعرفةُ بالقلبِ فقط، والإقرارُ بالقلبِ ليس مهماً ولا ضرورياً، والنطقُ باللسان ليس مطلوباً. فالمؤمنُ هو كلُّ مَنْ عرفَ الله، ولو

لم يقرَّ له بالألوهيةِ والربوبية. وهذا قولُ الجهمية، أَتباعُ الجهمِ بن صفوان.

وهذا قولٌ مردودٌ وباطل، لأنه يلزمُ منه أنْ يكونَ إبليسُ مؤمناً، لأنه كان يَعرفُ أنَّ اللَّهَ ربُّه، ولكنه لم يخضعْ له. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وفرعونُ كانَ يعرفُ الله، ومع ذلك لم يؤمنُ به ولم يقرَّ له. قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

بل إنَّ أَبا طالبِ عمَّ رسول الله ﷺ كان يعرفُ الله، ويعرفُ أنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ وأَنَّ الإسلامَ هو الدينُ الحق. وقد أَنشدَ أَبو طالب قائلاً:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيانِ البَرِيَّةِ دِينا
لَوْلا المَلامَةُ أَو حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَني سَمْحاً بِذاكَ مُبينا

ومع ذلك لم يُعتبر أَبو طالب مؤمناً لأنه لم يقرَّ ويُصدِّقْ بقلبه، ولم يَنطقَ بلسانِه، وماتَ كافراً.

والراجحُ هو القولُ الأولُ الذي يَرىٰ أَنَّ الإيمانَ هو: الإقرارُ بالقلب، والنطقُ باللسان، والعملُ بالجوارح.

والخلافُ بين أصحابِ هذا القول وأصحابِ القول الثاني، الذي يَرى أَنَّ الإيمانَ هو اعتقادٌ ونطقٌ فقط، خلافٌ لفظيٌّ صوري. أما الأقوالُ الثلاثةُ الأُخرى فإنها مردودة.

إنَّ اللَّهَ أوجبَ على المؤمن الاعتقادَ والتصديق بقلبه، كما أوجبَ عليه النطقَ بلسانه، وأوجبَ عليه العملَ بجوارحِه. ولو صدَّقَ ونطقَ ولم يعمل، فإنه لا يكون كافراً، وإنما يكون مسلماً عاصياً مرتكباً للكبائر.

والمؤمنون متساوون في أصلِ الإيمان، وإنما يتفاوتونَ في الالتزام بمقتضياتِ الإيمان. ولهذا قال الإمام الطحاوي: «والإيمانُ واحد، وأهلُه في أصله سواء، والتفاضلُ بينهم بالخشيةِ والتقوى، ومخالفةِ الهوى، وملازمةِ الأَوْلى..».

إنَّ أنوارَ الإيمان وآثارَه متفاوتةٌ عند المؤمنين، فمنهم مَنْ نورُ الإيمان في قلبه كالشمس، ومنهم مَنْ نورهُ كالكوكبِ الدري، ومنهم مَنْ نوره كالمشعلِ الكبير، ومنهم مَنْ نورهُ كالسراج الضعيف.. وهكذا. ويَظهرُ التفاوتُ في أنوارِ الإيمان يومَ القيامة.

وكلَّما اشتدَّ نورُ كلمةِ «لا إله إلا الله» وعَظُم، أحرقَ الشبهاتِ والشهواتِ التي قد تهاجمُ كيانَ صاحبِها، فلا يصادفُ هذا النورُ الإيمانيُّ شبهةً ولا شهوةً ولا معصيةً إلاّ أَحرقها.

هذا هو الإيمانُ الذي يُنجي صاحبَه يومَ القيامة، والذي أخبرَ عنه رسولُ الله ﷺ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عتبانَ بنِ مالك الأنصاري رضي الله عنه. عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ الله حَرَّمَ على النار مَنْ قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجْهَ الله»[1].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لمعاذ: «ما مِن عبدٍ يَشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، إلاّ حَرَّمه الله على النار..»[2].

ومعلومٌ أن هذه الأحاديثَ لا تستبعدُ العمل، وإنما هي في مَنْ قال: لا إله إلا الله، والتزمَ بها، وكانت أعمالُه صالحة، فهذا لا يدخلُ النارَ أَصلاً برحمةِ الله، أمّا إنْ وقعَ في الذنوب والمعاصي، فإنه يدخلُ النارَ ويُعذَّبُ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٢٥. ومسلم برقم: ٣٣.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٢٨. ومسلم برقم: ٣٢.

فيها، ولكنه لا يُخلَّدُ فيها كالكفار، وإنما يدخلُ الجنةَ بعد ذلك برحمة الله.

والذين قالوا: الإيمانُ هو التصديقُ نظروا إلى معنى الإيمانِ في اللغة. والذين قالوا: الإيمانُ هو التصديقُ والنطقُ والعملُ نظروا إلى معناه في اللغة، وأضافوا إلى ذلك ما قررتْه النصوصُ من شرائطِ الإيمان وأوصافِه.

ولا بدَّ من اعتمادِ النصوصِ من الآياتِ والأحاديثِ الصحيحة التي تبينُ لنا حقيقةَ الإيمان، وهي لا تجعلُه تصديقاً فقط، بل هو تصديقٌ ونطقٌ وعمل.

فمن صَدَّقَ وأيقنَ بقلبه، لكنه لم ينطقْ بلسانه، ولم يُؤَدِّ الواجباتِ من صيامٍ وصلاةٍ وعبادة، ولم يتوقفْ عن الحرام، ولم يحبّ اللَّهَ ورسولَه، فهذا ليس مؤمناً.

لقد رتَّبَ اللَّهُ الفوزَ والفلاحَ على التصديقِ والإقرار، والنطقِ بالشهادتين، والعمل بمقتضاهما. فهذا هو الإيمانُ الذي يُنجي صاحبَه.

أحاديث في اعتبار العمل من الإيمان

والأحاديثُ التي اعتبرت الأعمال الصالحة من الإيمان كثيرة.

١ - روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الإيمانُ بضعٌ وستون شعبة، فأفضلُها قولُ لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق. والحياءُ شعبةٌ من الإيمان..»[1].

وفي روايةِ الإمام مسلم: «الإيمانُ بضعٌ وستون، أو بضعٌ وسبعون شعبة».

فالحديثُ اعتبرَ النطقَ بالشهادتين أعلى شُعَبِ الإيمان، كما اعتبرَ إزالةَ الأذى عن الطريقِ أدنى شُعَبِ الإيمان. وهذه شعبةٌ عملية.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٩. ومسلم برقم: ٣٥.

وهذا معناهُ أنَّ شُعَبَ الإيمانِ عديدة، وأَنها شُعَبٌ عملية، منها أقوالٌ ومنها أَفعال: فالصلاةُ من الإيمان، والصومُ والزكاةُ والحجُّ من الإيمان، والتوكلُ والحبُّ والحياءُ والخشية من الإيمان، وهي من أعمالِ القلوبِ الباطنة، وتنتهي هذه الشُّعَبُ بآخرِ شعبةٍ عملية وهي إزالةُ الأذى عن الطريق.

٢ ـ روى أبو داود والترمذيُّ عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أَكملُ المؤمنين إِيماناً أَحسنُهم خُلُقاً..»[١].

٣ ـ روى أبو داود وابنُ ماجه عن أَبي أُمامة الحارثي رضي الله عنه قال: ذَكَرَ أصحابُ رسول الله ﷺ يوماً عنده الدنيا، فقالَ ﷺ أَلا تسمعون. أَلا تسمعون: إنَّ البَذاذَةَ من الإيمان..»[٢].

والبَذاذةُ هي التواضعُ في الملابس، وعدمُ التكلفِ والمبالغةِ فيها.

٤ ـ روى مسلمٌ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ رأى منكم منكراً، فليغيِّرْهُ بيده، فإنْ لم يستطع، فبلسانه، فإن لم يستطع، فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان»[٣].

فاعتبرَ الإيمانَ درجات، درجةٌ عليا تدلُّ على قوةِ الإيمان، ودرجةٌ دنيا تدلُّ على ضعفِ الإيمان، كما اعتبرَ تغييرَ المنكر من الإيمان، وهو خطواتٌ عملية.

٥ ـ روى أبو داود وأحمد عن أَبي أمامة الباهليِّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنعَ لله فقد استكملَ الإيمان..»[٤].

والأصلُ أنْ نعتمدَ هذه النصوص، وأنْ نقولَ بما قالَتْ به، فهي

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٢٦٨٢. والترمذي برقم: ١١٦٢.
(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٤١٦١. وابن ماجه برقم: ٤١١٨.
(٣) أخرجه مسلم برقم: ٤٩.
(٤) أخرجه أبو داود: ٤٦٨١. وأحمد: ٣: ٤٣٨.

صريحةٌ في جعلِ العملِ من الإيمان: فالإيمانُ تصديقٌ بالقلب، ونُطْقٌ باللسان، وعملٌ بالجوارح.

نصوص في زيادة الإيمان ونقصانه

وبما أنَّ العملَ من الإيمان، فالإيمانُ يزيدُ ويَنقص، لأنَّ الأعمالَ الصالحةَ تَزيدُ وتنقص، فالأعمالُ الصالحةُ تَزيدُ الإيمان، والأعمالُ السيئةُ تُنقصُ الإيمان.

والأدلةُ على زيادةِ الإيمان ونقصانه كثيرة، منها آياتٌ وأحاديثُ وأقوالٌ مأثورة عن صحابة وتابعين.

من الآياتِ الصريحةِ الدالةِ على زيادةِ الإيمان.

١ ـ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفعال: ٢].

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٣ ـ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

٤ ـ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

٥ ـ قولُه تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ٧٦].

٦ ـ قولُه تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ﴾ [المدثر: ٣١].

والأحاديثُ الصحيحةُ التي تصرحُ بزيادةِ الإيمان ونقصانِه وتفاوتِ المؤمنين فيه كثيرة، عَرَضْنا بعضَها فيما مضى. منها حديثُ شُعبِ الإيمان، وحديثُ الشفاعة، وحديثُ تغييرِ المنكر، وغير ذلك، فنحيلُ عليها في مواضعِها، للوقوفِ على دلالتها على زيادةِ الإيمان ونقصانه.

ومن كلامِ الصحابة على زيادةِ الإيمان ونقصانه:

١ ـ كان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه يقولُ لأصحابه: هلمُوا نَزْدَدْ إيماناً، فيذكرون اللَّهَ عز وجل.

٢ ـ قالَ أبو الدرداء رضي الله عنه: مِن فقْهِ العبدِ أنْ يتعاهدَ إيمانَه وما نقصَ منه، ومِن فقْهِ العبد أنْ يعلم: أَيزدادُ هو أم يَنقص؟

٣ ـ كان عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه يقولَ في دعائه: اللهمَّ زدْنا إيماناً ويَقيناً وفقهاً.

٤ ـ كان معاذُ بن جبل رضي الله عنه يقولُ للرجل: اجلسْ بنا نؤمنْ ساعة.

٥ ـ قالَ عمارُ بنُ ياسر رضي الله عنه: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه، فقد استكملَ الإيمان: الإنصافُ من النفس، والإِنفاقُ من الإِقتار، وبذْلُ السلام للعالَم.

عطف العمل على الإيمان ومراتب العطف

وعطْفُ العملِ على الإيمان في بعض النصوص لا يدلُّ على المغايرة، ولا أنَّ العملَ ليس من الإيمان، فالنصوصُ السابقة دلَّتْ على أنَّ الإيمانَ من الإيمان، وأنه لذلك يَزيدُ وينقص.

إنَّ الإيمانَ أَحياناً يكونُ مطلقاً في النصوص، وعندها يشملُ العمل. وهذا كثيرٌ في الآيات والأحاديث.

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟

وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

ومن الأحاديثِ في ذلك ما رواهُ مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول اللّهِ ﷺ قال: «مَنْ حملَ علينا السلاح فليسَ منّا، ومَنْ غَشَّنا فليس منّا..»(١).

ومعنى «ليس منّا» ليس على طريقتنا ومنهجنا.

وأَحياناً يُعطفُ عليه العملُ الصالح، وذلك في آيات كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

وهذا العطفُ لا يدلّ على المغايرة بين الإيمانِ والعمل، وأَنهما شيئان متغايران، بل يدلُّ على أَنه من لوازمه.

إنَّ عطفَ الشيء على الشيء بشكلٍ عام له مراتب:

الأُولى: أَعلى الدرجات، وهي أَنْ يكونَ المعطوفُ والمعطوفُ عليه متغايريْن متباينيْن مختلفيْن، وليس بينهما تلازم. ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

فالسمواتُ غيرُ الأرض، والظلماتُ غيرُ النور.

الثانية: أَنْ يكونَ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه تلازم، مثلُ الحق والباطل، فهما متلازمان. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٠١.

الثالثة: عطفُ بعضِ الشيء عليه، كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

فعُطفت الصلاة الوسطى ـ وهي صلاةُ العصر ـ على الصلواتِ، مع أنها بعضُها.

وكما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨].

فعُطف جبريلُ وميكال على الملائكة مع أنهما بعضٌ منهم.

الرابعة: عطفُ الشيء على الشيء لاختلافِ الصفتيْن مع أنَّ الموصوفَ واحد. وهذا في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر: ٣] فعُطف «قابل التوب» على «غافرِ الذنب» وهما صفتان لموصوفٍ واحد، لأن الله سبحانه هو الموصوفُ بهما.

فالتغايُرُ بين المعطوف والمعطوف عليه في المرتبة الأولى فقط، أما المراتبُ الثلاثةُ الأُخرى فليس فيها تغاير. فالعطفُ لا يقتضى التغاير دائماً.

وعطفُ العمل على الإيمان هو في المرتبة الثالثة، وهي عطفُ بعضِ الشيء على بعضه، فالعملُ بعضُ الإيمان وليس مغايراً له.

ومن أَقوى الأدلةِ على دخولِ العمل في الإيمانِ حديثُ رسول الله ﷺ ـ بالإضافةِ إلى الأدلة السابقة ـ الذي فسَّرَ العملَ بالإيمان.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قالَ لوفدِ عبد القيس: آمُرُكم بالإيمانِ بالله وحده. أَتدرون ما الإيمانُ بالله؟ شهادةُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وحدَه لا شريك له، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وأنْ تؤدوا الخُمُسَ من المغنم..»[1].

وهذه الأعمالُ من الإيمان، لأنها ثمرةٌ لتصديقِ القلب ونتيجةٌ لها.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٣. ومسلم برقم: ١٧.

الفرق بين الإسلام والإيمان وحديث جبريل

نتنقلُ بعد كلامِنا عن الإيمان إلى الكلام عن الإسلام:

إنَّ حديثَ جبريلَ الصحيحَ يدلُّ على الفرقِ بين الإيمان والإسلام والإحسان، وأنَّ هذه الثلاثةَ هي الدين.

فقد روى مسلمٌ عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه الحادثة، وأسئلةَ جبريل وإجاباتِ الرسول ﷺ.

ومما وردَ في الحديث قوله: «... قال: يا محمد: أخبِرْني عن الإسلام.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: الإسلامُ أنْ تشهدَ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً.

قال: صدقت!

قال عمر: فعجبنا له: يسألُه ويصدقُه!!

قال فأَخبِرْني عن الإيمان.

قال: أنْ تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره.

قال: صدقت.

قال: فأخبِرْني عن الإحسان.

قال: أنْ تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكنْ تراه، فإنه يراك..».

وبعد ذلك قالَ الرسولُ ﷺ لعمر: يا عمر: أَتدري من السائل؟.

قال عمر: اللَّهُ ورسولُه أعلم.

قالَ عليه الصلاة والسلام: «فإنه جبريل. أَتاكم يعلمُكم دينَكم..»[1].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٨.

فالحديثُ فَرَّقَ بين الإسلامِ والإيمان والإحسان، واعتبرَ هذه الثلاثةَ هي الدين، حيث أَتى جِبريلُ عليه السلام يعلمُ الصحابةَ دينَهم.

المحسنون أخصُّ من المؤمنين، والمؤمنون أخصُّ من المسلمين.

كلُّ مؤمن مسلم، وليس كلُّ مسلم مؤمناً، وكلُّ محسن مؤمن، وليس كلُّ مؤمن محسناً.

وقد اختلفت الفرقُ في حقيقةِ الإسلام:

١ ـ فقال بعضُهم: الإسلامُ هو النطقُ بالشهادتين فقط.

٢ ـ وقال آخرون: الإسلامُ مرادفٌ للإيمان، فهما بمعنى واحد.

٣ ـ وقال الجمهور: الإسلامُ هو الإتيانُ بالأعمال الظاهرة، وهي الأركانُ الخمسة: الشهادتان، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج.

والصحيحُ هو القولُ الثالث، لأنه هو الذي دلَّ عليه حديثُ رسول الله ﷺ الصريح، عندما أَجابَ جبريل قائلاً: «الإسلام: أنْ تشهدَ أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً...».

إنَّ تفريقَ رسولِ الله ﷺ بين الإسلامِ والإيمان يدلُّ على أننا لا بدَّ أنْ نفرقَ بينهما، اعتماداً على كلامِه ﷺ.

الإيمانُ هو التصديقُ القلبيُّ بالأركان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

والإسلامُ هو الإتيانُ بالأعمالِ الظاهرة، والمتمثلةِ بالأركان الخمسة.

إِذا ذُكِرا معاً فلا بدَّ أنْ نفرقَ بينهما، كما فرقَ رسولُ الله ﷺ، أما إِذا انفردا، فإنَّ كلَّ واحدٍ يدلُّ على الآخر. فإذا أُفردَ الإسلامُ بالذكر تضمنَ الإيمان، وإذا أُفرِدَ الإيمانُ بالذكرِ تضمنَ الإسلام.

والإسلامُ والإيمانُ في حالةِ الافتراق والاقتران مثلُ: الكفر والنفاق،

والإثم والعدوان، والبر والتقوى، والتوبة والاستغفار، والفقير والمسكين.

آيات وأحاديث في الفرق بين الإسلام والإيمان

وقد فرقتْ آياتُ القرآنِ بين الإسلام والإيمان.

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

فهؤلاء الأعرابُ زَعموا أنهم مؤمنون، ولكنَّ الآيةَ أثبتتْ لهم الإسلامَ فقط، ولم تُثبتْ لهم الإيمان، إنهم الآنَ مسلمون، ولمّا يدخل الإيمانُ في قلوبهم، وعندما يَدخلُ في قلوبهم سيكونون مؤمنين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فذكرت الآيةُ المسلمين والمسلمات، وعطفت عليهم المؤمنين والمؤمنات، ودلَّ هذا على التغايرِ بين الإسلام والإيمان.

وفرَّقَ رسولُ الله ﷺ بين الإسلامِ والإيمانِ في دعائه. فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، دعاءَ رسول الله ﷺ عندما كان يقومُ يصلي من الليل. ومن دعائِه قولُه: «اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكلتُ، وإليكَ أنبتُ....»[١].

وأنكرَ رسولُ الله ﷺ على سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، عندما شهدَ لأحدِ الصحابة بالإيمان، وطالبَهُ أنْ يشهدَ له بالإسلام.

(١) أخرجه البخاري برقم: ١١٢٠. ومسلم برقم: ٧٦٩.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ أَعطى رهطاً وسعدٌ جالس. فتركَ رسولُ الله ﷺ رجلاً هو أعجبُهم إليّ.

فقلت: يا رسولَ الله: مالكَ عن فلان؟ فوالله إِني لأَراه مؤمناً.

قال: أَوْ مسلماً.

فسكتُّ قليلاً، ثم غلبَني ما أعلمُ منه، فعدتُ لمقالتي. فقلت: ما لَكَ عن فلان؟ فوالله إني لأَراهُ مؤمناً!

فقال: أَوْ مسلماً.

ثم غلَبَني ما أَعلمُ منه، وعادَ رسولُ الله ﷺ.

ثم قال: يا سعد: إنّي لأُعطي الرجل، وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، خشيةَ أنْ يكبَّهُ اللَّهُ في النار...»[1]

ولا يدلُّ قولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦] على الترادفِ بين الإسلام والإيمان، وإنما يدلُّ على أنَّ أهلَ ذلك البيت ـ وهم آلُ لوط عليه السلام ـ كانوا موصوفين بالإسلام والإيمان، وهذا لا يلزمُ منه ترادُفُهما، وخاصةً بعد النصوصِ السابقة الصريحة بالتفريق بينهما.

الاستثناء في الإيمان بين الجواز والمنع

أمّا مسألةُ الاستثناءِ في الإيمان، وهي أن يقولَ المؤمن: أنا مؤمنٌ إنْ شاء الله. فقد اختلفَ فيها المسلمون:

١ ـ منهم مَنْ جعلَ هذا الاستثناءَ واجباً: فيجبُ على كلِّ مؤمن أنْ يقول: أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ الله، فإذا لم يقلْ ذلك كان آثماً، لأنه تركَ هذا الواجب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٧. ومسلم برقم: ١٥٠.

وحجتُهم على هذا، اعتقادُهم أنَّ الإيمانَ هو ما ماتَ عليه صاحبُه، والمؤمنُ لا يعلمُ على ماذا سيموت، ولا كيفَ ستكونُ خاتمتُه، ولهذا يعلِّقُ الأمرَ على مشيئةِ الله، باعتبارِ المستقبل المجهول له.

وحجتُهم أيضاً أنَّ الإيمانَ المطلق هو فعلُ ما أَمر اللَّهُ به، واجتنابُ ما نهى اللَّهُ عنه، فإنّ لم يستثنِ بقوله: «إن شاء الله» كان في هذا تزكيةٌ للنفس، وهذا منهيٌّ عنه.

٢ ـ ومنهم مَنْ جعلَ هذا الاستثناءَ محرَّماً: لأنَّ قولَ المؤمن: أنا مؤمن إنْ شاءَ الله، معناه أنه شاكٌّ في إيمانِه. ولا يجوزُ له أنْ يشكَّ في إيمانه، لأنَّ الإيمانَ معروف، وحقيقتُه معروفة، فكيف يشكُّ المؤمنُ في الشيء المعروف؟

٣ ـ وذهبَ آخرون إلى التفصيل، فلم يوجِبوا الاستثناءَ مطلقاً، ولم يُحرموه مطلقاً، وإنما فصَّلوا في الأَمر:

فإذا أَرادَ المؤمنُ بالاستثناء الشكَّ في إيمانِه فهذا حرامٌ ولا يجوز، لأنَّ الإيمانَ لا بدَّ فيه من الجزمِ واليقين، ولا يجوزُ الشكُّ فيه.

وإنْ أرادَ بقوله: أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ الله، أَنه ممن حققَ أركانَ الإيمان، لكنه لا يَعلمُ عاقبتَه أو مستقبلَه، أَو أَنه لم يتصفْ بكلِّ الصفاتِ التي أَخبر اللَّهُ عنها، فهذا الاستثناءُ جائز، وليس فيه الشكُّ في الإيمان.

والراجحُ هو هذا القولُ، لأنه يدلُّ على التوسطِ والاعتدال، وخيرُ الأُمورِ أوساطُها.

وجوب قبول كل ما صح من الأحاديث

ننتقلُ بعدَ هذا إلى الوقوفِ أَمام كلام الطحاوي: «وجميعُ ما صَحَّ عن رسولِ الله ﷺ من الشرعِ والبيان كلُّه حق..».

إنه يصرحُ بأنَّ كلَّ ما صحَّ عن رسول الله ﷺ من الأَقوال والأفعال،

فهو حقّ ونحنُ ملزمون أنْ نأخذَ به، سواء كان هذا الصحيحُ خبراً متواتراً أمْ خبرَ آحاد!.

وهو بهذا يردُّ على بعضِ أَصحابِ الفِرَقِ الذين لم يَقبلوا كلَّ ما صحَّ عن رسول الله ﷺ، بحجةِ أَنه ظنيُّ الدلالة، وأنه لا يفيدُ العلم، وقَدَّموا على تلك الأحاديثِ الصحيحة كلامَهم ومقرراتِهم وفلسفاتِهم وترجيحاتِهم العقلية النظرية.

لقد نظرَ أصحابُ الفرقِ والبدع في تلك الأحاديثِ الصحيحة على أَساسِ أهوائهم وبِدَعِهم،فما وافقَ هواه وبدعتَه من تلك الأحاديث قبلَه وأَخَذَه، وما لم يوافقْ هواه وبدعتَه منها رفضَه وردَّه، بحجةِ أَنه متشابه، أو أَنه ظنيُّ الدلالة، أو أَنه لم يثبت.

أمّا أهلُ السنة فإنهم لا يُقَدِّمون على الحديثِ الصحيحِ شيئاً، ولا يعارضونه بقياسٍ أَو معقولٍ أَو كلامِ فلان وفلان.

وينطلقون في هذا الموقفِ الصحيح من قولِ الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الحميدي: كنّا عندَ الشافعيِّ رحمه الله. فأَتاهُ رجل، فسأَلَه عن مسألة. فقالَ الشافعي: قضى فيها رسولُ الله ﷺ كذا وكذا.

فقالَ رجلٌ للشافعي: ما تقولُ فيها أَنت؟.

فقال الشافعي: سبحانَ الله! تَراني في كنيسة! تَراني في بيعة! ترى على وسطي زناراً؟ أَقولُ لك: قضى رسولُ الله ﷺ كذا، وأنتَ تقولُ لي: ما تقولُ: أنت؟!

الأدلة على قبول خبر الواحد

وقَبولُ أهلِ السنةِ للأحاديثِ الصحيحة يقودُ إلى موقفِ أهل السنة من «خَبَرِ الواحد».

وَخَبَرُ الواحد يفيدُ العلمَ اليقينيَّ عند جماهيرِ الأمة، إذا تلقتْه الأمةُ بالقبول، تصديقاً له، وعملاً به.

والأدلةُ على قَبول الصحابةِ لأَخبارِ الآحاد واعتمادِهم لها كثيرة:

١ - روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بَيْنا الناسُ يصلّون الصبحَ في مسجدِ قباء، إذ أَتاهم آتٍ، فقال: إنَّ النبيَّ ﷺ قد أُنزلَ عليه الليلةَ قرآن، وقد أُمِرَ أنْ يَستقبلَ الكعبة، فاستَقْبِلوها، وكانت وجوهُهم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة»[١].

فهذا شخصٌ أخبرَ المصلّين في المسجد بخبر، فصدَّقوه وقَبلوا خبره.

٢ - روى البخاريُّ ومسلم عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى. فمن كانتْ هجرتُه إلى دنيا يصيبُها أَو إلى امرأةٍ ينكحُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه..»[٢].

٣ - روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يُجمعُ بين المرأةِ وعمتها، ولا بينَ المرأةِ وخالتها...»[٣].

٤ - روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَحرمُ من الرَّضاع ما يَحرمُ من النَّسَب..»[٤].

فهذه أَخبارُ آحاد، تتضمنُ أحكاماً شرعية، وقَبِلَها الصحابةُ ومَنْ بعدهم.

ومن الأدلةِ على قَبولِ خبر الواحد زمنَ الصحابة أيضاً أنَّ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٠٣. ومسلم برقم: ٥٢٦.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ١. ومسلم برقم: ١٩٠٧.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٥١٠٩. ومسلم برقم: ١٤٠٨.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٤٥. ومسلم برقم: ١٤٤٧.

رسولَ الله ﷺ كان يرسلُ رسلَه إلى المسلمين في المناطق المختلفة، وكان رسلُه آحاداً غالباً، ويُرسلُ كتبَه مع هؤلاء الآحاد، وكانَ المسلمونَ يَقبلون هؤلاء الرسلَ الآحادَ وما معهم. ولم يقولوا: لا نقبلُه لأنه خبرُ آحاد.

وأخبارُ الآحاد تفيدُ العلمَ طالما صحَّتْ وثبتتْ عدالةُ أصحابها، ولو كذبَ أحدُ الإخباريِّين لفضحَهُ اللَّهُ وكشف كذبه.

ولهذا فضحَ اللَّهُ الكاذبين من الإخباريين والرواة، الذين كَذَبوا على رسولِ الله ﷺ.

قالَ سفيانُ بنُ عيينة: ما سَتَرَ اللَّهُ أحداً يكذبُ في الحديث.

وقالَ عبدُ الله بن المبارك: لوهَمَّ رجلٌ في السَّحَر أنْ يكذبَ في الحديث، لأصبحَ الناس يقولون: فلانٌ كَذّاب!.

وخبرُ الواحدِ يَحتملُ الصدقَ والكذبَ أَساساً، صحيح، لكنْ يمكنُ التفريقُ بين الأَخبارِ الصحيحة والأَخبارِ السقيمة المكذوبة.

فمع أَنه وُجِدَ رواةٌ وإِخباريون كاذبون، كَذَبوا على رسولِ الله ﷺ - وقد فَرَزَهم العلماءُ وصَنَّفوهم ورفضوا أَحاديثَهم - فقد وُجد رواةٌ عدولٌ ثقاتٌ، صالحون أمناء، وكانوا يَحْذرون الخطأَ والزلل، ولا يتقوَّلون كلمةً واحدةً على رسول الله ﷺ.

لقد أَوصلَ لنا هؤلاء الرواةُ الثقاتُ الدينَ والحقَّ كما وصلَهم عن رسولِ الله ﷺ. إِنهم جنودُ الإسلام، وحماةُ الإيمان، ونُقادُ الأخبار، وصيارفةُ الأحاديث.

وكلُّ مَنْ وقفَ على حياتهم، وعرفَ أَحوالَهم، وتعرَّفَ على صدقِهم وورعِهم وأَمانتهم، ظَهَرَ له العلمُ واليقينُ في مروياتهم.

ولهذا قررَ جماهيرُ الأمة أنَّ خبرَ الآحاد يفيدُ العلمَ اليقيني، طالما تلقَّتْه الأمةُ بالقبول والعمل.

والذينَ رفضوا أَخبارَ الآحادِ خالفوا ما عليه جماهيرُ العلماء، وكلامُهم مردود.

المؤمنون أولياء الله

٥٣ : «وَالمُؤْمِنونَ كُلُّهُمْ أَوْلِياءُ الرَّحْمن، وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُمْ وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرآن...».

الكلامُ هنا عن ولايةِ المؤمنينَ لله، فالمؤمنونَ الصالحون المطيعون كلُّهم أَولياءُ لله، وأَكرمُ المؤمنين عندَ الله، أَكثرُهم طاعة له، وأكثرُهم اتباعاً لكتابه.

والوليُّ من الولاية، وهي النصرةُ والتعاونُ والتحالفُ والتأييد.

إنَّ اللَّهَ هو وليُّ المؤمنين. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١].

والمؤمنون فيما بينَهم موالاةٌ قائمةٌ على الإيمان، وبعضُهم أَولياءُ بعض:

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ..﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦].

ومَنْ يتولاّه اللّهُ فإنه يوفقُه ويحبّه ويَرضى عنه، والمؤمنُ بالمقابل يحبَّ ويرضى عنه الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ..﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ..﴾ [التوبة: ١٠٠].

وولايةُ الله لعباده المؤمنين ليستْ كولايتهم بعضِهم لبعض، فإنَّ المخلوقَ يُوالي المخلوقَ لحاجته له، والله سبحانَه غنيٌّ عن العالمين.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

والمعنى أنَّ الله ليس له وليٌّ من الذلِّ كالبشر، بل له العزةُ جميعاً سبحانه.

والولايةُ مثلُ الإيمان تتفاوت، فليستْ على مستوى واحد، فقد تكونُ الولايةُ كاملةً وقد تكونُ ناقصة، فكلَّما زادَ إيمانُ المؤمنِ زادَتْ ولايتُه، وإذا نقصَ إيمانُه نقصَتْ ولايتُه لله.

إنَّ ولايةَ المؤمن لله أَعلى درجةً من ولاية المسلم، وولايةُ المحسنِ أعلى درجةً من ولاية المؤمن.

الإيمان والتقوى شرط الولاية

وأولياءُ اللّهِ الصالحون الكاملون هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

أَخبرت الآياتُ أنَّ أولياءَ الله آمنون، فهم لا يخافون ولا يحزنون، وبينت أنَّ صفةَ هؤلاء أَنهم مؤمنون ومتقون. فالإيمانُ والتقوى صفةُ هؤلاء الأولياء.

وأولياءُ الله قسمان:

القسم الأول: المقتصدون: وهم الذين يتقرَّبون إلى الله بالفرائض.

القسم الثاني: السابقون: وهم الذين يتقربّون إلى الله بالفرائض والنوافل.

روى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: يقولُ الله تعالى: مَنْ عادىٰ لي ولياً، فقد بارَزَني بالمحاربة، وما تقربَ إليَّ عبدي بمثلِ أَداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يَزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يَمشي بها. ولئن سألَني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذَنَّه.. وما ترددْتُ في شيء أنا فاعلُه تردُّدي عن قبضِ نفس عبدي المؤمن، يكرَهُ الموتُ وأكرهْ مساءَتَه..»[1].

وليُّ الله هو الذي والى الله، بموافقتِه في محبوباته، والتقربِ إليه بفعْلِ ما يُرضيه، وتقواهُ في حياته. هذا الوليُّ المتقي قال الله فيه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

الأولياءُ المتقون يجعلُ اللّهُ لهم مخرجاً مما ضاقَ على الناس، ويرزقُهم من حيثُ لا يحتسبون، ويدفعُ عنهم المضار، ويقدمُ لهم المنافع.

وأكرمُ المؤمنين على الله هو الأكثرُ طاعةً له، واتِّباعاً لكتابه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إنَّ الأَتقى هو الأكرمُ عند الله، وإنَّ التقوى هي أساسُ التكريم والتفضيل عند الله.

والأَتقى المكرَّمُ عند الله قد يكونُ غنياً شاكراً، وقد يكونُ فقيراً صابراً، فإنْ كان الغنيُّ الشاكرُ أَتقى من الفقير الصابر كان هو الأكرمَ عند الله، وإنْ كانَ الفقيرُ الصابر أتقى من الغني الشاكر كان هو الأكرم..

أركان الإيمان الستة

٥٤ : «وَالإيمانُ: هُوَ الإِيمانُ باللّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٥٠٢.

وَالقَدَر: خَيْره وشَرِّه، وَحُلْوِهِ وَمُرِّهِ، مِنَ اللَّهِ تعالى.. وَنَحْنُ مُؤْمِنونَ بِذلكَ كُلِّه، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلى ما جاءُوا بِه..»

الكلامُ هنا عن أركانِ الإيمان، وهي ستةُ أركان: الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

وهذه الأركانُ وردتْ في حديث جبريل، الذي سبقَ أنْ أَوردناهُ أكثرَ من مرة، حيثُ أجابَ الرسولُ ﷺ على أسئلةِ جبريل حولَ الإسلام والإيمان والإحسان.

ونسجلُ الجوابَ عن الإيمان: «قال فأخْبرني عن الإيمان.

قال: الإيمان: أنْ تؤمنَ باللَّهِ وملائكتِه وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر، خيرِه وشره..»[1].

والنصوصُ القرآنيةُ صريحةٌ في أنَّ الرجلَ لا يُسمى مؤمناً حقاً إلا بعدَ أنْ يعملَ العملَ الصالح.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

فالإيمانُ لا يتحققُ إلاّ بعدَ أنْ يُحكِّمَ المؤمنون الشرعَ فيما شجر بينهم، ولا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً من حُكْمِه، ويُسلِّموا له تسليماً.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٨.

الإيمان بالقدر: كل شيء بقدر الله

وجاءَ الإيمان بالقدرِ في عدةِ آيات من القرآن:

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٨ ـ ٧٩].

الراجحُ أنَّ المرادَ بالحسنة هنا النعمة. والمرادَ بالسيئة الابتلاء بالضراء.

الكفارُ كانوا يتشاءَمون من رسول الله ﷺ، فإنْ أصابتْهم حسنةٌ ونعمةٌ وخير وخصب. قالوا: هذه من عند الله إكراماً منه لنا.

وإنْ أصابتهُم سيئة، ووقعَ بها ابتلاءٌ وضر، تشاءَموا من رسول الله ﷺ، وقالوا: أنتَ السبب، ووجودُك عندنا أوقعَ بنا هذا الضر.

فردَّ اللّهُ عليهم، وأبطلَ اتهامَهم وتشاؤمَهم، وقال لهم: الحسنةُ والنعمةُ من الله، باعتبارِه قَدَّرها وأرادَها، والسيئةُ والضرُّ من الله باعتباره قَدَّرَها وأرادها، فكلٌّ منهما من عند الله لأنهما وقعتا بقَدَرِه.

وبعدما قررت الآيةُ الأُولى هذه الحقيقةَ الإيمانيةَ القدرية، قررت الآيةُ الثانيةُ الحسنةَ والسيئة من ناحيةِ الأدب مع الله. فقالت: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ..﴾.

ومعنى ﴿فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ أنها بسببِ ما فعلْتَ، فتكونُ السيئةُ عقوبةً من الله. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ..﴾ [الشورى: ٣٠].

لقد فرقت الآيةُ بين النعم والمصائب، فجعلت النعمَ من الله، وجعلت المصائبَ من الإنسان. الحسَنةُ من الله، لأَنها إنعامٌ منه وتفضُّلٌ وكرم، والسيئةُ ليستْ منه أَدباً معه سبحانه، مع أَنه خلقها سبحانه لحكمة.

وفي نسبةِ السيئةِ إلى الإنسان: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، إشارةٌ إلى أَنَّ على العبدِ أَنْ لا يطمئنَّ إلى نفسه، ولا يسكنَ إليها، لأَنَّ الشرَّ كامنٌ فيها.

وإذا أَصابتْه السيئة، فعليه أنْ يَرجعَ إلى نفسه ليلومَها، ثم يتوبَ من ذنوبه، ويستغفرَ الله، لأن السيئةَ عقوبةٌ من الله بسبب ذنوبه.

لا ينسب الشر إلى الله

وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ لا يَنسبُ الشَّرَّ إلى الله، أَدَباً معه.

روى مسلمٌ عن عليِّ بن أَبي طالب رضي اللّهُ عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ في دعاءِ الاستفتاح: «... لبيْك وسعديْك، والخيرُ كلُّه في يديك، والشّرُّ ليسَ إليك، أَنا بك وإليك...»[1].

ومعنى قوله: «والشّرّ ليس إليك» أنكَ لا تخلقُ شراً محضاً، وكلُّ ما تخلقُه تخلقُه لحكمة، وإذا كانَ في بعضِ ما تخلقُه شر، فهو شَرٌّ جزئي إضافي، وفيه خيرٌ كثير.

ومن بابِ الأدبِ مع الله أنْ لا يُضافَ الشَّرُّ إليه مفرداً، وإنما يُضافُ إليه في صورٍ وحالات:

١ ـ يَدخلُ في عمومِ المخلوقات، فاللّهُ خلقَ المخلوقاتِ كلَّها. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢..﴾ [الزمر: ٦٢].

٢ ـ يُضافُ الشرُّ إلى سببِه الماديِّ المباشر، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ

(١) أخرجه مسلم برقم: ٧٧١.

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق].

٣ ـ يُحذفُ فاعلُ الفعلِ الذي يتحدث عنه، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠].

من آثار الإيمان بالقدر عند المسلم

والإيمانُ بالقدرِ خيرِه وشَرِّه، وحلوِه ومُرِّه من الله، ينتجُ عنه شكرُ العبدِ لربه على إحسانِه وإنعامِه، واستغفارِه لربه عندما يرتكب الذنب، وحسنِ التوكل عليه، والصبرِ على المصائب والابتلاءات، وهذا من معاني توحيدِ الله سبحانه.

روى البخاريُّ عن رِفاعَةَ بنِ رافع الزّرَقي رضي الله عنه قال: «كُنّا يوماً نصلّي وراءَ رسول الله ﷺ، فلما رفعَ رأْسَه من الركعة، قال: سمعَ اللّهُ لمن حمدَه.

فقالَ رجلٌ وراءَه: ربَّنا ولكَ الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

فلما انصرفَ قال: مَن المتكلم؟

قال: أَنا.

قال: رأيتُ بضعةً وثلاثين مَلَكاً يبتدرونَها، أَيهم يكتبُها أوّل..»[1].

وروى مسلم عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كانَ رسولُ الله ﷺ إذا رفعَ رأْسَه من الركوع قال: ربَّنا لك الحمد. ملءَ السموات والأرض، وملءَ ما شئت من شيء بعد، أَهلَ الثناء والمجد. أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبد: اللهمَّ لا مانعَ لما أَعطيت، ولا مُعطيَ لما منعت، ولا يَنفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدّ...»[2].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٩٩.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٤٧٧.

وهذا الدعاءُ من رسولِ الله ﷺ تحقيقٌ لتوحيدِ الربوبيةِ والألوهية، فاللّهُ هو الخالقُ المقدِّرُ، وهو المعطي والمانع، فلا مانعَ لشيء أعطاهُ الله، ولا معطيَ لشيء منعَه الله، وصاحبُ الجَدِّ والحظِّ والنصيب والعملِ والقوةِ لا ينفعُه ذلك كلُّه، ولا يُنجيهِ من الله، ولا يدفعُ عنه قدرَ الله.

إنَّ الإيمانَ بالقدرِ خيرِه وشره وأنه من الله، هو إعلانُ توحيدِ الله في الألوهية والربوبية، وإعلانُ عبوديةِ العبدِ لله.

الإيمانُ بالقدرِ خيره وشره، يَعني أنْ يعتقدَ المؤمنُ أنَّ كلَّ ما أَصابه فهو بقدرِ الله، وأَنه لا مانعَ لما أَعطى الله، ولا معطي لما منعَ الله، وأنه لا يُغني حَذَرٌ من قَدَر، فما قَدَّرَهُ الله لا شكَّ واقع.

ويَعني أَيضاً أَنْ يَرضى المؤمنُ بقدرِ الله، فلا يَسخطُ عليه، بل يشكرُ عند النعماء، ويصبرُ عند الضراء.

ويَعني أيضاً أنْ يَعبدَ اللّهَ وحده، ويتوكَّلَ عليه وحده، ويسأَلَه وحْدَه، ويرجوه وحْدَه، ويخافَه وحده.

مصير أهل الكبائر

55 : «وَأَهْلُ الكَبائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ في النّارِ لا يُخَلَّدون، إذا ماتوا وَهُمْ مُوَحدون، وَإِنْ لَمْ يَكونوا تائِبين، بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللّهَ عارِفين. وَهُمْ في مَشيئَتِهِ وَحُكْمِه، إنْ شاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفا عَنْهُمْ بِفَضْلِه، كَما ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ في كتابه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وَإِنْ شاءَ عَذَّبَهُمْ في النّارِ بِعَدْلِه، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْها بِرَحْمَتِه، وَشَفاعَةِ الشّافِعينَ مِنْ أَهْلِ طاعَتِه، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إلى جَنَّتِه، وَذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ تَعالى مَوْلىٰ أَهْلِ مَعْرِفَتِه، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ في الدّارَيْنِ كَأَهْلِ نَكِرَتِه، الذينَ خابُوا مِنْ هِدايَتِهِ، وَلَمْ يَنالُوا مِنْ وَلايَتِه. اللّهُمَّ يا وَلِيَّ الإسْلامِ وَأَهْلِه، مَسِّكْنا بِالإسْلامِ حَتّى نَلقاكَ بِهِ....».

كلامُ الإمامِ الطحاوي هنا عن أَهلِ الكبائر من المؤمنين الموحِّدين،

سواءٌ كانوا من أُمةِ محمد ﷺ، أَم كانوا من الموحدين السابقين، أَتباعِ الأنبياءِ والمرسلين السابقين.

هؤلاء المؤمنون الموحِّدون الذين ارتكبوا الكبائرَ من الذنوب، لا يخلَّدون في النارِ يومَ القيامة، خلافاً لما ذهبَ إِليه الخوارجُ والمعتزلة، وكلامُهم باطل مردود.

كلُّ مَنْ ماتَ على الإيمان، واتبعَ نبيَّه بصدق، فإنه لا يُخلَّدُ في النار، مهما ارتكبَ من الكبائر، ومصيرُه في النهايةِ إلى الجنة. لأن اللّهَ يخرجُ من النار مَن كان في قلبه مثقالُ حبةِ خردلٍ من إِيمان.

الذنوب صغائر وكبائر

وقد اختلفَ العلماءُ في تعريفِ الكبائر، والتفريقِ بينها وبين الصغائر، ولهم في ذلك أقوالٌ عديدة، ويهمنا أنْ نسجلَ الراجحَ منها.

ولا يُلتفتُ لقولِ مَنْ زعمَ أَنه لا فرقَ بين الكبائرِ والصغائر، وأَنها كلَّها كبائر، لأَنها ذنوبٌ ومعاصٍ تُغضبُ وجهَ الله. فالآياتُ والأحاديثُ دلتْ على تقسيمِ الذنوب إلى كبائرَ وصغائر، وإِلى التفريق بينهما..

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

وروى البخاريُّ ومسلم عن أَبي هريرةَ رضيَ اللّهُ عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبعَ الموبقات. قالوا: يا رسول الله: وما هنَّ؟ قال: الشركُ بالله، والسحر، وقتلُ النفس التي حرمَ اللّهُ إلاّ بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولّي يومَ الزحف، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات..»[١].

والراجحُ في تعريف الكبيرة أَنها كلُّ معصية فيها حَدٌّ في الدنيا، أو

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٧٦٦. ومسلم برقم: ٨٩.

وعيدٌ في الآخرة. والمرادُ بالوعيد الخاص: الوعيدُ بالنار، أو اللعنة، أو الغضب. فإنْ لم تكن كذلك فهي الصغيرة.

ومن الكبائر: القتلُ، والزنى، والسحر، وقذف المؤمنات، والفرارُ من الزحف، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، وعقوقُ الوالدين، وشهادة الزور.

هؤلاء المؤمنون الذينَ ماتوا على الإيمانِ والتوحيدِ لا يخلَّدون في النار بسببِ كبائرهم، أما إذا تابوا من ذنوبهم وكبائرهم قبلَ موتهم فإن اللّهَ يغفرُ لهم، والتوبةُ تمحو ذنوبَهم.

وهم لا يخلَّدون في النارِ لأَنهم ماتوا على التوحيد، حيث عَرفوا اللّهَ ووحَّدوه وآمنوا به واهتدوا إليه واتَّبعوا رسولَه، فلا يُساوون الكفار الذين أشركوا به، وأنكروا وحدانيته، وخسروا هدايته.

المذنبون إلى الله

وأَصحابُ الكبائر الموحِّدون الذين ماتوا بدون توبة، إلى اللّهِ يوم القيامة: إن شاءَ عفا عنهم بفضْله، وغفر لهم بكرمه، ورحمهم برحمته، وعند ذلك يتجاوزُ عنهم، ويدخلُهم الجنة، فلا يَدخلون النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ..﴾ [النساء: ١١٦].

وإنْ شاءَ عَذَّبهم في النار بعدله، عقاباً لهم على ذنوبهم وكبائرهم. ولكنه لا يخلِّدهم في النارِ كالكفار، حيث يُخرجُهم من النارِ برحمته، وبشفاعةِ الشافعين من ملائكتِه ورسلِه وأوليائه، وإمامُ الشافعين هو حبيبُه محمدٌ ﷺ.

فمصيرُ العصاةِ من الموحِّدين هو دخولُ الجنة، منعَّمين مخلَّدين فيها.

هذه نظرةُ أهلِ السنة لأَصحابِ الكبائر ومصيرهم، وهي النظرةُ المعتمدةُ على النصوص، وهي النظرةُ الوسطُ بين غلوِّ الخوارج والمعتزلة، وتفريطِ المرجئة.

والمؤمنُ مأمورٌ أنْ يتقيَ الله، وأنْ يحذرَ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها،

وإذا أذنبَ فعليه المسارعةُ بالاستغفار والتوبة، حتى لو كانَ الذنبُ كبيرة، وعليه أنْ يوقنَ بمغفرةِ الله له، لأنَّ اللّهَ وعدَ بذلك، وهو لا يُخلفُ الميعاد. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وعلى هذا المؤمنِ أنْ يطلبَ من الله أنْ يميتَه على الإسلام، ليدخلَ الجنةَ برحمةِ الله. وأنْ يَقتديَ في ذلك بدعاءِ يوسف عليه السلام. قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وأنْ يقتديَ بالسحرةِ المؤمنين في دعائهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

الصلاة وراء كل فاجر

٥٦ : «وَنَرَى الصَّلاةَ خَلْفَ كُلِّ برٍّ وفاجِرٍ مِنْ أهْلِ القِبْلَةِ، وَعَلَىٰ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ، ولا نُنَزِّلُ أَحَداً مِنْهُمْ جَنَّة ولا ناراً، ولا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ ولا بِشِرْكٍ ولاَ نِفَاقٍ، ما لم يَظهَرْ مِنهُمْ شيء من ذلك، وَنَذَر سَرائِرهُمْ إلى الله تَعالى»...

نُصلي وراءَ كُلِّ إمامٍ موحِّد من أهلِ القبلة، سواء كان براً صالحاً، أم فاجراً ظالماً.

روى البخاريُّ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «يُصلّون لكم، فإنْ أَصابوا فلكم، وإنْ أخطأوا فلكم وعليهم...»[1].

وكان عبدُ الله بن عمر وأنسُ بن مالك رضي الله عنهم يصلِّيان خلفَ الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان أَميراً فاسقاً ظالماً.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٩٤.

صلّى أنسُ بنُ مالك خَلْفه لما كان والياً على العراق، وصلّى عبدُ الله بن عمر خلفه عندما جاءَ إلى مكة لقتالِ عبدِ الله بن الزبير، وضربَ الكعبة بالمنجنيق.

قالَ زيدُ بنُ أَسلم: كَانَ ابنُ عمر في زمن الفتنة، لا يأتي أَمير إلاَّ صلى خلْفه، وأَدى إِليه زكاة ماله.

وقالَ عميرُ بن هانئ: بعثني عبدُ الملك بن مروان بكتبٍ إلى الحجاج بن يوسف، وهو يحاصرُ ابنَ الزبير في مكة، فأتيتُه وقد نصبَ على الكعبة أربعين منجنيقاً، فرأيتُ ابن عمر إِذا حَضرت الصلاةُ مع الحجاج صلّى معه، وإذا حضرَ ابنَ الزبير صلّى معه.

فقلت له: يا أبا عبد الرحمٰن: تصلّي مع هؤلاء وهذه أعمالُهم؟

فقال لي: يا أخا الشام: ما أنا لهم بحامد، ولا نُطيعُ مخلوقاً في معصيةِ الخالق.

وإذا كانَ الإمامُ مستورَ الحال، لا يُعلمُ عنه بدعةٌ ولا فسق، فعلى المسلم أنْ يصليَ خلْفَه، ولا يسأَلُه ولا يمتحنُه.

والإمامُ الراتبُ الذي عيَّنه ولاةُ الأمور يجبُ على المسلم أنْ يصليَ خلْفَه، حتى لو كان فاجراً، والصلاةُ خلفَ الفاجر ليستْ باطلة، لأنَّ فجورَ وفسقَ الإمامِ الفاجر عليه، وللمصلِّي أجرُ صلاتِه.

ولكنَّ بعضَ العلماء كرهَ ذلك كراهة، وفرقٌ بين كراهيتِها وبين تركها.

الموقف من الإمام الفاجر

وإذا ما عَيَّنَ وليُّ الأمر إماماً فاجراً فعلى المسلمين أنْ يَنصحوا وليَّ الأمر ليتراجعَ عن تعيينه، فإنْ لم يستجب، فعليهم أنْ يُرشدوا الإمامَ وأنْ يَنصحوهُ، لعله يتوبُ ويتراجع، فإنْ لم يستجبْ لهم، وكان هجرُه واعتزالُه وتركُ الصلاة خلْفَه يؤدي إلى استقالتِه، هَجَروه واعتزلوه، وإنْ كانَ ذلك لا

يؤدي إلى استقالتِه صلّوا خلْفَه صابرين محتسبين، وهم مأجورون، وفُجورُه عليه هو، ليسَ عليهم منه شيء.

إنّ تركَ الجمعةِ والجماعةِ خلفَ الإمام الفاجر، يُفَوّتُ مصلحةً كبيرةً في اجتماعِ المسلمين على الصلاة، ومَنْ فعلَ ذلك فهو مبتدع مخالفٌ لما كانَ عليه الصحابة.

فقد مرَّ مَعَنا أنَّ أنسَ بن مالك وعبدَ الله بن عمر صَلَّيَا خلفَ الحجاج الثقفي.

وروى البخاريُّ عن عبيدِ الله بن عَدِيٍّ بنِ الخِيار، أَنه دخلَ على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو مَحْصور، فقال له: إنكَ إمامُ عامة، ونزلَ بك ما تَرى، ويصلّي لنا إمامُ فتنة، ونتحرج!

فقالَ عثمان: الصلاةُ أحسنُ ما يعملُ الناس، فإذا أحسنَ الناسُ فأَحسنْ معهم، وإذا أَساءوا تجنَّب إِساءَتَهم..»[1].

ولا شكَّ أنَّ صلاة الجماعة والجمعة خلفَ البرِّ الصالح أفضلُ وأَولى من الصلاةِ خلفَ الإمامِ الفاجر.

لقد دلَّ الحديثُ السابق: «يُصلون لكم، فإنْ أَصابوا فلكم ولهم، وإنْ أخطأوا فلكم وعليهم» على أنَّ الإمامَ إذا أخطأَ فخطؤه عليه، ولا يتحمل المأمومُ منه شيء، وصلاتُه صحيحة.

إنَّ نصوصَ الكتاب والسنة، وإجماعَ سلفِ الأمة، على أَنه إذا اجتهدَ وليُّ الأمر وإمامُ الصلاة وأَميرُ الحرب وعاملُ الصدقة، فيجبُ على الآخرين أنْ يتابعوه في اجتهادِه، ولا يجوزُ لهم أنْ يُخالفوه، كما أَنه لا يُطيعُهم. ولو لم يطيعوه وتَركوا رأْيَه واتبعوا آراءهم، فستقعُ مفسدةٌ كبيرة، تقودُ إِلى الفرقةِ والاختلاف، ومعلومٌ أنَّ مصلحةَ الجماعةِ والائتلاف أعظمُ من أمرِ المسائلِ الخلافية الجزئية.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٩٥.

ومن أجودِ الأمْثلةِ على ذلك أنَّ الإمامَ أَبا يُوسف رحمه الله كان يرى أنَّ الحجامة ـ وهي إخراجُ الدم من الجسم ـ تُبطلُ الوضوء.

ولما حجّ هارونُ الرشيدُ حَجَّ معه أبو يوسف. واحتجمَ الرشيدُ في مكة، وأَفتاهُ مالك أنَّ الحجامةَ لا تُبطلُ الوضوء، فصلّى الرشيدُ بالناس ولم يتوضأ، وصلّى خلْفَه أَبو يوسف.

فقيلَ لأبي يوسف: أصَليتَ خلْفَه؟

قال أَبو يُوسف: سبحان الله، إنه أَمير المؤمنين.

أي أنّ أبا يوسف تركَ رأْيَه في بطلانِ الوضوء بالحجامة، وصلّى خَلْفَ الرشيد، وتابَعَهُ في اجتهاده، لأن هذا هو الأصل، أمّا تركُ الصلاةِ خلفه فهي بدعةٌ من فعلِ أهلِ البدع.

هذا عن الصلاة خلفَ الإمام براً كان أمْ فاجراً.

الصلاة على أموات المسلمين

ومعنى قول الطحاوي: «وعلى من مات منهم...»: أننا نُصلّي على مَنْ ماتَ من الموحدين، سواء كانوا أبراراً أم فجاراً.

فأهلُ السنة يصلّون على مَنْ ماتَ من أهل البدع والفجور، مهما كانت مخالفاتُهم ومعاصيهم.

فإذا كانَ الرجلُ منافقاً نفاقاً اعتقادياً فهو كافرٌ حقيقة، ولا تجوزُ الصلاة عليه.

لقد نهى الله رسولَه ﷺ عن الصلاةِ على المنافقين. قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤].

وكانَ إذا ماتَ أحدُ المنافقين لا يُصلّي عليه رسولُ الله ﷺ.

وأَعلَمَ رسولُ الله ﷺ حذيفةَ بنَ اليمان رضي الله عنه بأسماءِ المنافقين، وبعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ، كان إذا مات أحدُ المنافقين يتعمدُ حذيفةُ أنْ لا يصلي عليه، ويتغيبُ عن جنازته، فإذا غابَ حذيفةُ كانَ عمرُ رضي الله عنه لا يُصلي عليه، لأنه منافق.

أمّا المنافقُ نفاقاً عملياً، كأنْ يكونَ مسلماً ولكنه يكذبُ أو يُخلف أو يخون، فهذا يجبُ أن يُصلّىٰ عليه، لأنه ليسَ كافراً.

وعلى المسلم عندما يُصلي على الجنازةِ أنْ يُخلصَ في الدعاء لصاحبها، روى أَبو داود وابنُ ماجه عن أَبي هُريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت، فأَخْلِصوا له الدعاء»[1].

أي: ادعوا له بإخلاصٍ وحضورِ قلب، واستغفروا له، واطلبوا من الله أنْ يغفرَ له ويرحَمَه.

وقد أمرَ الله رسولَه ﷺ أنْ يستغفر لنفسه ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

نرجو للصالحين الجنة

ومعنى قولِ الإمامِ الطحاوي: «ولا ننزلُ أحداً منهم جنةً ولا ناراً»: لا نقولُ عن أحدٍ معين من أهلِ القبلة: إنه من أهلِ الجنة أو إنه من أهلِ النار.

إلاَّ مَنْ أخبرَ رسولُ الله ﷺ أنه من أَهل الجنة، مثلُ الصحابة العشرة المبشرين بالجنة.

والعشرةُ المبشرون بالجنة هم: أبو بكر الصديق، وعمرُ بن الخطاب،

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٣١٩٩. وابن ماجه برقم: ١٤٩٧.

وعثمانُ بن عفان، وعليُّ بن أبي طالب، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبدُ الرحمٰن بن عوف، وسعدُ بن أبي وقاص، وسعيدُ بن زيد، وطلحةُ بن عبيد الله، والزبيرُ بن العوام رضي الله عنهم أجمعين.

والراجحُ أننا نشهدُ بالجنة لكلِّ مؤمنٍ وردَ النصُّ أنه من أهل الجنة، وهذا خاصٌّ بالصحابة، أَما بعدهم فلم يَرِدِ النصُّ على أحدٍ معيَّنٍ أنه من أهل الجنة.

والمحسنُ الصالحُ نرجو أنْ يكونَ من أهلِ الجنة، وندعو له بذلك.

والمسيءُ العاصي نخافُ أن يكونَ من أهل النار، ونَدعوه إِلى التوبةِ والاستغفار، فإنْ لم يتبْ وماتَ على ذنوبه نعتقدُ أنه قد يعذِّبه الله في النار، ثم يَخرجُ منها بعد ذلك برحمةِ الله.

وإذا أثنى المؤمنون على صالحٍ، نرجو أنْ يكونَ من أهلِ الجنة، وإذا شهدوا على مسيء أنه من أهلِ النار، نخشى عليه ذلك.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَنس بن مالك رضي الله عنه، أَنه مَرَّ بجنازة، فأثنوا عليها بخير، فقالَ النبي ﷺ: وَجَبَتْ.

وَمَرَّ بأُخرى، فأُثنيَ عليها بِشَرٍّ، فقالَ ﷺ: وَجَبَتْ.

فقال عمر: يا رسول الله: ما وَجَبَتْ؟

فقالَ عليه الصلاة والسلام: هذا أَثنيتم عليه خيراً، وَجَبَتْ له الجنة، وهذا أثنيتُم عليه شَراً، وَجَبَتْ له النار، أنتم شهداءُ الله في الأرض..»[١].

ولا نَشهدُ على أَحدٍ من أهلِ القبلة بكفرٍ ولا بشركٍ ولا بنفاق، إلاَّ إذا ظهرَ ذلك منه، فإنْ لم يظهرْ شيءٌ من ذلك نحكمُ له بالإسلام، ونتركُ سريرتَه إلى الله، فالله أعلمُ به.

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٦٧. ومسلم برقم: ٩٤٩.

لقد أمرنا الله بالحكمِ الظاهر، ونهانا عن اتباعِ الظنِّ والقولِ بدون علم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

عدم الخروج على الأئمة

٥٧ : «وَلا نَرىٰ السَّيْفَ عَلى أَحَدٍ مِنْ أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ، إلاَّ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ، وَلاَ نَرَى الخُروجَ على أئِمَّتِنا وَوُلاةِ أُمورِنا، وإنْ جارُوا، ولا نَدْعُوا عَلَيْهِم، ولا نَنْزَعُ يَداً مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَىٰ طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَة، ما لَمْ يَأْمُروا بِمَعْصِيَة، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلاحِ والمُعافاةِ..».

أهلُ السنةِ لا يَرون سفكَ دماءِ المسلمين، ولا قتْلَ المسلم، إلاَّ مَنْ أَمَر الإسلامُ بقتله حَدّاً. وهذا معنى قول الطحاوي: «ولا نرى السيفَ على أحدٍ من أُمةِ محمدٍ ﷺ، إلاَّ من وَجب عليه السيف».

وهذا بعكسِ موقفِ الخوارج، الذين رفعوا السلاحَ على المسلمين، وسفكوا دماءَهم، واستحلوا أعراضَهم وأموالَهم.

والذي أَجازَ الإسلامُ قتْلَه محددٌ في حديثِ رسولِ الله ﷺ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يحلّ دمُ امرئ مسلم، يشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأني رسُول الله، إلاَّ بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة..»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٨٧٨. ومسلم برقم: ١٦٧٦.

ولا يجوزُ الخروجُ على أئمةِ المسلمين، وولاةِ أُمورهم، وإنْ ظَلموا وجاروا، ولا يَدعو المسلمُ عليهم، ولا يَنزعُ يداً من طاعتهم، لأنه يرى أنَّ طاعتَهم فريضةٌ، ومن طاعة الله، إلاَّ إذا أمروا بمعصية، فلا يطيعُهم فيها.

لقد أوجبَ الإسلامُ طاعةَ وليِّ الأمر في غير معصية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

نصوص في السمع والطاعة

والأحاديثُ التي أَمر فيها رسولُ الله ﷺ بالسمعِ والطاعة كثيرة:

١ ـ روى البخاريُّ ومسلم عن حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه قال: كان الناسُ يسألونَ رسولَ الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسألُه عن الشرّ، مخافةَ أنْ يدركَني.

فقلت: يا رسولَ الله، إنّا كنّا في جاهلية وشر، فجاءَنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخيرِ من شر؟

فقال: نعم.

فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: نعم، وفيه دَخَن!

قلت: وما دَخَنُه؟

قال: قوم يستنّون بغير سنّتي، ويَهتدون بغيرِ هديي، تَعرفُ منهم وتُنكر.

فقلت: هل بعدَ ذلك الخيرِ من شرّ؟

قال: دعاةٌ على أبوابِ جهنم، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها.

فقلت: يا رسولَ الله: صِفْهُم لنا.

قال: قومٌ من جِلْدَتِنا، يتكلَّمون بألسنتنا.

قلت: يا رسولَ الله، فما تَرى إنْ أَدركني ذلك؟

قال: تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهم.

قلت: فإن لم يكنْ لهم جماعةٌ ولا إمام؟

قال: فاعتزلْ تلك الفرقَ كلَّها، ولو أن تعضَّ على أصلِ شجرة حتى يدركَكَ الموتُ وأنتَ على ذلك...»[1].

والشاهدُ في هذا الحوارِ بينَ رسول الله ﷺ وحذيفة. أَنه يَدعوهُ إلى الالتزام بجماعةِ المسلمين وإمامِهم، وهذا بطاعةِ وليِّ الأمر، وعدمِ الخروجِ عليه.

٢ ـ روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَطاعَني، فقد أَطاعَ الله، ومَنْ عصاني، فقد عصى الله، ومَنْ يُطعِ الأمير، فقد أطاعني، ومَنْ يَعصِ الأمير فقد عصاني»[2].

٣ ـ روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «على المرءِ المسلم السمعَ والطاعةَ فيما أَحَبَّ وَكَرِهَ، إلاَّ أنْ يُؤمَرَ بمعصية، فإنْ أُمِر بمعصية، فلا سمعَ ولا طاعة..»[3].

٤ ـ روى البخاريُّ ومسلم عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: مَن رأى مِن أميره شيئاً يكرهه، فليصبر، فإنه مَن فارق الجماعةَ شبراً فمات، فميتتُه جاهلية..»[4].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٠٦. ومسلم برقم: ١٨٤٧.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٧١٣٧. ومسلم برقم: ١٨٣٥.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٩٥٥. ومسلم: ١٨٣٩.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٧٠٥٣. ومسلم برقم: ١٨٤٩.

٥ ـ روى البخاريُّ عن أَبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «أَوصاني خليلي ﷺ أَنْ أَسْمعَ وأُطيع، وإِنْ كانَ عبداً حبشياً، مُجَدَّعَ الأطراف..»[١].

٦ ـ روى مسلمٌ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا بويعَ لخليفتيْن، فاقتلوا الآخِرَ منهما»[٢].

٧ ـ روى مسلمٌ عن عوفِ بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «خِيارُ أئمتكم الذين تحبونَهم ويحبونَكم، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم، وشِرارُ أئمتكم الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم، وتلْعنونهم ويلعنونكم.

فقلنا: يا رسول الله: أَفلا ننابذُهم بالسيفِ عند ذلك؟

قال: لا. ما أَقاموا فيكم الصلاة.. وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئاً تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تَنزعو يداً من طاعة»[٣].

لا طاعة في الأمر بالمعصية

لقد دلَّت الآياتُ والأحاديث على وجوبِ طاعةِ أُولي الأمر، ما لم يأْمروا بمعصية، فإنْ أَمروا بمعصية فلا يُطاعون فيها.

وعندما ننظرُ في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فنرى فيها لطيفة. فقد تكررَ فعلُ «أطيعوا» عند الأمرِ بطاعةِ الله، وطاعةِ الرسول ﷺ، لأن طاعةَ الرسول عليه الصلاة والسلام هي طاعةٌ لله، ولأنَّ الرسولَ ﷺ لا يأمرُ بمعصية.

أَما طاعةُ أُولي الأمر فلم يتكرر الأمرُ بطاعتهم، وإنما عُطفت الكلمةُ على «الرسول» فقالت: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٩٣.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٨٥٣.
(٣) أخرجه مسلم برقم: ١٨٥٥.

وهذا يدلُّ على أنّ طاعة أُولي الأمر مقيدة، وليست مطلقة كطاعةِ الرسولِ ﷺ، وذلك لأنهم ليسوا معصومين، فقد يأمرونَ بمعصية، ولذلك لا يُطاعون إلاَّ إذا أمروا بطاعة.

ويجبُ الصبرُ على جورِ أُولي الأمر، ولا يَجوزُ الخروجُ عليهم، لأنَّ مفاسدَ الخروجِ عليهم في الأمة أضعافُ مفاسدِ جورهم!

ثم إن جورَ وظلمَ ولاةِ الأمر عقوبةٌ من الله للأمة، بسببِ الفسادِ والمعاصي والمنكرات التي يرتكبها أفرادُها، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وإذا أرادت الرعيةُ التخلصَ من ظلم الأمير الظالم، فعليهم أنْ يَتركوا الظلم، وأن لا يظلم بعضهم بعضاً، وأن يَتوبوا إلى الله ويستغفروه، وأنْ يُصلحوا أعمالهم، ويَصدقوا مع الله، عند ذلك يَرفعُ الله العقابَ عنهم، المتمثلَ في ظلمِ ولاةِ الأمر!

متابعة الجماعة وترك الفرقة

٥٨ : «وَنَتْبَعُ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ، وَنَتَجَنَّبُ الشُّذُوذَ والخِلافَ وَالفُرْقَة».

السّنّة: طريقةُ رسولِ الله ﷺ.

والجماعة: جماعةُ المسلمين، وهم الصحابةُ والتابعون لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

إنَّ اتّباعَ هؤلاء هدى، ومخالفتهم ضلال.

والآياتُ والأحاديثُ كثيرة في وجوبِ اتباعِ الصالحين، وتركِ الشذوذِ والاختلافِ والفرقة.

١ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ

سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

٣ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤].

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٦ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

٧ ـ روى أبو داود والترمذيُّ عن العرباضِ بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغة، ذرفَتْ منها العيون، ووجلتْ منها القلوب.

فقال قائل: يا رسولَ الله: كأنَّ هذه موعظةُ مودِّع؟ فماذا تعهدُ إلينا؟

فقال: أُوصيكم بالسمعِ والطاعة، فإنه مَن يعشْ منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المهديّين من بعدي، تمسَّكوا بها، وعَضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإن كلَّ بدعةٍ ضلالة..»(١).

٨ ـ روى أبو داود وأحمد عن معاويةَ بن أَبي سفيان رضي الله عنه، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أهلَ الكتابيْن افترقوا في دينهم على ثنتيْن وسبعين ملة، وإنْ هذه الأمة ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعين ملة ـ يَعني الأهواء ـ كلُّها في النار إلاَّ واحدة، وهي الجماعة..»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٠٣. والترمذي برقم: ٢٦٧٦.

وفي رواية قالوا: مَن هي يا رسولَ الله؟ قال: ما أَنا عليه وأَصحابي..»[١].

وهذا الحديثُ الأخيرُ بَيَّنَ أنَّ عامةَ المختلفين من المسلمين هالكون، وأَنه لا ينجو منهم إلاَّ أهلُ السنة والجماعة، وهم الذين حافَظوا على الأمرِ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه.

وما أَحسنَ قولَ عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه: مَن كان منكم مُسْتَنّاً فَلْيستَنَّ بمن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تؤمَنُ عليه الفتنة، أولئكَ أصحابُ رسول الله ﷺ، كانوا أفضلَ هذه الأمة، أَبَرَّها قلوباً، وأعمقَها علماً، وأَقلَّها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم الله صحبة نبيه، وإقامةِ دينه، فاعرفوا لهم فَضْلهم، واتَّبعوهم في آثارهم، وتمسَّكوا بما استطعتُم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم..

محبة الصالحين وبغض الظالمين

٥٩ : «وَنُحِبُّ أَهْلَ العَدْلِ وَالأَمانَة، ونُبْغِضُ أَهْلَ الجَوْرِ وَالْخِيَانَة..».

إن محبةَ الصالحين وبغضَ الظالمين من كمالِ الإيمان، وتمامِ العبودية.

والعبادةُ هي: كمالُ حبِّ الله، وكمالُ الخضوع لله.

ومِن محبةِ الله محبةُ رسلِه وأنبيائه وعباده الصالحين، هؤلاء يُحَبّون في الله، ولا يُحَبّون مع الله، لأن محبة الله لا يستحقُّها غيره.

إن مَنْ أحبَّ الله، فهو يحبُّ ما أَحبَّه الله، ويُبغضُ ما أَبغضه الله، ويوالي مَن يواليه الله، ويُعادي مَنْ يُعاديه الله.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٥٩٧. وأحمد في المسند ٤: ١٠٢.

(٢) أخرجها الترمذي برقم: ٢٦٤١.

وبما أن الله يحبُّ المحسنين والمتقين والتوابين والمتطهرين، فإننا نحبُّهم.

وبما أن الله لا يحبُّ الخائنين والمفسدين والمتكبرين، فإننا لا نحبُّهم.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أنس بن مالك رضي الله عنه. عن رسول الله ﷺ قال: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ الله ورَسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومَن كان يحبُّ المرءَ لا يحبُّه إلاّ لله، ومن كان يكرهُ أنْ يرجعَ في الكفر بعد أنْ أنقذه الله منه كما يكرهُ أنْ يُقذفَ في النار..»[1].

ومَنْ أحبَّ الله المحبةَ الواجبة، فلا بدَّ أنْ يُبغضَ أعداءه، وأنْ يحبَّ جهادَهم، لأن الله يحبُّ الذين يجاهدونَهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤].

والمؤمنُ عندما يُبغض أعداءَه لا يُبغضُ أَشخاصَهم ولا ذواتهم، وإنما يبغضُ ما فيهم من صفاتِ السوء وخصالِ الشر، وخبثِ الأخلاق والأعمال والتصرفات، ودليلُ ذلك أنهم إذا آمنوا واستقاموا، وتخلّوا عن السوءِ الذي فيهم فإنه يحبهم.

الله أعلم بالمتشابه

[٦٠]: «وَنَقول: الله أَعْلَمُ فِيما اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُه..».

أَخبرَنا الله أنَّ الذينَ يتكلمون بغير علم فإنما يتبعون أهواءهم. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٣، ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٦. ومسلم برقم: ٤٣.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

ولما تكلمتْ آياتُ القرآن عن اختلافِ السابقين في مدة لبثِ أَصحابِ الكهف، دَعتْ إلى الإحالةِ على علْم الله بهم. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦].

فما علِمْناه نقولُ به، لأننا لا بدّ أنْ نقولَ بعلم، وما اشتبهَ علينا علْمُه، نَكِلُ العلمَ به إلى الله، ونقول: الله أعلم.

روى البخاريُّ ومسلم عن أَبي وائل قال: لما قَدِمَ سهلُ بنُ حنيف من صِفّين، أتَيناهُ نستخبرُه، فقال: اتَّهِموا الرأي، فلقد رأيتُني يومَ أَبي جندل ولو أستطيعُ أنْ أردَّ أمْرَ رسولِ الله ﷺ لرددت...[1].

وقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه عن الحادثة نفسها: اتَّهموا الرأيَ في الدين، فلو رأيتُني يومَ أبي جندل، فلقد رأيتني وإنّي لأَرُدُّ أَمْرَ رَسولِ الله برأيي!!

وقال عمرُ أَيضاً رضي الله عنه: السّنّةُ ما سَنَّهُ الله ورسولُه ﷺ، لا تجعلوا خطأَ الرأي سُنَّةً للأمة.

وقالَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أيّ أَرض تقلني، وأي سماءٍ تظلني، إنْ قلتُ في آيةٍ من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم؟

وقالَ محمدُ بن سيرين: لم يكنْ أحدٌ أَهْيَبَ لما لا يعلمُ مِن أبي بكر، ولم يكنْ بعدَ أَبي بكر أَهْيَبَ لما لا يعلمُ من عمر.. وإنَّ أبا بكر نزلتْ به قضية، فلم يجدْ في كتابِ الله منها أَصْلاً، ولا في السنة أَثَراً، فاجتهدَ برأيه، وقال: هذا رأيي، فإنْ يكنْ صواباً فمنَ الله، وإن يكن خطأً فمنّي، وأستغفرُ الله..

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤١٨٩. ومسلم برقم: ١٧٨٥.

المسح على الخفين والرد على الشيعة

[٦١] : «وَنَرَىٰ المَسْحَ على الخُفَّيْن، في السَّفَرِ والحَضَر، كما جاءَ في الأثَرِ..».

يتحدثُ الإمامُ الطحاويُّ هنا عن المسحِ على الخُفَّين بدلَ غسلِ القدمين في الوضوء، وهذا واردٌ في السنةِ بشروط، وهو جائزٌ في السفرِ للمسافرِ، وفي الحضر للمقيم.

فكما أنَّ الواجبَ في الوضوء هو غسلُ الرجلين، كذلك دلت السنةُ الثابتةُ الصحيحة على مسحِ القدمين بدلَ غسلِهما في حالاتٍ خاصة.

والطحاويُّ بهذه الفقرة يردُّ على الشيعةِ الذين خالَفوا العلماء في ذلك، وذَهبوا إلى أنَّ الواجبَ هو مسحُ القدمين بدلَ غسلهما.

أَمَرَ الله المسلمين بغسْلِ القدمين في الوضوء. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

وتواترَ النقلُ عن رسول الله ﷺ وأصحابِه أنهم كانوا يغسلون أقدامهم عند الوضوء، وأنهم كانوا يمسحون على الخفين أحياناً.

الحج والجهاد مع ولي الأمر

[٦٢] : «وَالحَجُّ والجِهادُ ماضِيانِ مَعَ أُولي الأمْرِ مِنَ المُسْلِمينَ، بَرِّهِمْ وَفاجِرِهِمْ إلى قِيامِ السَّاعةِ، لا يُبْطِلُهُما شَيْءٌ ولا يَنْقُضُهُما..».

الحجُّ مطلوبٌ مع وليِّ الأمر، سواء كان بارّاً صالحاً أم فاجراً ظالماً، والجهادُ كذلك مطلوبٌ مع وليِّ الأمر من المسلمين، مهما كانَ وضعُهُ.

والإمامُ الطحاويّ يردُّ بهذه الفقرة على الشيعة، حيث ذَهبوا إلى أنه لا يجوزُ الجهادُ في سبيل الله، حتى يَخرجَ إمامُهم المنتظر، وينادي منادٍ من السماء طالباً من المسلمين أنْ يتبعوه ويُجاهدوا معه.

وذهب الشيعةُ إلى أنّ الإمام يُعَيِّنُهُ الله إماماً، وأنه لا بدّ أنْ يكونَ معصوماً، وهذا باطلٌ ليس عليه دليل.

وهم أخسرُ الناس صفقة، لأنَّ الإمامَ المعصوم هو الإمامُ المعدومُ في الحقيقة، لم ينفعهم في دينٍ ولا دنيا.

الإمامُ المنتظرُ الذي ينتظرُه الشيعة هو محمدُ بنُ الحسنِ العسكري، وهو الذي دخلَ السرداب في مدينة سامراء سنة ٢٦٥هـ، وماتَ فيه؟ وما زالوا ينتظرونَ خروجَه، وقد عطَّلوا الجهادَ بانتظارِ خروجه!

نصوص في الملائكة الكاتبين

٦٢ : «وَنُؤْمِنُ بِالكِرامِ الكَاتِبين، فإنَّ الله قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنا حافِظين».

جعلَ الله علينا حفظةً من الملائكة يَحفظوننا، وجعلَ ملائكةً كاتبين يَكتبون كلَّ ما يصدرُ عَنّا من قولٍ أو فعل.

ودلّت على ذلك الآياتُ والأحاديثُ الصحيحة.

١ ـ قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧، ١٨].

٣ ـ قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

٥ ـ قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: ٢١].

٧ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن

رسول الله ﷺ قال: «يَتعاقبونَ فيكم، ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويَجتمعونَ في صلاةِ الصبح وصلاةِ العصر، فيَصعدُ إِليه الذين كانوا فيكم فيسألهم ـ وهو أعلمُ بهم ـ كيف تركْتُمْ عبادي؟.

فيقولون: «أَتيناهم وهم يصلّون، وفارقْناهم وهم يصلّون..»(١).

٨ ـ روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: ما مِنكم مِن أحَد، إلاّ وقد وُكِّل به قرينُه من الجن، وقرينه من الملائكة».

قالوا: وإِيّاكَ يا رسولَ الله؟

قال: «وإِيّاي، ولكنَّ الله أَعانني عليه، فأسلم، فلا يأمُرني إلا بخير...»(٢).

والراجحُ أنَّ «أسلمَ» فعل ماض، وهو نصٌ على أنَّ شيطانه قد أسلم، ودخلَ في الإسلام، بدلالةِ قوله بعدها: «فلا يأمرني إلا بخير».

ويكونُ إسلامُ شيطانِه ﷺ خاصّاً به من خصائصه، ومعجزةً من معجزاته.

يكتبون كل ما يصدر عن الإنسان

والملائكةُ الحافظون يحفظونَ الإنسانَ من أمْرِ الله، كما وردَ في الآية: «يحفظونه من أمر الله». أي: يحفظونَه بأمْرٍ من الله، لأنَّ الله هو الذي أَمرهم بحفظه، وهم نَفَّذوا أَمْرَ الله، وحِفْظُهم له من الضّرّ والأذى.

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: هم ملائكةٌ يحفظونه من بينِ يديه ومن خلفه، فإذا جاءَ قَدَرُ الله، خَلُّوا عنه.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٥٥. ومسلم برقم: ٦٣٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٨١٤.

والملائكةُ تكتبُ كلَّ ما يصدرُ عن الإنسان في قولٍ أو فعل. لأنَّ اللَّهَ يقول: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٢].

ويَكتبونَ الحسنةَ التي يعملُها المسلم بعشرةِ أَمثالها، وإنْ هَمَّ بها ولم يعملْها، كتبوها له حسنة، وإنْ هَمَّ بسيئة ولم يعملْها كتبوها له حسنة، وإنْ هَمَّ بها وعملَها كتبوها عليه سيئةً واحدة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: إذا همَّ عبدي بسيئة، فلا تكتبوها عليه، فإنْ عملَها فاكْتُبوها عليه سيئة، وإذا هَمَّ عبدي بحسنةٍ فلَم يعملْها، فاكْتبوها له حسنة، فإنْ عملَها فاكتبوها عشراً..»[1].

وروى مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قالت الملائكة: ذاك عبدٌ يريدُ أنْ يعملَ سيئة - وهو أَبصرُ به - فقال: ارقُبوه، فإنْ عملَها، فاكتُبوها بمثلِها، وإنْ تركَها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جَرَّاي...»[2].

ومعنى «تركها من جَرّاي»: تركَها من أَجلي.

ملك الموت الموكل بقبض الأرواح

٦٣ : «ونُؤْمِنُ بِمَلَكِ المَوْتِ، المُوَكَّل بِقَبْضِ أَرْواحِ العالَمين».

مَلَكُ الموتِ أَوكلَ الله له مهمةَ قبضِ أرواحِ البشر، ومعه مجموعةٌ من الملائكة، وهم الذين يتولَّوْنَ إخراجَ روحه.

الله هو الذي يقبضُ أَرواحَ الناس ويتوفاهم، لأنه هو المحيي والمميت. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

---

(١) أخرجه برقم: ٧٥٠١. ومسلم برقم: ١٢٨.

(٢) أخرجه مسلم: ١٢٩.

ويأمرُ الله ملكَ الموتِ بالتوجُّه إلى مَنْ حانَ أَجله، فينفُذ الأمْرَ ويتوفاه: قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١].

ويكونُ مع ملكِ الموت مجموعةٌ من الملائكة، هم يتولّونَ إخراجَ الروح قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ولا تَعارضَ بين الآياتِ السابقة، فالملائكةُ هم الذين يتولّون إخراجَ الروح، كما ذكرت آية سورة الأنعام، وهم يفعلونَ هذا بأمرِ ملكِ الموت، فكأنه هو الذي قبضَ الروح، لأنه المشرفُ على ذلك، كما أخبرتْ آيةُ سورة السجدة، والله هو الذي أَمَرَ ملكَ الموت بقبضِ الروح، فهو الذي يتوفّى الإنسانَ في الحقيقة، كما أخبرتْ آيةُ سورة الزمر.

الفرق بين الروح والنفس

والراجحُ أن النفسَ غيرُ الروح، وكلاهما في البدن.

واتفقَ أهلُ السنة على أنَّ الروحَ مخلوقة، كباقي المخلوقات، فالإنسانُ مخلوق، وبدنُه مخلوق، ونفسُه مخلوقة، وروحُه مخلوقة، ودَلَّ على هذا قولُه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١].

أي أنَّ الإنسانَ ـ بروحه وجسمه ـ قد جاءَ عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فهو مخلوقٌ له بداية.

وإضافةُ الروح إلى الله في مثلِ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩].

وهذه الإضافةُ لتكريمِ الروح وتشريفها، وقولُنا: روحُ الله، كقولنا ناقة الله، وبيتُ الله، ورسولُ الله.

وبما أنَّ الروحَ غيرُ النفس، كذلك النفسُ غير البدن، فالبدنُ هو الوعاءُ الماديُّ الذي ضمَّ الروحَ والنفس.

والنفسُ تخرجُ من البدن عند الموت.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد تُطلقُ النفسُ على ذاتِ الإنسان كلِّها. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ..﴾ [النور: ٦١].

ثلاث صفات للنفس

وللنفسِ ثلاثُ صفات، والموصوف واحد، وهو الإنسانُ ونفسُه:
الأولى: أنها «أمَّارةٌ بالسوء»: وذلك إذا لم تتم تربيتُها بالإيمان، فهي تأمُرُ صاحبَها بالسوءِ والشَّرِّ والعصيان.

قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣].

الثانية: أنها «لَوَّامة»: وهي التي تذوّقت الإيمانَ، لكن لم تنضجْ تربيتُها، فهي تُحسنُ وتسيء، وتُذنب وتَستقيم، فإذا أذنبت استيقظ فيها الإيمان، فتلومُ صاحبَها على فعله، فيتوبُ ويستغفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١، ٢].

الثالثة: أنها «مطمئنة»: وهي التي استقامتْ ونضجَتْ تربيتُها، فتكونُ آمنةً مطمئنة، راضيةً مرضية.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

والنفسُ تموت لأنها مخلوقة، كما أنَّ الروحَ تموتُ لأنها مخلوقة. فلا بدَّ أنْ تموتَ نفوسَ الإنس والجن والملائكة، ولا يبقى إلا الخالق الباقي سبحانه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وموتُ الروحِ يكونُ بمفارقتِها الجسد، وخروجِها من البدن. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

لكن هذه الروح عندما تفارقُ البدنَ لا تَبلى ولا تَفنى، ولا تُعدم ولا تَزول، وتبقى موجودةً حية، حياةً برزخية، تنتظرُ يومَ القيامة، حيث تُبعثُ لتُنعَّم أو تُعذَّب! ولا موتَ ولا فناءَ بعد البعث.

الإيمان بنعيم القبر وعذابه

٦٤ : «وَبِعَذَابِ القَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلاً، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ في قَبْرِهِ، عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الأَخْبَارُ، عَنْ رَسُول الله ﷺ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ. وَالقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّة، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النيران..».

الكلامُ هنا عن الإيمانِ بنعيمِ القبر وعذابه، فالمؤمنُ يؤمنُ أنَّ سؤالَ الملَكين للإنسان في قبرِه حاصل، وأنه إذا كان مؤمناً وفَّقَهُ الله إلى الجواب، فينعَّمُ بعدَ ذلك في قبره، ويكونُ قبرهُ له روضةً من رياض الجنة.

وإذا كان كافراً أو عاصياً لا يوفَّقُ للجواب، فيعذَّبُ بعد ذلك في قبره، ويكونُ قبرُه عليه حفرةً من حُفَرِ النار.

وقد تواترت الأَخبارُ عن رسول الله ﷺ في إثباتِ نعيم القبرِ وعذابِه، لمن كانَ له أَهلاً، وفي سؤالِ الملكين فيه، ويجبُ على المؤمنِ أنْ يؤمنَ بذلك.

ولا نَعرفُ كيفيةَ ذلك، لأنه من عالَمِ الغيب، وعقولُنا لا تَقدرُ على

تكييفِ أحداثِ عالم الغيب، ودورُها هو الإيمانُ بما ثبت في النصوصِ الصحيحة.

وتبدأُ أَحداثُ القبرِ عند دفنِ الميت مباشرة، حيثُ يعيدُ الله روحَه إلى جسده، بمجردِ الانتهاء من دفنه، ويُنزلُ عليه الملكيْن، فيُقعدانه ويُجلسانه، ويسألانه عن ربِّه ودينه، فإنْ كان مؤمناً أجابَ الجوابَ الصحيح فينعَّمُ في قبره حتى قيامِ الساعة، وإنْ كان كافراً أو عاصياً لم يُجب، فيعذَّبُ في قبره.

والسؤال للروحِ وهي في الجسد، والنعيمُ أو العذابُ للروحِ مع الجسد، لأنَّ الميتَ حيٌّ في قبره حياةً برزخيةً غيبية.

لقد شاءَ الله أنْ تتعلقَ روحُ الإنسانِ ببدنه، وتعلّقُها بالبدن على خمسةِ أَنواع، لكلِّ نوعٍ طبيعتُه الخاصة.

الأول: تعلُّقُ روح الإنسان ببدنه وهو جنينٌ في بطنِ أمه، حيث يُرسلُ الله المَلَك، فينفخُ فيه الروح، ويكونُ حياً حياةً خاصةً في رحمِ أمه.

الثاني: تعلقُ الروح بالبدن، بعد ولادةِ الإنسان وحياته على وجه الأرض، وهذا أمْرٌ مشاهَدٌ محسوسٌ لا نقاش فيه.

الثالث: تعلُّقُ الروحِ بالبدن عند نومِ الإنسان، فعندما ينامُ تفارقُ روحُه جسدَه مفارقةً خاصة، وعند استيقاظ الإنسانِ تعادُ روحُه إلى جسده.

الرابع: تعلقُ الروحُ بالبدن عند موتِ الإنسان ودفنِه في قبره، وهو تعلُّقٌ غيبي، لأنَّ البرزخَ وما فيه من نعيمٍ وعذابٍ أَمْرٌ غيبيٌّ وليس مادياً.

الخامس: تعلُّقْ الروحِ بالبدن عند البعثِ يومَ القيامة، وهذا أمرٌ غيبيٌّ أَيضاً، فالله يَبعثُ الإنسانَ يوم القيامة، وتكونُ روحُه في بدنه، وتبقى روحُه في بدنه إلى الأبد، ولا تفارقُه، فهو إمّا منعَّمٌ مخلَّدٌ، وإمّا معذَّبٌ مخلَّد.

إنها دوائرُ خمسة، لكلِّ دائرة حكمُها: دائرةُ حياةِ الجنين في بطن أمه،

ودائرةُ حياةِ الإنسان على وجه الأرض، ودائرةُ موتِ الإنسانِ الخاص عند نومه، وحياتِه عند استيقاظه، ودائرةُ حياته الغيبية الخاصة في قبره، ودائرةُ حياتِه الأبدية منعَّماً أو معذَّباً يومَ القيامة.

وعذابُ القبرِ هو عذابُ البرزخ ـ وكلُّ مَنْ ماتَ وهو مستحقٌ للعذاب فسينالُه نصيبُه منه، سواءٌ قُبِرَ أمْ لم يُقْبَر، سيعذَّبُ حتى لو أكلَتْه السباع، أو احترق حتى صارَ رماداً، أو نُسِفَ في الهواء، أو صُلب، أو غرق في البحر إنَّ الله على كلِّ شيء قدير، لذلك يجمعُ جثته المتفرقة، ويردُّ له روحَه فينعمُه أو يعذبُه.

عذاب القبر في القرآن والحديث

إنَّ نعيمَ القبر وعذابَه ثابتان في الآياتِ والأحاديث.

من الآيات التي تخبر عن ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

والنارُ التي يُعرضُ عليها آلُ فرعون غدواً وعشياً هي نارُ البرزخ وهي عذابُ القبر، بدليلِ قوله عن عذابهم يوم القيامة: «ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب».

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور: ٤٥ ـ ٤٧].

أَخبرت الآيةُ أنَّ للذين ظلموا عذاباً دونَ عذابِ يومِ القيامة: «عذاباً دون ذلك»، وهذا هو عذابُ القبر.

أمّا الأحاديثُ الصحيحةُ التي تحدثَتْ عن نعيمِ القبر وعذابه، ووصفَتْ ما يجري فيه فهي كثيرة. منها:

١ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبره، وتولّى عنه أَصحابُه، إنه ليسمعُ قَرْعَ نعالهم، فيأتيه مَلَكان، فيُقْعِدانه، فيقولان له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل، محمدٍ ﷺ؟

فأمّا المؤمنُ فيقول: أَشهدُ أنه عبدُ الله ورسولُه.

فيقول له: انظرْ إلى مقعدكَ من النار، أَبدلَكَ الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً»[١].

٢ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بقبريْن، فقال: إنهما ليعذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير، أمّا أحدُهما فكانَ لا يستترُ من البول وأمَّا الآخر فكان يمشي بالنميمة، فدعا بجريدةٍ رطبة، فشقَّها نصفين، وقال: لعلَّه يخفَّفُ عنهما ما لم يَيْبَسا...»[٢].

حديث مطول في نعيم القبر وعذابه

٣ ـ روى أَبو داود وأحمد وغيرُهما حديثاً مطولاً عن أَحداثِ القبر فعن البَراءِ بنِ عازب رضي الله عنه قال: كُنّا في جنازةٍ في بقيعِ الغَرْقَد فأَتانا رسولُ الله ﷺ، فقَعَدَ وقعَدْنا حولَه، كأنَّ على رؤوسِنا الطير، وهو يُلْحَدُ له.

فقالَ ﷺ: أَعوذُ بالله من عذاب القبر. ثلاثَ مرات. ثم قال:

إنّ العبدَ المؤمن إذا كانَ في إقبالٍ من الآخرة وانقطاعٍ من الدنيا، نزلَتْ إليه الملائكة، كأنَّ على وجوههم الشمس، معهم كَفَنٌ من أَكفانِ الجنة، وحَنوطٌ من حَنوط الجنة، فجَلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يَجيءُ مَلَكُ

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٣٨. ومسلم برقم: ٢٨٧٠.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢١٦. ومسلم برقم: ٢٩٢.

الموت، حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أَيتها النفسُ الطيبة: اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان. فتخرجُ تَسيل، كما تسيلُ القطرةُ من في السقاء، فيأخُذها. فإذا أَخَذَها لم يَدَعوها في يدِهِ طرفةَ عين، حتى يأْخُذوها، فيجعلوها في ذلك الكَفَن وذلك الحَنوط، ويخرجُ منها كأطيبِ نفحَةِ مِسْكٍ وُجدتْ على وجْهِ الأرض.. فيصعدون بها، فلا يَمُرّون بها على ملأ من الملائكة إلاَّ قالوا: ما هذه الروحُ الطيبة؟ فيقولون: فلانُ بنُ فلان، بأحسنِ أَسمائه التي كانوا يسمّونَه بها في الدنيا.. حتى ينتهوا بها إِلى السماء، فيستفتحون له، فيُفتح له، فيشيعُه مِنْ كلِّ سماء مقرَّبوها، إلى السماءِ التي تَليها، حتى يُنتهىٰ بها إلى السماءِ السابعة. فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابَ عبدي في علّيّين، وأَعيدوهُ إلى الأرض، فإني منها خلقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرجُهم تارةً أخرى...

فتُعادُ روحُه في جسده، فيأتيه مَلَكان، فيُجلسانه، فيقولان له: مَنْ رَبُّك؟ فيقول: ربّي الله، فيقولان له: ما دِينُك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله، فيقولان له: ما عِلْمُكَ به؟ فيقول: قرأتُ القرآن، فآمنْتُ به، وصَدَّقْت.

فيُنادي منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدي، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحِها وطِيبِها، ويُفسح له في قبره مَدَّ بصره ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجه، حَسَنُ الثياب، طيبُ الريح، فيقول: أَبْشِرْ بالذي يسرُّك، هذا يومُكَ الذي كنتَ توعَد، فيقول له: مَنْ أنت؟ فوجْهُك الوجْهُ الذي يجيءُ بالخير! فيقول له: أنا عملُك الصالح: فيقول: يا ربِّ أقِمِ الساعة حتى أَرجعَ إلى أهلي ومالي.

وإنَّ العبدَ الكافرَ إذا كانَ في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزلَ إليه من السماء ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهم المسوح فيجلسون منه مَدَّ البصر، ثم يجيءُ مَلَكُ الموت حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفسُ الخبيثة، اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضبٍ! فتتفرقُ في جسده، فَيَنْتزعُها كما يَنتزعُ

السّفُّودَ من الصوفِ المبلول، فيأخذُها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفةَ عين، حتى يجعلوها في تلكَ المسوح، ويَخرجُ منها كأنتنِ ريحِ خبيثةٍ وُجدتْ على وجْهِ الأرض، فيَصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذه الروحُ الخبيثة؟ فيقولون: فلانُ بنُ فلان، بأقبحِ أسمائه التي كان يُسَمّى بها في الدنيا، حتى يُنتهىٰ بها إلى السماء الدنيا، فيُستفتَح له، فلا يُفتحُ له، ثم قرأ ﷺ قولَه تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقولُ الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى، فتُطرحُ روحُه طرحاً، ثم قرأ ﷺ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتعادُ روحُه في جسده، ويأتيه مَلَكان فيُجلسانِه، فيقولان له: مَن ربّك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أُدري، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعثَ فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري!!

فيُنادي منادٍ من السماء: أنْ كَذَبَ، فافْرشوه من النار، وافْتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه مِن حَرِّها وسمومِها ويَضيقُ عليه قَبْرَه، حتى تختلفَ فيه أَضلاعُه!

ويأتيهِ رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيحُ الثياب، مُنتنُ الريح، فيقول أبشرْ بالذي يسوءُك، هذا يومُك الذي كنتَ توعَد! فيقول له: مَنْ أنت؟ فوجْهُكَ الوجهُ الذي يَجيءُ بالشر! فيقول: أنا عملك الخبيث! فيقول: ربِّ لا تُقِمِ الساعة..[1].

هذه الأحاديثُ الصحيحةَ نصٌّ في سؤالِ الملكين، وفي نعيمِ القبرِ وعذابِه، ولا بدَّ أنْ نؤمنَ بما قالَتْ به.

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٧٥٣. وأحمد في المسند ٤:٢٩٥ ـ ٢٩٦.

ثلاث دور للإنسان

لقد جعلَ الله للإنسان دوراً ثلاثة، وهو ينتقلُ من دار إلى دار، ولكلّ دارٍ حكمُها، وأَحكامُها الخاصةُ بها، ويختلفُ وضْعُ وحالُ الإنسانِ في كلِّ دارٍ منها.

الأولى: دارُ الدنيا، جعلَ الله أَحكامَها على الأبدان، والأرْواحُ تابعةٌ لها.

الثانية: دارُ البرزخ: جعلَ الله أحكامَها على الأرواح، والأبدانُ تابعة لها.

الثالثة: دارُ القرار، وهي الآخرة، حيث جعلَ الله أحكامَها على الأبدانِ والأرواح معاً، وهي دارُ الخلود، حيث ينعمُ المؤمن أبداً، والنعيمُ للروحِ والجسد، ويُعذَّبُ الكافرُ أبداً، والعذابُ للروحِ والجسد.

وما في القبر من نارٍ ونعيم ليس من جنسِ نارِ الدنيا ونعيمها، وإنما هما غيبيان، فنحنُ نرى القبرَ تراباً وحجارة، لكن فيه من النارِ ما الله بها عليم!

وقد يوجَدُ قبران متجاوران، أَحدهما روضةٌ من رياضِ الجنة على صاحبه، والثاني حفرةٌ من حفرِ النار على صاحبه. وهذا من عالم الغيب، والله على كلِّ شيء قدير.

وقد أخفى الله عنا عذابَ القبر ونحن أحياء في الدنيا، لأنَّ عقولَنا القاصرة لا تستوعبُه، ولو أَطلعنا الله عليه لزالتْ حكمة التكليف، ولأدى ذلك إلى عدمِ تدافُنِ الناس، خوفاً من عذابِ القبر.

ولما كانت هذه الحكمةُ منفيةً في حقِّ البهائم أَسمعَها الله عذابَ القبر.

روى مسلمٌ عن زيدِ بن ثابت رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لولا أنْ لا تَدافنوا لدعوتُ الله أنْ يُسمعَكُم من عذابِ القبر ما أَسمع..»(١).

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٨٦٧.

النعيم والعذاب للروح والجسد

ونَعيمُ القبرِ للمؤمن دائمٌ مستمرٌ حتى قيامِ الساعة.

أمّا عذابُ القبر فهو على حسبِ الإنسانِ الذي يُعَذَّبُ:

فإنْ كانَ الإنسانُ المعذَّبُ كافراً كان عذابُه دائماً حتى قيام الساعة، لينتقلَ بعدَ ذلك إلى عذابِ جهنم، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

وإنْ كانَ المعذَّبُ عاصياً، فاستمرارُ عذابِه أوْ انقطاعُه على حسب ذنوبِه ومعاصيه. فإنْ كانتْ معاصيه قليلةً كان عذابُه موقوتاً، وعندما ينتهي عذابُه يتحوَّلُ القبرُ إلى روضة، ويُنعمُ فيه. وإنْ كانتْ معاصيه كثيرة، فقد يَبقى عذابُه في القبر مستمرّاً حتى قيام الساعة.

وإذا كانَ النعيمُ أو العذابُ في القبرِ للروح مع البدن، فإنَّ الأرواحَ تكونُ في أجسادها في القبر، سواء كان أصحابُها مؤمنين أمْ كافرين، فأَرواحُهم تتنعَّمُ أو تتعذَّب حسبَ الأعمالِ التي عملوها في الدنيا.

وأحوالُ الأرواح تتفاوتُ في البرزخ، فمنها ما تكونُ محبوسةً في القبر، ومنها ما تكونُ محبوسةٌ في الأرض، ومنها ما تكون محبوسة في تَنّورِ الزّناة، ومنها ما تكون محبوسةً في بحرِ الدم، وهكذا.

والصالحون تكونَ أَرواحُهم مكرَّمةً عند الله.

فأَرواحُ الأنبياء في أعلى علّيين، في الملأ الأعلى.

الشهداء أحياء وأرواحهم في الجنة

والشهداءُ تكونُ أرواحُهم في حواصلِ طيورِ خضر، تسرحُ في الجنة حيث شاءت، ثم تَبيتُ إلى قناديلَ في ظلِّ العرش.

لقد أَكرمَ الله الشهداءَ الذين قُتلوا في سبيله، لأنهم بذلوا أبدانَهم الفانية

له سبحانه، ونَصَروا بهذه الأبدان دينَه، وأتْلَفَها أعداؤه، فعوَّضَهم الله خيراً منها، بأنْ جعلَهم أحياءً في عالم البرزخ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وروى مسلمٌ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضْر، لها قناديلُ معلقةٌ بالعرش، تسرحُ من الجنة حيثُ شاءَت، ثم تَأوي إلى تلك القناديل.

فاطلعَ إليهم ربُّهم اطِّلاعَة. فقال: هل تَشتهون شيئاً؟

قالوا: أيَّ شيء نَشتهي؟ ونحنُ نسرحُ في الجنة حيث شئْنا!

ففعلَ ذلك بهم ثلاثَ مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا مِن أنْ يَسْألوا قالوا: يا ربِّ: نُريدُ أنْ تردَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتى نُقتلَ في سبيلك مرةً أخرى.

فلما رأى أنْ ليس لهم حاجة تُركوا...»[1].

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ الأرضَ لا تأكلُ أجسادَ الأنبياء والشهداء.

روى أبو داود عن أوسِ بن أوس رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: إنَّ مِنْ أفضلِ أيامكم يومَ الجمعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبض، وفيه النَّفخَة، وفيه الصَّعقة.

فأكْثِروا عَلَيَّ مِن الصلاة فيه، فإنَّ صلاتكم معروضة عَلَيَّ.

قالوا: يا رسولَ الله: وكيف تُعْرَضُ صلاتُنا عليك، وقد أَرِمتَ ـ بَليتَ ـ؟

قال: إنَّ الله عز وجل حَرَّمَ على الأرض أجسادَ الأنبياء..[2].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٥٠٢.

(٢) أخرجه أبو داود برقم: ١٠٤٧.

وروى البخاريُّ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما حَضَرَ أُحُدٌ دَعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلاَّ مقتولاً في أوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وإني لا أتركُ بعدي أعزَّ عليَّ منك، غيرَ نفسِ رسول الله ﷺ، فإنَّ عَلَيَّ دَيْناً فاقْضِه، واستوْصِ بأخوتك خيراً.

فأصبحنا، فكان أوَّلَ قتيل. ودُفِنَ معه آخرُ في قبر، ثم لم تَطِبْ نفسي أنْ أتركَه مع الآخر! فاستخرجْتُه بعد ستةِ أشهر، فإذا هو كيوم وضعْتُهُ هنية، غيرَ أذنه![(١)].

وروى مالكٌ في الموطّأ عن عبد الرحمٰن بن أبي صعصعة أنهُ بَلَغَهُ أنَّ عمرو بن الجموح وعبدَ الله بن عمرو الأنصاريّيْن، كان قد حفر السيلُ قبرَهما، وكانَ قبرُهما مما يلي السيل، وكانا في قبرٍ واحد، وهما ممن استشهدَ يومَ أُحُد.

فحفرَ عنهما، ليغيَّرا من مكانهما، فوُجدا لم يتغيّرا، كأنَّهما ماتا بالأمس.

وكانَ أحدُهما قد جُرح، فَوَضَعَ يدَه على جرحه، فَدُفِنَ وهو كذلك فأُميطتْ يدهُ عن جرحه، ثم أُرسلت، فرجعَتْ كما كانت.

وكان بينَ أُحُد ويومَ حُفِرَ عنهما ستٌّ وأبعون سنة[(٢)].

الإيمان بمشاهد الآخرة

٦٥ : «وَنُؤْمِنُ بِالبَعْثِ وَجَزاءِ الأعْمالِ يَوْمَ القِيامة، والعَرْضِ وَالحِساب، وَقِراءة الكتاب، والثَّوابِ، وَالعِقاب، والصِّراط وَالميزان..».

البعثُ بعدَ الموت حقيقةٌ اعتقادية دلَّ عليها الكتابُ والسنة، والعقْلُ والفطرةُ السليمة، وقد تحدثَ القرآنُ كثيراً عن البعث، وأقامَ الأدلةَ عليه، وأبطلَ شبهاتِ الكفارِ حولَه.

---

(١) أخرجه البخاري: ١٣٥١.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢: ٤٧٠.

وكلُّ الأنبياءِ السابقين جاءوا بتقريرِ حقيقةِ القيامةِ والبعث، ودَعَوْا أَتْباعَهم إلى الإيمانِ بها.

والحديثُ عن يومِ القيامة والحياةِ الآخرة مفصَّلٌ في القرآنِ والسنة، لأنَّ رسولَ الله ﷺ هو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين، وكانت بعثتُه من علاماتِ الساعة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن جبيرِ بن مُطْعَم رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحُو الله بي الكفر، وأنا الحاشرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدميّ، وأنا العاقب..»[1].

والعاقبُ هو الذي ليس بعدَه نبي، وهو المقضيّ، الذين ختمَ الله به الأنبياء.

وروى البخاريُّ ومسلم عن سهلِ بن سعد رضي الله عنه قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتيْن..»[2].

كل نبي قرر الآخرة

والدليلُ على أنَّ كلَّ نبيٍّ أخبرَ أتْباعَه بوجوبِ الإيمان بالبعثِ والآخرة ورجوعِهم إلى الله، ورودُ آياتٍ من القرآن تخبرُنا عن ذلك.

قال تعالى ـ يخبرُ عن قولِ إبليسَ لربه لما عصى أمْرَه ولم يسجُد لآدم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: ٧٩ ـ ٨١].

وأخبرَ الله آدمَ عن يوم القيامة لما أَهبطَه إلى الأرض قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٩٦. ومسلم برقم: ٢٣٥٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٣٦. ومسلم برقم: ٢٩٥.

وطلبَ نوحٌ عليه السلام من قومه أنْ يُؤمنوا بالبعث والمعاد. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

ودعا إبراهيمُ عليه السلام من ربه أن لا يُخزِه يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٢ ـ ٨٩].

وأخبرَ الله موسى عن قربِ قيامِ الساعة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ [طه: ١٥، ١٦].

بل إنَّ مؤمنَ آلِ فرعون لما آمنَ بموسى عليه السلام ذَكَّرَ قومَ فرعون بالآخرة والحساب. قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

ويَعترفُ الكفارُ يومَ القيامة بأنَّ رسلَهم أخبروهم بالبعث، وحَذَّروهم العذابَ يومَ القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وأَمر الله نبيه محمداً ﷺ أنْ يُقسِم للكفارِ المنكرين للبعث على أنه قادمٌ واقع.

قال تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ [يونس: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ﴾ [سبأ: ٣].

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

وأخبرَنا الله عن اقترابِ قيام الساعة رغم غفلةِ الكافرين عنها، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١].

وذمَّ الله الكفارَ الذينَ يُكذبون بالبعثِ والمعاد، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

من الأدلة القرآنية على البعث

وناقشتْ آيات القرآن الكفار المنكرين للمعاد، وأبطلتْ شبهاتهم حوله وأقامت الأدلة على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٧ ـ ٩٩].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ

أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

وندعو إلى النظرِ في هذه المجموعاتِ من الآيات وحُسْنِ تدبُّرِها، وحسْنِ استخراجِ أدلةِ البعثِ منها.

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ كلَّ ما في الإنسان يَبلى إلاَّ «عَجْبُ الذَّنَب» فإنه لا يَفنى، منه يُركَّبُ الخلقُ يومَ القيامة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ما بين النفختين أربعون. قال: أربعونَ يوماً؟ قال: أبيتُ. قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. قال أربعون سنة؟ قال أبيتُ.

ثم يُنزلُ الله من السماءِ ماء، فينبتون كما يَنبتُ البَقْل، وليس من الإنسان إلاَّ يبلى، إلاَّ عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنب، ومنه يركَّبُ الخلقُ يومَ القيامة»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٢٦، ومسلم برقم: ٢٨٤١.

الحشر والسوق للحساب

وبعد بعثِ الناس أحياءً من قبورهم يُساقونَ لجزاء الأعمال التي عملوها في الدنيا.

ومن أسماءِ يوم القيامة: «يومُ الدين» والدّينُ هو الجزاء. يقال: كما تَدينُ تُدان. قال تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

والحسناتُ يومَ القيامة مضاعَفة، والسيئاتُ كلٌ واحدةٍ بمثلِها قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

إنّ الله يُحصي على الناس أعمالَهم في الدنيا، ثم يُحاسبُهم عليها يومَ القيامة.

روى مسلمٌ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ فيما يَرويه عن ربه قال: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوفيكُم إياها، فمن وَجَدَ خيراً فليحمدِ الله، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلاَّ نفسه»(١).

وبعدما يُبعثُ الناسُ يُحشَرون إلى أرضِ الموقف، لِيُعْرَضوا فيها على ربهم وتتمَّ محاسبتُهم.

نُصوص في العرض والحساب

والآياتُ التي أخبرتْ عن عرضِ الناس وأعمالهم كثيرة:

١ ـ قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٧٧.

﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة: ١٥ ـ ١٨].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٨، ٤٩].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٧].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

ومن الأحاديثِ في العرضِ والحساب يومِ القيامة ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ ليس أحَدٌ يحاسَبُ يومَ القيامة إلا هلك»!

فقلت: يا رسولَ الله: أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

فقال رسولُ الله ﷺ: إنما ذلك العرض، وليس أحَدٌ يناقشُ الحسابَ يومَ القيامة إلاَّ عُذِّبَ[1].

يَعني أنه لو ناقشَ الله عبادهُ الحسابَ لعذَّبهم، وهو عادلٌ غيرُ ظالم، ولكنه سبحانه يعفو ويصفحُ عن عبادِه الصالحين، ويُحاسِبُهم حساباً يسيراً.

وعندما يكونُ العبادُ واقفين في أرضِ الموقف يحاسَبون، يتجلّى لهم

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٠٣ ومسلم برقم: ٢٨٧٦.

الربُّ سبحانه وتعالى، تجلّياً يليقُ بعظمتِه وجلالِه سبحانه، ليفصَل بينهم، وتُشرقُ الأرضُ التي يقفون عليها بنوره.

صعق الناس في ساحة العرض

وعندما يشاهِدُ الناسُ أنوارَ الله الذي تجلّى عليهم يُصعقون، ويكونُ رسولُنا محمدٌ ﷺ معهم، وعندما يَفيقُ من الصعقة يرَى موسى عليه السلام واقفاً، آخِذاً بقائمة العرش.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الناس يُصعقون يومَ القيامة، فأكونُ أولَ مَنْ يفيق، فإذا موسى آخذٌ بقائمةِ العرش، فلا أَدري أَفاقَ قبلي، أَمْ جوزيَ بصعقة يوم الطور»[1].

يُخبرُ الرسولُ ﷺ أنه يكونُ أولَ مَنْ يفيقُ من الصعق، وعندما يفيقُ ينظر، فإذا موسى عليه السلام آخذٌ بقائمةِ العرش، ممسكٌ بيده بها.

ولم يجزمْ رسولُ الله ﷺ: هل فاقَ موسى عليه السلام قبله، أم لمْ يُصعق، اكتفاءً بصعقته في الدنيا، لمّا ذهبَ إلى جبلِ الطور، وطلبَ أنْ يرى الله، وتجلّى الله إلى الجبل، فدكّه، وصعق موسى، وهي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقالَ عبدُ الله بن المبارك في العرضِ والحساب شعراً:

وطَارَتِ الصُّحُفُ في الأَيْدي مُنَشَّرَةً فِيه السَّرايِرُ والأَخْبارُ تَطَّلِعُ
فَكَيْفَ لَهْوُكَ وَالأَنْبَاءُ واقِعَةٌ عَمَّا قليلٍ ولا تدْري بِما تَقَعُ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤١١. ومسلم برقم: ٢٣٧٣.

أَفي الجِنان وَفَوْزٌ لا انْقِطاعَ لَهُ ... أمُ الجَحيمُ فلا تُبقي ولا تَدَعُ
تَهْوي بِساكِنِها طَوْراً وَتَرْفَعُهُمْ ... إذا رَجَوْا مَخْرجاً مِنْ غَمِّها قُمِعُوا
طالَ البُكاءُ فَلَمْ يُرْحَمْ تَضَرُّعُهمْ ... فيها ولا رِقَّةٌ تُغْني ولا جَزَعُ
لِيَنْفَعِ العِلْم قبْلَ المَوْتِ عالِمَهُ ... قَدْ سالَ قَومٌ بِها الرُّجْعى فما رَجَعُوا

المرور على الصراط

ومن مشاهدِ الآخرة التي نؤمن بها الصراط، وهو جسرٌ يُنصَبُ على جهنم، فإذا انتهى الناسُ من الموقف، سيقوا إلى الصراط، ليجتازَه المؤمنون إلى الجنة.

وقبلَ وصولِهم إلى الصراط، هناك ظلمةٌ يوقفون فيها، وفي هذه الظلمةِ يفترقُ المؤمنون عن المنافقين.

روى مسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أينَ الناسُ يومَ تبدلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسموات؟ قال: «هم في الظلمة، دونَ الجسر»(١).

يتوجّهُ المؤمنون إلى الظلمة التي قبلَ الجسر، ويسيرُ المنافقون بأنوارِ المؤمنين، وفجأةً يُحالُ بين المنافقين والمؤمنين، فلا يرى المنافقون في الظلامِ شيئاً، وعندما يَستنجدون بهم، يأتيهم الجوابُ توبيخاً وتأنيباً لهم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٢ ـ ١٤].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٣١٥.

وأخبرَنا الله أنَّ كلَّ الناس يمرّون على الصراط المنصوبِ على حافةِ جهنم، فيُنجي الله المؤمنين المتقين، ويُهلكُ الكافرين الظالمين في جهنم.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

والمرادُ بالورودِ المذكورِ هنا المرورُ على الصراط، لأن هذا هو ما فَسَّرَهُ به رسولُ الله ﷺ.

روى مسلم عن جابرِ بن عبدِ الله رضي الله عنهما قال: أخبرَتْني أمُّ مبشر، أنها سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ عند حفصة: «لا يدخلُ النار ـ إن شاء الله ـ أحدٌ من أصحابِ الشجرة الذين بايعوا تحتها».

قالَتْ حفصة: بلى.

فانتهرَها رسولُ الله ﷺ.

فقالَتْ: الله يقول: «وإن منكم إلا واردها».

فقال: عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[1].

الميزان وحديث البطاقة

ومن مشاهد يوم القيامة الميزان.

وهذا الميزانُ يكونُ بعدَ الحساب، لأنَّ الحسابَ لتقريرِ الأعمال التي عملَها الإنسان في الدنيا، وبعدَ ذلك الميزان لوزْنِها، حيث يُجازىٰ عليها، ويأخذُ نتيجتَه عليها.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٤٩٦.

وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

وهذا الميزانُ له كَفَّتان حسّيّتان لوزْن الأعمالِ خيرِها وشرها.

ومن أثقلِ الأقوالِ في هذا الميزان الكلمةُ الطيبة «لا إله إلا الله»، فهي ترجِّحُ كفةَ الحسناتِ، وتُثقلُ ميزانَ صاحبها، وتكونُ سبباً في نجاته، بدليلِ حديثِ «البطاقة».

روى الترمذيُّ وابنُ ماجه وأحمد عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: إن الله سيخلِّصُ رجلاً من أُمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامة، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعين سِجِلاً، كلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البصر!

ثم يقول له: أتنكرُ من هذا شيئاً؟ أظَلَمكَ كَتَبتي الحافظون؟

قال: لا، يا رب.

فيقول: ألكَ عذرٌ أو حسنة؟.

فيبهت الرجل، فيقول: لا، يا رب.

فيقول: إنَّ لكَ عندنا حسنةً واحدة، لا ظلمَ عليك اليوم.

فتُخْرَجُ له بطاقة، فيها. أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأشهدُ أن محمداً رسولُ الله.

فيقول: يا رب، ما هذه البطاقةُ مع هذه السجلات؟

فيقول: إنك لا تُظْلَم.

فتوضَعُ السِّجِلاّت في كَفَّة، والبطاقةُ في كَفَّة، فطاشت السِّجلاّت، وثَقلت البطاقة، ولا يَثْقُلُ شيءٌ مع اسم الله»(١).

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢٦٣٩، وابن ماجه برقم: ٤٣٠٠.

وزن الأعمال والأشخاص في الآخرة

وكما توضعُ الأعمال في الميزان كذلك يوزن فيه الأشخاص، فيثقُلُ فيه الرجلُ المؤمن، ويخفُّ فيه الرجلُ الكافر فلا يَزِنُ جَناحَ بعوضة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه. عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يوم القيامة، لا يَزِنُ عندَ الله جناحَ بعوضة.

وقال: اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥](١).

وإذا كانَ الكافرُ لا يَزِنُ شيئاً في الميزان، فإنَّ المؤمن ثقيلٌ في الميزان بسببِ إيمانِه وتقواه.

روى أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنهُ كان يَجتني سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين فجعلت الريحُ تكفؤه. فضحكَ القومُ منه فقالَ رسولُ الله ﷺ: مِمَّ تضحكون؟

قالوا: يا نبيَّ الله: من دقةِ ساقه!

فقالَ عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده: لهما أثقلُ في الميزان من جبل أُحد..»(٢).

والأذكارُ والتسبيحاتُ مِن أثقلِ ما يوضَعُ في الميزان.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: كلمتانِ خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمٰن ثقيلتان في الميزان: سبحانَ الله وبحمده، سبحان الله العظيم..(٣).

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٧٢٩. ومسلم برقم: ٢٧٨٥.
(٢) أخرجه أحمد في المسند: ١: ٤٢٠ ـ ٤٢١.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٦٤٠٦. ومسلم برقم: ٢٦٩٤.

لماذا الميزان يوم القيامة؟

ومن الحِكَم في وزنِ أعمالِه الإنسانِ في الميزان، إظهارُ عدلِ الله سبحانه، واطْلاعُ الشاهِدين الحاضِرينُ على وزْن الأعمال وبيانِ نتائجها، ليعلموا أنَّ الله لم يظلم الإنسان، وإنما جازاه بأعماله.

قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وبعدَ الميزان يكونُ المرورُ على الصراط، ولا يَجتازُ الصراطَ إلاَّ المؤمنون الناجون الفائزون، ويوقِفُهم الله على قنطرةٍ قبلَ دخولهم الجنة، ليتصَافُوا فيما بينهم.

روى البخاريُّ عن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «يَخلصُ المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرةٍ بين الجنة والنار، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم، كانتْ بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا وَنُقّوا، أُذِنَ لهم في دخولِ الجنة، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده، لأحدهم أهدى بمنزلِه منه بمنزلِهِ كان في الدنيا»(١).

الجنة والنار مخلوقتان موجودتان

٦٦ : «وَالجَنَّةُ والنَّارُ مَخْلُوقَتانِ، لا تَفْنَيانِ أَبَداً ولاَ تَبِيْدان، فإِنَّ الله تَعالى خَلَقَ الجَنَّةَ والنَّارَ قَبْلَ الخَلْقِ، وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلاً، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إلى الجَنَّةِ فَضْلاً مِنْهُ، وَمَنْ شاءَ مِنْهُمْ إلى النَّارِ عَدْلاً مِنْهُ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ لما قَدْ فَرِغَ لَهُ، وصائِرٌ إلى ما خُلِقَ لَهُ، والخَيْرُ والشَّرُّ مُقَدَّرانِ على العِبادِ».

اتفق أهلُ السنةِ والجماعةِ على أنَّ الجنةَ والنار مخلوقتان، وأنَّ الله خلقَهما قبل خلقِ آدم أبي البشر، وأنهما موجودتان الآن.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤٤٠.

وأشارتْ نصوصُ الكتابِ والسنة إلى أنهما موجودتان:

١ ـ ففي رحلةِ المعراج أدخلَ الله نبيَّه محمداً ﷺ الجنة، وتنقَّلَ فيها، حتى وصلَ إلى سدرة المنتهى، التي عندَها جنةُ المأوى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥].

٢ ـ ويوضحُ معنى هذه الآيات ما رواه البخاريُّ ومسلم عن مالكِ بن صعصعة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ في حديثِ الإسراءِ الطويل، ومما وردَ فيه قولُه ﷺ: «ثم انطلقَ بي جبريل، حتى أتى سدرةَ المنتهى فغشيَها ألوانٌ لا أدري ما هي.. ثم دخلتُ الجنة، فإذا فيها جنابذُ اللؤلؤ، وإذا ترابُها المسك»[١].

والجَنابِذُ هي القُباب، أيْ أنَّ قُبَاب الجنة مبنيةٌ من اللؤلؤ.

٣ ـ وعندما يموتُ الإنسان ويوضعُ في قبره، يُعرضُ عليه مقعدُه من الجنة أو من النار، وهذا دليلُ أنهما موجودتان الآن.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداةِ والعشيّ، إن كانَ من أهلِ الجنة فمن أهل الجنة، وإنْ كان من أهل النار فمن أهلِ النار، ويقال له: هذا مقعدُك حتى يبعثَك الله يومَ القيامة»[٢].

٤ ـ رأى رسولُ الله ﷺ وهو في صلاةِ الخسوف الجنة والنار وهذا دليلُ أنهما موجودتان الآن.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: انخسفت الشمسُ على عهدِ رسول الله ﷺ... إلى أن قال: «فقالوا: يا

(١) أخرجه البخاري: ٣٢٠٧. ومسلم: ١٦٤.
(٢) أخرجه البخاري: ١٣٧٩. ومسلم برقم: ٢٨٦٦.

رسولَ الله: رأيناكَ تناولْتَ شيئاً من مقامِك، ثم رأيناك تكعكعت؟

فقال: إني رأيتُ الجنة، فتناولتُ عنقوداً، ولو أصبتُه لأكلتُم منه ما بَقيت الدنيا، ورأيتُ النار، فلم أرَ منظراً كاليوم قطّ أفظع..»[1].

٥ ـ روى مسلمٌ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو رأيتُم ما رأيتُ لضحكْتُم قليلاً، ولبكيتُم كثيراً».

قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟

قال: رأيتُ الجنةَ والنار»[2].

٦ ـ روى أبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «لما خَلقَ الله الجنةَ والنار، أرسلَ جبريلَ إلى الجنة. فقال: اذهب فانظرْ إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلها منها.

فذهبَ فنظرَ إليها، وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها، فرجَع فقال: وعزتك، لا يسمعُ بها أحدٌ إلاَّ دخلَها.

فأَمرَ الله بالجنة فحُفَّتْ بالمكارِه، فقال: ارجْع، فانظرْ إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلِها فيها.

فنظرَ إليها، ثم رجع فقال: وعزتِك، لقد خشيتُ أنْ لا يدخلَها أحد.

ثم أرسله إلى النار، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها.

فنظرَ إليها، فإذا هي يركبُ بعضُها بعضاً!

فرجعَ فقال: وعزتك يا رب، لا يدخلُها أحدٌ سمع بها!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٠٥٢. ومسلم برقم: ٩٠٧.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٤٢٦.

فأمَرَ بها فحُفَّت بالشهوات ثم قال: اذهب فانظرْ إلى ما أعددتُ لأهلها فيها.

فذهبَ فنظرَ إليها، فرجع، وقال: وعزتك، لقد خشيتُ أنْ لا ينجو منها أحد![1].

وقد خلقَ الله آدم في الجنة، وجرى ما جرى له فيها، ثم أهبطه الله إلى الأرض، وهذا دليلٌ آخرَ على أنها موجودةٌ قبلَ خلق آدم.

الجنة والنار لا تفنيان ولا تبيدان

ومعنى قولِ الإمام الطحاوي: «لا تفنيان أبداً ولا تبيدان»: أنَّ الجنةَ والنارَ موجودتان، وستبقيان موجودتيْن إلى الأبد، فليس لهما نهاية، والمؤمنون مُنَعَّمون في الجنة أبداً، والكفار مُعَذَّبون في النار أبداً.

ودلّ على هذه الحقيقةِ قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود: ١٠٥ ـ ١٠٨].

ظاهرُ هذه الآياتِ أنَّ الكفارَ معذَّبون في النار، خالدون فيها، وأن المؤمنين منعَّمون في الجنة، خالدون فيها، وهذا معناهُ أن الجنةَ لا تَفنى ولا تَبيد، وأن النارَ لا تَفنى ولا تَبيد.

وقد اختلفَ المسلمون في معنى الاستثناء، في قولِه عن نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

فهل يدلُّ على فناءِ النارِ وفناءِ الجنة؟ وهل يدلُّ على عدمِ خلود المؤمنين والكافرين؟.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٧٤٤. والترمذي برقم: ٢٥٦٣. والنسائي ٧: ٣ ـ ٤.

والراجحُ فيه أنه استثناءٌ لا يفعلُه الله سبحانه، وإنما هو لبيانِ أنَّ الله يشاءُ ما يُريد، وأنَّ مشيئتَه طليقة، لا يقيدها شيء وأنه فعّال لما يُريد.

إنهم مع خلودِهم ما زالوا في مشيئةِ الله، فلو شاءَ الله عدمُ خلودهم لأفناهم، ولو شاء إبادة الجنة والنار لفعل، لا يوقفُه أحَدٌ عن مشيئَتِه، لأنه فعّالٌ لما يريد.

ولكن ليس معنى هذا الاستثناء أنْ يتحققَ فِعْلاً، لأنَّ الله شاءَ أن يكونَ المؤمنون مخلَّدين في الجنة، فلا يُخرجهم منها، ولا يُفنيها ويُبيدها، وشاءَ أنْ يكونَ الكافرون مخلَّدين في النار، فلا يُخرجُهم منها، ولا يُفنيها ولا يُبيدها. وما شاءَ اللَّهُ كان، وما لم يشأْ لم يكن.

ودليلُ أنَّ هذا الاستثناء: «إلاّ ما شاءَ ربك» لا يتحققُ فعْلاً، وأنَّ اللَّهَ شاءَ خلودَ كلِّ فريقٍ في داره، قولُه تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. أي: نعيمُ الجنة باقٍ مستمر، لا ينقطعُ ولا يتوقف. والجَذُّ هو: القطْع.

ودلَّتْ آياتٌ أُخرى على عدمِ انقطاعِ نعيم الجنة. منها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ [ص: ٥٤].

وقوْله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ [الرعد: ٣٥].

وقولُه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨﴾ [الحجر: ٤٨].

ومن الأمثلةِ القرآنيةِ على عدم تحققِ بعضِ الاستثناءات، وأن إيرادَها إنما هو لبيانِ طلاقةِ المشيئة، وأنَّ الله لا يقيدُه شيء، قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦﴾ [يونس: ١٦].

أي: لو شاءَ الله أنْ لا أتْلو القرآن عليكم لما تلوتُه، لأنَّ ما شاءَ الله فِعْلَه فَعَلَه! فهل شاءَ الله أنْ لا يتلوَ القرآن عليهم؟ كلا. فقد شاءَ الله أنْ يتلوه عليهم، فتلاه وأسمعهم إياه. فهذا الشرطُ لبيان طلاقةِ مشيئته سبحانه.

ومنها قولُه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ [الشورى: ٢٤].

أي لو شاءَ الله أنْ لا تبلِّغَ القرآن لختمَ على قلبك وأنساك إياه، فلا تتكلم منه بكلمة، ولكنه ما شاءَ ذلك، وإنما شاءَ أنْ تبلِّغهم القرآن.

أحاديث في عدم فناء الجنة والنار

والأدلةُ من السُّنَّةِ على أبديةِ الجنةِ والنار كثيرة.

منها ما رواهُ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يَدخلُ الجنة يَنعمُ ولا يَبأس، لا تَبلى ثِيابُه، ولا يَفْنىٰ شبابُه»[١].

ومنها ما رواهُ مسلمٌ عن أبي هريرةَ وأبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «ينادِي مناد: يا أهل الجنة: إنَّ لكم أن تَصِحّوا فلا تَسقموا أبداً، وأنْ تِشِبُوا، فلا تَهرموا أبداً، وأن تَحْيوا فلا تَموتوا أبداً...»[٢].

ومنها ما تقدّمَ لنا ذكرُه عن ذبحِ الموت بين الجنة والنار، وهو الحديثُ الذي رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «... يا أهلَ الجنة خلودٌ فلا موت ويا أهل النارَ خلودٌ فلا موت..»[٣].

أهل النار صنفان

والنارُ لا تَفنى ولا تَبيد والذين يدخلونها صنفان:

الصنفُ الأول: عصاةُ الموحِّدين والمذنبون من المسلمين، الذين ماتوا بدونِ توبة، وشاءَ الله أنْ يُدخلَهم النار، فإنهم يلبثون فيها المدةَ التي

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٨٣٦.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٨٣٧.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٤٧٣. ومسلم برقم: ٢٨٤٩.

حدَّدها الله لهم، وبعد ذلك يُخرجهم الله منها، ويُدخلهم الجنةَ برحمته.

الصنف الثاني: الكفار الذين ماتوا على غيرِ الإسلام، فهؤلاء شاءَ الله أنْ يكونوا مخلَّدين في النار، لا يَخرجون منها أبداً.

والدليلُ على خلودِ هؤلاء الكفار في النار قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

هداية الله العامة والخاصة

وخلقَ الله للجنةِ أَهْلَها، وخلقَ للنارِ أَهْلَها.

فأهلُ الجنة يَختارون طريقَ الإيمان والهداية، ويوفِّقُهم الله إليها، وأهلُ النار يرفضونَ الهداية، فيختمُ الله على قلوبهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الدهر: ٢، ٣].

والمرادُ بالهدايةِ هنا الهدايةُ العامَّة التي بمعنى الإرشادِ والدلالة، والذينَ يرفضونَها هم أهلُ النار، وهم أضلُّ من الأنعام. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ

بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وروى مسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها قالَتْ: دُعيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازةِ صبيٍّ من الأنصار.

فقلتُ: يا رسولَ الله، طوبى لهذا، عصفورٌ من عصافيرِ الجنة، لم يعمل السوءَ ولم يدركْه!

فقال: أو غيرَ ذلك يا عائشة: إن الله خلقَ للجنةِ أهلاً خلقهم لها، وهم في أصلابِ آبائهم، وخلقَ للنارِ أهلاً، خلقهم لها، وهم في أصلابِ آبائهم»[1].

والهدايةُ التي هدى الله المخلوقاتِ إليها نوعان:

الأولى: هدايةُ غيرِ المكلفين، حيث سخّر كلَّ مخلوق كما خَلَقَهُ له بطبعه، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]. وهذه الهدايةُ لغيرِ الجن والإنس.

الثانية: هدايةُ المكلَّفين من الجن والإنس، وهي هدايةٌ بمعنى الدلالة والإرشاد، والمكلفُ قد يقبلُها قبولاً إرادياً اختيارياً فيفوز ويفلح، وقد يرفضها رفضاً إرادياً اختيارياً فيخسر!

العقلاء ثلاثة أصناف

وخلقَ الله المخلوقاتِ الحية العاقلة ثلاثة أصناف:

الأول: صنفٌ خلقهم الله للخير، فلا يفعلونَ الشرَّ والسوء، وهم الملائكةُ الأبرار.

الثاني: صنفٌ خلقهم الله للشر، فلا يؤمنون ولا يهتدون، وهم الشياطين.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٦٢.

الثالث: صنفٌ خلقهم الله قادرين على الجانبين، جانب الخيرِ وجانبِ الشر، فقد يُريدون الخيرَ، وقد يُريدون الشر وهم البشر.

والصنفُ الثالثُ ينقسمون ثلاثة أقسام:

الأول: صنفٌ يغلبُ إيمانهم ومعرفتُهم وطاعتُهم على شهواتهم وضعفهم، وهم المؤمنون الصالحون، فيلتحقون بالملائكة.

الثاني: صنفٌ يغلبُ شرُّهم وسوءُهم على خيرِهم، فيلحقون بالشياطين.

الثالث: صنفٌ تغلبُ شهواتهم البهيمية على عقولهم ومعرفتهم وهم عبيدُ الشهوات، فيلتحقون بالبهائم.

ويحاسِبُ الله الناسَ على أعمالهم يوم القيامة.

فالمؤمنون الذين قَبلوا الهداية فآمنوا وعملوا الصالحات، يدخلُهم الله الجنة برحمته وفضله، يرحمُهم ويتفضَّلُ عليهم ويثيبهم.

والكافرون الذين رَفضوا الإيمان، واختاروا الكفر والعصيان، يدخلهم الله النارُ بعدْله، فهو لم يظلمهم، وإنما جازاهم بأعمالهم.

إنَّ الله هو المعطي المانع، فلا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطيَ لما منع، وهو عليمٌ حكيم فيما أعطى وفيما مَنع، سبحانه.

والله يهدي مَن يشاء، ومن يقبلُ هداية الله، يكونُ فائزاً مفلحاً، والله يضلُّ مَن يشاء، لأنَّ مَنْ يرفضُ هداية الله فقد اختارَ الضلال، وأدى به ذلك إلى الخسران، والله هدى المستهدي وأثابه برحمته، والله عاقبَ الضال بعدله، وهو المحمودُ سبحانه في الجانبين، لأنه حكيمٌ عليم فيمن رحمه وهداه، وحكيمٌ عليم فيمن أضلَّه وعاملَه بعدلِه!

الاستطاعة شرط التكليف

[٦٧] : «والاسْتِطاعةُ التي يَجِبُ بِها الفِعْلُ، مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الذي لاَ يُوصَفُ المَخلوقُ به، تَكونُ مع الفِعْلُ. وأما الاستطاعةُ من جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالوَسْعِ والتَّمْكِينِ وَسَلاَمَةِ الآلاتِ، فِهِيَ قَبْلَ الفِعْلِ، وبها يَتَعَلَّقُ الخِطاب، وَهُوَ كَمَا قالَ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾».

الكلامُ هنا عن الاستطاعة والقدرة، التي يمنحُها الله للعبدِ المكلَّف، للقيامِ بالتكليفاتِ التي أوجبها عليه.

والاستطاعةُ والطاقةُ والقدرةُ والوسْع، كلُّها ألفاظٌ متقاربة.

وهذه الاستطاعةُ والقدرةُ نوعان:

الأولى: القدرةُ التي هي شَرْطٌ للفعل، والتي يكونُ عكسُها العجز، وهي أَساسُ التكليف، فلا يكلِّفُ الله مَنْ لم يمنَحْها له.

هذه الاستطاعةُ هي التي عَناها الإمامُ الطحاويُّ بقوله: وأما الاستطاعةُ من جهةِ الصحةِ والوسع والتمكين وسلامة الآلات فهي قبلَ الفعل، وبها يتعلقُ الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

إن الله لا يكلفُ بالتكاليفِ الشرعية إلاَّ مَنْ قدرَ على أدائها، ولا يوجبُ على نفسٍ إلا ما يسَعُها. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومِن الأمثلةِ على ذلك من التكاليفِ الشرعية: أن الله أوجبَ الحجَّ على المستطيع القادر. فمن لم يكنْ مُستطيعاً، لم يكن الحجُّ واجباً عليه أثناءَ عجزه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومنها أيضاً أنَّ الله أوجبَ على مَنْ ظاهَرَ من امرأتِه ـ بأنْ يقولَ لها: أنتِ عليّ كظهرِ أمي ـ عتق رقبة: كفارةً عن خطئه، فمن لم يجدْ فعليه صيامُ شهريْن متتابعيْن، فمن لم يستطع الصيام، ولم يقدِرْ عليه، فعليه أن يُطعمَ ستين مسكيناً. قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤].

ومن الأمثلةِ على ذلك أيضاً أنه تخلَّف عن الخروجِ مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك فريقان:

فريقُ الصادقين الضعفاء الذين كانوا راغبين في الخروج، لكنْ لم يستطيعوا، لأنهم لا يَجدون ركوبةً ولا مالاً.

وفريقُ المعتذِرين بالباطل، وهم الأغنياءُ القادرونَ على الخروج لِلجهاد، لكنهم لا يريدون.

ولما نزلَتْ آياتُ القرآن تتحدثُ عن ذلك، أَعفت الضعفاءَ الراغبين في الخروج من المسؤولية، لأنهم غيرُ مستطيعين، ولا قادرين، بينما حَمَّلَت الأغنياءَ القادرين المسؤولية، لأنهم تخلَّفوا وهم مستطيعون.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٣].

والدليلُ على هذه الاستطاعة من السنة ما رواهُ البخاري عن عمرانَ بن حصين رضي الله عنه قال: كانَتْ بي بواسير، فسألْتُ النبيَّ ﷺ عن الصلاة. فقال: «صَلِّ قائِماً فإنْ لم تستطع فقاعداً، فإنْ لم تستطعْ فعلى جَنْب»[١].

محاسبة الإنسان على تركه الواجب القادر عليه

الاستطاعةُ الثانية: وهي الرغبةُ الذاتيةُ في أداء الفعل، وهي تكونُ بعد الأولى، فقد يرغبُ الإنسانُ في الفعل، ويوفِّقُه الله إليه، فيؤدِّيه. وقد لا يرغبُ فيه، فلا يوفِّقُهُ الله إليه، فيتخلَّفُ عن أدائه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١١١٧.

وهذه يُلامُ أصحابُها، لأنها موجودة عندهم، لكنهم ليسوا راغبين في أدائِها، فلذلك يُعذبهم الله لأنهم لم يحققوها.

قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ۝٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢١﴾ [هود: ٢٠، ٢١].

فمعنى قوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ ما كانوا راغِبين في الاستماع، ولا محبِّين للإيمان والطاعة، مع أنَّ آلة السمع ـ وهي الأذن ـ موجودةٌ وصالحةٌ للاستعمال، لكنهم هم الذين عَطَّلوها.

وقد أعان الله المطيعين على الطاعة، ووفَّقهم إليها لأنهم هم الذين رغبوا فيها. قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

والكافرُ محرومٌ من هذه الإعانة والتوفيق، لأنه غيرُ راغبٍ في الطاعة، معطِّلٌ لما يملكه من قدرةٍ وطاقةٍ واستطاعة، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أفعال الناس: بين خلق الله وكسبهم

٦٨ : «وَأفْعالُ العِبادِ: خَلْقُ الله وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ».

الحديثُ هنا عن أفعالِ العباد التي يكسبونَها ويفعلونَها، سواءُ كانت خيراً أمْ شراً، طاعةً أم معصية.

وقد اختلفَ رجالُ الفرقِ الإسلامية في هذه المسألة، وذَهبوا فيها مذاهبَ مختلفة، وقالوا فيها أقوالاً عديدة.

والراجحُ فيها ما قالَه الإمامَ الطحاوي، وهو قولُ أهلِ السنة:

الله هو الخالقُ لأفعالِ العباد، لأنه هو الخالقُ لكلِّ شيء سبحانه، وهو على كلِّ شيء قدير، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأفعالُ العبادِ من خيرٍ أوشرٌ من جملة مخلوقاته، هو الذي خلقَها، وأرادَها قَدراً ومشيئة، وإنْ لم يرضَ الفعلَ السيءَ منها.

والقولُ بأنَّ الله خلَقَها ليس بمعناهُ أنَّ العبدَ لا اختيارَ له فيها، وأنه لا مُريدَ ولا مختار، فلهُ إرادةٌ وفعلٌ وكسبٌ واختيارٌ.

ولا تَعارُضَ بين آياتِ القرآن، التي تقررُ عمومَ قدرته ومشيئته لكلِّ ما في الكون من أعيانٍ وأفعال، وبين الآياتِ التي تقررُ أنَّ العبادَ فاعلون كاسِبون لأفعالهم، وأنهم يستحقّون عليها المدحَ أو الذم.

إنَّ آياتِ القرآن لا تتعارضُ في دلالاتها، وإنها يصدِّقُ بعضُها بعضاً، ولا بُدَّ من الجمع بينها، وإزالةِ التعارضِ الموصوم بينها.

ومما يدلُّ على التناسقِ بين خلقِ الله للفعل وكسبِ العبد له قولُه تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

تتحدثُ الآيةُ عن ما فعلَهُ رسولُ الله ﷺ في غزوةِ بدر، ويخبرُهُ الله أنه عندما رمى ما رماهُ في وجوه المشركين، لم يرْمِه في الحقيقة وإنما الله هو الذي رماه!!

لقد أثبتَ الله لرسوله ﷺ الرميَ في قوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ونفى عنه الرميَ وأثبته لله، وذلك في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ ... وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

ولا تَناقُضَ بين طرفي الآية، والمثبَتُ للنبيِّ ﷺ غيرُ المنفيِّ عنه، فالرميُ له ابتداءٌ وليس له انتهاء.

ابتداءُ الرمي هو الحذف، وهذا مثبَتٌ للنبي ﷺ، فهو قد رمى وحذف، حيث تناول حفنةً من حصباء ورملِ الصحراء، وقذفها في وجوهِ

المشركين في بدر، فأوصلَها إلى وجوهِ المشركين، حيث لم تَدَعْ وجْهَ أحدٍ إلاَّ أصابتْه.

وانتهاءُ الرمي هو وصولُ الحصباءِ إلى وجوه المشركين، وهذا ليسَ من فعلِ النبيِّ ﷺ وإنما هو فعلُ الله، لأنَّ الحصباءَ أصابت المشركين بإرادة الله ومشيئته.

ومعنى الآية: أنتَ حذفتَ الحصباء، لكنك ما أصبتَ وجوهَ المشركين، والله هو الذي أصاب.

وهذا يدلُّ على أنّ العبد يقومُ بالفعل واكتسابِه وأدائِه، والله هو الذي يُقدِّرُه، ويوجده، ويخلُقُه ويريدُه.

خلق أفعال العباد بين الأسباب والمسببات

والقولُ في خلقِ أفعالِ العباد كالقولِ في ترتيب الجزاءِ على الأعمال، وفيها الأسبابُ والمسبَّبات، فالعملُ الصالحُ هو السببُ المباشرُ في الأعمال وقبولها، ولكن المسبِّب للثوابِ هو الله، فهو الذي أرادَ قَبولَ العمل، وأرادَ إثابةَ صاحبه عليه.

والحديثُ نفىٰ جعْلَ السبب مُسبِّباً، ولهذا نفىٰ أنْ يُدخلَ العملُ صاحبَه الجنة، فما هو إلاَّ سَبَب، والذي يُدْخِلُ الجنةَ هو الله.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: لَنْ يَدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله.

قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟

قال: ولا أنا، إلاَّ أنْ يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضْل[١].

والعملُ الصالحُ ليس هو الثمنَ لدخول الجنة، لأنَّ دخولَ الجنة إنما هو برحمةِ الله.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٦٧٣. ومسلم برقم: ٢٨١٦.

أمّا العقابُ في الدنيا والعذاب في الآخرة، فهو بسببِ أعمالِ الكفارِ السيئة، لأن الله عادلٌ في عقابهم، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧].

أفعالُ العباد خلقها الله، لأنها تدخلُ في عمومِ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢].

ومن هذا البابِ قولُ إبراهيمَ عليه السلام ينكرُ على قومِه عبادةَ الأصنام التي يعملونَها وينحتونها، ثم يجعلونَها آلهة. قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦].

والراجحُ أنَّ «ما» في الجملةِ اسم موصول بمعنى «الذي» يُرادُ بها الآلهة التي يَنحتونَها ويَصنعونها، والمعنى: كيفَ تعبدونَ هذه التماثيلَ التي تَصنعونها، مع أنَّ الله هو الذي خلقكم، وخلقَ الأصنامَ التي تَعملونها وتنحتونها.

آيات في الموازنة بين خلق الله وكسب العبد

ومن الآياتِ الصريحةِ التي نَسَّقت ووازَنَتْ بين خلْقِ الله للفعل، وبين كسبِ العبدِ له، قولُه تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

فالله هو الذي خلقَ النفسَ وأوجدها وسَوّاها، وهو الذي ألهمها أن تفعلَ ما تشاء، وهذا إثباتٌ لقدرتِه وخلقه سبحانه، وهو يدلُّ على أنه هو الخالقُ لكلِّ شيء.

وأثبتت الآياتُ للنفسِ فجوراً وتقوى، فالنفسُ الفاجرةُ هي التي تفجرُ وتكون فاجرة، والنفسُ التقية هي التي تتقي وتَستقيم، وتكونُ صالحة.

والإنسانُ الصالحُ هو الذي يزكّي نفسَه ويطهِّرُها، وبذلك يكون مُفلحاً، والإنسانُ الفاجرُ هو الذي يدنِّسُ نفسَه ويدسّيها فيكونُ خائباً.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ له كسبٌ وإرادةٌ واختيار، والله هو الذي جعل هذا له.

والإنسانُ عندما يكسبُ الذنب ويفعلُه ويَجنيه، إنما يخالفُ فطرتَه، لأن الله قد فطرَهُ على عبادتهِ وطاعته، وتوحيدِه ومحبته والإنابةِ إليه. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وعندما يخالفُ الإنسانُ فطرتَه، ويَعصي الله، فإن الله يعاقبُه، بأنْ يقعَ في ذنوب أخرى، فالذنب يُكسبُ الذنبَ، والسيئةُ تولِّدُ السيئةَ بعدها، ومعلومٌ أن الذنوبَ كالأمراض، يورِثُ بعضُها بعضاً.

ومعلومٌ أنَّ الشيطانَ ليس له سلطان إلاَّ على أوليائه، من المذنبين والعصاة والكافرين، أمّا الصالحون المخلصون فلا سلطان للشيطان عليهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠].

أفعال العبد إرادية ولا إرادية

وعندما ننظرُ في أفعالِ العبد فسنجدُها نوعين:

الأول: نوعٌ لا إرادي، لا قدرةَ له عليه، وذلك كحركاتِ المرتعش، وهذا ليس فيه مسئوليةٌ ولا عقاب.

الثاني: إرادي، يكون ناتجاً عن قدرةِ العبدِ وإرادتهِ وكسبه واختياره. وهذا هو مناطُ المسؤولية والعقاب.

والعبدُ ليس «مُجْبَراً» على فعل، لأنَّ الله جعلَ له قدرةً على الاختيار. ولذلك يحاسبُهُ الله على اختياره الفعلَ القبيح.

ونفوسُ الناس وطبائعهم متفاوتة، فهناك أشخاصٌ طبيعتُهم حادةٌ انفعالية، وهؤلاء عرضةٌ للوقوعِ في أخطاءَ عديدة. وهناك أشخاصٌ طبيعتُهم هادئةٌ رفيقةٌ منشرحة، وهذه الطَبيعةُ تساعدُهم على عدمِ الوقوع في الأخطاء.

روى أبو داود عن أشجِّ عبدِ القيس أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ له: إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله: الحلمُ والأناة.

قال: أخُلُقَين تخلَّقْتُ بهما؟ أمْ خلقين جبلْتُ عليهما؟

قال: بل خُلُقَيْن جبلتَ عليهما!

فقال: الحمدُ لله الذي جبلَني على خُلُقيْن يحبُّهما الله ورسوله..»(١).

والخلاصة أنَّ الإنسانَ يفعل الفعلَ ويكسبُه ويختارُه، فهو فعلٌ له حقيقة، وهو ليس مُجبراً عليه، ولذلك يحاسبه الله عليه، فيثيبه على الصالح، ويعاقبهُ على الفاسد. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومع أنَّ الإنسانَ كاسبٌ مختارٌ لفعله، فإن الله خلق فعله وأراده وشاءه، لأنه الخالقُ لكل شيء.

ولا بدَّ من التوازنِ الدقيقِ بين خلقِ الله للشيء، وبين اختيارِ العبد له، وقيامِه بارتكابه، وأيُّ إغفالٍ لهذا التوازنِ والتناسق يقودُ إلى الخطأ في فهمِ المسألة كما فعلَ رجالُ الفِرَق.

لم يكلف الله الناس إلا ما يطيقون

[٦٩]: «وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ الله تَعالى إلاَّ ما يُطيقُون، ولا يُطيقونَ إلاَّ ما كَلَّفَهُمْ، وَهُوَ تَفْسيرُ: «لا حولَ ولا قُوَّة إلاَّ بِالله».

نَقولُ: لا حيلَةَ لأحَد، وَلا تَحَوُّل لأحَد، وَلاَ حَرَكَة لأحَدٍ عَنْ مَعْصِيَةِ الله،

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٥٢٢٥.

إلاَّ بِمَعُونَةِ الله، ولا قُوَّة لأحدٍ عَلى إقَامَةِ طاعَةِ الله والثَّباتِ عَلَيْهَا إلاَّ بتَوْفِيقِ الله تَعَالى. وكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشيئَةِ الله تَعالى وعِلْمِه وقَضائِهِ وَقَدَرِهِ، غَلَبَتْ مَشِئَتُهُ المَشِيئَاتِ كُلَّهَا، وَغَلَبَ قَضاؤُهُ الحِيَلَ كُلَّها، يَفْعَلُ ما يَشَاءُ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أبداً ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾.

الله لم يكلف الناسَ إلاَّ ما يُطيقون، فتكليفُ الله لهم حسبَ طاقتهم واستطاعتِهم وقدرتِهم.

والآياتُ صريحةٌ في تقريرِ هذه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ..﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وبما أنه لا يكلفُ نفساً إلا وسْعَها، فإنَّ الكافرَ يستطيعُ الإيمان، لأنَّ الله كلَّفَهُ به وطلبه منه، ولكنه رفضَ الإيمانَ عناداً، ولم يقم بما كان يستطيعُ القيامَ به.

والمؤمنون عرفوا أنَّ الله لا يكلِّفهم إلاَّ بما كان ضِمْنَ وسعِهم وطاقتِهم، فَدَعوا الله أنْ لا يحمِّلَهم ما لا طاقة لهم به. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وحتى نعرفَ معنى هذا الدعاءِ لا بدَّ أنْ نقفَ على مناسبةِ نزولِ هذه الآيات الأخيرة من سورة البقرة.

حول الآيات الأخيرة من سورة البقرة

روى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلَ على رسول الله ﷺ قولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

اشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ. فأتوا رسولَ الله ﷺ، ثم بَركوا على الرُّكَب، فقالوا: أيْ رسول الله: كُلِّفْنا من الأعمال ما نُطيق، الصلاةَ والصيامَ والجهادَ والصدقة، وقد أُنزلتْ عليك هذه الآية، ولا نُطيقُها!

فقالَ عليه الصلاةُ والسلام: أَتريدون أنْ تَقولوا كما قالَ أهلُ الكتابيْن من قبلكم: سمعْنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعْنا وأطعْنا، غفرانك ربنا وإليك المصير.

فقالوا: سمعْنا وأطعْنا، غفرانَك ربَّنا وإليكَ المصير.

فلما اقترأها القوم ذَلَّتْ بها ألسنتُهم، فأنزلَ الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخَها الله تعالى، فأنزلَ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ [قال: نعم] رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ [قال: نعم] رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ [قال: نعم] وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [قال: نعم][1].

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٢٥.

فدعاء المؤمنين له مناسبة، وهو مرتبطٌ بالآياتِ السابقة، فقد أخبرَ الله المؤمنين أنه يحاسبُهم على كلِّ شيء في قلوبهم، سواءٌ أظهروه أم أخفوه: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ وهذا تحميلٌ لهم ما لا طاقة لهم به. لأنَّ الإنسانَ لا سيطرةَ له على حديث النفس، طالما هي خواطرُ وأفكارٌ ومشاعر.

ومع ما في مشقة هذا الحملِ والمحاسبة فقد استسلمَ الصحابةُ وخضعوا، وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ولما علمَ الله استسلامَهم وخضوعَهم، نسخَ الحكمَ السابق، وتجاوزَ لَهم عن حديثِ النفس ووساوسِها، ولم يحاسبْهم إلاَّ على ما أبدوه وأظهروه من أقوالٍ وأفعال وقال لهم: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾.

فشكروا الله على هذه النعمةِ وطلبوا منه أن لا يحمِّلَهم ما لا طاقةَ لهم به، كما كانَ مع الحكم السابقِ المنسوخ في مؤاخذتهم بحديثِ النفس، وقالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

والخلاصةُ أنَّ دعاءَ المؤمنين متوافقٌ مع الحقيقةِ القرآنية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

والناسُ لا يُطيقونَ إلاَّ ما ما كلفهم الله به، وهذا معنى كلام الطحاوي: «ولا يُطيقونَ إلاَّ ما كلفهم به» وطاقتُهم هذه منحةٌ من الله، وتشملُ الآلاتِ والأدواتِ التي يتمكّنون بها من تنفيذ التكليف، كالصحة والعقلِ وسلامة الأعضاء والحواس والتمكن من الفعل.

يسر التكليف وسهولته

وإن الله العليمُ الحكيمُ يعلمُ مدى طاقةِ ووسْع المكلَّفين عندما كلَّفهم، فلم يكلِّفهم فوقَ طاقتهم، بل إنَّ الآياتِ تُشير إلى أنهم يطيقون فوقَ ما

كلَّفهم الله به، وأنَّ الله رحمهم وخفف عنهم، وأراد بهم اليسر ورفع عنهم الحرج.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].
وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

وهذه الآياتُ معناها أنَّ الله رَحِمَنا، فخفَّف عنا، ولو زادَ فيما كلَّفَنا به لأطقْناه.

والمؤمنون يستعينون بالله على تنفيذ ما كلَّفهم به وحُسْنِ أدائه، ويطلبون منه توفيقَهم إلى ذلك، ويصرِّحون دائماً قائلين: لا حولَ ولا قوة إلاَّ بالله.

ومعنى هذه الجملة الطيبة: «لا حولَ ولا قوةَ إلاَّ بالله»: لا حيلةَ لأحدٍ إلاَّ بمعونةِ الله، ولا تحوُّل ولا حركةَ لأحدٍ إلا بمعونةِ الله، ولا يتركُ أحدٌ معصيةَ إلا بمعونة الله، ولا يقوى أحدٌ على طاعةِ اللّهِ إلاّ بتوفيق الله، ولا يثبتُ أحدٌ على الحق إلا بتثبيتِ الله! فلا حوَل ولا قوةَ ولا قدرةَ ولا حيلةَ لأحدٍ إلاَّ بالله وإعانتِه وتوفيقِه وفضلِه.

ومعنى هذا أنَّ ما شاءَ الله كان، وما لم يشأْ لم يكن، وكلُّ ما يَجري في الكون فهو بمشيئةِ الله. كما قال الإمامُ الطحاوي: «وكلُّ شيء يجري بمشيئةِ الله تعالى، وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها..».

الله هو الذي يشاءُ كلَّ شيء في هذا الكون، فيَحدثُ الشيءُ ويَحصلُ بمشيئةِ الله وعلمِه وقضائِه وقدره، ومشيئةُ الله نافذة، غلبتْ مشيئاتِ المخلوقين جميعاً، وقضاءُ الله نافذٌ واقع، غلبَ إرادات وحيلِ المخلوقين جميعاً.

الكوني والشرعي في قضاء الله وقَدَره

وقضاءُ الله وأمْرُه وإذنه وكتابُه وحكمُه وتحريمُه وكلماتُه، منها ما هو كونيٌّ قدري، ومنها ما هو شرعيٌّ تكليفي، وآياتُ القرآن تفرّقُ بين الكونيِّ والشرعيِّ من ذلك.

القضاءُ الكونيُّ بمعنى الإيجاد، فإذا قضى الله شيئاً أوجده، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾ [فصلت: ١].

والقضاءُ الشرعيُّ بمعنى الأمرِ والتكليف. وهو كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

والأمْرُ الكونيُّ بمعنى المشيئة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

والأمرُ الشرعيُّ هو التكليفُ بالواجبات والأوامر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

والإذنُ الكونيُّ بمعنى الإرادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والإذنُ الشرعيُّ بمعنى الرضا والمحبة كما في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥].

والكتابُ الكونيُّ هو التقدير، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

والكتابُ الشرعيُّ بمعنى الأمرِ والتكليف كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والحكمُ الكونيُّ بمعنى القضاءِ والقدر كما في قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [الأنبياء: ١١٢].

والحكمُ الشرعي بمعنى التكليفِ والتشريع، كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

والتحريمُ الكونيُّ بمعنى المنع القسري. كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

والتحريمُ الشرعيُّ هو الأمرُ بالامتناع من الفعل كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

وكلمةُ الله الكونية بمعنى إرادته ومشيئته، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وكلماتُ الله الشرعية بمعنى أوامره وتكليفاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فهذه المصطلحاتُ السبعةُ منها ما هو كونيٌّ عام، ومنها ما هو شرعيٌّ تكليفيٌّ خاص. وهي: القضاءُ والأمرُ والإذنُ والكتابُ والحكمُ والتحريمُ والكلمة.

وكلُّها مسندةٌ إلى الله، بمعنى أنَّ كل شيء في الكون فإنما يَحدثُ بإرادةِ الله وقضائِه وأمرِه وإذنِه وحكمه.

تنزيه الله عن الظلم

والله يفعلُ ما يشاءُ سبحانه، وهو غيرُ ظالم أبداً.

وقد دلتْ آياتُ القرآنِ على تنزيهِ الله عن الظلم.

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٨، ٢٩].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٦].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١١ ـ ١١٢].

ومعنى: «لا يخاف ظلماً»: لا يَخافُ أن يظلمَهُ الله، وذلك بأنْ يحمِّلَهُ سيئاتِ وذنوبَ غيره.

ومعنى «لا يخاف هضماً» لا يخافُ أنْ يَظلمه الله، وذلك بأنْ يُنقصَهُ شيئاً من حسناته.

ومن الأحاديثِ في تنزيهِ الله عن الظلم، ما رواهُ مسلم عن أبي ذر الغفاريِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ فيما يَرويهِ عن ربه قال: «يا عبادي إني حرَّمْتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً، فلا تظالموا»(١).

إنَّ الله سبحانه منزَّهٌ عن كلِّ فعلٍ سيء مَعيب مذموم، وعن كلِّ وصفٍ سيء مَعيبٍ مذموم.

ولذلكَ نَزَّهَ نفسَه سبحانَه عن العبثِ واللَّهو في أفعاله. وذَمَّ الذين يظنون فيه ذلك، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقالَ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٥٧٧.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

ونَزَّهَ الله نفسَه عن ظنٍّ مساواتِه بين المسلمين والمجرمين، وجعَلَ المجرمين بمنزلةِ المسلمين هذا ظلماً، والله منزَّهٌ عن هذا الظلم.

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

الله عادل مع الكفار رحيم بالمؤمنين

الله عادلٌ في أفعاله، ولو عذَّبَ أهلَ السموات والأرض لكان عادلاً بهم، غيرَ ظالم لهم.

روى أبو داود عن ابنِ الدَّيلمي قال: أَتيتُ أُبيَّ بْنَ كعب، فقلتُ له: وقعَ في نفسي شيءٌ من القدر، فحدِّثْني بشيء، لعلَّ الله أنْ يُذهبَهُ من قلبي.

فقال: لو أنَّ الله عَذَّبَ أهلَ سمواته وأهلَ أرضه، عَذَّبهم وهو غيرُ ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمتُه خيراً لهم من أعمالهم! ولو أنفقْتَ مثلَ أُحُدٍ ذهباً في سبيل الله، ما قبلَهُ الله منك حتى تؤمنَ بالقدر، وتعلمَ أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئَك، وأنَّ ما أخطأكَ لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لدخلْتَ النار!

قال: ثم أتيتُ عبدَ الله بن مسعود، فقالَ مثلَ ذلك، ثم أتيتُ حذيفةَ بن اليمان فقال مثلَ ذلك، ثم أتيتُ زيدَ بن ثابت فَحَدَّثَني عن النبيِّ ﷺ مثلَ ذلك»[١].

ومع ذلك فقد تفضَّلَ الله على عبادِه، فعامَلَهم برحمتِه، وكتبَ على

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٩٩.

نفسِه الرحمة فَضْلاً وكَرَماً منه سبحانه. ومن رحمتِه أنه يقبلُ توبةَ العبدِ التائب من ذنبه، وأنه يثيبُه الثوابَ الجزيل، ويُدخلُه الجنةَ برحمته.

ولقد صرَّحَ أفضلُ وأتقى الخلقِ محمدٌ ﷺ أنه لن يَدخلَ أحدٌ الجنةَ بعملِه، حتى لو كانَ أفضَلهم رسولَ الله ﷺ، وأنَّ الكلَّ يَدخلونَ الجنةَ برحمةِ الله وفضْلِه.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لَنْ يَدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله!

قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟

قال: ولا أنا إلاَّ أنْ يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل»[١].

ولما طلبَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه من رسولِ الله ﷺ أنْ يُعَلِّمَهُ دعاءً يدعو به في الصلاة، عَلَّمَهُ دعاءً عظيماً نافعاً يقررُ هذه الحقيقة.

روى البخاريُّ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قالَ لرسول الله ﷺ: عَلِّمْني دعاءً أدعو به في صلاتي.

قال: قل: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفرُ الذنوبَ إلاَّ أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك، وارْحمْني، إنكَ أنتَ الغفورُ الرحيم»[٢].

إنه لا يَستغني أحَدٌ عن رحمةِ الله ومغفرتِه وفضْلِه، لأنَّ الإنسانَ ليس معصوماً، ومهما بلغَ من الصَّلاح والتقوى فإنه عرضةٌ للخطأ والذنب والمعصية، ولا بدَّ أنْ يُديمَ التوبةَ والإنابةَ إلا الله.

إنّ من حقِّ الله على العبدِ الصالح أنْ يوحِّدَه ولا يشركَ به شيئاً، وأن يَعبدَه عبادَةً خالصةً صادقة، وأنْ يُطيعَ الله فلا يعصيه، وأنْ يَذكره فلا ينساه، وأنْ يَشكره فلا يكفره، وأنْ يكونَ محبّاً منيباً له، متوكّلاً عليه، وأنْ يراقبَه ويَخشاه، ويخافَه ويرجوه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٦٧٣. ومسلم برقم: ٢٨١٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٨٣٤. ومسلم برقم: ٢٧٠٥.

انتفاع الأموات بدعاء الأحياء

٧٠ : «وَفي دُعاءِ الأحْياءِ وَصَدَقاتِهِمْ مَنْفَعَةٌ لِلأمْوَاتِ».

الكلامُ هنا عن انتفاعِ الأمواتِ بما يقدِّمُه الأحياءُ لهم من دعواتٍ وصدقات.

إنَّ الأمواتَ ينتفعون من سعيِ الأحياءِ بأمرَيْن اثنين:

الأول: ما تسبَّبَ إليه الميتُ في حياته، وما كان سبباً فيه كالصدقةِ الجاريةِ التي يجعلُها في حياته، كبناءِ مسجدٍ أو بناء مستشفى.

الثاني: دعاءُ المسلمين واستغفارهم له، وبالذاتِ إذا كان هذا الداعي المستغفِرُ ابناً له.

روى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا ماتَ ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلاَّ من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو ولدٍ صالح يدعو له، أو علمٍ يُنتفَعُ به من بعده»[١].

وقد دلَّ الكتابُ والسنةُ على انتفاعِ الأمواتِ بدعاءِ واستغفارِ الأحياءِ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

وعندما يصلّي المسلمونَ على الميت صلاةَ الجنازة، فإنهم يَدْعون له، وهم مأمورون بالإخلاصِ له في الدعاء.

ومن السنةِ أنْ يُدعىٰ للميت عند الدفن، روى أبو داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كانَ النبيُّ ﷺ إذا فَرِغَ من دفنِ الميتِ، وَقَفَ عليه فقال: استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٣١.

(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٣٢٢١.

وعَلَّمَ رسولُ الله ﷺ المسلمين دعاءَ المقابر، فعندما يزورون المقابر يَدعون للأموات، وما ذلك إلاَّ لأنَّ الدعاءَ ينفعُهم.

روى مسلمٌ عن بُريدةَ بنِ الحصيب رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا خرجوا إلى المقابر يأمرهم أن يقولوا: السلامُ عليكم أهلَ الديار، من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إنْ شاءَ الله بكم لاحقون، أسألُ الله لنا ولكم العافية..»[1].

وروى مسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله كيف أقولُ لهم؟

قال: قولي: السلامُ على أهلِ الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحمُ الله المستقدمين منّا والمستغفرين، وإنّا إنْ شاءَ الله بكم للاحقون..»[2].

فهذه الأحاديثُ الصحيحةُ تدلُّ على أنّ دعاءَ المؤمنين ينفعُ الأموات ويَصلُهم، سواء كانوا أَقاربَ للميت أم لا.

الأدلة على وصول الثواب للأموات

ومن الأدلةِ على وصولِ ثوابِ الصدقةِ للأمواتِ:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله: إنَّ أمي افْتَلَتَتْ نفسُها، ولم تُوصِ، وأظنُّها لو تكلَّمتْ تصدَّقَتْ، أَفلَها أجرٌ إنْ تصدقْتُ عنها؟ قال: نعم[3].

وروى البخاريُّ عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما: أنَّ سعْدَ بن عبادة رضي الله عنه تُوفيتْ أُمُّه وهو غائبٌ عنها، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا

(١) أخرجه مسلم برقم: ٩٧٥.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٩٧٤.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ١٣٨٨. ومسلم برقم: ١٠٠٤.

رسول الله: إنَّ أُمّي توفيتْ وأنا غائبٌ عنها، فهل ينفعُها إنْ تصدقْتُ عنها؟

قال: نعم.

قال: فإنّي أُشهدك أنَّ حائطي المخْرافَ صدقةٌ عنها»(١).

والمخرافُ اسمُ بستان له كان مشهوراً بثمره الجيد.

ومن الأدلةِ على وصولِ ثوابِ الصيام للميت، ما رواهُ البخاريُّ ومسلم عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ماتَ وعليه صيامٌ صامَ عنه وليُّه»(٢).

ومن الأدلةِ على وصولِ ثوابِ الحج للميت ما رواهُ البخاريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ امرأةً من جهينة جاءتْ إلى النبيِّ ﷺ. فقالتْ: إنَّ أُمي نذرَتْ أنْ تحج، فلم تحجَّ حتى ماتَتْ، أَفأحجُّ عنها؟

قال: نعم. حُجّي عنها، أرأيتِ لو كان على أُمِّكِ دين، أكنتِ قاضيتهِ؟ فدينُ الله أحقُّ بالقضاء»(٣).

كذلك إذا قامَ أحدُ المسلمين بقضاءِ الدَّيْنِ عن الميت فإنَّ هذا يُقْبَلُ منه، ويَسقطُ الدينُ عن الميت، ولو كان المتبرعُ غيرَ قريبٍ للميت.

وروى أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: مات رجلٌ منا، فغسَّلْناهُ وكَفَّنَّاه، وحَنَّطْناه، ووضَعْناهُ لرسول الله ﷺ حيثُ توضعُ الجنائز عند مقامِ جبريل، ثم آذَنّا رسوَل الله ﷺ بالصلاة عليه.

فجاءَ مَعَنا خُطىً ثم قال: لعلَّ على صاحبكم ديناً؟

قالوا: نعم. ديناران!

فتخلَّف، فقال له رجلٌ منّا يقالُ له أبو قتادة: يا رسول الله: هما عليَّ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٧٥٦.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٩٥٢. ومسلم برقم: ١١٤٧.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٥٢.

فجعل رسولُ الله ﷺ يقول: هما عليك، وفي مالك، والميتُ منها بريء.

فقال: نعم.

فصلّى عليه رسولُ الله ﷺ.

فجعلَ رسولُ الله ﷺ إذا لقي أبا قتادة يقول: ما فعلَ الديناران؟

حتى كان آخرَ ذلك قال: قد قضيتُهما يا رسولَ الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «الآنَ بَرَدَتْ عليه جلدتُه..»[1].

مناقشة من منعوا وصول الثواب للأموات

واحتجَّ الذينَ منعوا وصول ثوابِ الأعمالِ الصالحة للميت بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩].

والراجحُ أنَّ الآيةَ لا تدلُّ على ذلك، بل إنها تدلُّ على وصولِ ثواب الأعمال الصالحة للميت.

فالإنسانُ الصالحُ بسعْيه وحسْنِ عشرته ومعاملته، اكتسبَ الأصدقاء والإخوان، وكانَ له الأولاد، ولذلك يترحَّمُ عليه ويَدعو له أولادُه الصالحون وأصدقاؤُه المخلصون، فهم من جملةِ سعيه الذي تخبرُ عنه الآية.

والأهمُّ من هذا أنَّ الآية لم تنفِ انتفاع الإنسانَ بسعيِ عمله وعملِ غيره، وإنما نفتْ تملُّكَ الإنسانِ لسعْي غيره، فالإنسانُ هو الذي يملكُ سعْيَه، وإهداءُ ثوابِ الأعمالِ والعبادات والدعوات انتفاعٌ من الميتِ بسعيِ غيره، وليس تملُّكاً منه لذلك السعي.

فالآيةُ ليستْ من موضعِ النزاع، وتبقى الأحاديثُ الصحيحةُ الكثيرةُ دالةً على انتفاعِ الميت بدعاءِ وأعمال غيره.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣: ٣٣٠.

حتى الحديثُ الصحيحُ الذي يبينُ انقطاعَ عمل الميت إلا من ثلاث: الصدقةِ الجارية، والولدِ الذي يدعو له، وعلْمِه الذي يُنتفعُ به، لا يدلُّ على عدمِ انتفاعِ الميت من دعواتِ غيره، وإنما يدلُّ على انقطاعِ عمله، وفرقٌ بين انقطاعِ عمله وانقطاعِ انتفاعِه من عمل غيره.

إن الميّت ينتفعُ بثوابِ العبادات التي يَهديها له غيره، سواء كانت تلك العباداتُ بدنيةً كالصيام والدعاء، أم كانت ماليةً كالحج والأضحيةِ وسدادِ الدين والصدقة.

واستئجارُ قومٍ يَقرؤون القرآن ويُهدون ثوابَ التلاوةِ للميت لا يجوز، ولم يفعلْه أحدٌ من السلف!

أما قراءةُ القرآن، وإهداؤها للميت تطوُّعاً بغيرِ أجرة، فهذا يصلُ إليه، كما يصلُ إليه ثوابُ الصوم والحج، مع أنَّ السلف لم يفعلوا ذلك، وعدمُ فعلهم له لا يدلُّ على عدمِ جوازِه، ولهذا يُقاسُ على الصومِ والحج والصدقة.

أمّا إهداءُ ثوابِ الفاتحةِ أو غيرِها من سورِ القرآن للرسول ﷺ، فهذا لم يفعلْهُ أحدٌ من السلف، والأولى تركُه، ولا يُقاسُ على الصدقةِ والحجِّ عن الميت، لأنَّ الرسولَ ﷺ ليس بحاجةٍ إلى هدايا هؤلاء!

وقراءةُ القرآنِ على المقابر مكروهة لم يفعلها أحدٌ من السلف.

الله يستجيب الدعاء

[٧١] : «والله تَعالى يَسْتَجيبُ الدَّعَواتِ وَيَقْضِي الحَاجَاتِ».

يَستجيبُ الله دعواتِ عباده، ويقضي لهم حاجاتهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ

إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

واللجوءُ إلى الله ودعاؤه والتضرعُ إليه حاجةٌ فطرية، ولذلك يلجأُ الإنسانُ إلى الله ويدعوه عند الاضطرارِ والشدة حتى لو كان كافراً.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

إنّ الله يستجيبُ دعاءَ الداعي حتى لو كان كافراً، ومن لم يسأل الله فإنَّ الله يغضبُ عليه.

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الذي أَبْوابُهُ لا تُحْجَبُ
الله يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤالَهُ وَبُنَيُّ آدَمُ حينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

والدعاءُ يتضمنْ إثباتَ بعضِ أسماءِ الله:

١ ـ إنه إثباتٌ لوجودِ الله لأنَّ غيرَ الموجود لا يُدعىٰ.

٢ ـ وإثباتُ غنى الله، لأنَّ الفقيرَ لا يُدعىٰ.

٣ ـ وإثباتُ سمْعِ الله، لأنَّ الأصمَّ لا يُدعىٰ.

٤ ـ وإثباتُ كرم الله، لأنَّ البخيلَ لا يُدعىٰ.

٥ ـ وإثباتُ رحمةِ الله، لأن القاسيَ لا يُدعىٰ.

٦ ـ وإثباتُ قدرة الله، لأن العاجزَ لا يُدعىٰ.

الدعاء نافع لصاحبه

والدعاءُ نافعٌ لصاحبه، وأخطأ الذين زَعموا عدمَ نفعه، وقالوا: لا داعيَ للدعاء، لأن الله إذا أرادَ إيجادَ الشيء أوجده، فالدعاءُ لا حاجةَ إليه، وإذا لم يُرِدِ الله إيجادَ الشيء فإنه لم يوجدْه، فالدعاءُ لا فائدةَ منه!

وهذا مردودٌ وباطل. فإن الله قد يجعلُ الدعاءَ سبباً في وقوعِ بعضِ ما

قدَّرَه سبحانه، فالدعاءُ سببٌ لحصولِ ما قدّره الله، وشرطٌ للحصول عليه، ولهذا ينفعُ الدعاءُ صاحبَه.

ولا يتوقفُ أَثَرُ الدعاءِ على جلْبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضر، فله آثارٌ إيمانية تَربوية، منها: معرفةُ العبدِ لربه، وإقرارُه به، وإيمانُه بصفاته، من أنه سميعٌ قريب قدير عليم رحيم، وإقرارُ العبد بفقْرِه إلى الله، واضطرارِه إليه.

وقد يتشكَّكُ بعضُهم في فائدة الدعاء، حيث قد يَدعو بأشياء ويطلبها من الله، ولا يعطيها الله له بأعيانها:

والردُّ على هذه الشبهةِ بردودٍ ثلاثة:

الأول: أن الله ضمنَ إجابةَ الداعي، وليس إعطاءَ السائل. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَنزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا، حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخر، يقول: مَنْ يدعوني فأستجيبَ له، مَنْ يسألُني فأُعطيَه مَنْ يستغفرُني فاغفرَ له»[1].

وفرقٌ بين إجابةِ الداعي التي ضمنَها الله وبين إعطاءِ السائلِ مسألتَه، فإنَّ الله يُعطيه مسألتَه وفقَ حكمتِه سبحانه.

الثاني: إنّ إجابةَ الدعاءِ أعمُّ من إعطاءِ الشيء المسؤول، وهذا ما بيَّنَه رسولُ الله ﷺ.

روى أحمد عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما مِن رجلٍ يَدعو الله بدعوة، ليس فيها إثم ولا قطيعةُ رَحِم، إلاَّ أعطاهُ الله بها إحدى ثلاثِ خصال: إمّا أنْ يُعجلَ له دعوتَه، أو يَدخرَ له من الخيرِ مثلَها، أو يصرفَ عنه من الشَّرِّ مثلَها»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١١٤٥. ومسلم برقم: ٧٥٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣:١٨.

الثالث: عدمُ إعطاءِ السائل مسألتَه قد يكونُ لموانعَ منعَتْ ذلك، فإنَّ الله جعلَ شروطاً لاستجابةِ دعاءِ المسلم، منها أنْ يستجيبَ هو لله عملياً: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

ومنها أنْ يكون مطعمُه ومشربُه حلالاً.

ومنها أنْ لا يدعو بإثمٍ أو قطيعةِ رحم.

فإذا لم تتحقَّقْ هذه الشروطُ لم يَستجب الله الدعاء.

لا غنى لأحد عن الله

٧٢ : «وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ وَلاَ يَمْلِكُهُ شَيْءٌ، ولا غِنَى عنِ الله تعالى طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ الله طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَقَدْ كَفَرَ، وَصَارَ مِنْ أهْلِ الحَيْنِ، وَالله يَغْضَبُ وَيَرْضَىٰ لا كَأحَدٍ مِنَ الوَرَىٰ».

الله المالك، يملك كلَّ شيء في هذا الوجود، والله لا يملكُه أيُّ شيء. ولا يمكنُ لإنسانٍ أنْ يستغنيَ عن الله طرفةَ عين. ومَنْ ظنَّ أنه يمكنُ أنْ يَعيشَ بمفرده، وأنْ يستغنيَ عن الله، فإنه يكفرُ بالله ويكونُ من الخاسرين.

و«الحَيْنُ» في كلام الإمام الطحاوي هو الهلاك.

قال تعالى عن الرضى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال تعالى عن الغضب: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا

فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣].

والصحيح هو إثباتُ الصفاتِ التي وردَتْ في النصوص، إثباتُها لله بما يليقُ بجلالِه وعظمتِه، مثلُ غضبِ الله على الكافرين، ورضاهُ عن المؤمنين، وعداوتِه للكافرين، وولايتِه للمؤمنين، وبغضِه للكافرين، وحبِّه للمؤمنين.

الله يغضب ويرضى ليس كالناس

وإثباتُ هذه الصفات كإثباتِ الصفات الأخرى مثل السمع والبصر..

ولا نوافقُ أصحابَ التأويلِ على تأويلِ هذه الصفات، لأنَّ هذا التأويلَ نفيٌ لها. حيث قالوا: رِضى الله معناهُ إرادةُ الإحسانِ للمؤمنين، وغضبُ الله معناه إرادةُ الانتقام من الكافرين.

يجبُ أنْ نفرقَ بين رضى الله ورضى الناس، وغضبِ الله وغضبِ الناس.

إنَّ غضبَ الإنسانِ ناتجٌ عن غليانِ دمِ القلب، وانفعالِه بما جرى، أَمّا غضبُ الله فهو مما يليقُ به، وهو منزَّهٌ عن الانفعالِ والغليان، لأن هذه من علاماتِ ضعفِ المخلوقين.

وإنّ رضى الإنسان ناتجٌ عن الميلِ إلى الشيء أو الشخص، والشهوةِ في تحقيقِ الشيء. ورضى الله منزهٌ عن هذا الميلِ والانفعال، فهو رضى يليقُ بجلاله سبحانه.

الفارقُ كبيرٌ بين وصفِ الله بهذه الصفات، ووصفِ المخلوقِ بها: رضى الله غيرُ رضى الإنسان، وغضبُ الله ليس كغضبِ الإنسان، وسمعُ الله ليس كسمعِ الإنسان، وحياةُ الله ليس كحياة الإنسان، ووجودُ الله ليس كوجودِ الإنسان، وعلمُ الله ليس كعلمِ الإنسان، وهكذا.

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن رضى الله عن المؤمنين في الجنة، وهو رضى أبديٌّ لا سُخطَ بعدَه أبداً، وهذا فيه إثبابُ صفةِ الرضى له سبحانه،

وهذا تفريقٌ بين رضاه عن المؤمنين في الدنيا، ورضاهُ عنهم في الجنة.

إن الله يرضى عن المؤمن في الدنيا طالَما هو مستقيمٌ مطيع، فإذا تركَ الطاعةَ وارتكبَ المعصية فإن الله يَسخطُ عليه، فإذا تابَ واستغفرَ وعادَ للطاعة فإن الله يرضىٰ عنه من جديد.

فالله يُحِلُّ رضوانَه على المؤمنين في الدنيا، في وقتٍ دون وقت. أمّا في الجنة فإن الله يُحِلُّ رضوانَه الأبديَّ عليهم، بحيث لا يسخطُ عليهم بعدها أبداً.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يقولُ لأهل الجنة: يا أهل الجنة.

فيقولون: لبيك ربَّنا وسعدَيْك، والخيرُ في يديك.

فيقول: هل رضيتُم؟

فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ يا رب؟ وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك.

فيقول: ألا أُعطيكم أفضلَ من ذلك؟

فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضلُ من ذلك؟

فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعدَه أبداً»[1].

وجوب محبة الصحابة والثناء عليهم

٧٣ : «وَنُحِبُّ أصْحابَ رسولِ الله ﷺ، ولا نُفَرطُ في حُبِّ أحدٍ مِنْهُمْ، وَلاَ نَتَبَرأُ مِنْ أحَدٍ مِنْهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ، وَبِغَيْرِ الخَيْرِ لا يُذْكُرُهُمْ، ولا نَذْكُرُهُمْ إلاَّ بِخَيْرٍ، وَحُبُّهُمْ دينٌ وإيمانٌ وإحْسان، وبُغْضُهُمْ كُفْرٌ ونِفاقٌ وَطُغْيان».

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٥٤٩. ومسلم برقم: ٢٨٢٩.

قولُ الإمامِ الطحاوي: «ونحبُّ أصحابَ رسول الله ﷺ»: ردٌّ على الشيعةِ «الروافض» وسُمّوا روافضَ لأنهم رفضوا خلافةَ الخلفاء الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان.

وهو ردٌّ على «النواصب» الذين ناصَبوا عليَّ بن أبي طالب العداءَ والكراهيةَ والبغضاء، وهم الذين ردّوا على غُلُوِّ الروافضِ القبيحِ بِغُلُوٍّ آخرَ قبيحٍ مثلِهِ.

وقد أثنى الله في القرآنِ على الصحابةِ الكرام، وَوَعَدَهُم الحسنى:

١ - قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

٢ - وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

٣ - وقال تعالى في نفس السورة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

٤ - وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

٥ - وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ

حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٨ ـ ١٠].

تتضمنُ هذه الآياتُ الثناءُ على المهاجرين والأنصار، وسائرِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وتُطالبُ الذين جاءوا من بعدهم أنْ يَدعوا لهم، ويستغفروا لهم، وأنْ لا يَجعلوا في قلوبهم غِلاً لهم، ولا حقْداً عليهم.

أحاديث في فضائل الصحابة

ومن الأحاديث الصحيحةِ في بيانِ فضلِ الصحابةِ والثناءِ عليهم:

١ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «خيرُ الناسِ قرني. ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(١).

٢ ـ روى مسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أخبرتْني أمُّ مُبَشِّر أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقولُ عند حفصة: «لا يَدخلُ النارَ ـ إن شاءَ الله ـ من أصحابِ الشجرة، الذين بايعوا تحتَها أحد»(٢).

٣ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان بين خالدِ بن الوليد وبين عبدِ الرحمٰن بن عوف شيء، فسبَّهُ خالد!

فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تسبّوا أحداً من أصحابي، فلو أنَّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهباً، ما أدركَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه»(٣).

إن الرسولَ ﷺ يقولُ لخالد بن الوليد رضي الله عنه: لا تسبّوا

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٥٦١. ومسلم برقم: ٢٥٣٥.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٤٩٦.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٧٣. ومسلم برقم: ٢٥٤١.

أصحابي، ويَعني عبدَ الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه. وخالدٌ صحابيٌ كعبدِ الرحمٰن رضي الله عنهما! لكنهما ليسا على درجةٍ واحدةٍ من الصحبة.

عبدُ الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه من السابقين الأوّلين، فهو من أصحابِ الدرجةِ الأولى من الصحبة. أما خالدُ بن الوليد رضي الله عنه فقد تأخَّر إسلامُه، حيث أسلمَ بعدَ صلحِ الحديبية، فهو من أصحابِ الدرجة الثانية في الصحبة!

وينطبقُ على هذا التفريقِ بين الدرجتين قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ﴾.

فالرسولُ ﷺ نَهىٰ مَن له صحبةٌ متأخرة كخالد بن الوليد، أن يسبَّ مَنْ له صحبةٌ متقدمة كعبدِ الرحمٰن بن عوف، ولو أنفقَ صاحبُ الصحبةِ المتأخرة مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغَ مُدَّ أو نصيفَ صاحبِ الصحبة السابقة.

فإذا كان هذا حالُ متأخِّري الصحابة، فكيف يكون حالُ مَنْ لم يكنْ صحابياً؟

وكانَ الصحابةُ يُعَلِّمون الآخرين الأدبَ الواجبَ عليهم في هذا الأمر.

قال جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: قيلَ لعائشة رضي الله عنها: إنَّ ناساً يتناولون أصحابَ رسولِ الله ﷺ، حتى أبا بكر وعمر!

فقالت: وما تَعجبون من هذا؟ انقطعَ عن الصحابةِ العمل، فأحبَّ الله أن لا يقطعَ عنهم الأجر!

وقالَ عبدُ الله بن عباس رضي الله عنه: لا تسبّوا أصحابَ محمدٍ ﷺ، فلَمقامُ أحدِهم ساعةً مع النبي ﷺ، خيرٌ من عملِ أحدكم أربعين سنة!

وقالَ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: إنّ الله تعالى نظرَ في قلوب العباد، فوجَدَ قلبَ محمد ﷺ خيرَ قلوبِ العباد، فاصطفاهُ لنفسه، وابتعثَهُ

برسالته، ثم نظرَ في قلوبِ العباد بعد قلبِ محمد ﷺ، فوجدَ قلوبَ أصحابه خيرَ قلوبِ العباد، فجعلَهم وزراءَ نبيه، يقاتلون عن دينه. فما رآهُ المسلمونَ حسناً فهو عند الله حَسَن، وما رأوْه سيئاً فهو عند الله سيئ.

فمَنْ أضلُّ ممن جعلَ في قلبه غِلاً لهؤلاءِ الصحابة خيارِ المؤمنين؟ وأفضلِ الناسِ بعد الأنبياء والمرسلين؟

وما أشدَّ خسارةَ الذين خالَفوا أمْرَ الله، حيثُ أَمرهم الله أنْ يَستغفروا للصحابة، ولكنهم شَتَموهم وسبّوهم؟

حب الصحابة بدون إفراط أو تفريط

ويجبُ أنْ تكونَ محبةُ الصحابة بدون مبالغة ولا إفراط، ولهذا قال الطحاوي: «ولا نفرطُ في حبِّ أحد منهم».

أي: لا نتجاوزُ الحَدَّ المأمونَ في حبِّ أحدٍ منهم، لأنَّ الشيءَ إذا زادَ عن حدِّه صار غلوّاً مرفوضاً، كما قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

والذين أفرطوا وبالَغوا في حبِّ بعضِ الصحابة هم الشيعة الروافض، الذين بالَغوا في حبِّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبعض الصحابة الآخرين.

لا نتبرأُ من أحدٍ من الصحابة كما فعلَ الشيعةُ الروافض، الذين بالغوا في حبِّ عليٍّ وآل البيت، وتبرأُوا من خيارِ الصحابة، كأبي بكر وعمر.

إنَّ أهلَ السنة يحبّونَ الصحابةَ جميعاً، ويُوالونهم جميعاً، ويُنزلونَ كلَّ واحدٍ منزلتَه، بالعدلِ والإنصاف، ولا يُبغضون أحَداً منهم، ولا يتبرؤون من أحدٍ منهم. إنهم يحبون مَنْ أحبَّهم، ويُبغضونَ مَنْ أبغضَهم، ولا يَذكرونَهم إلا بخير. وهذا معنى كلام الطحاوي: «ولا نتبرأُ من أحد منهم، ونُبغضُ من يُبغضُهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير».

ثم ربطَ الطحاويُّ بين حبِّ الصحابة والإيمان، وبين بغضِهم والنفاق، فقال: «وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان».

حبُّ الصحابة دينٌ وإيمان، لأنَّ الله أَمَرَنا بحبهم والاستغفارِ لهم، وبُغْضُهم نفاقٌ وطغيان، فما أبغضهم أو سَبَّهم أو شتَمهم إلاَّ منافق.

الخلفاء الراشدون المهديون

[٧٤]: «وَنُثْبِتُ الخِلافَةَ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ: أوّلاً: لأبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عَنْهُ، تَفْضِيلاً لَهُ، وَتَقْدِيماً عَلَى جَمِيعِ الأمَّة. ثُمَّ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ، ثُمَّ لِعُثْمَانَ رَضِيَ الله عَنْهُ، ثُمَّ لِعَلِيِّ بْنِ أبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، وهُمْ الخُلَفاءُ الرّاشِدونَ، والأئِمَّةُ المَهْدِيُّون».

الكلامُ هنا عن الخلفاءِ الراشدين، والأئمةِ المهديّين، وأهلُ السنة يُثبتونَ لهم الخلافة، ويُثبتونَ لهم الفضل، وترتيبُهم في الفضلِ عند الله كترتيبهم في الخلافة.

أفضلُهم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو مقدَّمٌ على الأمة جميعاً حتى قيام الساعة، وهو أفضلُ الأمةِ بعدَ رسولِ الله ﷺ.

وبعدَه في الفضل والمنزلةِ عمرُ بن الخطاب، ثم عثمانُ بن عفان، ثم عليُّ بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين.

وكانت خلافةُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالنصِّ الخفيِّ والإشارةِ غيرِ الصريحة من رسولِ الله ﷺ. فهو عليه الصلاة والسلام لم يذكُرْ نَصّاً واضحاً صريحاً، إنما ذكرَ إشاراتٍ فَهِمَ منها الصحابةُ أنه يرضاه لهم خليفة. فلما قُبضَ ﷺ والتحق بالرفيقِ الأعلى، قام الصحابةُ باختيارهِ ومبايعته ورَضوا جميعاً بالخلافة.

إشارة الرسول إلى استخلاف الصديق

من الأحاديثِ الصحيحةِ التي أشارتْ إلى ذلك:

١ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن جبير بن مُطْعَمِ رضيَ الله عنه قال: أتت امرأةٌ النبيَّ ﷺ، فأمرها أن ترجعَ إليه.

قالت: أرأيتَ إنْ لم أجدك؟ كأنها تريدُ الموت.

قال: إنْ لم تَجِديني فأْتي أبا بكر»[١].

٢ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ في اليوم الذي بُدِءَ فيه. فقال: ادْعي لي أَباكِ وأخاك، حتى أكتبَ لأبي بكر كتاباً! قَال: يأبىٰ الله والمسلمون إلاَّ أبا بكر»[٢].

ولفظ البخاري هو: (هممتُ ـ أو أردتُ ـ أنْ أُرسلَ إلى أبي بكر وابنه فأعهد، أن يقولَ القائلون أو يتمنّى المتمنّون. ثم قلتُ: يأبى الله ويدفعُ المؤمنون»[٣].

٣ ـ روى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما مرض رسولُ الله ﷺ مَرَضَه الذي ماتَ فيه. حَضرت الصلاة، فأُذِّن.

فقالَ عليه الصلاة والسلام: مُرو أبا بكر فلْيُصَلِّ بالناس.

فقيل له: إنَّ أبا بكر رجلٌ أسيف، إذا قامَ في مقامك لم يستطعْ أنْ يصلي بالناس!

فأعادَ، فأعادوا له. فقال: «إنكنَّ صواحبُ يوسف، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[٤].

لقد أرادَ النبيُّ ﷺ أنْ يستخلفَ أبا بكر، وأنْ يكتبَ له كتاباً، ولكنه عدلَ عن ذلك واكتفى بالإشارةِ غير الصريحة، لأنه يعلمُ أنّ المؤمنين لَن يختاروا غيرَه، وإنما سيُجمعون عليه، وهذا ما حَصَل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٥٩. ومسلم برقم: ٢٣٨٦.
(٢)(٣) أخرجه البخاري برقم: ٥٦٦٦. ومسلم برقم: ٢٣٨٧.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٦٦٤. وأخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري برقم: ٤٢٠.

من الأحاديث في فضل الصديق

من الأحاديثِ الصحيحةِ في فضل أبي بكر ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: بَينا أنا نائم، رأيتُني على قليب، عليها دَلو. فَنَزَعْتُ منها ما شاءَ الله، ثم أَخَذَها ابنُ أبي قُحافة، فنزعَ منها ذَنوباً أو ذَنوبين، وفي نزْعِهِ ضَعف، والله يغفرُ له.. ثم أخذَها عمر فاستحالَتْ غَرْبا، فلمْ أرَ عَبقرياً يَفري فِريَّه، حتى ضربَ الناس بعطَن»[1].

ومعنى هذه الرؤيا: أنَّ الرسولَ ﷺ رأى نفسَه واقفاً على بئر ـ وهو القليب ـ وعليه دَلو، فنزعَ الرسولُ ﷺ من البئر بالدلو وسقىٰ الناسَ، ثم جاء أبو بكر، ونزعَ من البئر دَلواً أو دلوين ـ والذَّنوب هو الدَّلو ـ ثم جاء عمرُ فنزع من البئرِ الكثيرَ من الماء حتى كَبُرَ الدلوُ كثيراً بين يدي عمر ـ والغَرْبُ هو الدلوُ الكبير ـ فلم يَرَ أحداً يعملُ كما عمل ـ والعبقريُّ هو الرجلُ العظيم، والفَرِيُّ هو العمل ـ حتى شربَ الناسُ وارتووا هم ومواشيهم ـ والعَطَنُ هو ما يُعَدُّ للشرب ـ.

وهذه الرؤيا إشارةٌ إلى خلافةِ الصّدّيق رضي الله عنه التي كانتْ قصيرة، وإلى خلافةِ عمر رضي الله عنه التي امتدتْ، وسعدَ المسلمون فيها كثيراً.

ومن هذه الأحاديثِ أيضاً ما رواه مسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسولَ الله قال: «لو كنتُ متخِذاً من أهلِ الأرض خليلاً لاتخذْتُ أبا بكر خليلاً، ولكنَّ صاحبَكُم خليلُ الله.. لا يُبْقَيَنَّ في المسجد خوخةٌ إلاَّ سُدَّتْ، إلاَّ خوخةَ أبي بكر»[2].

والخوخَةُ هي: البابُ الصغيرُ المفتوحُ على المسجد.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٦٤. ومسلم برقم: ٢٣٩٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٨٣.

ومنها ما رواهُ البخاريُّ ومسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سألْتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ الناسِ أحبُّ إليك؟

قال: عائشة.

قلت: من الرجال؟

قال: أبوها.

قلت: ثم مَنْ؟

قال: عمر. فعدَّ رجالاً[١].

وقد ذكرتْ لنا عائشةُ رضي الله عنها قصةَ استخلافِ ومبايعةِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ومما جاءَ في روايةِ البخاري عنها قولُها: «... واجتمعَ الأنصارُ إلى سَعْدِ بن عُبادة، في سقيفةِ بني ساعدة. فقالوا: مِنّا أمير، ومنكم أمير، فذهبَ إليهم أبو بكر، وعمرُ بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، فذهبَ عمرُ يتكلم، فأسكتَهُ أبو بكر، وكان عمرَ يقول: والله ما أردْتُ بذلك إلاَّ أني هيأْتُ في نفسي كلاماً قد أعجبَني، خشيتُ أنْ لا يُبلِّغَهُ أبو بكر. ثم تكلَّمَ أبو بكر، فتكلَّم أبلغَ الناس. فقال في كلامه: نحنُ الأمراء، وأنتم الوزراء.

فقال حبابُ بن المُنذر: لا واللهِ لا نفعلُ، منّا أمير، ومنكم أمير.

فقال أبو بكر: لا. ولكنّا الأمراء وأنتم الوزراء، هم [يعني قريشاً والمهاجرين] أوسطُ العرب، وأعَزُّهم أحساباً. فبايعوا عمر أو أبا عبيدة بن الجراح.

فقال عمر: بل نبايعُك، فأنتَ سيدُنا وخيرُنا، وأَحبُّنا إلى رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٦٢. ومسلم برقم: ٢٣٨٤.

فأخذَ عمرُ بيده، فبايَعَه، وبايعَهُ الناس..»[١].

استخلاف عمر وبعض فضائله

الخليفةُ الراشدُ الثاني هو أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه.

وهو أفضلُ الأمةِ بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه.

روى البخاريُّ عن محمدِ بن الحنفية قال: قلْتُ لأبي [علي بن أبي طالب] يا أَبتِ: مَنْ خَيْرَ الناس بعد رسول الله ﷺ؟

قال: يا بُني؟ أوَ ما تَعرف؟

قلتُ: لا.

قال: أبو بكر.

قلت: ثم مَنْ؟

قال: ثم عمر.

وخشيتُ أن يقول: ثم عثمان، فقلت: ثم أنت؟

قال: ما أنا إلاَّ رجلٌ من المسلمين[٢].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: وُضعَ عمرُ على سريرِه [بعدما طُعِنَ واسْتُشهد] فتكنَّفَهُ الناسُ يَدْعون، ويَثْنون، ويصلّون عليه قبلَ أن يُرفع، وأنا فيهم.

فلم يَرُعني إلاَّ برجلٍ قد أَخَذَ بمنكَبي مِن ورائي. فالتفتُّ إليه، فإذا هو عليّ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٦٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٧١.

فترحَّمَ على عُمر، ثم قال: ما خَلَّفْتُ أحداً أحَبَّ إليَّ أنْ ألقىٰ الله بمثلِ عملِه منك، وأيْمُ الله، إنْ كنتُ لأظنُّ أنْ يجعَلَكَ الله مع صاحبيك، وذلك أني كنتُ كثيراً ما أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقول: جئتُ أنا وأبو بكر وعمر، ودخلْتُ أنا وأبو بكر وعمر، وخرجْتُ أنا وأبو بكر وعمر، وإنْ كنتُ لأرجو أن يجعَلَكَ الله معهما[١].

وهاتان شهادتانِ قيِّمتان من عليٍّ لعمر رضي الله عنهما، ضمن شهاداتٍ أخرى صحيحة، وهي ردٌّ على مزاعمِ وأباطيل الشيعةِ الروافض، الذين اتَّهَموا أبا بكر وعمر وعثمان وسبّوهم وشتموهم.

ومن فضائلِ عمرَ رضي الله عنه ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قالَ لعمر: يا ابنَ الخطاب: والذي نفسي بيده، ما لقيكَ الشيطانُ سالِكاً فَجّاً، إلاَّ سَلَكَ فَجّاً غيرَ فَجِّكَ»[٢].

ومنها ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قد كانَ في الأمم قَبْلَكُمْ مُحَدَّثونَ، فإنْ يكنْ في أُمتي منهم أحَدٌ، فإنَّ عمرَ بن الخطابِ منهم»[٣].

قال ابنُ وهب: المُحَدَّثون هم المُلْهَمون.

استخلاف عثمان وبعض فضائله

والخليفةُ الراشدُ الثالثُ هو أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفان رضي الله عنه.

ومن فضائل عثمانَ رضي الله عنه أنه كان خَتَنَ رسولِ الله ﷺ وسلم على ابنتيْه رقيةَ وأمِّ كلثوم رضي الله عنهما.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٧٧. ومسلم برقم: ٢٣٨٩.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٢٩٤. ومسلم برقم: ٢٣٩٦.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٦٩. ومسلم برقم: ٢٣٩٨.

وروى مسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ مضطجعاً في بيتِهِ كاشِفاً عن فخذيْه أو ساقيْه، فاستأذَنَ أبو بكر، فأَذِنَ له وهو على تلكَ الحالة، فتحدَّث، ثم استأذَنَ عمر، فأذِنَ له وهو على تلك الحالة، فتحدَّث، ثم استأذَنَ عثمانُ، فجلَسَ رسولُ الله ﷺ، وسَوّى ثيابَه، فدخَل فتحدث ثم خرج.

قالتْ عائشة: دخلَ أبو بكر، فلم تَهَشَّ له ولم تُبالِه، ثم دخلَ عمر فلم تهشَّ له ولم تُبالِهِ، ثم دخلَ عثمان فجلسْتَ وسوَّيْتَ ثِيابَك؟

فقال: «ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة!!»[1].

وروى البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما أنه وضَّحَ لأحدِ المشكِّكين سببَ غيابِ عثمان عن بيعةِ الرضوانِ، وما فعلَهُ رسولُ الله ﷺ له قال: وأمّا تغيُّبُه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحَدٌ أعَزَّ ببطنِ مكةَ من عثمان لبعَثَهُ مكانَه، فبعثَ رسولُ الله ﷺ عثمان.

وكانتْ بيعةُ الرضوان بعدما ذهبَ عثمانُ إلى مكة. فقالَ رسولُ ﷺ بيدِهِ اليمنى: «هذه يَدُ عثمان» فضربَ بها على يده، فقال: «هذه لعثمان»[2].

وقد اختارَ المسلمون عثمانَ أميراً للمؤمنين بعد استشهادِ عمر رضي الله عنهما.

رواية البخاري لاستشهاد عمر

وقد أورَدَ الإمامُ البخاريُّ قصة استشهادِ عمر ومداولاتِ مبايعة عثمان رضي الله عنهما.

روى بسندِه عن عمرو بن ميمون رحمهُ الله قال: رأيتُ عمرَ رضي الله

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٤٠٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٩٨.

عنه قبلَ أنْ يُصابَ بأيام بالمدينة، ووقفَ على حذيفةَ بنِ اليمان وعثمانَ بن حنيف، فقال: كيفَ فعلْتُما؟ أتخافان أنْ تَكونا قد حَمَّلْتُما الأرض ما لا تُطيق؟ قالا: حَمَّلْناها أمراً هي له مطيقة، ما فيها كثيرُ فضل. قال: انظرا أنْ تكونا حَمَّلْتُما الأرضَ ما لا تُطيق؟ قالا: لا.

قال عمر: لئن سَلَّمَني الله، لأدَعَنَّ أراملَ أهلِ العراق لا يحتجْنَ إلى رجلٍ بعدي أبداً!!

قال: فما أتَتَ عليه إلاَّ رابعةٌ حتى أصيب.

قال عمرو: إني لقائمٌ، ما بيني وبينه إلاَّ عبدُ الله بن عباس غداةَ أُصيب، وكان إذا مَرَّ بين الصفيْن قال: استووا، حتى إذا لم يَرَ فيهم خللاً تقدَّم فكبَّر، وربما قرأ سورةَ يوسف أو النحل، أو نحوَ ذلك، في الركعةِ الأولى، حتى يجتمعَ الناس.

فما هو إلاَّ أنْ كَبَّرَ، فسمعْتُه يقول: قَتَلني؟ أو أكَلَني الكلب، حين طَعَنَه.

فطارَ العلجُ بسكّين ذاتِ طرفين، لا يمرُّ على أَحدٍ يَميناً ولا شمالاً إلاّ طَعَنه، حتى طَعَن ثلاثَة عَشَر رجلاً، ماتَ منهم سبعة. فلما رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طَرَح عليه بُرْنُساً، فلما ظَنَّ أنه مأخوذ، نَحَرَ نَفْسَه.

وتناولَ عمرُ يدَ عبدِ الرحمٰن بن عوف، فقدَّمَه، فَمَنْ يَلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد، فإنّهم لا يَدرون، غيرَ أنهم قد فَقدوا صوتَ عمر، وهم يقولون: سبحانَ الله، سبحانَ الله. فصلّى بهم عبدُ الرحمٰن صلاةً خفيفة.

فلما انصرفوا قالَ: يا ابنَ عباس: انظُرْ مَنْ قَتَلني؟ فجالَ ساعة، ثم جاء، فقال: غلامُ المغيرة! قال: الصَّنَعُ؟ قال: نَعم، قال: قاتَلَهُ الله، فلقد أَمَرْتُ به معروفاً، الحمدُ لله الذي لم يجعلْ مَيْتَتي بيدِ رجلٍ يَدّعي الإسلام! قد كنت أنتَ وأبوك تُحبّان أنْ تكثرَ العُلوج بالمدينة، وكانَ العباسُ أكثرَهم

رقيقاً. فقال: إن شئتَ فعلْتُ، أي: إن شئتَ قتلْنا. قال: كذبْتُ، بعدما تكلّموا بلسانِكم، وصلّوا قبلتكم، وحَجوا حجّكم!!

فاحْتُمِلَ إلى بيته، فانطلقْنا معه، وكأنَّ الناسَ لم تُصبهم مصيبةٌ قبلَ يومئذ، فقائل يقول: لا بأسَ به، وقائلٌ يقول: أخافُ عليه، فأتيَ بنبيذٍ فشربَه، فخرجَ من جوفِه ثم أُتيَ بلبنٍ فشربه، فخرجَ من جوْفه، فعرفوا أنه ميت.

مع عمر في ساعات احتضاره

فَدَخَلْنا عليه، وجاءَ الناسُ يُثنون عليه. وجاءَ رجلٌ شاب، فقال: أبشرْ يا أميرَ المؤمنين بِبُشرى الله لك، من صحبةِ رسول الله ﷺ وقَدَم في الإسلام، ما قد علمتَ، ثم وُلّيتَ فعدلْتَ، ثم شهادة! قال: وددتُ أنَّ ذلك كان كِفافاً، لا عليَّ ولا لي.. فلما أدْبر إذا إزارُه يمسُّ الأرض. قال: ردّوا عليَّ الغُلام! قال: يا ابن أخي: ارفعْ ثوبَك، فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك!

يا عبدَ الله بن عمر: انظرْ ما عليَّ من الدين.. فحسَبُوه، فوجدوه ستةً وثمانين ألفاً، أو نحوه، قال: إنْ وفىٰ له مالُ آلِ عمر، فأَدّه من أموالهم، وإلاَّ فسَلْ في بني عَدِيٍّ بن كَعب، فإنْ لم تَفِ أموالُهم، فسلْ في قريش، ولا تَعدُهُمْ إلى غيرهم، فأدِّ عَنّي هذا المال.

انطلقْ إلى عائشةَ أمِّ المؤمنين، فقل: يقرأُ عليكِ عمر السلام، ولا تقل: أميرُ المؤمنين، وفإنّي لستُ اليومَ للمؤمنين أميراً! وقل: يستأذنُ عمرُ بنُ الخطاب أنْ يُدفَنَ مع صاحبيه!.

فسلَّم واستأذَن، ثم دخَل عليها، فوجدَها قاعدةً تبكي. فقال: يقرأُ عليكِ عمرُ بنُ الخطاب السلام، ويستأذنُ أنْ يُدفنَ مع صاحبيْه. قالتْ: كنتُ أُريدُه لنفسي، ولأوثرنَّه به اليومَ على نفسي.

فلما أقبل، قيل: هذا عبدُ الله قد جاء. قال: ارفعوني. فأسنده رجلٌ

إليه. قال: ما لديك؟ قال: الذي تحبُّ يا أميرَ المؤمنين، أذِنَتْ.

قال: الحمدُ لله، ما كان شيءٌ أحَبَّ إليَّ من ذلك. فإذا أنا قضيتُ، فاحْمِلوني، ثم سَلِّمْ، فقل: يستأذنُ عمرُ بن الخطاب، فإنْ أذنَتْ لي، فأدْخلوني، وإنْ ردَّتْني فردّوني إلى مقابرِ المسلمين!

وجاءتْ أمُّ المؤمنين حفصة، والنساءُ تسيرُ معها، فلما رأيْناها قمنا، فولجتْ عليه، فبكَتْ عنده ساعة. واستأذَنَ الرجال، فولجْتُ داخلاً لهم، فسمعنا بكاءَها من الداخل.

وصية عمر قبل وفاته

فقالوا: أوْصِ يا أميرَ المؤمنين، استخْلِفْ. قال: ما أحدٌ أحقّ بهذا الأمرِ من هؤلاء النَّفَرِ ـ أو الرهط ـ الذين تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راض. فسمّى علياً، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبد الرحمٰن، وقال: يشهدُكم عبدُ الله بن عمر، وليسَ له من الأمر شيء، كهيئة التعزيةِ له، فإنْ أصابتْ الإمرةُ سعداً فذاك، وإلاَّ فليستعِنْ به أيُّكم ما أُمِّر، فإنّي لم أعزله من عجزٍ ولا خيانة.

وقال: أُوصي الخليفةَ من بعدي بالمهاجرين الأولين: أنْ يعرفَ لهم حقَّهم، ويحفظ لهم حرمتَهم، وأُوصيه بالأنصار خيراً، الذينَ تبوؤا الدار والإيمانَ من قبلهم، أنْ يَقبلَ من محسنِهم، ويتجاوَزَ عن مسيئهم، وأُوصيهِ بأهلِ الأمصار خيراً، فإنهم ردءُ الإسلام، وجُباةُ الأموال، وغيظُ العدو، أنْ لا يأخذَ منهم إلاَّ فَضْلَهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصلُ العرب، ومادةُ الإسلام، أن يؤخذَ من حواشي أموالِهم، وأنْ يردَّ على فقرائهم، وأُوصيه بذمةِ الله وذمةِ رسوله، أنْ يُوفي لهم بعهدهم، وأنْ يقاتل مِنْ ورائهم، ولا يُكَلَّفوا إلا طاقتهم!

فلما قُبضَ خرجنا به، فانطلقْنا نمشي، فسلَّمَ عبدُ الله بنُ عمر، قال: يستأذنُ عمرُ بن الخطاب. قالت: أدْخلوه، فأُدخِل، فوُضعَ هنالك مع صاحبيه.

مداولات ابن عوف في استخلاف عثمان

فلما فُرغ من دفنه، اجتمع هؤلاء الرهط. فقال عبدُ الرحمٰن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثةٍ منكم، قال الزبير: قد جعلْتُ أمري إلى عليّ. وقال طلحة: قد جعلْتُ أمري إلى عثمان. وقال سعد: قد جعلْتُ أمري إلى عبد الرحمٰن.

فقالَ عبدُ الرحمٰن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعلَه إليه، واللَّهُ عليه والإسلام لينْظُرَنَّ أَفْضَلَهم في نفسه! فقالَ عبدُ الرحمٰن: أفتجعلونه إليَّ؟ واللَّهُ عليَّ أن لا آلو إلاّ عن أفضلكم؟ قالا: نَعَمْ.

فأخذَ بيدِ أحدهما، فقال: لكَ قرابةٌ من رسول الله ﷺ، والقِدَمُ في الإسلام ما قد علمْتَ، فبالله عليك: لئن أمَّرتُكَ لتعْدِلَنَّ، ولئن أمَّرْتُ عليك لتسمَعَنَّ ولتطيعَنّ؟ ثم خلا بالآخر، فقال له مثلَ ذلك.

فلما أخذَ الميثاق، قال: ارفعْ يَدَكَ يا عثمان، فبايَعه، وبايَعَ له عليّ، وولجَ أهلُ الدار، فبايَعوه»[١].

وهذا المشهدُ الأخير في مبايعة عثمان مجملٌ في روايةِ عمروِ بن ميمون التي في البخاري، وهو مفصَّلٌ قليلاً في روايةِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَة في البخاري.

روى البخاريُّ عن حميدِ بن عبد الرحمٰن: أنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أخبره: أنَّ الذين ولاّهم عمر، اجتمعوا وتَشاوروا.

قالَ لهم عبدُ الرحمٰن: لستُ الذي أُنافسكم على هذا الأمر، ولكنكم إنْ شئتُم اخترتُ لكم منكم؟ فَجعلوا ذلك إلى عبدِ الرحمٰن.

فلما ولُّوا عبدَ الرحمٰن أمرهم، مالَ الناسُ إلى عبد الرحمٰن حتى ما أرى أحداً من الناس يتبعُ أولئك الرهط، ولا يطأُ عَقِبه، ومالَ الناسُ إلى عبدِ الرحمٰن يشاورونه تلك الليالي.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٧٠٠.

حتى إذا كانتْ تلك الليلة التي أصبحنا فيها بايَعْنا عثمان، قال المِسْوَرُ بن مَخْرَمَة: طَرَقَني عبدُ الرحمٰن بعد هَجْعٍ من الليل، فضربَ البابَ حتى استيقظتُ، فقال: أراكَ نائماً؟ فوالله ما اكتحَلْتُ هذه الثلاثَ بكبير نوم!

انطلِقْ، فادْعُ لي الزبيرَ وسَعْداً، فدعوتُهما له، فشاوَرَهما، ثم دعاني، فقال: ادْعُ لي علياً، فدعوْتُه، فناجاهُ حتى ابهارَّ الليل، ثم قام عليٌّ من عندَه وهو على طَمَع، وقد كانَ عبدُ الرحمٰن يخشى من عليٍّ شيئاً، ثم قال: ادعُ لي عثمان، فدعوتُه، فناجاهُ حتى فَرَّقَ بينهما المؤذِّنُ بالصبح.

فلما صلى الناسُ الصبح، واجتمعَ أولئكَ الرهطُ عند المنبر، أرسل إلى مَنْ كانَ حاضراً من المهاجرين والأنصار، وأرسَل إلى أمراءِ الأجناد وكانوا وافَقوا تلك الحجةَ مع عمر.

فلما اجتمعوا تشهَّدَ عبدُ الرحمٰن، ثم قال: أمّا بعد: يا عليّ: إنّي نظرتُ في أمْرِ الناس، فلم أرَهم يَعدلون بعثمان، فلا تجعلَنَّ على نفسك سبيلاً.

فقالَ لعثمان: أُبايعُك على سنةِ الله ورسولِه، والخليفتيْن من بعده.

فبايَعَهُ عبدُ الرحمٰن، وبايَعَه الناس، والمهاجرون والأنصار وأمراءُ الأجناد والمسلمون»[١].

استخلاف علي والفتن في عهده

ورابعُ الخلفاءِ الراشدين هو أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، فلما قَتَلَ الخارجونَ أصحابُ الفتنة عثمان، بايعَ الناسُ عليّاً، وصارَ إماماً حقاً، واجبَ الطاعة.

وتوقَّفَ عن مبايعتِه معاويةُ بنُ أبي سفيان ومَنْ معه من أهل الشام بحجةِ الاقتصاص من قَتَلَةِ عثمان الذين كان بعضُهم في جيشه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٢٠٧.

ثم وقعتْ معركةُ الجَمَلِ في البصرة، بسبب الخلاف بين عليٍّ وبينَ طلحةَ والزبير رضي الله عنهم، ولم يكنْ لهم اختيارٌ في الفتنةِ، ولا المعركة، وإنما أثارها المفسدون في الجيشين، وأدتْ معركةُ الجمل إلى استشهادِ طلحةَ والزبير والكثيرِ من المسلمين.

ثم وقعتْ معركةُ صِفّينَ بين عليٍّ وبين معاوية رضي الله عنهما، وأدَّتْ إلى مقتلِ عشراتِ الآلاف من المسلمين.

والحقُّ في هذه الفتن مع عليٍّ رضي الله عنه، لأنه هو الخليفةُ الراشدُ المهدي الذي تجبُ طاعته، لكنَّ معاويةَ رضي الله عنه كان متأوِّلاً مجتهداً.

ومعظمُ الصحابة قَعَدوا عن القتال بين عليٍّ ومعاوية، وعليٍّ وطلحةَ مع الزبير، وتوقَّفوا عن الخوضِ في الفتنة، لأنَّ مفسدتَها تزيدُ على مصلحتها، وكانوا يَدْعون للفريقيْن، ويطبِّقون قولَ الله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

والفتنُ التي كانتْ في أيامِ عليٍّ رضي الله عنه صانَ الله أيدينا عنها، فلم نكنْ مع طَرَفٍ ضدَّ طرفٍ فيها، ويجبُ أنْ نصونَ ألسنَتنا عنها، فلا نحكمُ لطرفٍ على طرفٍ منها.

وأدتْ هذه الفتنُ إلى استشهادِ عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث قتله الشقي عبدُ الرحمٰن بن ملجم، أحدُ الخوارج.

من فضائل علي والخلفاء الراشدين

ومن فضائلِ أميرِ المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه ما رواهُ البخاريُّ ومسلم عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «أنْتَ مِنِّي بمنزلةِ هارونَ من موسى إلا أنَّه لا نبيَّ بعدي»[1].

(١) أخرجه البخاري: ٣٧٠٦. ومسلم: ٢٤٠٤.

ومنها ما رواه البخاريُّ ومسلم عن سهلِ بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يومَ خيبر: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسولَه، ويحبُّهُ الله ورسولُه».

قال: فتطاوَلْنا لها.

قال: ادْعُوا لي عليّاً.

فدُعيَ به أرْمَد، فبصَقَ في عينيه، ودفعَ الرايةَ إليه، ففتحَ الله عليه»[1].

وهؤلاء الأربعةُ هم الخلفاءُ الراشدون والأئمة المهديون، رضوانُ الله عليهم.

وترتيبُهم في الفضل كترتيبِهم في الخلافة: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

وكانت مدةُ خلافةِ الصّدّيق سنتين وثلاثة أشهر، ومدةُ خلافة عمر عشر سنين ونصفاً، ومدةُ خلافةِ عثمان اثنتي عشرةَ سنة، ومدةُ خلافةِ عليٍّ أربعَ سنين وتسعة أشهر، ومدةُ خلافةِ ابنِه الحسن ستةَ أشهر. ومجموعُ خلافتهم ثلاثون سنة.

وهذا ما حدَّدَهُ رسولُ الله ﷺ، بإخبارِ الله له.

روى أبو داود والترمذيُّ عن سَفينَةَ رضيَ الله عنه ـ وهو مولى رسول الله ﷺ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: خلافةُ النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكَه مَنْ يشاء»[2].

وقد أَمَرنا رسولُ الله ﷺ باتباعِ سنتهم.

روى أبو داود والترمذيُّ عن العرباضِ بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغة، ذرفَتْ منها العيون، ووجَلَتْ منها

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٠٩. ومسلم برقم: ٢٤٠٦.
(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٤٦. والترمذي برقم: ٢٢٢٦.

القلوب. فقال قائل: يا رسولَ الله: كأنَّ هذه موعظةَ مُوَدِّع، فماذا تعهدُ إلينا؟

فقال: أُوصيكُمْ بالسمعِ والطاعة، فإنَّه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكُم بسنتي، وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المهديّين من بعدي، تمسَّكوا بها، وعَضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»[١].

العشرة المبشرون بالجنة

٧٥ : «وأنَّ العَشَرَةَ الذينَ سَمَّاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ، وَبَشَّرَهُمْ بالجَنَّةِ، نَشْهَدُ لَهُمْ بالجَنَّةِ، عَلى ما شَهِدَ لَهُمْ رَسولُ الله ﷺ، وَقَوْلُهُ الحَقّ، وَهُمْ: أبُو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وهو أمينُ هذه الأمة ـ رضي الله عنهم أجمعين».

الكلامُ هنا عن العشرةِ الأبرار، الذين بَشَّرهم رسولُ الله ﷺ بالجنة.

روى أبو داود والترمذيُّ عن سعيدِ بن زيد رضي الله عنه قال: أشهدُ على رسولِ الله ﷺ أني سمعتُه يقول: «عشرةٌ في الجنة: النبيُّ في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمرُ في الجنة، وعثمانُ في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وطلحةُ في الجنة، والزبيرُ في الجنة، وسعدُ بن مالك في الجنة، وعبدُ الرحمٰن بن عوف في الجنة.

لو شئتُ لسميْتُ العاشر.

فقالوا: مَنْ هو؟

قال: سعيدُ بنُ زيد.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٠٧. والترمذي برقم: ٢٦٧٨.

ثم قال: لمشهدُ رجلٍ منهم مع رسولِ الله ﷺ، يَغْبَرُّ منه وجْهُه، خيرٌ من عملِ أحدكم، ولو عَمَّرَ عُمُرَ نوح!»[١].

وقد أوردْنا أحاديثَ صحيحة في فضائلِ الخلفاءِ الأربعةِ رضي الله عنهم، ونوردُ الآنَ بعضَ الأحاديث الصحيحة في فضائلِ الستة الآخرين:

من فضائل سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه: روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما رأيتُ النبيَّ ﷺ يَفدي رَجُلاً بعد سعد.

سمعتُه يقول: أرمِ فداك أبي وأمي»[٢].

ومن فضائلِ طلحةَ بن عبيد الله رضي الله عنه: روى البخاريُّ عن قيس بن أبي حازم رحمهُ الله قال: رأيتُ يدَ طلحة، التي وقىٰ بها النبيَّ ﷺ قد شُلّت»[٣].

ومن فضائلِ الزبير بن العوام رضي الله عنه: روى البخاريُّ ومسلمٌ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ندبَ رسولُ الله ﷺ الناس يوم الخندق فانتدبَ الزبيرُ، ثم ندبهم فانتدبَ الزبيرُ، ثم ندبَهم فانتدبَ الزبير، ثم ندبَهم فانتدبَ الزبير!

فقال النبيُّ ﷺ: لكلِّ نبيٍّ حواريٌّ. وحواريّيّ الذبير»[٤].

ومن فضائلِ أبي عبيدة رضي الله عنه: روى البخاريُّ ومسلمٌ عن حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه قال: جاء أهلُ نجرانَ إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسولَ الله: ابعثْ لنا رجلاً أميناً.

فقال: لأبعثنَّ إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمين!

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٤٩. والترمذي برقم: ٣٧٤٨.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٩٠٥. ومسلم برقم: ٢٤١١.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٣٧٢٤.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٢٨٤٦. ومسلم برقم: ٢٤١٥.

فاستشرفَ لها الناس، فبعثَ أبا عبيدةَ بن الجراح»(١).

وأخبرَ رسولُ الله ﷺ عن استشهاد مجموعةٍ من العشرة المبشَّرين بالجنة.

روى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ على حِراء [وهو الجبلُ المعروفُ في مكة] هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير.

فتحركت الصخرة. فقالَ رسول الله ﷺ: «اهْدأ، فما عليكَ إلاَّ نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شهيد»(٢).

والصّدّيق هو أبو بكر رضي الله عنه.

والخمسةُ المذكورون لقوا الله شهداء، عمر وعثمان وعليٌّ وطلحةُ والزبيرُ، والسابعُ الذي نالَ الشهادةُ هو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم.

وأنْ يلقى الله شهداءَ سبعةٌ من العشرةِ الأبرار المبشَّرين بالجنة، دليلٌ على علوِّ منزلتهم عند الله، رضوانُ الله عليهم.

ضلال الشيعة في موقفهم من العشرة

وما أجهلَ الرافضةِ وغيرهم، الذين لا يحبون هؤلاء العشرة، ولا يُوالونهم، وإنما يُبغضونَهم ويَشتمونهم ويتبرؤون منهم، لقد خسِر هؤلاء المنحرفون خسراناً عظيماً.

إنَّ مِن خسارةِ وضلال هؤلاء الشيعة أنهم يبرَؤون من أصحابِ رسول الله ﷺ، الذين شهدَ الله بفضلِهم ورضوانِه عليهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٧٤٥. ومسلم برقم: ٢٤٢٠.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٤١٧.

وهم لا يُوالون ولا يُحبون إلاَّ نفراً قليلاً من الصحابة، لا يتجاوَزون بضعة عَشَرَ رجلاً.

ويُقدِّمون على هؤلاءِ العشرة المبشَّرين بالجنة أئمتهم الاثنيْ عشر وهم: عليُّ بن أبي طالب، ثم ابنُه الحسنُ بن علي، ثم ابنُه الآخر الحسينُ بن علي رضي الله عنهم. ثم عليُّ بن الحسين بن علي، الملقبُ بزينِ العابدين، ثم ابنه محمد بن عليّ بن الحسين، الملقبُ بالباقر، ثم ابنُه جعفرُ بن محمد بن علي، الملقبُ بجعفر الصادق، ثم ابنُه موسى بنُ جعفرُ بن محمد، الملقبُ بموسى الكاظم، ثم عليُّ بن موسى بن جعفر، الملقبُ بعليِّ الرِّضا، ثم محمدُ بن علي بن موسى، الملقب بمحمد الجواد، ثم عليّ بن محمد بن علي، الملقبُ بعليِّ الهادي، ثم الحسنُ بنُ علي بن محمد الملقبُ بالحسن العسكري، ثم الطفلُ محمدُ بن الحسن العسكري، الإمامُ الثاني عشر، وهو صاحب السرداب، الذي دخلَ السرداب في مدينة سامراء، وعمره تسعُ سنوات، ولم يخرج منه، والشيعةُ ينتظرون خروجَه، ويعتبرونَه صاحبَ الزمان والإمام المنتظر.

فَنَسَبُ أئمتِهم الاثني عشر هكذا: محمدُ بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ومعلومٌ أنَّ العشرةَ المبشرين بالجنة أفضلُ بكثيرٍ من هؤلاء الأئمة، لصحبتهم لرسول الله ﷺ ولشهادتِه لهم بالجنة.

وصية الرسول بأهل بيته

[٧٦]: «ومَنْ أحْسَنَ القَوْلَ في أصْحَابِ رَسولِ الله ﷺ وأزْواجِهِ الطَّاهِراتِ مِنْ كُلِّ دَنَس، وَذُرِّيَّاتِهِ المُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رِجْس، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النفاق».

يجبُ على المؤمنِ أنْ يُحسنَ القولَ في أصحابِ رسول الله ﷺ جميعاً، وفي أزواجه الطاهرات، وأنْ يُنزههنَّ عن كلِّ دنس وسوء، وفي آله الطيبين الأطهار، وذريتِه الصالحة العابدة.

فإنْ أحسنَ القولَ والظنَّ في هؤلاء، فقد برئ من النفاق، وإنْ أساءَ فيهم القولَ والظنّ فقد وقعَ في النفاق، وكانَ من المنافقين.

وقد أوصى رسولُ الله ﷺ المسلمين من بعده بآل بيته الطّيّبين الطاهرين.

روى مسلمٌ عن زيدِ بنِ أرقم رضي الله عنه قال: قامَ فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً، بماء يُدعى «خُمّ»، بين مكةَ والمدينة، فقال:

«أمّا بعد: أيُّها الناس، إنّما أنا بشر يوشكَ أنْ يأتيني رسولُ ربي، فأجيبُ ربي، وإنّي تاركُ فيكم ثقليْن: أوّلهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فخُذوا بكتابِ الله واستمسِكوا به».

فحثَّ على كتابِ الله، ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهْلُ بيتي، أُذَكِّرُكُمُ الله في أهلِ بيتي، أُذَكِّرُكُمُ الله في أهل بيتي، أذَكِّرُكُمُ الله في أهل بيتي»[١].

وروى البخاريُّ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «ارْقُبوا محمداً في أهلِ بيته»[٢].

أي: احفظوا محمداً ﷺ في أهلِ بيته، فلا تُؤذوهم.

وحسنُ الظنِّ والقولِ في أصحابِ رسول الله ﷺ براءةٌ من النفاق، لأنَّ أصلَ التشيعِ والرفضِ القائمِ على سوءِ الظن والقولِ في الصحابة كان على يدِ منافقٍ خبيثٍ زنديق، وهو «عبدُ الله بن سبأ» اليهودي.

كان ابنُ سبأ يهودياً من يهودِ اليمن، وأرادَ أن يفسدَ الإسلامَ ويفرقَ بين المسلمين بمكْرِهِ وخبثه، فادّعىٰ الإسلامَ، وأظهرَ التنسكَ والزهد، والأمْرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وَنَشَرَ إفسادَه في مصر والشام والعراق، وحشدَ الجهلاءَ الغوغاء لقتلِ عثمان رضي الله عنه، ثم أظهر الغلوَّ في عليٍّ

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٤٠٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٧١٣.

رضي الله عنه، وتابَعَهُ السذجُ الجهلاء، وقالوا بالتشيعِ والرفض، والتشيُّعُ والرفضُ بريدٌ وطريقٌ إلى النفاق.

حسن النظر إلى علماء السلف

77 : «وَعُلَماءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِين، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعين ـ أَهْلِ الخَيْرِ والأَثَرِ، وَأَهْلِ الفِقْهِ والنَّظَرِ ـ لا يُذْكَرونَ إلاَّ بِالجَميل، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسوءٍ، فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبيل».

أمرَ الله بمتابعةِ الرسولِ ﷺ، والسيرِ في سبيلِ المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

ويجبُ على كلِّ مسلمٍ أنْ يُواليَ الله ورسولَه ﷺ، ثم يُوالي المؤمنين، ويحبُّ العلماءَ، الذين همْ ورثةُ الأنبياء، جعلهم الله بمنزلةِ النجوم، التي يُهتدى بها في ظلماتِ البرِّ والبحر.

هؤلاء العلماءُ هم خلفاءُ الرسول ﷺ من أمته، يُحْيونَ ما ماتَ من سنته، وهم خيارُ الأمة.

يجبُ على كلِّ مسلم أنْ يذكرَهُم بالجميل، وأن يُثنيَ عليهم، وأنْ يأخذَ صوابَهم، وأنْ يَعذرهم في خطئهم، ويُحسنَ الظنَّ فيهم، ويرفضَ الخطأَ الذي وقعوا به، لكن يعذُرهم ويتأدبُ معهم، ويدعو الله لهم.

وإنْ ذَكَرَهم بسوء، وأساءَ الظنَّ بهم، كان على غيرِ السبيلِ المستقيم، وإنْ جَمَعَ أخطاءَهم، وَتَصَيَّدَ المآخذَ عليهم، وتكلَّمَ عليهم بسوء أدب، كان من المخطئين المؤاخذين عند الله.

الأنبياء أفضل من الأولياء

78 : «ولا نُفَضِّلُ أَحَداً مِنَ الأَوْلِياءِ على أَحَدٍ من الأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ السَّلام، وَنَقَولُ: نَبِيٌّ واحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَميعِ الأولِياءِ، ونُؤمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَراماتِهِمْ، وَصَحَّ عَنِ الثِّقاتِ مِنْ رِوايَاتِهِمْ».

الأنبياءُ أفضلُ من الأولياء، ولا يجوزُ تفضيلُ الوليِّ على النبي، فنبيٌّ واحدٌ أفضلُ عند الله من جميع الأولياء.

ثم إنَّ الأنبياءَ أولياء، فكلُّ نبيٍّ وليٌّ، وليس كلُّ وليٍّ نبياً.

والمؤمنون مأمورونَ بمتابعةِ العلم ومتابعةِ الشرع، ومتابعة السنة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٤، ٦٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

قالَ أبو عثمانَ النيسابوري: مَنْ أَمَّرَ السّنَّةَ على نفسِه قولاً وفعلاً نطقَ بالحكمة، ومَنْ أَمَّرَ الهوى على نفسِه نطقَ بالبدعة.

والإنسانُ إذا لم يَتَّبع السُّنَّة كان متَّبعاً لهواه، وكان متكبِّراً ضالاً على غير هدى من الله.

وبعضُ هؤلاء الضّالّين يظنُّ أنه يمكنُ أنْ يصلَ باجتهادِه ومجاهداتِه ورياضته إلى مقامِ النبي من غيرِ اتباعٍ صادقٍ له، وهذا ضلالٌ وهوى.

وبعضُ الضالين من جهلةِ المتصوفة يظنُّ أنَّ الوليَّ أفضلُ من النبي، ولقد قال قائلهم:

مَقامُ النُّبُوَّةِ في بَرزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ ودونَ الوَليّ

وهذا باطلٌ فالأنبياءُ هم أفضلُ أصنافِ الأولياء، وكلُّهم جَمعوا بين النبوةِ والولاية.

ومَن جعلَ الوليَّ أفضلَ من النبي فقد كَفَر، لأنه يُنقص مقامَ النبوة.

ومحبةُ الأولياءِ الصالحين واجبة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ

إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

والكرامةُ للأولياءِ الصالحين ثابتة، نؤمنُ فيها ونثبتُها، شرطَ أنْ تَصحَّ نسبتها إليهم وصدورُها عنهم.

ويُجمعُ بين المعجزة والكرامة أنَّ كُلًّا منهما آيةٌ من آيات الله، وأن كُلًّا منهما أَمْرٌ خارقٌ للعادة.

والفرقُ بين المعجزةِ والكرامة: أنَّ المعجزة هي: الآيةُ الخارقةُ التي يُجريها الله على يدِ النبي تصديقاً له في دعوى النبوة.

بينما الكرامةُ هي: الآيةُ الخارقةُ التي يُجريها الله على يدِ الوليِّ الصالحِ إكراماً له.

والوليُّ الصالحُ لا يطلبُ الكرامة، ولا تستشرفُها نفسُه، وإنما تأتيه منحةً من الله وكَرَماً، وهو لا يتعمَّدُ إظهارَها.

وأحسنُ كرامةٍ هي لزومُ الاستقامة، والله لم يكرمْ ولياً بكرامةٍ أعظمُ من موافقتِه فيما يحبُّه سبحانه ويرضاه، وتوفيقِه إلى طاعتِه، وطاعةِ رسوله، وموالاةِ أوليائه، ومعاداةِ أعدائه.

قالَ أبو علي الجوزجاني: كُنْ طالِباً للاستقامة، لا طالباً للكرامة، فإنَّ نفسَك متحركةٌ في طلبِ الكرامة، وربُّكَ يطلبُ منك الاستقامة.

والكرامةُ ليستْ شرطاً في الولاية، ومَنْ لم يُجْرِ الله علي يديْه كرامة، فليس معناه أَنه لَيس ولياً، فكثيرٌ من الأولياء لم يُعطهم الله خوارقَ أو كرامات، وهذا لم يُنقصْ قَدْرَهُمْ عنده سبحانه.

من هم أولياء الله

ذكرَ لنا القرآنُ شرطيْن للأولِيَاءِ ليكونوا أولياء، ليس حصولُ الكرامةِ واحداً منهما، والشَّرطان هما: الإيمانُ والتقوى. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ

أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وقد أنكرَ بعضُ المسلمين كرامات الأولياء، بحجةِ أنه لو ثبتت الكرامةُ للولي لاشتبهتْ بمعجزةِ النبي، وبذلك يحصلُ اللبس.

وهذه شبهةٌ مردودةٌ، لأنَّ الولي لا يَدّعي النبوة، حتى تختلطَ كرامتُه بالمعجزة، وإنما هو يصرحُ بمتابعته للنبي.

ومما يتصلُ بالكرامة الفراسة، وهي قوةُ الملاحظة، والخاطر، ودقةُ التحليل والنظر.

وهذه الفراسةُ ثلاثةُ أنواعُ:

الأول: فراسةٌ إيمانية: وهي نورٌ يقذفُه الله في قلبِ المؤمن، فيحسنُ النظرَ والتحليلَ والملاحظةَ والتعليل، ومَنْ كان أقوى إيماناً كانَ أَحَدَّ فراسة.

قالَ أبو سليمان الداراني: الفراسةُ مكاشفةُ النفس، ومعاينةُ الغيب، وهي من مقاماتِ الإيمان.

الثاني: فراسةٌ رياضية: وهي التي تحصلُ بالجوعِ والسهر والمجاهدة، والتخلّي عن متاعِ الدنيا، والنفسُ إذا تجردتْ من العوائق، صارَ لها قوةُ فراسةٍ وكشف، ودقةُ نظر وتحليل.

وهذا النوعُ من الفراسة ليس خاصاً بالمؤمنين، بل هو مشتركٌ بين المؤمنين والكافرين.

الثالث: فراسةٌ خَلْقِيَّة: وهي التي يَقومُ بها الأطباءُ، وهي مشتركةٌ بين المسلمين والكافرين أيضاً.

وذلك كاستدلالِ بعضِهم بصغَرِ الرأس على صغَرِ العقل، وبكبرِ الرأس على كبر العقل، وبسعَةِ الصدر على سعةِ الخُلُق، وبجمودِ العينين على بلادةِ صاحبهما، ولكن هذا ليس مطرداً ولا منضبطاً.

الإيمان بأشراط الساعة

٧٩ : «**وَنُؤْمِنُ بِأَشْراطِ السّاعَة: مِنْ خُروج الدَّجال، وَنُزولِ عيسى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلام مِنَ السَّماء، وَنُؤْمِنَ بِطُلوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها، وَخُروجِ دابَّةِ الأرْضِ مِنْ مَوْضِعِها**».

الكلامُ هنا عن أشراطِ الساعة وعلاماتِها، ويجبُ أنْ نؤمنَ بأشراطِ الساعةِ الواردةِ في الأحاديثِ الصحيحة.

وقد ذَكَرَ الإمامُ الطحاويُّ هنا أربعَ علاماتٍ للساعة: خروجُ الدجال، ونزولُ عيسى عليه السلام، وطلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابة.

وهناكَ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ، ذُكِرَ فيها مجموعةٌ من أشراط الساعة.

١ ـ روى البخاريُّ عن عوفِ بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في غزوةِ تبوك، وهو في قُبَّةٍ من أُدُم [جلد] فقال: اعدُدْ سِتّاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتحُ بيتِ المقدس، ثم موتان يأخذُ فيكم كَقُعاص الغنم، ثم استفاضةُ المال حتى يُعطىٰ الرجلُ مائةَ دينار فيظلّ ساخطاً، ثم فتنةٌ لا يبقى بيتٌ من العرب إلاَّ دخلَتْه، ثم هدنةٌ تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيَغدرون، فيأتونكم تحتَ ثمانين غاية، تحتَ كلِّ غاية اثنا عشر ألفاً»[١].

٢ ـ روى مسلمٌ عن حُذَيْفَةَ بنِ أُسَيْد رضي الله عنه قال: اطَّلَعَ علينا النبيُّ ﷺ، ونحن نتذاكرُ الساعة. فقال: ما تذكرون؟

قالوا: نذكرُ الساعة.

قال: إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلَها عشرَ آيات: الدخانُ، والدجالُ، والدابةُ، وطلوعُ الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوجُ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣١٧٦.

ومأجوج، وثلاثةُ خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرجُ من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[(١)].

٣ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ذُكِرَ الدجالُ عندَ رسول الله ﷺ، فقال: إن الله لا يَخفى عليكم، وإن الله ليس بأعور، وإنَّ المسيحَ الدجالَ أعورُ عينِ اليمنى، كأنَّ عينَه عنبةٌ طافية»[(٢)].

٤ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشِكَنَّ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريم حَكَماً عدلاً، فيكسِرُ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضعُ الجزية، ويَفيضُ المالُ حتى لا يقبلَه أحَد، حتى تكونَ السجدةُ خيراً من الدنيا، وما فيها»[(٣)].

ثم يقولُ أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم قولَه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

٥ ـ روى البخاريُّ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: لا تقومُ الساعة حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها فإذا رآها الناسُ آمَنَ مَنْ عليها فذلك حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبل»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٠١.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٣٩. ومسلم برقم: ١٦٩.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٢٢٢. ومسلم برقم: ١٥٥.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٣٥.

٦ ـ روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أولَ الآيات خروجاً: طلوعُ الشمس من مغربِها، وخروجُ الدابة على الناس ضحى، وأيُّهما ما كانتْ قبلَ صاحبتِها، فالأخرى على إثْرِها قريباً»[1].

هذه ستُّ أحاديثَ صحيحة في بعضِ أشراطِ الساعة، وهناك كتبٌ جَمعتْ أشراطَ الساعةِ الواردةَ في أحاديثَ صحيحة.

التحذير من الكهنة والعرافين

٨٠ : «وَلا نُصَدِّقُ كاهِناً ولا عَرّافاً، وَلاَ مَنْ يَدّعي شَيْئاً يُخالِفُ الكِتابَ وَالسُّنَّةَ وَإجْماعَ الأمّة».

الكاهنُ والعرافُ والساحرُ وغيرُهم ممن يَدّعون علمَ الغيب، والقدرةَ على الضرِ أو النفع، لا يُصدقُهم المسلم فيما يقولون، ولا يأتيهم ولا يلجأُ إليهم.

وقد حَذَّرَ رسولُ الله ﷺ من الذهاب إليهم:

روى أبو داود والترمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أتى عَرّافاً أو كاهناً فصدَّقَه بما يقول، فقد كفَر بما أنزلَ على محمد ﷺ»[2].

إذا كان هذا حالُ مَنْ يلجأُ إلى العرافِ والكاهنِ، فكيفَ يكونُ حالُ وكفرُ وضلالُ العرافِ والكاهنِ نفسه؟.

وروى مسلمٌ عن صفيةَ بنت أبي عبيد عن بعضِ أزواج النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أَتى عَرّافاً فسألَه عن شيء، لم تُقبلْ له صلاةُ أربعين ليلة»[3].

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٩٤١.
(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٣٩٠٤. والترمذي برقم: ١٣٥.
(٣) أخرجه مسلم برقم: ٢٢٣٠.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سألَ ناسٌ رسولَ الله ﷺ عن الكُهّان؟

فقال: ليسوا بشيء!

فقالوا: يا رسولَ الله: إنَّهم يُحَدِّثون أحياناً بالشيء فيكونُ حقاً؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: تلك الكلمةُ من الحقِّ يَخْطَفَها الجنيّ، فيقرقرُها [أي يردِّدُها] في أُذُنِ وليه، فيخلِطون معها أكثرَ من مائةِ كذبة»(١).

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن زيدِ بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ بالحديبية، على إثرِ سماءٍ كانت من الليل، فقال: أَتَدرون ماذا قالَ ربكم الليلة؟

قلنا: الله ورسولُه أعلم.

قال: أصبحَ مِن عبادي مؤمنٌ بي، وكافر بي، فمن قال: مُطِرْنا بفضْلِ الله ورحمته، فذلكَ مؤمنٌ بي، كافرٌ بالكوكب، ومَنْ قال: مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكوكب»(٢).

وروى مسلمٌ عن أبي مالك الأشعريِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: أربعٌ في أُمتى مِن أمْرِ الجاهلية، لا يَتركونَهن: الفخرُ في الأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاءُ بالأنواء، والنِّياحة»(٣).

وبما أنَّ عملَ العرافِ والكاهن حرام، والذهابَ إليه حرام، فقد جعلَ رسولُ الله ﷺ المالَ الذي يُقَدمُ له حراماً خبيثاً.

روى البخاري ومسلم عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ نَهى عن ثمنِ الكلب، ومَهْرِ البَغِيّ، وحُلْوانِ الكاهن»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٢١٠. ومسلم برقم: ٢٢٢٨.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٨٤٦. ومسلم برقم: ٧١.
(٣) أخرجه مسلم برقم: ٩٣٤.
(٤) أخرجه البخاري برقم: ٢٢٣٧. ومسلم برقم: ١٥٦٧.

ويدخلُ في حُلوان الكاهن كلُّ مال يقدَّمُ لعرافٍ أو كاهن أو منجم أو فَتَّاح أو حاجب، أو كلّ مَنْ يمارسُ عملاً من هذه الأعمال، فهذا المَالُ حرامٌ وسحتٌ وخبيث.

والدليلُ على ذلك ما رواه البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر غلامٌ يأكلُ من خراجه. فجاء يوماً بشيء، فأكَلَ منه أبو بكر!

فقال له الغلام: تَدري مِمَّ هذا؟

قال: وما هو؟

قال: كنتُ تكهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهلية، وما أُحسنُ الكَهانة، إلاَّ أنّي خدعْتُه، فلقيني، فأعطاني بذلك فهذا الذي أكَلْتَ منه.

فأدخَل أبو بكر يَدَه، فَقَاءَ كلَّ شيءٍ في بطنه!»[1].

وصناعةُ التنجيم تقومُ على زعم تأثيرِ النجوم والأبراج والأفلاك في الأرضِ وحوادثِها وما يجري عليها، وتأثيرِ النجوم والأبراجِ في حياةِ الإنسانِ وما يَجري له.

وهي صناعةٌ محرمةٌ بالكتابِ والسنة، بدليلِ النصوصِ السابقة التي أَوردْناها، ويجبُ أنْ يُمنعَ كلُّ من ادَّعى العلمَ بها من ممارستِها، وأنْ يُحَذَّرَ الناسُ منه.

من أصناف المخالفين للكتاب والسنة

والذينَ يفعلونَ الأفعالَ الخارجة على الكتابِ والسنة من المنجمين والعرّافين والكهنة والسحرة أنواع:

١ ـ نوعٌ منهم أهلُ تلبيسٍ وكذبٍ وخداع، يخدعون الآخرين ويَنْصبون عليهم، بهدفِ الحصولِ على أموالِهم وهؤلاء يجبُ أنْ يُمنعوا ويُعاقَبوا.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٨٤٣.

٢ ـ ونوعٌ منهم سحرة، يقومونَ بأعمالِهم على سبيلِ الجدّ، فيسحرون الآخرين بأنواعٍ من السحر.

والراجحُ أن الساحرَ إنْ قتلَ آخرَ قُتِلَ به قِصاصاً، وإنْ لم يَقْتُلْ يعاقَبْ ويُعَزَّرْ إنْ لم يكفر بسحره، فإنْ كفرَ بالسحر وجبَ قتلُه.

ومِن السحرِ مَنْ لا يكون له حقيقة، وإنما هو مجردُ تخييلٍ وخداعٍ، وإيهامٍ للمسحور وخطفٍ لبصره، ومنه ما يكونُ له حقيقة، ويحصلُ به الضرُّ بإذن الله!

ولا يجوز الاستعانةُ بالكواكبِ وغيرها، والتقربُ إليها بلباس أو خاتم أو بَخور، ودعاؤها والطلبُ منها، وهذا كفرٌ وشركٌ بالله.

ولا يجوزُ استخدامُ كلِّ رقية أو تَعْزيم أو قسم أو تميمةٍ فيها شركٌ بالله، أو استعانةٌ بالجن والكواكب.

ولا يجوزُ الاستعاذةُ بالجن والاستعانةُ بهم، والاتصالُ بالجن يَزيدُ صاحبَه رهقاً وتعباً ونصباً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

ويتبرأ الجنُّ منهم يومَ القيامة. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨].

٣ ـ ونوعٌ آخرَ يَدّعي العلمَ بالغيب، والكشفَ وتحديدَ المستقبل، ويزعمُ أنه من أولياءِ الله، وأنَّ له خوارق وكرامات.

ويُخاطبُ رجالاً من عالَم الغيب بلغاتٍ غريبة، يزعمُ أنهم من الملائكةِ أو الجن، وهو كاذبٌ في مزاعمه، فما هو إلاَّ من أتباعِ الشياطين، والذين يخاطبهم هم من الجن.

رد كل ما خالف الكتاب والسنة

وأعمالُ هؤلاء الأصنافِ الثلاثة مردودةٌ باطلة، لأنها تخالفُ الكتابَ والسنة، وتَخرجُ عن طريقِ رسول الله ﷺ، وكلُّ مَنْ خالَفَ الكتاب والسنة فكلامُهُ مردودٌ عليه.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عملَ عملاً ليس عليه أمْرُنا فهو رَدّ»[1].

وفي روايةٍ أخرى: «مَنْ أحدث في أمرِنا هذا ما ليس منه فهو ردّ».

إنه لا طريقةَ إلا طريقةَ الرسولِ ﷺ، ولا حقيقة إلاّ حقيقتُه، ولا شريعة إلا شريعتُه، ولا عقيدةَ إلاّ عقيدتُه، ولا يصلُ أحدٌ من الخلقِ بعدَه إلى الله ورضوانِه وجنتِه وكرامته، إلاّ بمتابعةِ الرسولِ ﷺ، ظاهراً وباطناً.

ومَنْ لم يكنْ مصدِّقاً للنبيِّ ﷺ فيما أخبر، ملتزماً لطاعتِه فيما أَمَرَ من الأعمالِ الظاهرة والباطنة، لم يكنْ مُؤمناً، فضلاً عَنْ أنْ يكونَ وليّاً لله، ولو طارَ في الهواء، ومشَى على الماء، وأنفقَ من الغيب، وأخرجَ الذهبَ من الجيب، ولو حَصَلَ له من الخوارق ما حصل.

إنه بتركِه الفعلَ المأمور، وارتكابِه الفعلَ المحظورَ لا يكونُ إلاّ مِن أهلِ الأحوالِ الشيطانية، المبعدةِ لصاحبها عن الله، المقربةِ إلى سخطِه وعذابه!

ومن اعتقدَ في هذا المخالفِ لطريقِ النبيِّ ﷺ أنه من أولياءِ الله، ويُفضِّلُه على متبعي طريقةِ رسولِ الله ﷺ فهو ضالٌّ مبتدع!

قال يونُس بنُ عبد الأعلى: قلتُ للشافعي: إنَّ صاحبَنا الليثَ بنَ سعد كان يقول: إذا رأيتُمُ الرجلَ يمشي على الماء فلا تعتبروا به، حتى تَعْرِضوا أمره على الكتابَ والسنة!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٩٧. ومسلم برقم: ١٧١٨.

فقال الشافعي: قَصَّرَ الليثُ رحمه الله بل: إذا رأيتم الرجلَ يَمشي على الماء، ويَطيرُ في الهواء، فلا تعتبروا حتى تعرضوا أمره على الكتابِ والسنة!!

ذاكرون مخالفون للكتاب والسنة

وبعضُ الناس يعتقدون الولاية في بعضِ البُلْهِ والسذج والمجانين، فقد يَرى أحَدُهم مجنوناً أبلَه ساذجاً، فيعتقد أنه وليٌّ لله، مع أنه قد يَسيرُ عارياً أو شبَه عار، ويكون قذرَ الملابس، منتنَ الرائحة، تاركاً لصلاةِ الجماعة، يتكلمُ بكلامٍ غيرِ مفهوم، يلحقُه الصبيان، فيسبُّهم ويشتمُهم، فيظنُّه بعضُهم ولياً من أولياءِ الله! وهذا ضلال.

ويَعتمدون على قول نسبوهُ للرسولِ ﷺ، فيزعمون أنه ﷺ قال: «اطلعْتُ على الجنة، فرأيْتُ أكثرَ أهلها البله».

مع أنَّ هذا لم يصحّ عن رسولِ الله ﷺ.

والحديثُ الصحيحُ هو ما رواه مسلمٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «اطَّلَعْتُ في الجنة، فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراء»[١].

وفرقٌ بين الفقراءِ الذين قد يكونونَ من أُولي الألباب، وبين البلهاءِ الذين فَقدوا الذكاءَ والفطنةَ والعقلَ السليم.

وإنَّ الله لم يجعل جنته للبلهاء والمجانين، وإنما جعلَها لأولي الألباب وأربابِ البصائر، الذين عَرفوا الله، وأحسنوا عبادته.

ومن الذين يخالفون الكتابَ والسنة، الذين يذكرونَ الله على أنغامِ آلاتِ العزف والموسيقى، والعزفُ على هذه الآلات محرمٌ في الإسلام، وسماعُها محرمٌ أيضاً.

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٧٣٧.

ومن ضلال وانحرافِ هؤلاء أيضاً أنهم يُصعقون ويتشنّجون عندما يذكرون الله، ويَفقدونَ عقولَهم ووعيَهم بزعمِ قربِهم من الله واتصالِهم به.

ولم يكن الصحابةُ والتابعون هكذا عندما يذكرونَ الله ويَقرءون القرآن. ولقد وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

ومن الذين يُخالفون الكتابَ والسنة أيضاً الذين يتعبدونَ بالرياضاتِ والأذكارِ والأوراد، في الزوايا والخلوات، ويعتزلونَ الناسَ والمساجد، ويتركون الجمعَ والجماعات، وهم يزعمون أنهم يُحسنون صنعاً.

وقد ذمَّ الرسولُ ﷺ كلَّ مَنْ تركَ الجمعَ والجماعات.

روى مسلمٌ عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم، عن رسول الله ﷺ قال: «لينتهيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِمُ الجُمُعات، أو ليختمنَّ الله على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ من الغافلين»[١].

كلُّ هؤلاء مخالفونَ للكتابِ والسنة، تاركون لطريقِ رسول الله ﷺ، وينطبقُ عليهم قولُ الإمام الطحاوي: «ولا مَنْ يَدّعي شيئاً يخالفُ الكتاب والسنة وإجماع الأمة».

نصوص في الاتفاق وترك الافتراق

[٨١]: «وَنرىٰ الجَماعَةَ حَقّاً وَصَواباً، وَالفُرْقَةَ زَيْغاً وَعذاباً».

الكلامُ عن جمعِ الأمةِ على الحق، وموافقةِ الجماعة على الصواب، وتركِ الفرقة لأنها زيغٌ وضلالٌ وعذاب.

وقد نهانا الله في القرآن عن الفرقةِ والاختلاف، وأمَرَنا أنْ نجتمعَ على الحق، ونعتصمَ بحبل الله.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ٨٦٥.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥].

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن افتراقِ هذه الأمة، كافتراقِ اليهود والنصارى.

روى أبو داود والترمذيُّ وابنُ ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «تفرقت اليهودَ على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثلُ ذلك، وتفترقُ أُمتي على ثلاثِ وسبعين»(١).

وروى أبو داود وأحمدُ عن معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أهل الكتابيْن افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإنّ هذه الأمةَ ستفترقُ على ثلاثِ وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلُّها في النار إلاَّ واحدة وهي الجماعة»(٢).

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٥٩٦. والترمذي برقم: ٢٦٤٠. وابن ماجه برقم: ٣٩٩١.
(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٤٥٩٧. وأحمد ٤:١٠٢.

وأخبرَنا الله أنه لا بدَّ أنْ يُلبسَ هذه الأمة شيعاً، ويُذيق بعضَهم بأسَ بعض. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وروى البخاريُّ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ: أنه قالَ لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أعوذُ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذُ بوجهك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هاتان أهون[1].

وقوع الفتنة في وقت مبكر

وقد وقعت الفتنة بين المسلمين في وقتٍ مبكّرٍ من تاريخهم، زمنَ الصحابة رضوانُ الله عليهم.

وكانت عائشةُ رضي الله عنها تقول: ما رأيتُ مثلَ ما رغبَتْ عنه هذه الأمةُ من هذه الآية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وقالَ الإمامُ الزهري: وَقَعت الفتنةُ وأصحابُ رسول الله ﷺ مُتوافرون، فأجْمَعوا على كلِّ دمٍ أو مالٍ أوْ فَرْجٍ أُصيبَ بتأويلِ القرآن فهو هدر، أنْزَلوهم منزلةَ الجاهلية.

وقد ذمَّ الله أهلَ الكتاب الذين اختلفوا بعدما جاءهم العلم. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

وأمرَ الله المسلمين بردِّ المتنازَع فيه بينهم إلى الله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٢٨.

وقد كانَ بعضُ الصحابة يختلفون في خلافةِ الصّدّيق وعمر رضي الله عنهما، ويَجتهدون اجتهاداتٍ مختلفة في بعضِ المسائل الفرعية، ومع هذا كان يُقِرُّ بعضُهم بعضاً، ولا يَعتدي بعضُهم على بعض.

وأدى الخلافُ والاختلافُ في عهدِ الصحابة إلى فُرقةٍ ونزاعٍ وخصام، فوقعَ الناسُ في الزيغِ والضلال والانحراف.

اختلاف التنوع واختلاف التضاد

والاختلافُ قد يكونُ اختلافَ تَنَوُّع، وقد يكونُ اختلافَ تضادّ.

واختلافُ التنوعِ قد يكونُ كلُّ واحدٍ من القولين فيه مشروعاً، كما في الاختلافِ في بعضِ المسائل الفقهية، في الأذانِ والإقامةِ والصلاة والصيام.

وقد يكونُ اختلافُ التنوع اختلافاً لفظياً في الألفاظ والعبارات، مع أنَّ المضمونَ والمعنى واحدٌ كالاختلاف في بعض التعريفات.

واختلافُ التضادِّ بأنْ يتضادَّ ويتناقضَ ويتنافى القولان، والأصلُ أن لا يكونَ هذا الاختلافُ موجوداً.

واختلافُ التنوعِ يكون مذموماً إذا بغى فيه المختلفون على بعضهم، وأدّىٰ هذا إلى الفرقةِ والنزاع والخصام بينهم.

وهو محمودٌ إذا لم يَبْغِ أحدُ المختلفين على الآخر، وإنما بقوا إخوةً متحابين متعاونين.

ومن هذا الباب اختلافُ الصحابة الطيب.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لَنا لما رجعَ من الأحزاب: «لا يُصلِّينّ أحدٌ العصرَ إلاَّ في بني قريظة».

فأدركَ بعضَهم العصرُ في الطريق. فقالَ بعضُهم: لا نصلّي حتى نأتيها. وقال بعضُهم: بل نُصلي، لم يُرَدْ منّا ذلك.

فذُكرَ ذلك للنبي ﷺ، فلم يُصَنِّفْ واحداً منهم»(١).

وهذا الخلافُ المحمودُ قائمٌ على الاجتهاد، وكلا المجتهدَيْن مصيب، أخطأ أم أصاب.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم، فأصابَ، فله أجْران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر»(٢).

أحد المختلفين مصيب والآخر مخطئ

وأحياناً لا يكونُ الفريقان المختلفان مصيبَيْن، وإنما يكونُ أحدُهما على صواب والآخرُ على خطأ، فالمصيبُ ما وافقَ الكتابَ والسنة والمخطئُ ما خالفَهما.

ومن هذا النوع قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

إنهما طائفتان مختلفتان: واحدةٌ مؤمنة فهي على الحق، وهي مصيبةٌ مأجورة، والأخرى كافرة، فهي على باطلٍ وضلال.

ومنه قولُه تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه كان يُقسمُ قَسَماً أنّ هذه ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلتْ في حمزةَ وصاحبيْه، وعُتبةَ وصاحبيْه، يومَ برزوا يومَ بدر(٣).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٩٤٦. ومسلم برقم: ١٧٧٠.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٧٣٥٣. ومسلم برقم: ١٧١٦.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٤٧٤٣. ومسلم برقم: ٣٠٣٣.

لقد برزَ حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ رضي الله عنهم يومَ بدر إلى ثلاثةٍ من الكفار، وهم شيبةُ بن ربيعة، وعتبةُ بن ربيعة، والوليدُ بن عتبة، فقتلوا الكفارَ الثلاثة.

فإحدى الطائفتيْن على صوابٍ لإيمانهم وإسلامِهم، والأخرى على خطأ وضلال لكفرهم وشركهم.

اختلاف في تنزيل القرآن وفي تأويله

واختلافُ فرق المسلمين في القرآنِ على نوعين:

الأول: اختلافٌ في تنزيله: فقالَتْ بعضُ الفرق: القرآنُ مخلوق، وقالتْ فرقةٌ أخرى: هو عبارةٌ عن كلام الله.

وقال أهلُ السنة: هو كلامُ الله غيرُ مخلوق، أنزله على رسولِه ﷺ.

الثاني: الاختلافُ في تأويله: وهو اختلافٌ في فَهْمِهِ وبيانِ معانيه، ومعظمُ المختلفين في تأويلِهِ آمنوا ببعضه وكَفَروا بالبعضِ الآخر.

وجميعُ أصحابِ البدع مختلفون في تأويله، يؤمنون ببعضِه دونَ بعض، يأخذون ما يوافقُ آراءهم وأهواءَهم من الآيات، ويَعتبرونَها من الآيات المحكمة، ويَردّون الآياتِ التي لا توافقُ أهواءهم، ويَعتبرونَها من المتشابه ويُحرفون الكلمَ عن مواضعه.

وقد ذمَّ رسولُ الله ﷺ الذين يختلفون في تأويلِ آياتِ القرآن، وأنكرَ عليهم ذلك.

روى مسلمٌ عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: هَجَّرْتُ إلى رسول الله ﷺ يوماً. فسمعَ أصواتَ رجليْن اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعْرَفُ في وجهِه الغضب. وقال: إنَّما هَلَكَ مَنْ كان قبلكم باختلافِهم في الكتاب»[1].

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٦٦.

وروى ابنُ ماجة وأحمدُ عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنه قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ على أصحابه يوماً، وهم يختصمون في القَدَر، هذا يَنزعُ بآية، وهذا ينزعُ بآية!

فكأنما فُقِئ في وجهه حَبُّ الرمّان! فقال: «أبهذا أُمِرْتُم؟ أمْ بهذا وُكلتم؟ أنْ تضربوا كتابَ الله بعضَه ببعض؟ انْظُروا ما أُمِرتم به فاتَّبعوه، وما نُهيتُم عنه فانْتَهوا»[(١)].

الإسلام هو دين الله

٨٢ : «وَدينُ الله في الأرْضِ والسَّماء واحِدٌ، وَهُوَ دينُ الإسلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾. وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾.. وَهُوَ بَيْنَ الغُلُوِّ والتَّقْصِيرِ، وَبَيْنَ التَّشْبيهِ وَالتَّعْطِيلِ، وَبَيْنَ الجَبْرِ وَالقَدَر، وبَيْنَ الأمْنِ والإياس».

دينُ الله هو الإسلام، وهو دينُ مَنْ في الأرض ومَنْ في السماء، وكلُّ نبيٍّ من السابقين جاءَ بالإسلام، وشرائعهُ وأحكامُه تتنوع وتختلفُ من نبيٍّ إلى نبي.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأكَّدَ هذا المعنى رسولُ الله ﷺ. فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابنِ مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياءُ إخوةٌ لِعلّات، أمهاتهم شَتّى، ودينُهم واحد»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم: ٨٥. وأحمد ٢: ١٨٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٤٣. ومسلم برقم: ٢٣٦٥.

والإسلامُ هو الدينُ الأخيرُ الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، والله اختارَهُ ورضيَهُ لنا ديناً، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والإسلامُ هو: ما شرعَهُ الله لعبادِه، على ألسنةِ رسله، وأصولُه وفروعُه موروثةٌ عن الرسل، وهو ظاهرٌ كلَّ الظهور، ميسَّرٌ كلَّ التيسير، يفهمه كلُّ مميز، سواء كانَ صغيراً أم كبيراً، وذكياً أمْ بليداً، وعربياً أم أعجمياً، يَدخُل فيه بالنطقِ بالشهادتين، ويخرجُ منه بإنكارِ ما وجبَ فيه من أركانه، أو نُطقِ كلمةِ الكفرِ والردة.

وكان الصحابيُّ عندما يُسلمُ يتعلمُ الإسلامَ بسهولةٍ من رسول الله ﷺ، وكان الرسولُ ﷺ يُرسلُ الرسلَ والدعاةَ إلى الناسِ في مختلف المناطق، فيتعلَّمون منهم الإسلامَ بسهولةٍ ويسر.

الإسلام وسط بين طرفين متقابلين

وهذا الإسلامُ وَسَطٌ «بين الغُلُوِّ والتقصير». والغلُوُّ هو التَّشدُّد والمبالغةُ والتنطُّع، وتحريمُ بعضِ المباحات، والتضييقُ والتعسير، والإسلامُ لا يقرُّ هذا.

والذي يقابلُ الغلوَّ هو التقصير، وهو التفريطُ والانفلاتُ والخروجُ عن الإطارِ الصحيح، وتحليلُ ما حرمَ الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

وروى مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: أنّ ناساً من أصحابِ رسول الله ﷺ، سألوا أزواجَ النبيِّ ﷺ عن عمله في السر؟

فقال بعضُهم: لا آكلُ اللحم! وقال بعضُهم: لا أتزوجُ النساء! وقال بعضهم: لا أنام على فراش!

فبلغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «ما بالُ أقوام يقولُ أحدُهم كذا وكذا؟ ولكنّي أصومُ وأُفطر، وأنامُ وأقوم، وآكلُ اللحم، وأتزوجُ النساء، فمَنْ رغبَ عن سنَّتي فليسَ مني»[١].

والإسلامُ وسط «بين التشبيهِ والتعطيل». وهذا في صفاتِ الله.

والتشبيهُ هو تشبيهُ لله بخلْقِه، كأن يقال: لله سَمْعٌ كسمْعِنا، وبصرٌ كبصرنا، ويدٌ كأيدينا.

والتعطيلُ هو المقابلُ للتشبيه، وهو أنْ ينفيَ صفاتِ الله بحجةِ ترك التشبيه والتجسيم.

والصوابُ هو أنْ نصفَ الله بما وصفَ به نفسَه، ووصفَه به رسولُه ﷺ، مع تنزيهه سبحانه عن مشابهةِ المخلوقين، والالتزام بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والإسلامُ وَسَطٌ «بين الجبرِ والاختيار»: فالإنسانُ ليس مجبوراً على أفعالِه مطلقاً، ولا هو خالقٌ لها مطلقاً. وأفعالُه هي خلْقُ الله، وكسْبُه هو.

والإسلامُ وَسَطٌ «بين الأمنِ والإياس» فالإنسانُ يجبُ أنْ يكونَ خائفاً من عذاب الله، راجياً رحمته وجنته، فالخوفُ والرجاءُ بمنزلةِ الجناحين للطائر.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٤٠١.

البراءةُ من فرق الضلالة

٨٣ : «فَهٰذا دينُنا وَاعْتِقادُنا، ظاهِراً وباطِناً، وَنَحْنُ بَراءٌ إلى الله تعالى مِنْ كُلِّ مَنْ خالَفَ الذي ذَكَرناهُ وَبَيَّنَاهُ.

وَنَسْأَلُ الله تَعالى أنْ يُثَبِّتَنا على الإيمان، وَيَخْتِمَ لَنا بِهِ، وَيَعْصِمَنا مِنَ الأهْواءِ المُخْتَلِفَة، والآراء المُتَفَرِّقة، والمذاهِبِ الرَّدِيَّة، مِثْلِ: المُشَبِّهَة، والمُعْتَزِلَةِ، وَالجَهْمِيَّةِ، والجَبْرِيَّةِ، وَالقَدَرِيَّةِ، وَغَيْرِهِمْ، مِنَ الذين خالفوا الجَماعَة، وَحالَفوا الضَّلالة، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بَراء، وَهُمْ عِنْدَنا ضُلّالٌ وَأرْدِياء، وَبالله العِصْمَةِ وَالتَّوْفِيقُ».

المسائلُ السابقةُ التي طَرَحها الإمامُ الطحاوي هي عقيدةُ أهل السنة، وأساسُ دينهم وإيمانهم، يعتقدونَها ويُؤمنون بها ظاهِراً وباطناً، وتَبْرَءون إلى الله مِن كلِّ مَنْ خالَفَها مِن أصحابِ الفرق الكلامية المختلفة، وأصحابُ الفرق هؤلاء مُتَّبِعون لأهوائِهم وأباطيلهم، مخالفونَ لمذهبِ أهلِ السنة، مُتحالفون مع الضلال والانحراف.

ومن أصحابِ الفرقِ المنحرفة التي ذكَرها الإمامُ الطحاوي:

١ ـ المُشَبِّهَة: وهم الذين شَبَّهوا الله سبحانه بالمخلوق، وجَعَلوا له سَمْعاً كسَمْعِنا، وبَصَراً كبصرنا، ووَجْهاً كوجْهِنا.

٢ ـ المعتزلة: وقد سُمّوا بذلك لاعتزالِهم الجماعة، وكان بَدْءُ أمْرِهم على يدِ عمرو بن عبيد وواصِلِ بن عطاء.

ومذهبُهم يقومُ على خمسةِ أُصول، هي: التوحيدُ، والعدلُ، وإنفاذُ الوعيد، والمنزلةُ بين المنزلتين، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

٣ ـ الجَهْمِيَّة: هم أتباعُ جَهْم بنِ صفوان الترمذي، ومذهبُم يقومُ على نفي صفاتِ الله وتعطيلِها.

٤ ـ الجَبْرِيَّة: وهم الذين يَرونَ أنَّ الإنسانَ مُسَيَّرٌ مُكْرَهٌ مَجْبور على أقوالِهِ وأعماله، ليس له فيها يدٌ ولا مكسب ولا إرادةٌ ولا اختيار.

٥ ـ القدرية: وهم عكسُ الجبرية، وهم يرونَ أنَّ الإنسانَ هو الخالقُ

لأفعاله، وأنَّ الله لا دخْلَ له بها، فما يريدُ الإنسان ويحصِّلُه هو الحاصلُ الواقع.

وأصحابُ الأهواء هؤلاء من رجالِ الفرق المختلفة، إنما ظهَرت أقوالُهم ومذاهبُهم وبدعُهم بسبب الفتنِ الشديدة، التي وقعتْ بين المسلمين.

قالَ سعيدُ بن المسيب: وَقعت الفتنةُ الأُولى - يعني مقتل عثمان - فلم تُبْقِ من أصحابِ بدرٍ أحَداً. ثم وقعت الفتنةُ الثانية - يعني الحَرَّة - فلم تُبقِ من أصحابِ الحديبية أحداً. ثم وقعت الثالثة، فلم ترتفعْ وللناسِ طَباخ، أي: ليس لهم عَقْلٌ ولا قُوة.

فالخوارجُ والشيعةُ حَدَثوا في الفتنة الأولى، والقدريةُ والمرجئةُ في الفتنة الثانية، والجهميةُ ونحوُهم في الفتنة الثالثة.

سبب ضلالة الفرق مخالفة الكتاب والسنة

صارَ هؤلاء الذين فَرَّقوا دينَهم وكانوا شيعاً، يقابلون البدعةَ بالبدعة. فالشيعةُ غَلَوْا في عليّ، والخوارجُ غَلَوْا في تكفيره. والمعتزلةُ غَلَوا في الوعيد، حتى خَلَّدوا بعضَ الموحدين المذنبين في النار. والمرجئةُ غَلَوْا في الوعد، حتى نَفَوْا الوعيدَ والتهديدَ لأهل التوحيدِ. والمعطلةُ غَلَوْا في التنزيه حتى عَطَّلُوا صفاتِ الله، والمجسّمةُ غلَوْا في الإثبات، حتى جَسَّموا ذاتَ الله، وشبَّهوهُ بخلقه، في ذاتِه وصفاتِه وأفعاله.

وسببُ ضلالِ وانحرافِ هؤلاء هو عدولُهم عن الصراط المستقيم، الذي أمَرَنا الله باتباعه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

روى الدارميُّ وأحمدُ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ

لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً، وقالَ: هذا سبيلُ الله، ثم خَطَّ خُطوطاً عن يمينِه وعن يَسارِهِ، وقال: «هذِهِ سُبُلٌ، على كلِّ سبيلٍ شيطانٌ يَدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[1].

المؤمن يخشى الضلالة ويسأل الله الهداية

وبسبب وجودِ الفرقِ المنحرفة عن سبيل الحق، فإنَّ العبدَ الصالحَ يخشى على نفسهِ الضلال والانحراف، ومتابعةَ تلك الفرق، ويُقبلُ على الله، ويسألهُ الهدايةَ إلى الصراط المستقيم، والثباتَ عليه.

ومِن حِكَم فرضِ قراءةِ الفاتحة في كلِّ ركعةٍ في الصلاة، تذكُّرُ هذه الحقيقة، فيدْعو المؤمنُ المصلّي ربَّهُ قائلاً: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وأخبرنا رسولُ الله ﷺ أنَّ المغضوبَ عليهم هم اليهود، والضالّين هم النصارى.

روى الترمذيُّ وأحمد عن عَدِيِّ بن حاتم رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالون»[2].

كما أخبرَنا ﷺ أنَّ فِرَقاً من هذه الأمة سَتُتَابعُ وتقلِّدُ اليهودَ والنصارى في انحرافاتهم.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كانَ قبلكم، شِبراً بشبرٍ، وذِراعاً بذراعٍ، حتى لو دَخلوا جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه.

---

(١) أخرجه الدارمي ١: ٦٧. وأحمد ١: ٤٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٢٩٥٤. وأحمد ٤: ٣٧٨.

قالوا: يا رسولَ الله: اليهودُ والنصارى؟

قال: فمن؟»[١].

أي: همُ اليهودُ والنصارى، فإنْ لم يكونوا هم فمن يكونُ غيرهم؟

كان انحرافُ اليهودِ عن علم، ولهذا غضبَ الله عليهم، ومن انحرف من أهلِ العلم من هذه الأمة تابعَ اليهود وقلَّدَهم، بينما كانَ انحرافُ النصارى عن جهل، ولهذا ضلّوا، ومَن انحرفَ من العُبّادِ من هذه الأمة تابعَ النصارى وقلَّدهم.

وكلُّ مَنْ خالَفَ الكتابَ والسنة، وفَهْمَ سلفِ الأمة، كانَ على ضلال، وكلامُه مردودٌ عليه.

والنجاةُ بالتزامِ الكتابِ والسنة، وفهمِ سلف الأمة، وتركِ كلامِ أصحاب الفرق المختلفة، وبالله العصمة والتوفيق.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٥٦. ومسلم برقم: ٢٦٦٩.

الخاتمة

بهذا ننهي ما قدَّرَهُ الله لنا من هذه القَبَساتِ السَّنِيَّة من شرح العقيدة الطحاوية.

وبهذا نقدمُ خلاصةَ وزبدةَ هذا الشرحِ الطيبِ الذي صاغَه الإمام عليُّ بن عليٍّ بن أبي العِزِّ الحنفي، نقدمُها للمسلمين المعاصرين، ليتَعَرَّفوا منها على عقيدتِهم ومسائِلِ إيمانهم، ويتعلّموا منها العلمَ النافع.

وجَزى الله خيراً الإمامَ أبا جعفر أحمدَ بن محمد الطحاوي، الذي كتبَ هذه الرسالةَ القيمةَ في العقيدة.

وجزى الله خيراً الإمامَ أبا الحسن عليَّ بن علي الحنفي، الذي كتبَ هذا الشرحَ النافعَ الممتعَ لرسالة الطحاوي.

وجزى الله خيراً الأستاذَ الباحثَ المحققَ الشيخَ شعيب الأرناؤوط، الذي خدمَ هذا الشرح خدمةً علميةً عالية ـ كعادتِه في خدمةِ كتب العلم وحسنِ تحقيقها وإخراجِها ـ حيث أَحسَنَ وأجادَ في تحقيقِ هذا الشرحِ والتعليقِ عليه وتخريج أحاديثه.

وهذا ما اجتهدتُ فيه من هذه القبسات، خدمةً للمسلمين المعاصرين، فإنْ أصبتُ فمن الله وأحمدُه وأشكرُه على ذلك، وإنْ أخطأتُ فمن نفسي الضعيفة المخطئة وأستغفرُ الله من ذلك.

وأدعوا القراءَ الكرام إلى أخذِ الصوابِ الذي يجدونَه، وتركِ الخطأ الذي يَقفون عليه، فما أُريدُ إلاّ الإصلاحَ ما استطعت، وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكلتُ، وإليه أُنيب.

وإلى الله أتوجَّهُ بهذا العمل، راجياً منه القَبولَ، والثواب، والحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحات.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وكان الفراغُ من هذه القبسات صباحَ يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ألف وأربعمائة وثماني عشرة للهجرة، الموافق للثلاثين من شهر تشرين أول عام ألف وتسعمائة وسبعة وتسعين للميلاد.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
ترجمة الإمام الطحاوي	١٣
ترجمة الإمام ابن أبي العز الحنفي	١٥
أهمية العلم بأصول الدين	١٧
النجاة في اتباع القرآن	١٨
الالتزام بفهم الصحابة والتابعين	١٩
أقوال في ذم علم الكلام	٢١
الله واحد لا شريك له	٢٢
أنواع التوحيد الثلاثة	٢٣
توحيد الربوبية والفطرة	٢٤
دليل التمانع على توحيد الربوبية	٢٥
الكفار يرفضون توحيد الألوهية	٢٦
فطر الله الناس على توحيده	٢٨
توحيد الألوهية هو الأساس	٢٩
معنى قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟	٣٠
تقرير القرآن لتوحيد الألوهية	٣١
فساد الكون بوجود إلهين	٣٢
المخلوق ليس إلهاً ولا رباً	٣٣
نوعان آخران للتوحيد	٣٤
الشهادة لله بالوحدانية	٣٦
ثلاث طرق للاستدلال على الوحدانية	٣٧
أيد الله رسله بالمعجزات	٣٨
الله المؤمن المصدق لرسله وأوليائه	٤٠

الموضوع	الصفحة
الاستدلال بأسماء اللّه على وحدانيته	٤٠
الخلاصة في توحيد الألوهية	٤٢
اللّه لا شيء مثله	٤٣
انحراف أهل التجسيم وأهل التعطيل	٤٤
الآية الأصل في صفات اللّه	٤٤
الفرق بين وصف اللّه ووصف الإنسان	٤٥
الفرق بين علم اللّه وعلم الإنسان	٤٦
لا مماثلة بين الخالق والمخلوق	٤٨
العجز عن إدراك كيفيات صفات اللّه	٤٨
تقريب نعيم الجنة بألفاظ معروفة	٤٩
صفات اللّه بدون تكييف ولا تعطيل	٥٠
لا شيء يعجز اللّه	٥١
نفي النقص عن اللّه لإثبات كماله	٥٢
النفي المجمل والإثبات المفصل	٥٣
وجوب استعمال كلمات الكتاب والسنة	٥٤
لا إله إلا اللّه	٥٤
اللّه: الأول والآخر والظاهر والباطن	٥٦
القديم: ليس من أسماء اللّه	٥٧
اللّه: باقٍ لا يفنى	٥٨
اللّه فعال لما يريد	٥٩
إرادة اللّه نوعان	٥٩
آيات في الإرادتين	٦٠
الذي أراده اللّه من المؤمن والكافر	٦١
الأفهام لا تدرك اللّه	٦٢
اللّه لا يشبه خلقه	٦٢
نفاة صفات الكمال ليسوا من أهل السنة	٦٤
اللّه: الحي القيوم	٦٥
الحي القيوم: أساس أسماء الله	٦٦
اللّه غني عن العالمين	٦٧
يميت الناس ويبعثهم	٦٨

الموضوع | الصفحة

صفات الله أزلية أبدية ٦٩
الصفات عين الذات والأدلة ٧٠
الاسم هو المسمى ٧١
الله الخالق الباري ٧٢
كان الله ولم يكن شيء قبله ٧٤
رب خالق قبل خلق العالمين ٧٥
هو على كل شيء قدير ٧٥
ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ٧٦
الله له المثل الأعلى ٧٧
شمول علم الله ٧٩
عنده أقدار وآجال العالمين ٨٠
الأَجل بين الأسباب والمسببات ٨١
العمر بين المحو والإثبات ٨٢
طلاقة مشيئة الله وإرادته ٨٣
المشيئة الكونية والشرعية ٨٤
احتجاج آدم وموسى في القدر ٨٥
الله يهدي ويضل ٨٧
الله ليس له شبيه ولا مثيل ٨٨
محمد رسول الله ﷺ ٨٩
من الأدلة على إثبات النبوة ٩٠
هرقل يتثبت من دلائل النبوة ٩٢
الفرق بين النبي والرسول ٩٦
محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ٩٧
محمد سيد المرسلين ٩٨
التفضيل بين الرسل: جوازاً ومنعاً ٩٩
محمد حبيب الله وخليله ١٠٠
محمد رسول الله للإنس والجن ١٠٢
نصوص في عموم بعثته للعالمين ١٠٣
القرآن كلام الله غير مخلوق ١٠٤
كلام الله بما يليق بجلاله ١٠٥

الموضوع	الصفحة
تكليم اللّه لبعض خلقه	١٠٦
القرآن بعض كلام اللّه	١٠٧
نقض بدعة خلق القرآن	١٠٨
القرآن كلام اللّه وليس عبارة عن كلام اللّه	١١٠
أنزل اللّه القرآن على رسوله وحياً	١١١
رد بدعة الكلام النفسي للقرآن	١١٢
إعجاز القرآن	١١٤
صفات اللّه ليس كصفات البشر	١١٤
رؤية اللّهِ في الجنة حق	١١٥
آيات تنص على الرؤية	١١٦
نقض حجة من نفوا الرؤية	١١٨
معنى عدم إدراك الأبصار لله	١١٩
أحاديث صحيحة في الرؤية	١٢٠
اللّه لا يُرى في الدنيا	١٢٣
الراجح أن الرسول لم ير ربه	١٢٤
رؤية اللّه بدون إحاطة	١٢٥
وجوب اعتماد صحيح الحديث	١٢٦
وجوب التسليم للنص الثابت	١٢٧
حيرة وشك من خالف الكتاب والسنة	١٢٨
ذم المجادلين بالباطل المتبعين للهوى	١٢٩
البقاء مع الكتاب والسنّة وفهم سلف الأمة	١٣١
ذم علم الكلام وأصحابه	١٣٢
علماء يندمون على الخوض في علم الكلام	١٣٣
علماء يذمون علم الكلام	١٣٥
عدم تأويل رؤية الله	١٣٦
الهاربون من التجسيم إلى التعطيل	١٣٧
ثلاثة معانٍ للتأويل	١٣٨
تأويل الخبر وقوعه	١٣٩
تأويل الكلام: تفسيره وبيانه	١٤٠
التأويل: صرف اللفظ	١٤٢

الموضوع | الصفحة

الحذر من تعطيل صفات الله وتجسيمها ١٤٣
الآية الأساس في تنزيه الله ١٤٤
عدم تجسيم الله وحصره وتحديده ١٤٥
إثبات صفات الله بدونِ تكييف ولا تأويل ١٤٦
الله لا تحويه جهة مخلوقة ١٤٧
الإسراء والمعراج مرة يقظة ١٤٨
الرسول لم ير ربه ليلة المعراج ١٥٠
الإسراء والمعراج في حديث صحيح ١٥١
الحوض خاص بالنبي في الآخرة ١٥٤
شفاعة الرسول العظمى بفتح باب الحساب ١٥٦
وللرسول سبع شفاعات أخرى ١٥٨
شفاعة الرسول للعُصاة أربع مرات ١٦٠
التوسل بالرسول في حياته وبعد وفاته ١٦٤
التوسل إلى الله بصالح العمل ١٦٥
الميثاق على الناس وعهد الفطرة ١٦٦
علم الله أزلي أبدي شامل ١٦٨
كل ميسر لما خلق له والحديث ١٦٩
الأعمال بالخواتيم ١٧٠
كل شيء بقدر الله ١٧٢
آيات في طلاقة مشيئة الله ١٧٣
الفرق بين الإرادة والمحبة ١٧٤
الله قد يريد ما يكرهه ١٧٦
خمس حكم من خلق إبليس ١٧٦
محبة الخير وكره الشر ١٧٨
الحذر من التعمق في القدر ١٧٨
ترك كلام المتكلمين في القدر ١٨٠
العلم الموجود والعلم المفقود ١٨٢
الإيمان باللوح والقلم الغيبيين ١٨٢
الأقلام الأربعة ١٨٣
لا راد لما أراد الله ١٨٥

الموضوع	الصفحة
خشية الله وطلب مرضاته	١٨٧
الله علم كل شيء وقدره تقديراً	١٨٩
وجوب الإيمان بالقدر	١٩١
قلب الخائض في القدر مريض	١٩٢
عرش الله وكرسيه	١٩٤
العرش والكرسي حقيقيان	١٩٦
الله مستغن عن كل شيء	١٩٧
استواء الله على عرشه كما يليق به	١٩٩
نصوص في فوقية الله	٢٠٠
نصوص في علو الله	٢٠١
أحاديث في علو الله	٢٠٣
علو الله وفوقيته كما يليق به	٢٠٥
خليل الله وكليم الله	٢٠٦
نصوص في أركان الإيمان	٢٠٧
الإيمان بالملائكة	٢٠٩
من أصناف الملائكة وأعمالهم	٢١٠
المفاضلة بين الملائكة والصالحين	٢١١
الإيمان بالرسل	٢١٢
الإيمان بالكتب	٢١٣
أهل القبلة مسلمون	٢١٤
عدم التوسع في الكلام عن صفات الله	٢١٥
عدم المراء والاختلاف في القرآن	٢١٦
جمع القرآن زمن عثمان	٢١٧
عدم تكفير مرتكب الكبيرة	٢١٨
تكفير المنافقين والمرتدين	٢٢٠
الذنب يضر صاحبه	٢٢٠
الاحتياط في تكفير المعين	٢٢١
نجاة مذنبين نادمين	٢٢٣
أحاديث في كفر بعض الأفعالَ والأقِوال	٢٢٥
الكبيرة ليست كفراً	٢٢٦

الموضوع | الصفحة

اختلاف لفظي في حقيقة الإيمان ٢٢٨
رجاء الرحمة وخوف العذاب ٢٣٠
أحد عشر سبباً لسقوط العقوبة ٢٣٢
التوازن بين الخوف والرجاء ٢٣٤
ما هي حقيقة الإيمان؟ ٢٣٥
معرفة القلب لا تكفي في الإيمان ٢٣٦
أحاديث في اعتبار العمل من الإيمان ٢٣٩
نصوص في زيادة الإيمان ونقصانه ٢٤١
عطف العمل على الإيمان ومراتب العطف ٢٤٢
الفرق بين الإسلام والإيمان وحديث جبريل ٢٤٥
آيات وأحاديث في الفرق بين الإسلام والإيمان ٢٤٧
الاستثناء في الإيمان بين الجواز والمنع ٢٤٨
وجوب قبول كل ما صح من الأحاديث ٢٤٩
الأدلة على قبول خبر الواحد ٢٥٠
المؤمنون أولياء الله ٢٥٣
الإيمان والتقوى شرط الولاية ٢٥٤
أركان الإيمان الستة ٢٥٥
الإيمان بالقدر: كل شيء بقدر الله ٢٥٧
لا ينسب الشر إلى اللّه ٢٥٨
من آثار الإيمان بالقدر عند المسلم ٢٥٩
مصير أهل الكبائر ٢٦٠
الذنوب صغائر وكبائر ٢٦١
المذنبون إلى اللّه ٢٦٢
الصلاة وراء كل فاجر ٢٦٣
الموقف من الإمام الفاجر ٢٦٤
الصلاة على أموات المسلمين ٢٦٦
نرجو للصالحين الجنة ٢٦٧
عدم الخروج على الأئمة ٢٦٩
نصوص في السمع والطاعة ٢٧٠
لا طاعة في الأمر بالمعصية ٢٧٢

الموضوع الصفحة

متابعة الجماعة وترك الفرقة ٢٧٣
محبة الصالحين وبغض الظالمين ٢٧٥
الله أعلم بالمتشابه ٢٧٦
المسح على الخفين والرد على الشيعة ٢٧٨
الحج والجهاد مع ولي الأمر ٢٧٨
نصوص في الملائكة الكاتبين ٢٧٩
يكتبون كل ما يصدر عن الإنسان ٢٨٠
ملك الموت الموكل بقبض الأرواح ٢٨١
الفرق بين الروح والنفس ٢٨٢
ثلاث صفات للنفس ٢٨٣
الإيمان بنعيم القبر وعذابه ٢٨٤
عذاب القبر في القرآن والحديث ٢٨٦
حديث مطول في نعيم القبر وعذابه ٢٨٧
ثلاث دور للإنسان ٢٩٠
النعيم والعذاب للروح والجسد ٢٩١
الشهداء أحياء وأرواحهم في الجنة ٢٩١
الإيمان بمشاهد الآخرة ٢٩٣
كل نبي قرر الآخرة ٢٩٤
من الأدلة القرآنية على البعث ٢٩٦
الحشر والسوق للحساب ٢٩٨
نصوص في العرض والحساب ٢٩٨
صعق الناس في ساحة العرض ٣٠٠
المرور على الصراط ٣٠١
الميزان وحديث البطاقة ٣٠٢
وزن الأعمال والأشخاص في الآخرة ٣٠٤
لماذا الميزان يوم القيامة؟ ٣٠٥
الجنة والنار مخلوقتان موجودتان ٣٠٥
الجنة والنار لا تفنيان ولا تبيدان ٣٠٨
أحاديث في عدم فناء الجنة والنار ٣١٠
أهل النار صنفان ٣١٠

الموضوع | الصفحة

هداية الله العامة والخاصة ٣١١
العقلاء ثلاثة أصناف ٣١٢
الاستطاعة شرط التكليف ٣١٣
محاسبة الإنسان على تركه الواجب القادر عليه ٣١٥
أفعال الناس: بين خلق الله وكسبهم ٣١٦
خلق أفعال العباد بين الأسباب والمسببات ٣١٨
آيات في الموازنة بين خلق الله وكسب العبد ٣١٩
أفعال العبد إرادية ولا إرادية ٣٢٠
لم يكلف الله الناس إلا ما يطيقون ٣٢١
حول الآيات الأخيرة من سورة البقرة ٣٢٣
يسر التكليف وسهولته ٣٢٤
الكوني والشرعي في قضاء الله وقَدَره ٣٢٦
تنزيه الله عن الظلم ٣٢٧
الله عادل مع الكفار رحيم بالمؤمنين ٣٢٩
انتفاع الأموات بدعاء الأحياء ٣٣١
الأدلة على وصول الثواب للأموات ٣٣٢
مناقشة من منعوا وصول الثواب للأموات ٣٣٤
الله يستجيب الدعاء ٣٣٥
الدعاء نافع لصاحبه ٣٣٦
لا غنى لأحد عن الله ٣٣٨
الله يغضب ويرضى ليس كالناس ٣٣٩
وجوب محبة الصحابة والثناء عليهم ٣٤٠
أحاديث في فضائل الصحابة ٣٤٢
حب الصحابة بدون إفراط أو تفريط ٣٤٤
الخلفاء الراشدون المهديون ٣٤٥
إشارة الرسول إلى استخلاف الصديق ٣٤٥
من الأحاديث في فضل الصديق ٣٤٧
استخلاف عمر وبعض فضائله ٣٤٩
استخلاف عثمان وبعض فضائله ٣٥٠
رواية البخاري لاستشهاد عمر ٣٥١

الموضوع	الصفحة
مع عمر في ساعات احتضاره	٣٥٣
وصية عمر قبل وفاته	٣٥٤
مداولات ابن عوف في استخلاف عثمان	٣٥٥
استخلاف علي والفتن في عهده	٣٥٦
من فضائل علي والخلفاء الراشدين	٣٥٧
العشرة المبشرون بالجنة	٣٥٩
ضلال الشيعة في موقفهم من العشرة	٣٦١
وصية الرسول بأهل بيته	٣٦٢
حسن النظر إلى علماء السلف	٣٦٤
الأنبياء أفضل من الأولياء	٣٦٤
من هم أولياء الله	٣٦٦
الإيمان بأشراط الساعة	٣٦٨
التحذير من الكهنة والعرافين	٣٧٠
من أصناف المخالفين للكتاب والسنة	٣٧٢
رد كل ما خالف الكتاب والسنة	٣٧٤
ذاكرون مخالفون للكتاب والسنة	٣٧٥
نصوص في الاتفاق وترك الافتراق	٣٧٦
وقوع الفتنة في وقت مبكر	٣٧٨
اختلاف التنوع واختلاف التضاد	٣٧٩
أحد المختلفين مصيب والآخر مخطئ	٣٨٠
اختلاف في تنزيل القرآن وفي تأويله	٣٨١
الإسلام هو دين الله	٣٨٢
الإسلام وسط بين طرفين متقابلين	٣٨٣
البراءة من فرق الضلالة	٣٨٥
سبب ضلالة الفرق مخالفة الكتاب والسنة	٣٨٦
المؤمن يخشى الضلالة ويسأل الله الهداية	٣٨٧
الخاتمة	٣٨٩
المحتوى	٣٩١